

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



893.7K 84

DK5

v. 16

الطبعة الأولى بطبعـة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

v. 16

فهرس الجزء السادس عشر

سورة الشورى

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « حمد و عشق » و بيان ما جاء في معنى هذه الحروف ... ١
تفسير قوله تعالى : « تكاد السموات يتغطرن من فوقهن ... » الآيات . الكلام على معنى استغفار الملائكة للمؤمنين ٤
تفسير قوله تعالى : « فاطر السموات والأرض ... » الآيات . القول في معنى « ليس كمثله شيء » ٧
تفسير قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ... » الآيات . بيان ما شرعه الله لعباده ٩
تفسير قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب ... » الآيات . اختلاف العلماء في معنى « الميزان » ١٥
تفسير قوله تعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ... » الآيات . معنى لطف الله بعباده . وأن في تفضيل قوم بالمال حكمة ١٦
تفسير قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ... » الآية . القول في حرث الآخرة وحرث الدنيا ١٨
تفسير قوله تعالى : « ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا ... » الآية . الكلام على قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربي » وهل الخطاب لقريش أو لغيرهم . وهل « القربي » هنا قرابة الرسول أو التقرب إلى الله تعالى بالطاعة . بيان ما ورد في حب آل البيت . اختلاف العلماء في سبب نزول هذه الآية ٢٠
تفسير قوله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده ... » الآية . فيه مسألتان : الأولى — سبب نزولها . الثانية — بيان أن أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يجب على الله الاستصلاح ٢٧

فهرس الجزء السادس عشر (د)

صفحة

- ٢٨ تفسير قوله تعالى : « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما فنطوا ... » الآيات .
- ٣٠ تفسير قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فما كسبت أيديكم ... » الآيات .
- ٣٢ القول في أن معاishi الانسان سبب في مصائبها
- ٣٥ تفسير قوله تعالى : « ومن آياته الجواري في البحر كالاعلام ... » الآيات
- ٣٦ تفسير قوله تعالى : « والذين يختبئون بعذاب الإثم ... » فيه مسائلان : معنى بعذاب الإثم . سبب نزول هذه الآية
- ٣٧ تفسير قوله تعالى : « والذين استجاوا لربهم ... » الآية . فيه ثلاثة مسائل : من هم الذين استجاوا إلى الإيمان بالرسول . الكلام في الشورى وما ورد فيها من آثار...
- ٤٠ تفسير قوله تعالى : « والذين إذا أصابهم البغي ... » الآيات . فيه إحدى عشرة مسألة : القول في الانتصار من الباغي ، وبيان حد الانتصار . جعل الله تعالى المؤمنين صنفين : صنف يغفو عن الظالم ، وصنف ينتصر من ظالمه . بيان أن العفو من الأعمال الصالحة . بيان أن المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لومه . بيان الحقوق التي يجب فيها الانتصار . اختلاف العلماء في السلطان يضع على أهل بلد مالا معلوما يؤدونه على قدر أموالهم ؟ هل من قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل . اختلافهم في التحليل من المال والعرض . هل تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم ، بيان أن العفو من دوبي إليه ، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو من دوبي إليه
- ٤٤ تفسير قوله تعالى : « وترام يعرضون عليها خاشعين من الذل ... » الآية . بيان أن المشركين تعرض عليهم ذوبهم في قبورهم . ما يقوله المؤمنون في الجنة حين يعاينون ما حل بالكافار
- ٤٨ تفسير قوله تعالى : « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ... » الآيات . فيه أربع مسائل : بيان أن من يُمْنَن المرأة تبكيها بالآتني قبل الذكر . معنى « أو يزوجهم ذكرانا وإناثا » . معنى العقيم . قول العلماء : إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أخواله وأذكرا . وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أعمامه وأناثا . أقوال العلماء في توريث الخنزير

تفسير قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحينا ... » الآية . فيه
مسألتان : سبب نزول الآية . اختلاف العلماء في الرجل يختلف ألا يكلم فلانا

فکرت إلهه کایا او ارسل إلیه رسولا ۵۲

تفسير قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... » الآيات . فيه أربع مسائل : معنى « روحًا » . القول في عصمة الأنبياء قبل النبوة . هل كان نبينا صلى الله عليه وسلم متبعداً بدين قبل الوحي أم لا . اختلاف العلماء في تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِعْلَانُ »

سورة الزخرف

الآيات . هل المراد بالكتاب جميع الكتب أم القرآن ٦١

^{٦٣} تفسير قوله تعالى : « وَكُمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ... » الآيات

تفسير قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ... » الآيات .
بيان أن الكفار إذا سئلوا عن الخالق أفتروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه

تفسير قوله تعالى : «والذى خلق الأزواج كلها ...» الآيات . فيه خمس
مسائل : اختلاف العلماء في معنى «الأزواج» . ما يقوله الراكب إذا ركب

٦٥ دابة أو سفينة

تفسير قوله تعالى : « وجعلوا له من عباده جزءا ... » الآية . بيان أن الكفار أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى ثم جعلوا له شريكا أو ولدا .

⁷⁹ اختلافهم في معنى «جزءاً» ...

تفسير قوله تعالى : « أَوْ مَنْ يَنْشأُ فِي الْحَلْيَةِ ... » الآيات . فيه مسألتان : معنى « ينشأ » . المراد بالحلية . الرد على الكفار وبيان جهلهم في نسبة الأولاد إلى

الله سبحانه، ثم في تحكيمهم بأن الملائكة إناث وهم بنات الله...

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ... » الآيات . فيه
مسائلان : معنى « على أمة » . الدليل على إبطال تقليد الكفار لآبائهم ...
74
- تفسير قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : معنى
الكلمة الباقية في عقب إبراهيم عليه السلام . أقوال العلماء في معنى « العقب »
وأن هذه الكلمة ترد على أحد عشر لفظا ...
76
- تفسير قوله تعالى : « بل متعت هؤلاء وآباءهم ... » الآيات . بيان أن الله تعالى
مَّتع الكفار بالإهمال في الدنيا . تعنتهم وتمنيهم أن ينزل القرآن على أحد رجلين
منهم . من هو أحد الرجلين ...
82
- تفسير قوله تعالى : « ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة ... » الآية . فيه خمس
مسائل : ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها عند الله تعالى . أقوال العلماء
في « سقفاً ومعارج » وما فيهما من اللغات . استدلال العلماء بهذه الآية على
أن السقف لاحق فيه لصاحب العلو واحتلافهم في السفل . ذكر شيء من
أحكام العلو والسفل ...
84
- تفسير قوله تعالى : « ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً ... » الآيات . الكلام على الترهيد
في الدنيا ...
87
- تفسير قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن ... » الآيات . بيان أن من
أعرض عن ذكر الله تعالى قيض الله له شيطانا يأمره بالمعصية . الفرق بين
العش و العشا ، وما فيهما من اللغات ...
88
- تفسير قوله تعالى : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ... » الآية . بيان أن الله تعالى
منع أهل النار التأسى كا يتأسى أهل المصائب في الدنيا ...
91
- تفسير قوله تعالى : « فاستمسك بالذى أوحى إليك ... » الآيات . بيان أن القرآن
شرف من عمل به ، كان من قريش أو من غيرهم ...
93
- تفسير قوله تعالى : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسالنا ... » الآية . بيان
أن هذا السؤال كان ليلة أسرى به صلٰى الله عليه وسلم . القول في أن الأمر

- بالسؤال أن اليهود والملائكة قالوا للنبي عليه السلام : إن ما جئت به مخالف
لمن كان قبلك ٩٤
- تفسير قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى آياتنا إلى فرعون وملئه ... » الآيات .
ذكر قصة موسى وفرعون . ما كان من فرعون من التكذيب ، وما نزل به
وبقومه من الإغراق ٩٦
- تفسير قوله تعالى : « ولما ضرب ابن مريم مثلا ... » الآيات . مناظرة عبد الله
ابن الزبير حالة كفره مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى عليه السلام
وهل هو من حصب جهنم والرد عليه ١٠٢
- تفسير قوله تعالى : « وإنك لعلم للساعة ... » الآيات . بيان أن خروج عيسى
عليه السلام من أشرطة الساعة ١٠٥
- تفسير قوله تعالى : « ولما جاء عيسى بالبيانات ... » الآيات ١٠٧
- تفسير قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب من ينتم ... » الآيات . اختلاف
أهل الكتاب في عيسى هل هو ابن الله ، أو هو الله ، أو ثالث ثلاثة ١٠٨
- تفسير قوله تعالى : « الأخلاق يومئذ بعضهم بعض عدو ... » الآية . الكلام
على سبب نزول هذه الآية ١٠٩
- تفسير قوله تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ... » الآيات . الكلام على
نعم أهل الجنة ، وأنهم يأكلون ويشربون . النهى عن لبس الحرير والديباج ،
وعن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة . اختلاف العلماء في استعمالها
في غير ما ذكر . إذا كان الإناء مضيّباً بهما أو فيه حلقة منها . القول في أن
ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناوه . الكلام على الصحاف والأكواب ١١٠
- تفسير قوله تعالى : « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ... » الآيات .
بيان أحوال أهل النار ، واستغاثتهم بالحزنة فلما يئسوا نادوا مالكا فسكت
عنهم مدة ثم أجاهم . الكلام على ترجمة الاسم في النداء ١١٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا ... » الآيات . ما أراده المشركون بالذكر
بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة حين استقر أمرهم على أن يبرز من كل
قبيلة رجل ليشتراكوا في قتاله فتضعف المطالبة بدمه صلى الله عليه وسلم
١١٨ تفسير قوله تعالى : « قُلْ إِنْ كَانَ لِرَحْمَنِ وَلَدٌ ... » الآيات . بيان أن هذا
مبالغة في الاستبعاد . معنى « العابدين » وما فيها من اللغات
١١٩ تفسير قوله تعالى : « فَذُرُّهُمْ يخوضُوا وَيَاعُوا ... » الآيات . تكذيب المشركين
في أن الله تعالى شريك أو ولدا
١٢١ تفسير قوله تعالى : « وَلَا يَعْلَمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةُ ... » الآية .
فيه مسألتان : بيان أن آلة المشركين لا يملكون الشفاعة . شرط سائر الشهادات
في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالم بها
١٢٢ تفسير قوله تعالى : « فَاصْفُحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ... » الآية
١٢٤

سورة الدخان

- بيان فضلها
١٢٥ تفسير قوله تعالى : « حَمٍ . وَالْكَابُ الْمَبِينُ ... » الآيات . الكلام على الليلة
المباركة التي أنزل فيها القرآن . ما جاء في فضل ليلة النصف من شعبان .
ما يكون في ليلة القدر
١٢٥ تفسير قوله تعالى : « فَأَرْتَقَبِ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مَبِينٍ ... » الآيات . بيان
الدخان ومتى حصله . دعاء الكفار أن يكشفه عنهم ليؤمنوا ثم عودهم إلى
الكفر بعد كشفه . بيان البطشة الكبيرة
١٣٠ تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمُ فَرْعَوْنَ ... » الآيات
١٣٤ تفسير قوله تعالى : « فَأَسْرَ بَعْبَادِي لِيَلَّا ... » الآية . فيه مسألتان : أمر موسى
أن يسرى ليلاً بن آمن من بنى إسرائيل . الترفق بالدواب في حالة السفر .
الكلام على قوله « وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا » وما فيه من اللغات
١٣٦

سورة الحاثة

- تفسير قوله تعالى : « حمد . تنزيل الكتاب من الله ... » الآيات . بيان أوجه
الإعراب في قوله « آيات » ١٥٦

تفسير قوله تعالى : « ويل للكل أفالك أثيم ... » الآيات . بيان أن هذا وعد
لكل من ترك الاستدلال بآياته ١٥٨

سورة الأحقاف

١٧٨	تفسیر قوله تعالى : « حمد . نزيل الكتاب من الله ... » الآيات
١٧٩	تفسیر قوله تعالى : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ... » الآية . فيه خمس مسائل : توبيخ المشركين . معنى « أو أثاره من علم » . بيان أن الله تعالى نهى عن التحريض وادعاء الغيب . كيفية خطفهم في الرمل . القول في أن الرؤيا جزء من النبوة ... الكلام على الفأل والطيرة
١٨٠	تفسیر قوله تعالى : « ومن أضل من يدعو من دون الله ... » الآيات . بيان أنه لا أحد أضل من المشركين . بيان أن الآلهة التي يعبدوها الكفار تكون لهم أعداء يوم القيمة
١٨١	تفسیر قوله تعالى : « قل ما كنت يدعا من الرسل ... » الآية . معنى البدع وما فيه من اللغات . أقوال العلماء في معنى قوله « وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم » هل هو في الدنيا أو في الآخرة ، وهل الآية منسوخة أم لا
١٨٢	تفسیر قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرونه ... » الآية . شهادة عبد الله بن سلام للنبي صلى الله عليه وسلم أنه مذكور في التوراة وأنه نبى القول في أن الشاهد غير ابن سلام
١٨٣	تفسیر قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا ... » الآية . اختلف في سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال
١٨٤	تفسیر قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ... » الآية . فيه سبع مسائل : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها . بيان مدة الحمل والفطام . صحبة أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم وهم يريدون الشام للت التجارة وقصة الزاهب . الكلام على بلوغ الأشُدَّ . نسب أبي بكر رضي الله عنه وفضله . لم يكن أحد من الصحابة أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر
١٨٥	تفسیر قوله تعالى : « أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا ... » الآية . بيان أن الله تعالى وعد أهل الإيمان أن يتقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وعد الصدق

صفحة

- ١٩٧ تفسير قوله تعالى : « والذى قال لوالديه أَفْ لِكُمَا ... » الآيات . القول فيمن نزلت فيه هذه الآية . بيان أن لكل واحد من المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيمة بأعمالهم ٢٠٠
- ١٩٩ تفسير قوله تعالى : « وِيَوْمَ يُرَضَّعُ الظِّنَّةُ عَلَى النَّارِ ... » الآية . توبيخ الكفار على قضاء شبابهم في المعاصي واتباع الشهوات ولم يعملوا للآخرة . الحض على الرهد وقول عمر رضي الله عنه في ذلك . معنى : الصلاة ، والصيام ، والصلاتق ، والكراكر ٢٠٣
- ٢٠٣ تفسير قوله تعالى : « وَادْكُرْ أَخَا عَادَ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ... » الآية . ذكر قصة هود مع قومه . الكلام على الأحلاف والعارض . ما فعل بقوم عاد من التدمير والهلاك ٢٠٩
- ٢٠٩ تفسير قوله تعالى : « فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ... » الآية . التهم بالشركين حيث لم تنصرهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله لتشفع لهم . بيان أوجه القراءات في قوله « إِنْفَكُهُمْ » ٢١٠
- ٢١٠ تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكُمْ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ... » الآية . توبيخ الشركين على عدم إيمانهم بالقرآن في حالة أن الجن لما سمعوه آمنوا به وعلموا أنه من عند الله تعالى . خروج الرسول عليه السلام إلى الطائف يتسمى من ثنيف النصرة وقصة عَدَاس معه . بيان ما جاء في حِجَّةِ نَصِيبِينَ واستماعهم للقرآن وإسلامهم وأسمائهم وعددتهم . من حضر من الصحابة ليلة الجن ٢١٦
- ٢١٦ تفسير قوله تعالى : « قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كَاتِبًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ... » الآيات . ما قاله الجن عند رجوعهم إلى قومهم . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى الجن والإنس ، وهذا خاصة له ولم تكن لنبي غيره . القول في أن هذه الآية تدل على أن الجن كالإنس في الأمر والنهى والثواب والعقاب ٢١٨
- ٢١٨ تفسير قوله تعالى : « أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... » الآية . بيان أن هذه الآية احتجاج على منكري البعث . معنى « وَلَمْ يَعْمَلْ » وتصريفها

تفسير قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ... » الآية . أقوال العلماء في أولى العزم من الرسل وعدتهم وأسمائهم وما صبروا عليه ،فائدة تكتب إذا عسر على المرأة ولادتها ٢٢٠

سورة القتال

تفسير قوله تعالى : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ... » الآية . بيان أن الله تعالى أبطل أعمال الكافرين . القول في سبب نزول هذه الآية ... ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالات وآمنوا بما نزل على محمد ... » الآيات ... ٢٢٤

تفسير قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ... » الآية . فيه أربع مسائل : الأمر بجهاد الكفار . جواز المُنَزَّل على الأسرى أو المفادة . اختلاف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال ... ٢٢٥

تفسير قوله تعالى : « يَا هُمَّا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهُ يَنْصُرُكُمْ ... » الآية . القول في أن نصرة دين الله سبب في النصر على الكفار ... ٢٣١

تفسير قوله تعالى : « والذين كفروا فتَعَسَّلُوا إِلَيْهم ... » الآيات . بيان أن سبب إضلال الكفار وإعراضهم كونهم كرهوا ما أنزل الله من الكتاب والشريعة . في معنى « التَّعَسُّ » عشرة أقوال ... ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقْوِنُونَ ... » الآية . بيان صفة الجنة المعدة للتقين ، وبيان الأنهر التي فيها . معنى « آسِن » ... ٢٣٦

تفسير قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْنِي إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا نَرَجُوا مِنْ عَنْدِكَ ... » الآية . بيان أن الله تعالى طبع على قلوب الكفار لاتباعهم أهواءهم وإعراضهم عن الحق . معنى « آنفاً » . القول في الذين اهتدوا للإيمان ، ومعنى الهدى الذي زادهم ... ٢٣٨

تفسير قوله تعالى : « فَهَلْ يَنْظَرُونَ إِلَى السَّاعَةِ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ... » الآية . الكلام على أمارات الساعة ، ومعنى أشراطها ... ٢٤٠

صفحة

٢٤١

تفسير قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ... » الآيات

تفسير قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض ... » الآيات.

فيه أربع مسائل : بيان المعنى المراد في قوله « إن توليتم » . القول في حرمة

قطع الرحم ووجوب صلتها . بيان أن الرحم على وجهين : خاصة وعامة ،

والكلام على كل منهما

٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم ... » الآيات . بيان حال

الكفار ، وأن الله تعالى أمل لهم حتى يتقادوا في الكفر . الكلام على أضغان

المشركين . معنى « الضغن » . بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف

٢٤٩

المنافقين بسياههم ويعرفهم إذا سمع كلامهم . القول في معنى اللعن

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرسول ... » الآية .

الأمر بلزوم الطاعة في أوامر الله تعالى والرسول في سننه . القول في أن الكبائر

تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان . احتجاج العلماء بهذه الآية

٢٥٤

على أن التحلل من التطوع بعد التباس به لا يجوز

تفسير قوله تعالى : « فلا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السُّلْمِ ... » الآية . فيه ثلاثة مسائل :

٢٥٥

معنى الوهن . اختلاف العلماء في حكم هذه الآية . معنى « يَتَرَكُمْ »

٢٥٧

تفسير قوله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَلَهُ ... » الآيات

سورة الفتح

٢٥٩

بيان الوقت الذي نزلت فيه سورة الفتح ، وأنها نزلت في شأن الحديبية . بيان فضلها

٢٦٠

تفسير قوله تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مِّنْ بَيْنِ أَيْمَانِكُمْ » اختلاف العلماء في هذا الفتح ما هو

تفسير قوله تعالى : « لِيغْفِرَ لَكُمُ اللَّهُ مَا تَقْدَمْ مِنْ ذَنْبِكُمْ ... » الآية . اختلاف أهل

٢٦١

التأويل في معنى الآية . المعنى المراد بالذنب بالنسبة للرسول عليه السلام

تفسير قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ... »

٢٦٣

الآية . القول في زيادة الإيمان

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ... » الآيات . الكلام على شهادة الرسول عليه السلام على أمته . الأمر بتوقير الرسول وتعزيزه . معنى التعزيز . اختلف في الصيغة هل هي راجعة إلى الله تعالى أو إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ٢٦٦
- تفسير قوله تعالى : « إن الذين يباعونك إنما يباعون الله ... » الآية . بيان أن هذه المبادرة هي بيعة الرضوان ٢٦٧
- تفسير قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب ... » الآيات . الكلام على الأعراب الذين تختلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح بعد أن كان استنفرهم واعتلوه باشتغالهم بأموالهم وأهليهم . الكلام على معنى « البوار » . بيان ما وعده الله تعالى أهل الحديبية من مغامن خير وطلب المخلفين اشتراكهم في القتال طمعاً في المغانم ٢٦٨
- تفسير قوله تعالى : « قل للخلفين من الأعراب ستدعون ... » الآية . فيه أربع مسائل : الكلام على القوم أصحاب البأس الشديد . الدليل على صحة إماماة أبي بكر وعمرو رضى الله عنهما . حكم المشرك أن تؤخذ منه الحجزية أو يسلم ٢٧٢
- تفسير قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » الآية . بيان أنه لا إثم على أهل الزمانة في التخلف عن الجهاد ٢٧٣
- تفسير قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين ... » الآية . الكلام على بيعة الرضوان وما حصل فيها ٢٧٤
- تفسير قوله تعالى : « وعدكم الله مغامن كثيرة تأخذونها ... » الآية . بيان ما وعده الله المؤمنين من المغانم ٢٧٨
- تفسير قوله تعالى : « وهو الذي كف أيديهم عنكم ... » الآيات . الكلام على ما حصل من المشركين في الحديبية . منعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام حين أحرم مع أصحابه بعمره . القول في المدى . الكلام على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية ...» الآية .

^{٢٨٨} الكلام على معنى الحمية . المعنى المراد من «كلمة التقوى»

تفسر قوله تعالى : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ... » الْآتَةُ . الْكَلَامُ

^{٢٨٩} على رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة

تفسر قوله تعالى : « مَدْ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ... » الآية.

فـهـ نـمـسـ مـسـائـلـ : الـكـلامـ فـي إـعـرـاـبـاـ . الـقـوـلـ فـي سـمـاـ السـجـودـ . معـنـىـ

«الشطء» . الكلام على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم ينتون

بات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . النهي عن الطعن في أحد

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنقيصه . انتصار عمر بن حبيب

سورة الجرأت

«يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ...» تفسير قوله تعالى :

لآلية . فيه ثلاثة مسائل : بيان أن السورة نزلت في الأمر بعكارم الأخلاق

رعاية الآداب . اختلف في سبب نزولها على أقوال ستة . النهي عن التعرض

لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم، ووجوب اتباعه والاقتداء به

تفصيروله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ... »

لآية . فيه سنت مسائل : النهي عن رفع الصوت والجهر بالقول في حضرة

لرسول . بيان أنهم لم ينهاوا عن الجهر مطلقاً، وإنما نهوا عن جهر مخصوص ،

تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقيه وخفض الصوت بحضوره وعند

القول في أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتاً حرمته حيّاً، وكلامه

الماثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه . ليس الغرض

رفع الصوت ولا ابهر ما يقصد به الاستخفاف ، وإنما العرض صوت

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء المجرات ... » الآية . بيان ما كان يفعله بعض وفود الأعراب من مناداة الرسول من وراء حجراته ... ٣٠٩

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بذلة ... » الآية . فيه سبع مسائل : سبب نزول الآية . في الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا . الكلام على إمامية الفاسق وأحكامه إن كان واليا ، هل يصح أن يكون رسولا عن غيره . الدليل على فساد قول من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الحرفة ... ٣١١

تفسير قوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله ... » الآية ... ٣١٣

تفسير قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... » الآية . فيه عشر مسائل : بيان سبب نزول الآية . ما يجب لو اقتل فتنان من المسلمين . الدليل على وجوب قتال الفتنة الباغية وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين . القول في أن هذه الآية أصل في قتال المسلمين وعليها عوّل الصحابة . جواز تأخير القصاص للإمام إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشويش الكلمة . بيان أن قتال الفتنة الباغية فرض على الكفاية . القول فيما إذا خرجت على الإمام العدل خارجة باغية . القول فيما استهلّكَ البعنة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا . لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأً مقطوع به ... ٣١٥

تفسير قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن هذا في الدين والحرمة لا في النسب . المعنى المراد من « أخويكم » . حكم أهل البيني من أهل الجمل وصفين ... ٣٢٢

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ... » الآية . فيه سبع مسائل : معنى السخرية . الاختلاف في سبب نزول الآية . النهي عن سخرية الشخص بغيره وعن الماز . معنى التنازع بالألفاظ والنهي عنه . المنع من تلقيب الإنسان بما يكره وجوائز تلقيبه بما يجب ... ٣٢٤

تفسير قوله تعالى : « يَأْمُلُ الَّذِينَ أَمْنُوا اجْتِنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظُّنُونِ ... » الآية .

فيه عشر مسائل : سبب نزول الآية . النهي عن الغنون . بيان أن للغدن حالتين . النهي عن التجسس وعن تتبع عورات الناس . الفرق بين التجسس والتحسّس . النهي عن الغيبة . بيان أن الغيبة من الكبائر . القول في استحلال المقتب . الكلام في غيبة الفاسق ...

۲۳

تفصيير قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأثني ... » الآية . فيه سبع مسائل : الكلام على سبب نزول الآية . بيان أن الله تعالى خلق الخلق من الذكر والأثني ولو شاء خلقه دونهما . القول في أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده . الكلام على الشعوب والقبائل . بيان أن النقوي هو

٣٤

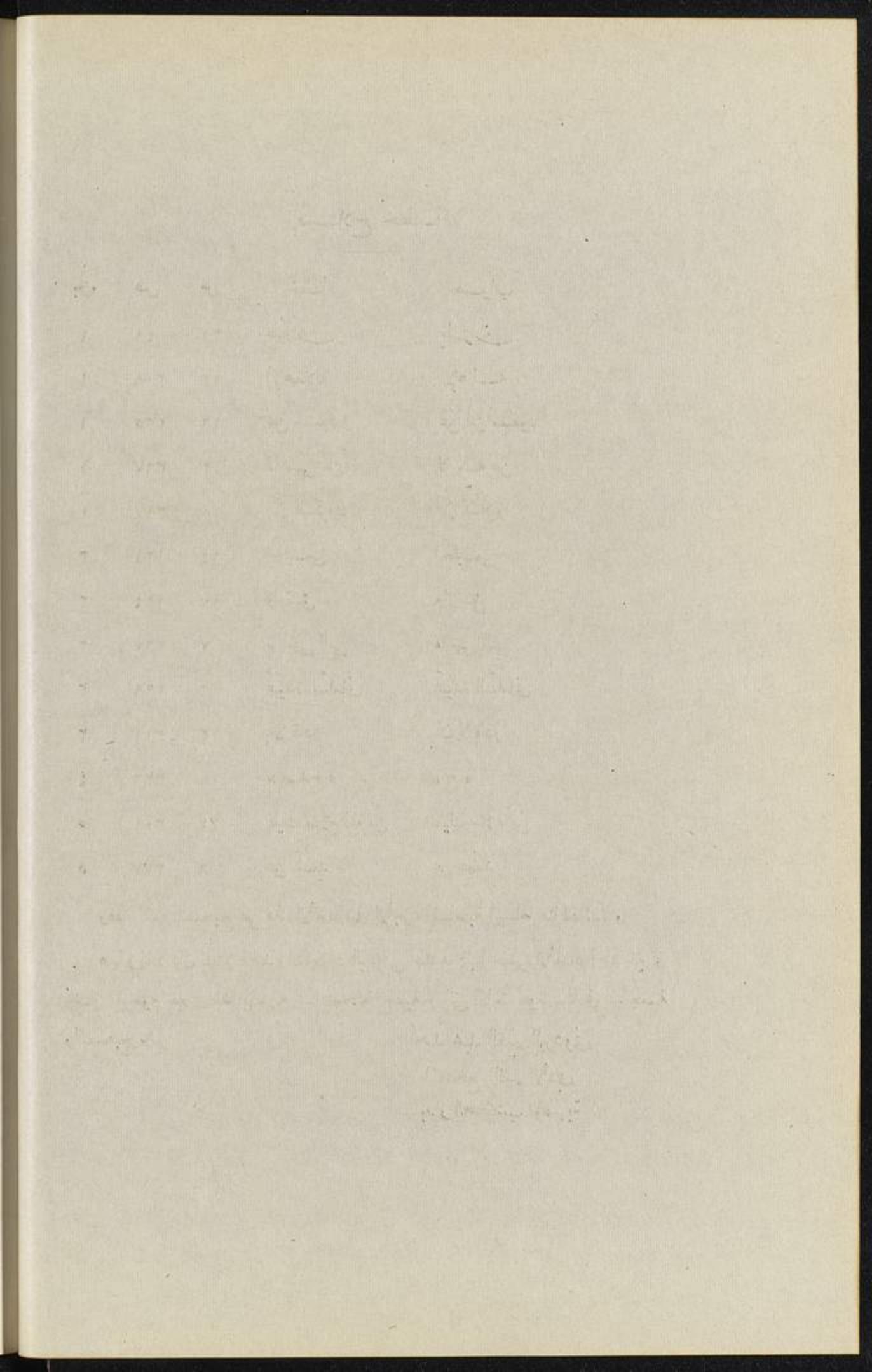
نفسه سره قوله تعالى : «قالت الأعراب آمنا ...» الآيات . الكلام على سبب نزولها ٣٤٨

إصلاح خطأ

جزء	ص	س	خطأ	صواب
١	٤٩	٢١	طُرْزان	ظِرْزان
١	٢٠٨	٢٢	الإهلاة	الإهلاك
١	٢٣٥	١٦	عن مسعود	عن ابن مسعود
١	٣٦٧	٢	لاتنه عن	لاته عن
١	٣٩٧	١٨	كي تشکرون	كَيْ تَشْكِرُونَ
٢	١٢١	١٤	الخلبي	الْخَلِبِيُّ
٢	١٢٤	١٧	وارتق	وارتقة
٢	٢٦٧	٧	ما انهى النبي	ما نَهَى النَّبِيُّ
٢	٢٩٩	١٢	عيادة السلماني	عيَادَةُ السَّلْمَانِيِّ
٢	٣١١	١٢	بأن لا قادر	بِأَنَّ لَا قَادِرٌ
٤	٣٢٦	١٨	» مسح «	» ح «
٥	٣٠١	١١	عليك سلام الله من	عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ
٥	٣٧٧	٦	عن عَضْدِ	عَنْ عَضْدٍ

وقفنا أبناء التصحيح على هذه الأخطاء في الأجزاء الماضية أثبتناها هنا للفائدة .

هذا وإن لا تزال نذكر بالحمد والثناء تلك اليد التي أسدتها إلينا حضرة الأستاذ أحمد خيري نجح المرحوم خيري باشا بإعارة لنا نسخته الخطية ، التي كانت عونانا في المراجعة
والتصحيح ^٢
أحمد عبد العليم البردوني
المصحح بالقسم الأدبي
بدار الكتب المصرية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الشُّورَى

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقاده : إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةُ فِي الْفُرْبَىٰ » إلى آخرها . وهي ثلاث وخمسون آية .

قوله تعالى : حَمَّ عَسْقَ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَهُوَ أَعْلَى الْعَظِيمُ

قوله تعالى : (حَمَّ . عَسْقَ) قال عبد المؤمن : سألت الحسين بن الفضل : لم قطع
« حَمَّ » من « عَسْقَ » ولم تقطع « كهيعص » و « المَرَّ » و « المَصَّ » ؟ فقال : لأن « حَمَّ »
عَسْقَ » بين سُورَيْ أَوْهَا « حَمَّ » بحُرْتْ مجرى نظائرها قبلها وبعدها ؛ فكأن « حَمَّ » مبتداً
و « عَسْقَ » خبره . ولأنها عدت آيتين ، وعدت أخواتها اللواتي كتبت جملة آية واحدة .
وقيل : إن الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد ، من حيث إنها أوسبيان وقاعدة الكلام ؛
ذكره بالحرجاني . وكتبت « حَمَّ . عَسْقَ » منفصلة و « كهيعص » متصلة لأنه قيل : حَمَّ ؟
أى حَمَّ ما هو كائن ، ففصلوا بين ما يقدر فيه فعل وبين ما لا يقدر . ثم لو فصل هذا ووصل
ذا بجاز ؛ حكاه القُشَيري . وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس « حَمَّ . سَقَ » قال ابن عباس :

٢٣ آية (١)

وكان عليه رضى الله عنه يعرف الفتن بها . وقال أرطاة بن المنذر : قال رجل لابن عباس وعنده حذيفة بن اليمان : أخبرني عن تفسير قوله تعالى : « حم . عسق » ؟ فأعرض عنه حتى أعاد عليه ثلاثة فأعرض عنه . فقال حذيفة بن اليمان : أنا أبنتك بها ، قد عرفت لم تركها ، نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله ؛ يتزل على نهر من أنهار المشرق ، يبني عليه مدينتين يشق النهر بينهما شقا ، فإذا أراد الله زوال ملوكهم وانقطاع دولتهم ، بعث على إحداهما نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة ، فتحرق كلها كأنها لم تكون مكانها ، فتصبح صاحبتها متعجبة ، كيف قلبت ! ما هو إلا بياض يومها حتى يجتمع فيها كل جبار عينه ، ثم يخسف الله بها وبهم جميعا ، فذلك قوله : « حم . عسق » . أى عزمه من عزمات الله وفتنة وقضاء حُمْ : حم . « ع » : عدلاً منه ، « س » : سيكون ، « ق » : واقع في هاتين المدينتين .

ونظير هذا التفسير ما روی جریر بن عبد الله البَجَلِي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تُبَنِّي مَدِينَةً بَيْنَ دُجْلَةَ وَدُجْلِيلَ وَقُطْرَبَلَ وَالْعَرَّا يَجْتَمِعُ فِيهَا جَبَابِرَةُ الْأَرْضِ تَجْبِي إِلَيْهَا الْخَرَائِنَ يَخْسِفُ بِهَا — وَفِي رَوْاْيَةِ أَهْلِهَا — فَلَهُمْ أَسْرَعُ ذَهَاباً فِي الْأَرْضِ مِنَ الْوَتَدِ الْجَيْدِ فِي الْأَرْضِ الرَّخْوَةِ » . وقرأ ابن عباس « حم . سق » بغير عين . وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود ؛ حكاہ الطبری . وروى نافع عن ابن عباس : « الحاء » حلمه ، و « الميم » مجده ، و « العين » علمه ، و « السين » سناه ، و « القاف » قدرته ؛ أقسم الله بها . وعن محمد بن كعب : أقسم الله بحمله وبمجده وعلوه وسناه وقدرته ألا يُدب من عاذ بلا إله إلا الله مخلصا من قلبه . وقال جعفر بن محمد وسعيد بن جبير : « الحاء » من الرحمن ، و « الميم » من الجيد ، و « العين » من العليم ، و « السين » من القدس ، و « القاف » من القاهرة . وقال مجاهد : فواتح السور . وقال عبد الله بن بُرِيَّةَ : إنه اسم الجبل المحيط بالدنيا . وذكر القشيري « اللقط للتعليق » : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية عُرفت الكابة في وجهه .

(١) أى حق من حقوقه . (٢) وروى بفتح أوله وطائه . (٣) في بعض النسخ . « حكمه » بالكاف .

فقيل له : يا رسول الله ، ما أحزنك ؟ قال : « أخربت ببلايا تنزل بأمي من خسف وقدف ونار تحشرهم وريح تذفهم في البحر وآيات متابعات مصالات بنزل عيسي وخروج الدجال » . والله أعلم . وقيل : هذا في شأن النبي صل الله عليه وسلم ؛ فـ « الحاء » حوضه المورود ، و « الميم » ملكه المدود ، و « العين » عن الموجود ، و « السين » سناء المشهود ، و « القاف » قيامه في المقام محمود ، وقربه في الكرامة من الملك المعبد . وقال ابن عباس : ليس من نبى صاحب كتاب إلا وقد أوحى إليه : « حم . عسق » ؟ فلذلك قال : « يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ » . المهدوى : وقد جاء في الخبر أن « حم . عسق » معناه أوحى إلى الأنبياء المتقدمين » . وقرأ ابن محيصن وابن كثير ومجاهد « يوحى » (فتح الحاء) على ما لم يسم فاعله ؛ وروى عن ابن عمر . فيكون الحار والمحرر في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز أن يكون اسم ما لم يسم فاعله مضمرا ؛ أى يوحى إليك القرآن الذي تضمنته هذه السورة ، ويكون اسم الله مرفوعاً بإضمار فعل ، التقدير : يوحى الله إليك ؛ كقراءة ابن عامر وأبي بكر « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغَدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ » أى يسبحه رجال . وأنشد سيبويه :

لِيُبَكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ بِخَصُومَةٍ * وَأَشَعَتُ مِنْ طُوقَتِه الطَّوَايْحَ
^(٢)

فقال : ليبك يزيد ، ثم بين من ينبغي أن يبكه ، فالمعني بيكه ضارع . ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر مذوف ؛ كأنه قال : الله يوحى . أو على تقدير إضمار مبتدأ أى الموحى الله . أو يكون مبتدأ والخبر « العزيز الحكيم » . وقرأ الباقون « يوحى إليك » بكسر الحاء ، ورفع الاسم على أنه الفاعل . (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) تقدمة في غير موضع .
^(٣)

(١) في نسخة من الأصل : « وقربه يوم القيمة من الملك ... » .

(٢) رواية البيت كما في كتاب سيبويه ونزارة الأدب :

لِيُبَكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ بِخَصُومَةٍ * وَمُخْبِطٌ مَا تُطِيعُ الطَّوَايْحَ

وهذا البيت نسبة سيبويه للحارث بن نهيلك . ونسبه صاحب نزارة الأدب لنهيل بن حرئي في مرثية يزيد . (راجع

(٣) راجع ج ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . وج ٣ ص ٢٧٨ .

قوله تعالى : تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ
مُحَمَّدٌ رَّبُّهُمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ
الْرَّحِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (تَكَادُ السَّمَوَاتُ) قراءة العامة بالباء . وقرأ نافع وابن وثاب والكسائي
بالياء . (يَنْفَطِرُنَّ) قرأ نافع وغيره بالياء والباء والتشديد في الطاء ، وهي قراءة العامة . وقرأ
أبو عمرو وأبو بكر والمفضل وأبو عبيد « ينفطرن » من الانفطار ، كقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ
آنفَطَرَتْ » وقد مضى في سورة « مریم » بيان هذا . وقال ابن عباس : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَنْفَطِرُنَّ » أى تكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التي تليها ، من قول المشركين : « اتَّخَذَ اللَّهَ
وَلَدًا » . وقال الضحاك والسدى : « يَنْفَطِرُنَّ » أى يتشققن من عظمة الله وجلاله فوقهن .
وقيل : « فوقهن » ، فوق الأرضين من خشية الله لو كنَّ مما يعقل .

قوله تعالى : (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ مُحَمَّدٌ رَّبُّهُمْ) أى يترهونه عما لا يجوز في وصفه
وما لا يليق بجلاله . وقيل : يتعجبون من جرأة المشركين ؛ فيذكر التسبيح فيوضع التعجب .
وعن علي رضي الله عنه : أن تسبيحهم تعجب مما يرون من تعزتهم اسيخط الله . وقال
ابن عباس : تسبيحهم خضوع لما يرون من عظمة الله . ومعنى « مُحَمَّدٌ رَّبُّهُمْ » بأمر ربهم ؛
قاله السدى . (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) قال الضحاك : لمن في الأرض من المؤمنين ؛
وقاله السدى . بيانه في سورة المؤمن : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ». وعلى هذا تكون الملائكة
هنا حملة العرش . وقيل : جميع ملائكة السماء ؛ وهو الظاهر من قول الكلبي . وقال وهب
ابن منبه : هو منسوخ بقوله : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ». قال المهدوى : والصحيح
أنه ليس بمنسوخ ؛ لأنه خبر ، وهو خاص للمؤمنين . وقال أبو الحسن الماوردي عن الكلبي :
ان الملائكة لما رأت الملائكة اللذين اختبروا ويعثروا إلى الأرض ليحكى بهم ، فافتئنا بالزهرة

(١) راجع ج ١١ ص ١٥٦ . (٢) آية ١١٦ سورة البقرة . (٣) آية ٧

وهرب إلى إدريس — وهو جَدُّ أَبِي نوح عليهما السلام — وسأله أن يدعُّهُ ، سبّحت الملائكة بحمد ربهم واستغفرت لبني آدم . قال أبو الحسن بن الحصار : وقد ظن بعض من جهل أن هذه الآية نزلت بسبب هاروت وماروت ، وأنها منسوبة بالآلية التي في المؤمن ، وما علمنا أن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للأئمَّةِ خاصَّة ، والله ملائكةُ آخرين يستغفرون لمن في الأرض . الماوردي : وفي استغفارهم لهم قولان : أحدهما — من الذنوب والخطايا ، وهو ظاهر قول مقاتل . الثاني — أنه طلب الرزق لهم والسعنة عليهم ؛ قاله الكلبي . قلت : وهو أظاهر ، لأنَّ الأرض تعمَّ الكافر وغيره ، وعلى قول مقاتل لا يدخل فيه الكافر . وقد رُوى في هذا الباب خبر رواه عاصم الأحوص عن أبي عثمان عن سليمان قال : إنَّ العبد إذا كان يذكر الله في السرَّاء فنزلت به الضراء قالت الملائكة : صوت معروف من آدمي ضعيف ، كان يذكُّر الله تعالى في السرَّاء فنزلت به الضراء ، فيستغفرون له . فإذا كان لا يذكُّر الله في السرَّاء فنزلت به الضراء ؛ فلا يستغفرون . وهذا يدلُّ على أنَّ الآية في الدا كر الله تعالى في السرَّاء والضراء ، فهي خاصة ببعض من في الأرض من المؤمنين . والله أعلم . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » ^(١) — إلى أن قال — إِنَّهُ كَانَ حَلِيًّا غَفُورًا » ، وقوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » . والمراد الحلم عنهم وألا يعاجلهم بالانتقام ؛ فيكون عاماً ؛ قاله الرَّمَحْشَري . وقال مُطَرَّف : وجدنا أنسُهُمْ عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغشَّ عباد الله لعباد الله الشياطين . وقد تقدَّم . ^(٢) « أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » قال بعض العلماء : هَبَّ وَعَظَمَ جَلَّ وَعَزَّ فِي الابتداءِ ، وَأَلْطَفَ وَبَشَّرَ فِي الاتِّهاءِ .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ آتَحْذَدُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ حَفِظَ عَلَيْهِمْ

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ^(٣)

(١) آية ٤١ سورة فاطر . (٢) آية ٦ سورة الرعد . (٣) راجع ج ١٥ ص ٢٩٥

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آتَخْدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءِ » يعني أصناماً يعبدونها . « اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ » أى يحفظ أعمالهم ليجازيهم بها . « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » وهذه منسوبة باية السيف . وفي الخبر : « أَطَّتِ السَّمَاءَ وَحْقَهُ لَهَا أَنْ تَثْطِطُ » أى صوت من نقل سكانها لكثرةهم ، فهم مع كثرةهم لا يفترون عن عبادة الله ، وهؤلاء الكفار يشركون به .

قوله تعالى : وَكَذَّلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّةَ الْقَرْيَةِ
وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ

قوله تعالى : « وَكَذَّلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا » أى وكما أوحينا إليك وإلى من قبيلك هذه المعانى فكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً بيناه بلغة العرب . وقيل : أى أنزلنا عليك قرآناً عربياً بلسان قومك ، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه . والمعنى واحد . « لِتُنذِرَ أُمَّةَ الْقَرْيَةِ » يعني مكة . وقيل لمكة أم القرى لأن الأرض دُحيت من تحتها . « وَمَنْ حَوْلَهَا » من سائر الخلق . « وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ » أى يوم الجمع ، وهو يوم القيمة . « لَا رَيْبَ فِيهِ » لا شك فيه . « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » ابتداء وخبر . وأجاز الكسائى النصب على تقدير : لنذير فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير .

قوله تعالى : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

قوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » قال الضحاك : أهل دين واحد ، أهل ضلاله أو أهل هدى . « وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ » قال أنس بن مالك : في الإسلام . « الظَّالِمُونَ » رفع على الابتداء ، والخبر « مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » عطف على اللفظ . ويجوز « وَلَا نَصِيرٍ » بالرفع على الموضع و « مِنْ » زائدة .

قوله تعالى : أَمْ أَتَحْذِدُوا مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءُ اللَّهِ هُوَ أَلَوَّلُ وَهُوَ
يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (أَمْ أَتَحْذِدُوا) أي بل الخذدوا . ((مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءُ)) يعني أصناماً .
(فَاللَّهُ هُوَ الْأَوَّلُ) أي وأياك يا مهد وولي من أتبعدك ، لا ولـ سواه . ((وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ))
يريد عندبعث . ((وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) وغيره من الأولياء لا يقدر على شيء .

قوله تعالى : وَمَا آخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ
اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَمَا آخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ) حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
للمؤمنين ؛ أي وما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أمر الدين ، فقولوا لهم
حكمه إلى الله لا إليكم ، وقد حكم أن الدين هو الإسلام لا غيره ، وأمور الشرائع إنما تتعلق
من بيان الله . (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي) أي الموصوف بهذه الصفات هو ربى وحده ؛ وفيه
إضمار : أي قل لهم يا مهد ذلكم الله الذي يحيي الموتى ويحكم بين المختلفين هو ربى . ((عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ)) اعتمدت . ((وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)) أرجع .

قوله تعالى : فَاطَّرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَمِ أَزْوَاجًا يَذْرُوُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلَهُ شَيْءٌ وَهُوَ
الْسَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (فَاطَّرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) بالرفع على النعت لاسم الله ، أو على تقدير
هو فاطر . ويجوز النصب على النداء ، والجز على البدل من الها في « عليه » . والفاطر :
المبدع والخالق . وقد تقدم . (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) قوله تعالى : (إِنَّا
جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) قيل معناه إننا . وإنما

(١) راجع ج ٦ ص ٣٩٧ ، ج ٩ ص ٤٧٠ ، ج ١٤ ص ٣٤٦ و ٤٧٠ ، ج ١٤ ص ٢٤ وما بعدها و ٣١٩

قال : « مِنْ أَنفُسِكُمْ » لأنَّه خلقَ حَوَاءَ مِنْ ضَلَعِ آدَمَ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : نَسَّالاً بَعْدَ نَسْلٍ .
 (وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا) يَعْنِي الثَّانِيَةُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي « الْأَنْعَامِ » ذُكُورُ الْإِبْلِ وَالْبَقَرِ وَالضَّأنِ
 وَالْمَعْزِ وَإِنَاثُهَا . (يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ) أَى يَخْلُقُكُمْ وَيَنْشِئُكُمْ « فِيهِ » أَى فِي الرَّحْمِ . وَقَيْلٌ : فِي الْبَطْنِ .
 وَقَالَ الْفَزَاءُ وَأَبْنُ كَيْسَانَ : « فِيهِ » بَعْنَى بِهِ . وَكَذَلِكَ قَالَ الزَّاجَاجُ : مَعْنَى « يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ »
 يَكْثُرُكُمْ بِهِ ؛ أَى يَكْثُرُكُمْ يَحْكُلُكُمْ أَزْوَاجًا ، أَى حَلَائِلٍ ؛ لِأَنَّهُنْ سَبَبُ النَّسْلِ . وَقَيْلٌ : إِنَّ
 الْهَاءَ فِي « فِيهِ » لِبَعْلٍ ، وَدَلٌّ عَلَيْهِ « جَعَلَ » ؛ فَكَانَهُ قَالَ : يَخْلُقُكُمْ وَيَكْثُرُكُمْ فِي الْجَعْلِ .
 آبَنْ قُتْبِيَّةَ : « يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ » أَى فِي الزَّوْجِ ؛ أَى يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ الْإِنَاثِ . وَقَالَ : وَيَكُونُ
 « فِيهِ » فِي الرَّحْمِ ، وَفِيهِ بَعْدُ ، لِأَنَّ الرَّحْمَ مَوْتَنَّةٌ وَلَمْ يَتَقدَّمْ لَهَا ذَكْرٌ . (لَيْسَ كَيْتَلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
 السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) قَيْلٌ : إِنَّ الْكَافَ زَائِدَةً لِلتَّوْكِيدِ ؛ أَى لَيْسَ مُثْلَهُ شَيْءٌ . قَالَ :

* وَصَالِيَاتٌ كَكَيْتَلَهُ شَيْءٌ * وَعَوْنَاقَيْنِ *

فَأَدْخُلْ عَلَى الْكَافِ كَافًا تَأْكِيدًا لِلتَّشْبِيهِ . وَقَيْلٌ : الْمُثْلُ زَائِدَةً لِلتَّوْكِيدِ ؛ وَهُوَ قَوْلُ ثَعْلَبٍ :
 لَيْسَ كَهُو شَيْءٌ ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّ آمِنَّا بِمَا أَمْتَمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا » . وَفِي حَرْفِ
 أَبْنِ مُسَعُودٍ « إِنَّ آمِنَّا بِمَا أَمْتَمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا » قَالَ أُوسُ بْنُ حَبْرٍ :

وَقُتْلَ كَتَلَ جَذْوَعَ النَّخْيَيْلِ يَغْشَاهُمْ مَطْرَ منْهُرٍ

أَى بَكْذَوْعٍ . وَالَّذِي يُعْتَقِدُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ أَسْمَاهُ فِي عَظَمَتِهِ وَكَبْرِيَّاهُ وَمَلْكُوتِهِ
 وَحَسْنِي أَسْمَانِهِ وَعَلَيْهِ صَفَاتِهِ ، لَا يُشَبِّهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَلَا يُشَبِّهُ بِهِ ، وَإِنَّمَا جَاءَ مَا
 أَطْلَقَهُ الشَّرْعُ عَلَى الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ ، فَلَا تُشَابِهُ بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى الْحَقِيقِ ؛ إِذْ صَفَاتُ الْقَدِيمِ
 جَلَّ وَعَزَّ بِخَلْافِ صَفَاتِ الْمَخْلُوقِ ؛ إِذْ صَفَاتُهُمْ لَا تُنْفَكُ عَنِ الْأَغْرِاضِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَهُوَ
 تَعَالَى مِنْهُ عَنِ ذَلِكَ ؛ بَلْ لَمْ يَزِلْ بِاسْمَانِهِ وَبِصَفَاتِهِ عَلَى مَا بَيْنَاهُ فِي (الْكِتَابِ الْأَسْنَى فِي شَرْحِ

(١) رابع ج ٧ ص ١١٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الصاليات : الأنافق ، وهي الأجراء التي ينصب
 عليها القدر . ومعنى يؤتفين : ينصبن للقدر . (رابع نزانة الأدب في الشاهد الخامس والثلاثين بعد المائة وكتاب
 سيبويه) . (٣) آية ١٣٧ سورة البقرة .

أسماء الله الحسنى) ، وكفى في هذا قوله الحق : « لَيْسَ كَتَلَهُ شَيْءٌ » . وقد قال بعض العلماء المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة من الصفات . وزاد الواسطى رحمة الله بيانا فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كاسمها أسم ، ولا ك فعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ، وجلت الذات القدية أن يكون لها صفة حديثة ؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنّة والجماعة . رضى الله عنهم !

قوله تعالى : لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١)

قوله تعالى : (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) تقدم في « الزمر » بيانه . النجاشي : والذي يملك المفاتيح يملك الخزان ، يقال لفتاح : إفليد ، وجمعه على غير قياس ، كمحاسن الواحد حسن . (يَسْطُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تقدم أيضاً في غير موضع . (٢)

قوله تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ الَّذِينِ مَا وَصَّنَ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الَّذِينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَعْلَمُ بِإِيمانِهِ مَنْ يَسَّأَهُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِغِيَّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَآتَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْهِ أَجَلٌ مُّسَمٌ لَّقُضِيَ بِهِمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ صَرِيبٌ (٤)

(١) راجع ج ١ ص ٢٦١ مطبعة ثانية أو ثالثة . وج ٩ ص ٣١٤ .

قوله تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) فيه مسائلان :

الأولى - قوله تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ) أى الذى له مقاييس السموات والأرض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ؛ ثم بين ذلك بقوله تعالى : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما . ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ؛ قال الله تعالى : « لِكُلِّ جَمَاعَةٍ مِّنْكُمْ شَرَعْنَا وَمِنْهَا جَاءَ »^(١) وقد تقدم القول فيه . ومعنى « شرع » أى نهج وأوضاع وبين المسالك . وقد شرع لهم شرعاً أى سن . والشارع : الطريق الأعظم . وقد شرع المترى إذا كان على طريق نافذ . وشرعت الإبل إذا أمكنتها من الشريعة . وشرعت الأديم إذا سلخته . وقال يعقوب : إذا شقت ما بين الرجلين ، قال : وسمعته من أم الحمارس البكريه . وشرعت في هذا الأمر شروعاً أى خضت . (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) « أَنْ » في محل رفع ، على تقدير والذي وصى به نوحاً أن أقيموا الدين ، ويوقف على هذا الوجه على « عيسى » . وقيل : هو نصب ، أى شرع لكم إقامة الدين . وقيل : هو جز بدلأ من الماء في « به » ؛ كأنه قال : به أقيموا الدين . ولا يوقف على « عيسى » على هذين الوجهين . ويحوز أن تكون « أَنْ » مفasserة ، مثل أن آمشوا ، فلا يكون لها محل من الإعراب .

الثانية - قال القاضي أبو بكر بن العربي : ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور : " ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فـيأتون نوحا فـيقولون له أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ... " وهذا صحيح لا إشكال فيه ، كما أن آدم أول نبـي بغير إشكال ؛ لأن آدم لم يكن معه إلا نبوة ، ولم تفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم ، وإنما كان تنبـيها على بعض

(١) راجع ج ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) في نسخ الأصل : « كـما أن آدم أول رسول نـبـي بـغير إـشكـال ، إـلاـ أنـآـدـم » والتصوـيب عن ابن العـربـي .

الأمور واقتصارا على ضرورات المعاش ، وأخذًا بوظائف الحياة والبقاء ، واستقرار المدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ، ووظف عليه الواجبات وأوضحت له الآداب في الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل ويتناصر بالأنباء — صلوات الله عليهم — واحداً بعد واحد وشريعة إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ملتئاً على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحًا دينا واحداً ، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة ، وهي التوحيد والصلة والزكاة والصيام والجُنُاح ، والتقرّب إلى الله بصلاح الأعمال ، والزَّلف إليه بما يرد القلب والخارحة إليه ، والصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وصلة الرحم ، وتحريم الكفر والقتل والزنى والإذية للخلق كيما تصرفت ، والاعتداء على الحيوان كيما دار ، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات ؛ فهذا كلّه مشروع ديننا واحداً وملة متحدة ، لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم ؛ وذلك قوله تعالى : «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَرَكُونَ فِيهِ» أي اجعلوه قائمًا ، يريد دائمًا مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف فيه ولا أضطراب ؛ فمن الخاق من وفي بذلك ومنهم من نكث ؛ ومن نكث فاما ينكث على نفسه . واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم » . والله أعلم . قال مجاهد : لم يبعث الله نبيّاً قطّ إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة ، فذلك دينه الذي شرع لهم ؛ وقاله الوالي عن ابن عباس ، وهو قول الكلبي . وقال قتادة : يعني تحليل الحلال وتحريم الحرام . وقال الحكم : تحريم الأمهات والأخوات والبنات . وما ذكره القاضي يجمع هذه الأقوال ويزيد عليها . وخص نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى بالذكر لأنّهم أرباب الشرائع . قوله تعالى : «كَبَرُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ» أي عظيم عليهم . «مَا تَدْعُهُمْ إِلَيْهِ» من التوحيد ورفض الأوثان . قال قتادة : كَبَرُ على المشركين فاشتَدَ عليهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وضاف بها إبليس وجنوده ، فأبى الله عن وجّل إلا أن ينصرها ويُعلّمها ويظهرها على من

(١) في ابن العربي : « ويتناشر » .

ناوها . ثم قال : (اللَّهُ يَعْتَقِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ) أى يختار . والاجتهاد الاختيار ؛ أى يختار للتوحيد من يشاء . (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) أى يستخلاص لدينه من رجع إليه .
 (وَمَا تَفَرَّقُوا) قال ابن عباس : يعني قريشا . (إِلَّا مَنْ بَعْدِ مَا جَاءُهُمُ الْعِلْمُ) محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وكانوا يعتقدون أن يبعث إليهم نبي ؛ دليله قوله تعالى في سورة فاطر : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءُهُمْ نَذِيرٌ » يزيد نبيا . وقال في سورة البقرة : « فَلَمَّا جَاءُهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » على ما تقدم بيانه هناك . وقيل : أمة الأنبياء المتقدمين ؛ فلنهم فيما بينهم آختلفوا لما طال بهم المدى ، فآمن قوم وكفر قوم . وقال ابن عباس أيضا : يعني أهل الكتاب ؛ دليله في سورة المُنْفَكِلِين « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مَنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » . فالمشركون قالوا : لم يُخُص بالنبأ ! واليهود حسدوا لما بُعث ، وكذا النصارى .
 (بَعْدًا بِلَهُمْ) أى بعدهم من بعضهم على بعض طلبا للرياسة ، فليس تفرقهم لقصور في البيان والمجيء ، ولكن للبغى والظلم والاشغال بالدنيا . (وَلَوْلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) في تأخير العقاب عن هؤلاء . (إِلَى أَجَلٍ مُسْمَى) قيل : القيمة ؛ لقوله تعالى : « بِلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ » . وقيل : إلى الأجل الذي قضى فيه بعذابهم . (لَقِيفَيْ بِلَهُمْ) أى بين من آمن وبين من كفر بنزل العذاب . (وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ) يزيد اليهود والنصارى .
 (مِنْ بَعْدِهِمْ) أى من بعد المختلفين في الحق . (لَفِي شَكٍ) من الذي أوصى به الأنبياء . والكتاب هنا التوراة والإنجيل . وقيل : « إن الذين أورثوا الكتاب » قريش . « من بعدهم » من بعد اليهود والنصارى . « لَفِي شَكٍ » من القرآن أو من محمد . وقال مجاهد : معنى « من بعدهم » من قبلهم ؛ يعني من قبل مشركي مكة ، وهم اليهود والنصارى .

(١) آية ٤٢ رابع ج ١٤ ص ٣٥٧

(٢) آية ٨٩ رابع ج ٢ ص ٢٧ طبعة ثانية .

(٣) آية ٤٦ سورة القمر .

قوله تعالى : فَلِذِكْرِ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمْرَتَ وَلَا تَتَبَّعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ إِنَّمَاتُ إِنَّمَاتَ إِنَّمَاتَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمْرَتُ لِأَعْدَلَ بَيْنَنَاكُمْ اللَّهُ
رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا جُنَاحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
اللَّهُ يَجْمِعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥

قوله تعالى : (فَلِذِكْرِ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ) . لما جاز أن يكون الشك لليهود والنصارى أو لقريش قيل له : (فَلِذِكْرِ فَادْعُ) أى فتبين شكتهم فأدع إلى الله؛ أى إلى ذلك الدين الذى شرعه الله لأنبياء ووصاهم به . فاللام بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : «إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» أى إليها . و «ذلك» بمعنى هذا . وقد تقدم أول «البقرة» . والمعنى فلهذا القرآن فأدع . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى كبر على المشركين ما تدعوههم إليه فلذلك فأدع . وقيل : إن اللام على بابها؛ والمعنى : فمن أجل ذلك الذى تقدم ذكره فأدع واستقم . قال ابن عباس : أى إلى القرآن فأدع الخلق . (وَاسْتَقِمْ) خطاب له عليه السلام . قال قنادة : أى استقم على أمر الله . وقال سفيان : أى استقم على القرآن . وقال الضحاك : استقم على تبليغ الرسالة . (وَلَا تَتَبَّعْ أَهْوَاءَهُمْ) أى لا تتظر إلى خلاف من حالفك . (وَقُلْ إِنَّمَاتُ إِنَّمَاتَ إِنَّمَاتَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأَمْرَتُ لِأَعْدَلَ بَيْنَنَاكُمْ) أى أن أعدل؛ كقوله تعالى : «وَأَمْرَتُ أَنْ أَسْلِمَ إِرَبَّ الْعَالَمَيْنَ» . وقيل : هي لام كى، أى لكى أعدل . قال ابن عباس وأبو العالية : لأسوى بينكم في الدين فاومن بكل كتاب وبكل رسول . وقال غيرهما : لأعدل في جميع الأحوال . وقيل : هذا العدل هو العدل في الأحكام . وقيل في التبليغ . (اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا جُنَاحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) قال ابن عباس ومجاهد : الخطاب لليهود؛ أى لنا ديننا ولكم دينكم . قال : ثم نسخت بقوله «فَاتَّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية . قال مجاهد : ومعنى «لَا جُنَاحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ» لا خصومة بيننا وبينكم . وقيل : ليس بمنسوخ ؟

(١) راجع ج ١ ص ٥٧ طبعة ثانية أو ناثنة . (٢) آية ٦٦ سورة غافر . (٣) آية ٢٩ سورة التوبه .

لأن البراهين قد ظهرت ، والجحging قد قامت ، فلم يبق إلا العناد ، و بعد العناد لاجحة ولاجدال .
 قال النحاس : ويجوز أن يكون معنى « لا حجّة بيننا و بينكم » على ذلك القول : لم يؤمر أن يحجّع عليكم و يقاتلكم ؟ ثم نسخ هذا . كما أن قاءلا لو قال من قبل أن تحول القبلة : لا تصل إلى الكعبة ، ثم حول الناس بعد بحراز أن يقال نسخ ذلك . (الله يجمع بيننا) يريد يوم القيمة . (وإليه المصير) أى فهو يحكم بيننا اذا صرنا إليه ، و يجازى كلاما كان عليه .
 وقيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة ، وقد سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن دعوته ودينه إلى دين قريش ، على أن يعطيه الوليد نصف ماله ويزوجه شيبة بابنته .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُحَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا آتَيْنَاهُمْ لَهُمْ جَهَنَّمُ دَاهِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١)

قوله تعالى : (والذين يحاجون في الله) رجع الى المشركين . (من بعد ما استجيب له)
 قال مجاهد : من بعد ما اسلم الناس . قال : وهؤلاء قد توهموا أن الجاهلية تعود . وقال قاتدة : الذين يجاجون في الله اليهود والنصارى ، ومحاجتهم قوله نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، وكانوا يرون لأنفسهم الفضيلة بأنهم أهل كتاب وأنهم أولاد الأنبياء . وكان المشركون يقولون : « أئِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنٌ نِدِيَا » فقال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُحَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا آتَيْنَاهُمْ لَهُمْ جَهَنَّمُ دَاهِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى لاثبات ها كالشىء الذى ينزل عن موضعه . والهاء فى « له » يجوز أن يكون لله عن وجىء ؛ أى من بعد ما وحدوا الله وشهدوا له بالوحدانية . ويجوز أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى من بعد ما استجيب له محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته من أهل بدر ونصر الله المؤمنين . يقال : دحّست جته دُحْوضاً بطلت . وأدحضها الله . والإدحاض : الإلزاق . ومكان دَحْض وَدَحَض أيضاً

(١) آية ٧٣ سورة مریم .

(بالتحرّيك) أى زلّق . ودَحْضَتْ رجْلُهُ تَدْحِضَ دَحْضًا زَلْقَتْ . ودَحْضَتْ الشَّمْسُ عَنْ كِبْدِ السَّمَاءِ زَالَتْ . (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) يُرِيدُ فِي الدُّنْيَا . (وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) يُرِيدُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ دَامِيٌّ .

قوله تعالى : **أَللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ** (١٧)

قوله تعالى : (أَللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ) يعني القرآن وسائر الكتب المنزلة . (بِالْحَقِّ) أى بالصدق . (وَالْمِيزَانَ) أى العدل ؛ قاله ابن عباس وأكثر المفسرين . والعدل يسمى ميزانا ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بين في الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه . وهذه الأقوال متقاربة المعنى . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذي يوزن به ، أنزله من السماء وعلم العباد الوزن به ؛ لئلا يكون بينهم تظلم وتباخس ؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولُ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » . قال مجاهد : هو الذي يوزن به . ومعنى أنزل الميزان هو إلهامه للخلق أن يعلموه ويتعلموا [به] . وقيل : الميزان مهد صلى الله عليه وسلم ، يقضى بينكم بكتاب الله . (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) فلم يخبره بها . يخضه على العمل بالكتاب والعدل والسوقية ، والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئ اليوم الذي يكون فيه المحاسبة وزن الأعمال ، فيوف لمن أوف ويطفف لمن طفف . فـ « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » أى منك وأنت لا تدرى . وقال : « قَرِيبٌ » ولم يقل قريبة ؛ لأن تأثيرها غير حقيق لأنها كالوقت ؛ قاله الزجاج . والمعنى : لعل البعث أو لعل بعثة الساعة قريب . وقال الكسائي : « قَرِيبٌ » نعت ينعت به المذكر والمؤنث والجمع بمعنى ولقيط واحد ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » . قال الشاعر :

وَكَأَقْرِبَانِ الْدِيَارِ بَعِيدَةٌ * فَلَمَّا وَصَلَنَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ غَبَنا

(١) آية ٢٥ سورة الحديد . (٢) آية ٥٦ سورة الأعراف . راجع ج ٧ من ٢٢٧ .

قوله تعالى : يَسْتَعِجِلُ إِلَيْهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ
لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (يَسْتَعِجِلُ إِلَيْهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا) يعني على طريق الاستهزاء ، ظنًا
منهم أنها غير آتية ، أو إيهاماً للضفة أنها لا تكون . (وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا) أى
خائفون وجلون لاستقصارهم أنفسهم مع الجهد في الطاعة ، كما قال : «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مَا آتَوْا^(١)
وَلُقُوبُهُمْ وَجْهَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجعون» . (وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ) أى التي لا شك فيها .
(أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ) أى يشكون ويخاصرون في قيام الساعة . (لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)
أى عن الحق وطريق الاعتبار ، إذ لو تذكروا لعلموا أن الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة
إلى أن بلغوا ما بلغوا ، قادر على أن يعثthem .

قوله تعالى : أَلَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَفْقَهُ
الْعَزِيزُ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (الله لطيف بعباده) قال ابن عباس : حفي بهم . وقال عكرمة :
بار بهم . وقال السدى : رفيق بهم . وقال مقاتل : لطيف بالبر والفاجر ، حيث لم يقتلهم
جوعاً بمعاصيهم . وقال القرظي : لطيف بهم في العرض والمحاسبة . قال :
غداً عند مولى الخلق للخلق موقف * يسألهم فيه الحليل وياطف

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين : ياطف بهم في الرزق من وجهين : أحدهما —
أنه جعل رزقك من الطيبات . والثانى — أنه لم يدفعه إليك مررة واحدة فتبذره . وقال
الحسين بن الفضل : لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره . وقال الحنيد : لطيف

(١) آية ٦٠ سورة المؤمنون .

بأولئك حتى عرفوه، ولو لطف بأعدائه لما بحدوه . وقال محمد بن علي^{رضي الله عنه} : اللطيف
بن بحراً إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل عليه ورجع إليه، فحينئذ يقبله ويقبل عليه .
وجاء في حديث النبي^{صلى الله عليه وسلم} : « إن الله تعالى يطلع على القبور الدوارس فيقول
جل وعنة امتحن آثارهم وأضحك صورهم وبق عليهم العذاب وأنا اللطيف وأنا أرحم الراحمين
خفقوا عنهم العذاب فيخفف عنهم العذاب » . قال أبو علي^{ثقة} رضي الله عنه :
أمر بأفباء القبور كأنني * أخو فطنة والتوب فيه نحيف
ومن شق فاه الله قدر رزقه * وربّي بن ياجاً إلىه لطيف

وقيل : اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب ، وعلى هذا قال النبي^{صلى الله عليه وسلم} : « يا من أظهر الجميل وستر القبيح » . وقيل : هو الذي يقبل القليل
ويبذل الحليل . وقيل : هو الذي يعبر الكسير وييسر العسير . وقيل : هو الذي لا يخاف
إلا عده ولا يرجى إلا فضله . وقيل : هو الذي يبذل لعبده النعمة فوق الهمة ويكفله
الطاعة فوق الطاقة ؛ قال تعالى : « وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا » ^(١) ، « وَاسْبِغْ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً
ظَاهِرَةً وَبِاطِنَةً » ^(٢) ، وقال : « وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ » ، « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَحْفَفَ
عَنْكُمْ » ^(٣) . وقيل : هو الذي يعين على الخدمة ويكثر المذلة . وقيل : هو الذي لا يتعجل
من عصاه ولا يحيط من رجاه . وقيل : هو الذي لا يريد سائله ولا يوئس آمله . وقيل :
هو الذي يعفو عن يهفو . وقيل : هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه . وقيل : هو الذي
أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجاً ، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجاً ، وأجزل
لهم من سحائب برء ماء مجاجاً . وقد مضى في « الأنعام » قول أبي العالية والجعند أيضاً .
وقد ذكرنا جميع هذا في (الكتاب الأسفى في شرح أسماء الله الحسنى) عند اسمه اللطيف ،
والحمد لله . ((يرزق من يشاء)) ويحرم من يشاء . وفي تفضيل قوم بالمال حكمة^٤ ليحتاج

(١) آية ٣٤ سورة إبراهيم . (٢) آية ٢٠ سورة لقمان . (٣) آية ٧٨ سورة الحج .

(٤) آية ٢٨ سورة النساء . (٥) راجع ج ٧ ص ٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

البعض إلى البعض؛ كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » ، فكان هذا لطفاً بالعباد . وأيضاً يتحقق الغنى بالفقير والفقير بالغنى ؟ كما قال : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعِيشِ فِتْنَةَ أَنْصَارِونَ » على ما تقدم بيانه . (وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) ^(١)

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرَثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ^(٢)

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرَثِهِ) الحرف العمل والكسب . ومنه قول عبد الله بن عمر : وَأَحْرَثَ لِدُنْيَاكَ كَأْنَكَ تَعِيشَ أَبْدًا وَأَعْمَلَ لِآخْرَتِكَ كَأْنَكَ تَمُوتَ غَدًّا . ومنه سمي الرجل حارثا . والمعنى : أى من طلب بما رزقناه حرتاً لآخرته ، فاذى حقوق الله وأنفق في إعزاز الدين ، فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشرة إلى سبعينه فأكثر . (وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الدُّنْيَا) أى طلب بالمال الذى آتاه الله رياسته الدنيا والتوصل إلى

المحظورات ، فإنما لا نحرمه الرزق أصلاً ، ولكن لا حظ له في الآخرة من ماله ؛ قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأَوْلَئِكَ كَانُوا سَعْيَهُمْ مُشْكُورًا » ^(٣)

وقيل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرَثِهِ » نوفقه للعبادة ونسهلها عليه . وقيل : حرت الآخرة الطاعة ؛ أى من أطاع فله الثواب . وقيل : « نَزِدْ لَهُ فِي حَرَثِهِ » أى نعطيه الدنيا مع الآخرة . وقيل : الآية في الغزو ؛ أى من أراد بغزو الآخرة أوى الثواب ، ومن أراد بغزوه الغنيمة أوى منها . قال القشيري : والظاهر أن الآية في الكافر ، يوسع له في الدنيا ؛ أى لا ينبغي له أن يفتر بذلك لأن الدنيا لا تبقى . وقال قتادة : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا . وقال أيضاً : يقول الله تعالى : « مَنْ عَمِلَ لِآخْرَتِهِ زَدَنَاهُ فِي عَمَلِهِ وَأَعْطَيْنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَتَبَنَا لَهُ وَمَنْ آتَدَنَاهُ عَلَى آخْرَتِهِ لَمْ نُجْعَلْ لَهُ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ

(١) آية ٣٢ سورة الزخرف . (٢) آية ٢٠ سورة الفرقان . راجع ج ١٣ ص ١٨

(٣) آية ١٨ وما بعدها سورة الإسراء .

إلا النار ولم يصب من الدنيا إلا رزقا قد قسمناه له لا بد أن كان يؤتاه مع إيشار أو غير إيشار^(١) . وروى جوبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : وقوله عن وجع : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الْآخِرَةِ » من كان من الأبرار يريد بعمله الصالح ثواب الآخرة « تَرْدَلَ فِي حَرَثِهِ » أى في حسناته . « وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرَثَ الدُّنْيَا » أى من كان من الفجّار يريد بعمله الحسن الدنيا « تُؤْتَهُ مِنْهَا » ثم نسخ ذلك في سبحان : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَسَأْ لَمَنْ نَرِيدُ » . والصواب أن هذا ليس بنسخ ، لأن هذا خبر والأشياء كلها بوارادة الله عز وجل . ألا ترى أنه قد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَقُلُّ أَحَدٌ كُمُ اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِإِن شَئْتَ اللَّهُمَّ أَرْحَمْنِي إِن شَئْتَ » . وقد قال قتادة ما تقدم ذكره ، وهو يبين لك أن لا نسخ . وقد ذكرنا في « هود » أن هذا من باب المطلق والمقيّد ، وأن النسخ لا يدخل في الأخبار . والله المستعان .

مسألة : هذه الآية تبطل مذهب أبي حنيفة في قوله : إنه من توضاً تبرداً أنه يجزيه عن فريضة الوظيفة الموظف عليه ؛ فإن فريضة الوظيفة من حرث الآخرة والتبرد من حرث الدنيا ، فلا يدخل أحدهما على الآخر ، ولا تجزى نيته عنه بظاهر هذه الآية ؛ قاله ابن العربي .

قوله تعالى : أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا لَمْ يَأْذِنْ لَهُمْ اللَّهُ وَلَوْلَا كَمَةً أَلْفَضَلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٢)

قوله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ) أى لهم ! والميم صلة والهمزة للتقرير . وهذا متصل بقوله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا » ، وقوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ » كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلة شرعاً لهم الشرك الذي لم يأذن به الله ! وإذا استحال هذا فالله لم يشرع الشرك ، فمن أين يدينون به . (وَلَوْلَا كَمَةً أَلْفَضَلِ) يوم

(١) آية ١٨ (٢) رابع ج ٩ ص ١٤

القيامة حيث قال : «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» . (لَقُضَى بَيْنَهُمْ) في الدنيا ، فما عاجل الظالم بالعقوبة وأثاب الطائع . (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ) أى المشركين . (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في الدنيا القتل والأسر والقهقر ، وفي الآخرة عذاب النار . وقرأ ابن هُرْمَز «وَأَنْ» بفتح المهمزة على العطف على «وَلَوْلَا كَلِمَةً» والفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب «لولا» جائز . ويجوز أن يكون موضع «أَنْ» رفعا على تقدير : وجوب أن الظالمين لهم عذاب أليم ؛ فيكون منقطعنا بما قبله كقراءة الكسر ، فـأَعْلَمُه .

قوله تعالى : تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مَا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ دِرْهَمٌ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَسَاءُونَ
عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ ۲۲

قوله تعالى : (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ) أى خائفين (مَا كَسَبُوا) أى من جراء ما كسبوا . والظالمون هاهما الكافرون ؛ بدليل التقسيم بين المؤمن والكافر . (وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ) أى نازل بهم . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ) الروضة : الموضع التَّرِهُ الكثير الخضرة . وقد مضى في «الروم» . (لَهُمْ مَا يَسَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) أى من النعم والثواب الحزيل . (ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) أى لا يوصف ولا تهتدى العقول إلى كثافة صفتة ؛ لأن الحق إذا قال كبير فمن ذا الذي يقدر قدره .

قوله تعالى : ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ
يَقْتَرِفْ حَسَنَةً تَنْزِدُ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝ ۲۳

قوله تعالى : «**ذَلِكَ الَّذِي يُشَرُّ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا**» فرئ «يُشرّ» من بشره ، «**وَيُنْشَرُ**» من أبشره ، «**وَيُنَسِّرُ**» من بشره ، وفيه حذف ، أى ينشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجداً في الطاعة .

قوله تعالى : «**قُلْ لَا أَسَالُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى**» فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : «**قُلْ لَا أَسَالُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**» أى قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلاً . «**إِلَّا المَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى**» قال الزجاج : «إلا المودة» استثناء ليس من الأول ، أى إلا أن تَوَدُونِي لقرباني فتحفظوني . والخطاب لقريش خاصة ، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو مالك والشعبي وغيرهم . قال الشعبي : أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ، فكتب أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس في قريش ، فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده ، فقال الله له : «**قُلْ لَا أَسَالُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى**» إلا أن تَوَدُونِي في قرباني منكم ، أى تراغوا ما بيني وبينكم فتصدقوني . فـ «**الْقُرْبَى**» هنا قرابة الرحم ، كأنه قال : اتبعوني للقرابة إن لم تتعونني للنبيوة . قال عكرمة : وكانت قريش تصطل أرحامها فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قطعته ، فقال : «**صِلُونِي كَا كَتَمْ تَفْعَلُونَ**» . فالمعنى على هذا : قل لا أسألكم عليه أجرا لكن أذركم قرباني ، على أنه استثناء ليس من الأول ، ذكره النحاس . وفي البخاري عن طاوس عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى : «**إِلَّا المَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى**» فقال سعيد بن جعير :

قُرْبَى آل محمد ، فقال ابن عباس : سخلت ! إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كاف له فيما قربة ، فقال : إلا أن تصطلوا ما بينكم من القرابة . فهذا قول . وقيل : القربي قربة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى لا أسألكم أجرا إلا أن تَوَدُوا قرباتي وأهل بيتي ، كما أمر بإعظامهم ذوى القربي . وهذا قول على بن حسين وعمرو بن شعيب والسدى . وفي رواية سعيد بن جعير عن ابن عباس : لما أنزل الله عن وجل : «**قُلْ لَا أَسَالُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى**» قالوا : يا رسول الله ، من

هؤلاء الذين نَوَّدُهم ؟ قال : ”علي“ وفاطمة وأبناؤها“ . ويدل عليه أيضاً ما روى عن عليه رضي الله عنه قال : شكوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حسد الناس لي . فقال : ”أما ترضى أن تكون رابعاً أربعة أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيمنا وشمايلنا وذريتنا خلف أزواجنا“ . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ”حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وأذانى في عترتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يمحازه عليها فأنما أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيمة“ . وقال الحسن وفتاده : المعنى إلا أن يتوددوا إلى الله عن وجل ويتقربوا إليه بطاعته . فـ »القربي« على هذا بمعنى القربة . يقال : قربة وقربى بمعنى ؛ كالزلفة والزلفى . وروى قرعة بن سعيد عن ابن أبي تجبيح عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ”قل لا أسألكم على ما آتتكم به أجراً إلا أن تواذوا وتقربوا إليه بالطاعة“ . وروى منصور وعوف عن الحسن »قل لا أسألكم عليه أجراً إلا الموعدة في القربي« . قال : يتوددون إلى الله عن وجل ويتقربون منه بطاعته . وقال قوم : الآية منسوخة وإنما نزلت بمكة ؛ وكان المشركون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وأمرهم الله بمودة نبيه صلى الله عليه وسلم وصلة رحمه ؛ فلما هاجر آلوته الأنصار ونصروه ، وأراد الله أن يلحقوه بما خوانه من الأنبياء حيث قالوا »وما أسلنك عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ« ^(١) ؛ فأنزل الله تعالى »قل مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ« ^(٢) فنسخت بهذه الآية وبقوله : »قل مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَافِينَ« ^(٣) ، وبقوله : »أَمْ تَسَاهِلُمْ خَرْجًا نَخْرَاجُ رِبَّكَ خَيْرٌ« ^(٤) ، ورواه جوبر عن الضحاك عن ابن عباس . قال الشعابي : وليس بالقوى ؛ وكفى قبحاً بقول من يقول : إن التقرب إلى الله بطاعته موعدة نبيه صلى الله عليه وسلم وأهل بيته منسوخ ؛ وقد

(١) آية ١٠٩ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ سورة الشعراء .

(٢) آية ٤٧ سورة الشورى .

(٣) آية ٨٦ سورة ص .

(٤) آية ٧٢ سورة المؤمنون .

سورة القلم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من مات على حُبَّ آل مُهَمَّد مات شهيداً . ومن مات على حُبَّ آل مُهَمَّد جعل الله زقار قبره الملائكة والرحمة ، ومن مات على بُغْضِ آل مُهَمَّد جاء يوم القيمة مكتوباً بين عينيه أيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بُغْضِ آل مُهَمَّد لم يرج راححة الجنة . ومن مات على بُغْضِ آل بَقْتَنِي فلا نصيب له في شفاعتي " .

قلت : وذكر هذا الخبر الزمخشرى في تفسيره بأطول من هذا فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات على حُبَّ آل مُهَمَّد مات شهيداً ألا ومن مات على حُبَّ آل مُهَمَّد مات مؤمناً مستكلاً بالإيمان . ألا ومن مات على حُبَّ آل مُهَمَّد بشارة ملك الموت بالجنة ثم متَّكِر ونكير . ألا ومن مات على حُبَّ آل مُهَمَّد فُتح له في قبره باباً إلى الجنة . ألا ومن مات في حُبَّ آل مُهَمَّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة . ألا ومن مات على حُبَّ آل مُهَمَّد مات على السنة والجماعة . ألا ومن مات على بُغْضِ آل مُهَمَّد جاء يوم القيمة مكتوباً بين عينيه أيس من رحمة الله . ألا ومن مات على بُغْضِ آل مُهَمَّد مات كافراً . ألا ومن مات على بُغْضِ آل مُهَمَّد لم يَشْرِمْ راححة الجنة " . قال النحاس : ومذهب عِجمة ليست بمنسوخة ؟ قال : كانوا يصلون أرحامهم فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قطعوه فقال : " قل لا أستلم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّني وتحفظوني لقرباني ولا تكذبوني " .

قلت : وهذا هو معنى قول ابن عباس في البخاري والشعبي عنه بعينه ؛ وعليه لأنسخ . قال النحاس : وقول الحسن حسن ، ويدل على صحة الحديث المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حديثنا أَحْمَد بن محمد الأَزْدِي قال أخبرنا الربيع بن سليمان المرادي قال أخبرنا أَسْد (٢) آن موسى قال حديثنا قَزَّعَة — وهو ابن يزيد البصري — قال حديثنا عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا أستلم على ما أَنْبَثْتُكُمْ به من البيانات والمُهَدَّى أجرًا إلا أن تواذوا الله عنِّي وجل وأن تقربوا إلينه بطاعتِه " . فهذا المبين عن الله عنِّي وجل قد قال هذا ، وكذا قالت الأنبياء صلوا الله عليهم قبله : « إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ » .

(١) أي لم يشم ريحها ؛ يقال : راح رَبِيع ، وراح رَبَّاع ، وأراح رِبَّاع . والتلاته قد روی بها الحديث .

(٢) تقدم أنه قَزَّعَة بن سويذ ؛ وهو من يروى عن ابن أبي نجيح . (راجع تهذيب التهذيب) .

الثانية - واختلفوا في سبب نزولها ؛ فقال ابن عباس : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانت تنبه نواب حقوق لا يسعها ما في يديه ؛ فقالت الأنصار : إن هذا الرجل هداكم الله به وهو ابن أخيكم ، وتنبه نواب حقوق لا يسعها ما في يديه فنجتمع له ؛ ففعلوا ، ثم أتوا به فنزلت . وقال الحسن : نزلت حين تناحرت الأنصار والمهاجرون ، فقالت الأنصار نحن فعلنا ، ونفرت المهاجرون بقربتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى مَقْسُمٌ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئاً خَطَبَ فَقَالَ لِلنَّصَارَى: "أَلَمْ تَكُونُوا أَذْلَاءَ فَاعْزَمَ اللَّهُ بِي . أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي . أَلَمْ تَكُونُوا خَانِفِينَ فَأَقْنَمْتُكُمُ اللَّهُ بِي أَلَا تَرْدُونَ عَلَىٰ"؟ فَقَالُوا: يَمْ بَحِبِّكَ؟ قَالَ: "تَقُولُونَ أَلَمْ يَطْرُدَكُمْ قَوْمُكُمْ فَأَوْيَنَاكُمْ . أَلَمْ يَكْذِبَكُمْ قَوْمُكُمْ فَصَدَقَنَاكُمْ ... " فَعَدَدُ عَلَيْهِمْ . قَالَ: بَخْشُوا عَلَىٰ رَبِّكُمْ فَقَالُوا: أَنفُسُنَا وَأَمْوَالُنَا لَكُمْ ؛ فَنَزَلتْ: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» . وَقَالَ قَاتَدَةَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لَعَلَّ مَهْدًا فِيهَا يَتَعَاطَاهُ يَطْلُبُ أَجْرًا، فَنَزَلتْ هَذِهِ الْآيَةُ، لِيَحْتَمِلُوا مَوْدَتَهُ وَمَوْدَةَ أَقْرَبَائِهِ . قَالَ التَّعْلِيَّ: وَهَذَا أَشْبَهُ بِالْآيَةِ، لِأَنَّ السُّورَةَ مَكْيَةَ .

قوله تعالى : ((وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً)) أى يكتسب . وأصل القرف الكسب ؛
يقال : فلا يَقْرِفُ لِعِيَالَهِ ؛ أى يكتسب . والاقتراض الاكتساب ؛ وهو مأخوذ من قوله :
رجل قرفة ، إذا كان محتلاً . وقد مضى في «الأنعم» القول فيه . وقال ابن عباس :
«وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» قال المؤذنة لآل محمد صلى الله عليه وسلم . ((نَزَدَ لَهُ فِيهَا حُسْنَةً))
أى نضاعف له الحسنة بعشر فصاعدًا . ((إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ)) قال قاتادة : «غفور» للذنب ،
«شكور» للحسنات . وقال السُّدَّى : «غفور» لذنب آل محمد عليه السلام ، «شكور» لحسناتهم .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَسِئَ اللَّهُ يَخْتَمْ
عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَعْنِي اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْقِقُ الْحَقَّ يُكَلِّمُهُ إِنَّهُ عَلَيْهِ
بِذَاتِ الْصَّدُورِ

(١) راجع ج ٧ ص ٧٠

قوله تعالى : «أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» الميم صلة ، والتقدير أيقولون افترى .
 واتصل الكلام بما قبل ، لأن الله تعالى لما قال : «وَقُلْ أَمْنَتْ إِيمَانَكَ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ»^(١)
 وقال «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» قال إنما للبيان : «أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»^(٢)
 يعني كفار قريش قالوا : إن مهدا اختلق الكذب على الله . «فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَعْلَمُ» شرط
 وجوداته . «عَلَى قَلْبِكَ» قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن ، فأخبرهم الله أنه لو افترى
 عليه لفعل محمد ما أخبرهم به في هذه الآية . وقال معاذ ومقاتل : «إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ» يربط
 على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يدخل قلبك مشقة من قوله . وقيل : المعنى إن يشاء ينزل
 تميزك . وقيل : المعنى لو حدثت نفسك أن تفترى على الله كذباً لطبع على قلبك ؛ قاله
 ابن عيسى . وقيل : فإن يشاء الله يختم على قلوب الكفار وعلى أسلتهم واعجلهم بالعقاب .
 فالخطاب له والمراد الكفار ، ذكره القشيري . ثم ابتدأ فقال : «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» قال
 ابن الأنباري : «يختم على قلبك» تمام . وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : والله
 يمحو الباطل ، خدف منه الواو في المصحف ، وهو في موضع رفع . كما حذفت من قوله
 «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَّةَ» ، «وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ» ولأنه عطف على قوله «يختم على قلبك» . وقال الزجاج :
 قوله «أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» تمام ، وقوله «ويمح الله الباطل» احتجاج على من أنكر
 ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، أى لو كان ما أتى به باطل لمحاه كما جرت به عادته في المفترين .
 «وَيَحْقِيقُ الْحَقَّ» أى الإسلام في شبهه (يكلمه) أى بما أنزله من القرآن . «إِنَّهُ عَلَيْهِ بِدَائِتِ
 الصَّدُورِ» عام ، أى بما في قلوب العباد . وقيل خاص . والمعنى أنك لو حدثت نفسك أن
 تفترى على الله كذباً لم يعلمك وطبع على قلبك .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ الْتَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ
 آسِئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ^(٣)

(١) آية ١٥ من هذه السورة . (٢) آية ١٧ من هذه السورة .

(٣) آية ١٨ سورة العنكبوت . (٤) آية ١١ سورة الإسراء .

قوله تعالى : «وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ» قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى
 «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى» قال قوم في نفوسهم : ما يريد إلا أن يختesta
 على أقاربها من بعده ؟ فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم قد آتتهموه فأنزل «أَمْ يَقُولُونَ
 افترى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» الآية ؟ فقال القوم : يا رسول الله ، فانا نشهد أنك صادق ونستوب .
 فنزلت : «وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ» . قال ابن عباس : أى عن أوليائه وأهل طاعته ،
 والآية عامة . وقد مضى الكلام في معنى التوبة وأحكامها ، ومضى هذا اللفظ في «براءة» ،
 (وَيَغْفُلُ عَنِ السَّيِّئَاتِ) أى عن الشرك قبل الإسلام . (وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) أى من الخير
 والشر . وقرأ حمزة والكسائي ومحسن وخافف بالباء على الخطاب ، وهي قراءة ابن مسعود
 وأصحابه . الباقون بالياء على الخبر ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه بين خبرين : الأقل
 وهو «وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ» والثاني «وَيَسْتَجِيبُ الدِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» .

قوله تعالى : وَيَسْتَجِيبُ الدِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ
 مِّنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

«الدين» في موضع نصب ؛ أى ويستجيب الله الذين آمنوا ، أى يقبل عبادة من أخلص
 له بقلبه وأطاع بيده . وقيل : يعطفهم مسألتهم إذا دعوه . وقيل : ويحيي دعاء المؤمنين
 بعضهم البعض ؛ يقال : أجاب واستجاب بمعنى ، وقد مضى في «البقرة» . وقال ابن عباس :
 «ويستجيب الدين آمنوا وعملوا الصالحات» يشفعهم في إخوانهم . «وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ»
 قال : يشفعهم في إخوان إخوانهم . وقال المبرد : معنى «ويستجيب الدين آمنوا»
 وليسدع الدين آمنوا الإجابة ؛ هكذا حقيقة معنى استفعل . فـ«الذين» في موضع رفع .
 (وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

(١) راجع ج ٥ ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) آية ٤١ راجع ج ٨ ص ٢٥٠

(٣) راجع ج ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الْرِزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**
وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بِصَيْرٍ (٢٧)
 فيه مسائل :

الأولى – في نزولها، قيل: إنها نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق . وقال خباب بن الأرت : فيينا نزلت ؛ نظرنا إلى أموال بني النضير وقريةة وبني قينقاع فتمتنيناها فنزلت . (ولو بسط) معناه وسع . وبسط الشيء نشره . وبالصاد أيضا . (لبغوا في الأرض) طغوا وعصوا . وقال ابن عباس : بغيرهم طلهم متزلة بعد منزلة ودابة بعد دابة ومركبًا بعد مركب وملبسًا بعد ملبس . وقيل أراد لو أعطاهم الكثير لطليوا ما هو أكثر منه ، لقوله : ”لو كان لأبن آدم واديان من ذهب لا ينفع إيهما ثالثا“ وهذا هو البغي ، وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : لو جعلناهم سواء في المال لما انقاد بعضهم لبعض ، ولتعطلت الصنائع . وقيل : أراد بالرزيق المطر الذي هو سبب الرزق ؛ أى لو أدام المطر لتشاغلوا به عن الدعاء ، فيقضى تارة ليتضارعوا ويسقط أخرى ليشكروا . وقيل : كانوا إذا أخصبوا أغار بعضهم على بعض ؟ فلا يبعد حمل البغي على هذا . الزمخشري : « لبغوا » من البغي وهو الظلم ؛ أى لبغى هذا على ذاك وذاك على هذا ، لأن الغنى مبشرة مأشرة ، وكفى بقارون عبرة . ومنه قوله عليه السلام : ”أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّى زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَكُرْتَهَا“ . ولبعض العرب :
 وقد جعل الوسيئ يثبت بيننا * وبين بني دودان نبعاً وشوحطاً (١)
 يعني أنهم أحبو خذلوا أنفسهم بالبغي والتابن . أو من البغي وهو البدخ والكبر ؛ أى لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد . (ولكن ينزل بقدر ما يشاء)
 أى ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكتفائهم . وقال مقاتل : « ينزل بقدر ما يشاء » يجعل من
 يشاء غنياً ومن يشاء فقيراً .

(١) الرمي : مطر أقل الربيع . والنبع والشوحط : شجر من أشجار الجبال تأخذ منه الفم . وفي سخ الأصل وبعض كتب التفسير : « ... بن رومان » . ودردان : أبو قبيلة من أسد .

الثانية — قال علماً ونا : أفعال الرب سبحانه لا تخلو عن مصالح وإن لم يحب على الله الاستصلاح ؛ فقد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوي عنه الدنيا ، مصلحة له . فليس ضيق الرزق هوأنا ولا سعة الرزق فضيلة ؛ وقد أعطى أقواماً مع علمه أنهم يستعملونه في الفساد ، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصلاح . والأمر على الجملة مفوض إلى مشيئته ، ولا يمكن الترام مذهب الاستصلاح في كل فعل من أفعال الله تعالى : وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب تبارك وتعالى قال : ” من أهان لي ولِيَا فقد بارزني بالمحاربة وإن لأسرع شيء إلى نصرة أولياني وإن لاغضب لهم كما يغضب الليث الحَرِيد . وما ترددت في شيء أنا فاعله تردد في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءاته ولا بد له منه ، وما تقرب إلى عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إلى بالتوافق حتى أحبه فإذا أحبيته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً فإن سألني أعطيته وإن دعاني أحبته . وإن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإن علِم أن لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده . وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفرغته لأفسده الفقر . وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنته لأفسده الغنى . وإن لأدبر عبادي لعلى بقلوبهم فإني علِم خيراً ، ثم قال أنس : اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفرقني برحمتك . ”

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ
رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْخَمِيدُ ^(٢٨)

قرأ ابن كثير وابن حميم وحميد ومجاهد وأبو عمرو ويعقوب وابن وَنَاب والأعمش وجزة والكسائي « يُنَزِّل » مخففاً . الباقيون بالتشديد . وقرأ ابن وَنَاب أيضاً والأعمش وغيرهما ^(١) « قَنَطُوا » بكسر النون ؛ وقد تقدم جميع هذا . والغيث المطر ؛ وسمى الغيث غيناً لأنه يغيث

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٦٦ ، ٦٧٠ وج ١٤ ص ٣٤

الخلق . وقد غاث الغيث الأرض أى أصابها . وغاث الله البلاد بغيثها غياثاً . وغيث الأرض تغاث غياثاً فهى أرض مغيبة ومحبونة . وعن الأصمعي قال : مررت ببعض قبائل العرب وقد مطرروا فسألت عجوزا منهم : أتاك المطر ؟ فقالت : غياثاً ما شئنا غياثاً ، أى مطرنا . وقال ذو الرقة : قاتل الله أمّة بني فلان ما أفسحها ! قلت لها كيف كان المطر عندكم ؟ فقالت : غياثاً ما شئنا . ذكر الأول الثعلبي والثانى الجوهري . وربما سمى السحاب والنبات غياثاً . والقونوط الإياس ؛ قاله قادة وغيره . قال قادة : ذكر أن رجلاً قال لعمربن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، خط المطر وقل الغيث وفنت الناس ؟ فقال : مطرتم إن شاء الله ، ثم قرأ « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا » . والغيث ما كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وضاراً في وقته وغير وقته ؛ قاله المأوردي . ((وينشر رحمته)) قيل المطر ، وهو قول السدى . وقيل ظهور الشمس بعد المطر ، ذكره المهدوى . وقال مقاتل : نزلت في حبس المطر عن أهل مكة سبع سنين حتى قنطوا ، ثم أزال الله المطر . وقيل : نزلت في الأعرابي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المطر يوم الجمعة في خبر الاستسقاء ؛ ذكره القشيري ، والله أعلم . ((وهو الولي الحميد)) « الولي » الذى ينصر أولياءه . « الحميد » محمود بكل لسان . قوله تعالى : **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِنْ دَآبَةٍ وَهُوَ عَلَى جَمِيعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ**

قوله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) أى علاماته الذالة على قدرته . ((وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِنْ دَآبَةٍ)) قال مجاهد : يدخل في هذا الملائكة والناس ، وقد قال تعالى : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال الفراء : أراد ما بث في الأرض دون السماء ؛ كقوله « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج من الملح دون العذب . وقال أبو علي : تقديره وما بث في أحدهما ، خذف المضاف . وقوله « يخرج منها » أى من أحدهما . ((وَهُوَ عَلَى جَمِيعِهِمْ)) أى يوم القيمة . ((إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)) .

(١) آية ٨ سورة النحل .

قوله تعالى : **وَمَا أَصَابُكُمْ مِنْ مُّصِيَّةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
عَنْ كَثِيرٍ** (١) **وَمَا أَنْتُ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ** **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ**
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢)

قوله تعالى : **(وَمَا أَصَابُكُمْ مِنْ مُّصِيَّةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ)** قرأ نافع وابن عامر
«بِمَا كَسَبْتَ» بغير فاء . الباقيون «بِمَا» بالفاء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم للزيادة في الحرف
والأجر . قال المهدوي : إن قدرت أن «ما» الموصولة جاز حذف الفاء وإثباتها ، والإثبات
أحسن . وإن قدرتها التي للشرط لم يجز الحذف عند سيبويه ، وأجازه الأخفش واحتج
بقوله تعالى : **وَإِنْ أَطْعَمْتُهُمْ إِنَّكَ لَمَشِيرُونَ** (١) . والمصيبة هنا الحدود على المعاصي ؛ قاله
الحسن . وقال الضحاك : ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ؟ قال الله تعالى :
وَمَا أَصَابُكُمْ مِنْ مُّصِيَّةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ ثم قال : وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟
ذكره ابن المبارك عن عبد العزيز بن أبي رقاد . قال أبو عبيد : إنما هذا على الترك ،
فأما الذي هو دائـب في تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك في شيء .
ومما يتحقق ذلك أن النبي صلـى الله عليه وسلم كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكـره ؛ من ذلك
حديث عائشة عن النبي صلـى الله عليه وسلم : سمع قراءة رجل في المسجد فقال : «ماله رحـمه
الله لقد أذكرني آيات كنت أنسـيتها من سورة كذا وكذا» . وقيل : «ما» بمعنى الذي ،
والمعنى الذي أصابـكم فيما مضـى بما كـسبـتـ أـيـدـيـكـمـ . وقال عـلـى رـضـى الله عـنـهـ : هـذـهـ الآـيـةـ أـرـجـىـ
آـيـةـ فـيـ كـاـبـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ . وـإـذـ كـانـ يـكـفـرـ عـنـ الـمـصـاـبـ وـيـعـفـوـ عـنـ كـثـيرـ فـايـقـ بـعـدـ
كـفـارـتـهـ وـعـفـوـهـ ! وـقـدـ روـيـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ مـرـفـوـعـاـ عـنـ رـضـىـ اللـهـ عـنـهـ ، قال عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ
رضـىـ اللـهـ عـنـهـ : أـلـاـ أـخـبـرـكـ بـأـفـضـلـ آـيـةـ فـيـ كـاـبـ اللـهـ حـدـثـنـاـ بـهـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ «وـمـاـ أـصـابـكـ

من مصيبة فيما كسبت أيديكم» الآية . «يا عـلـىـ ما أـصـابـكـ مـنـ مـرـضـ أـوـ عـقـوـبـةـ أـوـ بـلـاءـ
فـيـ الدـنـيـاـ فـيـماـ كـسـبـتـ أـيـدـيـكـمـ . وـالـلـهـ أـكـرـمـ مـنـ أـنـ يـتـنـيـ عـلـيـكـ الـعـقـوـبـةـ فـيـ الـآـنـرـةـ وـمـاـ عـفـاـ عـنـهـ

(١) آية ١٢١ سورة الأنعام .

فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ أَحَلَّ مِنْ أَنْ يَعْاقِبَ بَهْ بَعْدَ عَفْوِهِ» . وَقَالَ الْخَيْرُ : لَمَّا نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَا مِنْ اخْتِلاَجٍ عَرْقٌ وَلَا خَدْشٌ عُودٌ وَلَا نَكْبَةٌ حِجْرٌ إِلَّا بَذَنْبٍ وَلَا يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرٌ» . وَقَالَ الْخَيْرُ : دَخَلْنَا عَلَى عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ فَقَالَ رَجُلٌ : لَا بَدْ أَنْ أَسْأَلَكَ عَمَّا أَرَى بِكَ مِنَ الْوَجْعِ ؟ فَقَالَ عُمَرٌ : يَا أَنْتَ لَا تَفْعَلْ ! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ الْوَجْعَ وَمِنْ أَحْبَبِهِ كَانَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيرَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوُنَّ عَنْ كَثِيرٍ» فَهَذَا مَا كَسَبْتُ يَدِي ، وَعَفَّوْرَبِي عَمَّا يَبْقَى أَكْثَرٌ . وَقَالَ مُرَّةً الْمَهْمَدَانِيُّ : رَأَيْتُ عَلَى ظَهِيرَكَفْ شُرِيعَ قُرْحَةً فَقُلْتُ : يَا أَبَا أُمِيَّةَ ، مَا هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا بِمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوُنَّ عَنْ كَثِيرٍ . وَقَالَ أَبُو عَوْنَ : إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ لَمَّا رَكِبَهُ الدَّيْنَ أَغْمَمَ لِذَلِكَ فَقَالَ : إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا الْفَمَ ، هَذَا بَذَنْبٌ أَصَبْتَهُ مِنْذَ أَرْبَعينَ سَنَةً . وَقَالَ أَحْمَدُ^(١) أَبُو الْحَوَارِيِّ قِيلَ لِأَبِي سَلِيْمَانَ الدَّارَانِيِّ : مَا بَالِ الْعَقَلَاءِ أَزَالُوا الْلَّوْمَ عَنْ أَسَاءِ إِلَيْهِمْ ؟ فَقَالَ : لَا تَهْمَمُ عَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا ابْتَلَاهُمْ بِذَنْبِهِمْ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَصِيرَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوُنَّ عَنْ كَثِيرٍ» . وَقَالَ عَرْكَمَةُ : مَا مِنْ نَكْبَةٍ أَصَابَتْ عَبْدًا فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا بَذَنْبٍ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيغْفِرُهُ لَهُ إِلَّا بَهَا أَوْ لَيَنْالَ دَرْجَةً لَمْ يَكُنْ يَوْصَلُهُ إِلَيْهَا إِلَّا بَهَا . وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِمُوسَى : يَا مُوسَى سُلِّ اللَّهُ لِي فِي حَاجَةٍ يَقْضِيهَا لِي هُوَ أَعْلَمُ بِهَا ؛ فَفَعَلَ مُوسَى ؛ فَلَمَّا نَزَلَ إِذَا هُوَ بِالرَّجْلِ قَدْ مَزَقَ السَّبِيعَ لَهُ وَقْتَهُ ؛ فَقَالَ مُوسَى : مَا بَالِ هَذَا يَا رَبِّي ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى لَهُ : «يَا مُوسَى إِنَّهُ سَأَلَنِي درْجَةً عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَلْفَغْهَا بِعَمَلِهِ فَأَصَبَبْتَهُ بِمَا تَرَى لِأَجْعَلَهَا وَسِيلَةً لَهُ فِي نَيْلِ تَلْكَ الدَّرْجَةِ» . فَكَانَ أَبُو سَلِيْمَانَ الدَّارَانِيُّ إِذَا ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ يَقُولُ : سَبِّحَنَ مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَنْلِيَهُ تَلْكَ الدَّرْجَةَ بِلَا بَلْوَى ! وَلَمْ يَكُنْهُ يَفْعَلْ مَا يَشَاءُ .

قالت : ونظير هذه الآية في المعنى قوله تعالى «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ» وقد مضى القول
 فيه ^(٢) قال علماؤنا : وهذا في حق المؤمنين ، فاما الكافر فعقوبته مؤخرة الى الآخرة . وقيل :
 هذا خطاب للكافر ، وكان إذا أصابهم شر قالوا : هذا بشؤم محمد ؛ فرد عليهم وقال بل ذلك

(١) ضبط كسكاري (بالفتح) أو أحد الحواريين (شرح القاموس) . (٢) راجع ج ٥ ص ٣٩٦

بشُؤم كفركم . والأول أكثر وأظاهر وأشهر . وقال ثابت البُناني : إنه كان يقال ساعات الأذى يذهبن ساعات الخطايا . ثم فيها قولان : أحدهما — أنها خاصة في البالغين أن تكون عقوبة لهم ، وفي الأطفال أن تكون مثوبة لهم . الثاني — أنها عقوبة عامة للبالغين في أقسامهم والأطفال في غيرهم من والد ووالدة . ((وَيَعْفُونَ كَثِيرٌ)) أى عن كثير من المعاصي إلا يكون عليها حدود ، وهو مقتضى قول الحسن . وقيل : أى يغفو عن كثير من العصاة ألا يجعل عليهم بالعقوبة . ((وَمَا أَتَمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)) أى بما تبين الله ، أى لن تعيجزوه ولن تفتوه ((وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)) تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : **وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ** (١) إن يسألاً يُسْكِنَ الْرَّيْحَ فَيَظْلَلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهِيرَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ تِكْلِي صَبَارٍ شَكُورٍ (٢)

قوله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)) أى ومن علاماته الدالة على قدرته السفن البحارية في البحر كأنها من عظمها أعلام . والأعلام : الجبال ، واحد الجوادى جارية ، قال الله تعالى : «إِنَّمَا طَغَى الْمَاءُ حَلَّنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» . سُمِيت جارية لأنها تجري في الماء . وبالiliarية : هي المرأة الشابة ، سُمِيت بذلك لأنها يجري فيها ماء الشباب . وقال مجاهد : الأعلام القصور ، واحدتها علم ، ذكره التعلي . وذكر الماء ردى عنه أنها الجبال . وقال الخليل : كل شيء مرتفع عند العرب فهو علم . قالت الخنساء ترقى أخاها صخراً وإن صخراً لتأتِ الْهُدَاءَ بِهِ * كَانَهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَار

((إِنْ يَسَأْ يُسْكِنَ الرَّيْحَ)) كذا قرأه أهل المدينة «الرياح» بالجمع . ((فَيَظْلَلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهِيرَةٍ)) أى فتبقى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجري . رَكَدَ الماء ركوداً سكن . وكذلك الريح والسفينة ، والشمس إذا قام قائم الظهيرة . وكل ثابت في مكان فهو راكد . وركد

(١) راجع ج ٢ ص ٦٩ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة الحاقة .

الميزان آسٹوی . ورَكَ القوم هَدَءُوا . والمراد كـ : الموضع التي يُرْكَد فيها الإنسان وغيره . وقرأ فتادة «**فَيَظْلِلُنَّ**» بكسر اللام الأولى على أن يكون لغة ، مثل ضلال أضل . وفتح اللام هي اللغة المشهورة . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) أي دلالات وعلامات (لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ) أي صبار على البلوى شكور على النعاء . قال قُطْرُب : نعم العبد الصبار الشكور ، الذي إذا أعطي شكر وإذا أَبْتَلِي صبر . قال عَوْنَ بن عبد الله : فَكُمْ مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ غَيْرُ شَاكِرٍ ، وَكُمْ مِنْ مُبْتَلٍ غَيْرُ صَابِرٍ .

قوله تعالى : **أَوْ يُوْقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ** (٢٥) **وَيَعْلَمُ**
الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي حَاجَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِيمِصٍ (٢٦)

قوله تعالى : (أَوْ يُوْقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا) أي وإن يشا يجعل الرياح عواصف فيوب السفن ؛ أي يغرقهن بذنب أهلها . وقيل : يوبق أهل السفن . (وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) من أهلها فلا يفرقهم معها ؛ حكاه الماوردي . وقيل : « ويغفو عن كثير » أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك . قال القُشَيْرِي : والقراءة الفاشية « **وَيَعْفُ** » بالحزم ، وفيها إشكال ؛ لأن المعنى : إن يشا يسكن الريح فتبقي تلك السفن رواً كـ ويهلكها بذنب أهلها ، فلا يحسن عطف « **يعف** » على هذا ، لأنـه يصير المعنى : إن يشا يعف ، وليس المعنى ذلك بل المعنى الاخبار عن العفو من غير شرط المشيئة ، فهو إذاً عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى . وقد قرأ قوم « **وَيَعْفُ** » بالرفع ، وهي جيدة في المعنى . (وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ فِي حَاجَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِيمِصٍ) يعني الكفار ؛ أي إذا توسلوا البحر وغضيـتهم الـريـاح من كل مكان أو بقيـت السـفن رـواـكـد عـلمـوا أـنـه لا مـلـجاـ لهم سـوى الله ، ولا دافـع لهم إن أـرادـ الله إـهـلاـكـهم فـيـخـلـصـونـ لهـ العبـادـةـ . وقد مضـى هـذا المعـنى فيـغـيرـ مـوـضـعـ ، ومـضـى القـولـ فيـ رـكـوبـ الـبـحـرـ فيـ «ـ الـبـقـرـةـ »ـ وـغـيرـهـ بـماـ يـغـنـيـ عـنـ إـعادـتـهـ . وـقـرـأـ نـافـعـ وـابـنـ عـاصـمـ

(١) في الأصول : « خللت أطل » بالظاء المعجمة . والتصويب عن الكشاف .

(٢) راجع ج ٨ ص ٣٢٥ وج ١٣ ص ٢٢٣ (٣) راجع ج ٢ ص ٩٥ طبعة ثانية .

« وَيَعْلَمُ » بالرفع ، الباقيون بالنصب . فالرفع على الاستئناف بعد الشرط والجزاء ؛ كقوله في سورة التوبه « وَيُخَزِّهِمْ وَيُنَصِّرُهُمْ عَلَيْهِمْ » ثم قال « وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » رفعاً . ونظيره في الكلام إن تأني آنك وينطلق عبد الله ، أو على أنه خبر ابتداء محدوف . والنصب على الصرف ؛ كقوله تعالى : « وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ » صرف من حال الجزم إلى النصب استخفافاً كراهيةً تناول الجزم ؛ كقول النابغة :

فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ * رَبِيعُ النَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ

وَيُمْسِكَ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشَ * أَجَبُ الظَّهَرِ لِيُسَّ لَهُ سَنَامُ

وهذا معنى قول الفراء ، قال : ولو جزم « وَيَعْلَمُ » جاز . وقال الزجاج : نصب على إضمار « أن » لأن قبلها بجزماً ، تقول : ما تصنع أصنع مثله وأكرمك . وإن شئت قلت : وأكرمك بالجزم . وفي بعض المصاحف « وَيَعْلَمُ » . وهذا يدل على أن النصب بمعنى : وليعلم أو لأن يعلم . وقال أبو علي والمبرد : النصب بإضمار « أن » على أن يجعل الأول في تقدير المصدر ؛ أي ويكون منه عفوًّا وأن يعلم ، فلما حمله على الاسم أضمر أن ، كما تقول : إن تأني وتعطيني أكرمك ، فتنصب تعطيني ؛ أي إن يكن منك إتيان وأن تعطيني . ومعنى (من محيص) أي من فرار ومهرب ؛ قاله قطرب . السدى : من ملجاً . وهو مأخوذ من قوله : حاص به البعير حيصة إذا رمى به . ومنه قوله : فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه .

قوله تعالى : فَمَا أُوتِدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنَعَّمُ الْحَيَاةُ الْدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
خَيْرٌ وَآبَقُ الَّذِينَ أَمْنَوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١٤٢)

(١) آية ١٤ (٢) آية ١٤٢ سورة آل عمران . (٣) أبو قابوس : كنيته الشهان بن المندز ؛ يزيد أنه كان كالربيع في الحصب الجندية ، وكالثغر الحرام بخاره ؛ أي لا يوصل ألى من أجازه . والمعنى : إن يمت الغغان بذهب خير الدنيا لأنها كانت تمر به وبجوده رعله ونفعه للناس ، ومن كان في ذمته وسلطانه فهو وآمن على نفسه محقون الدم كما يأمن الناس في الشهر الحرام على أموالهم ودمائهم . (٤) ذئاب كل شيء : عقبه ومؤخره . وأجب الفاجر مقطوع السنام . يقول : إن مات بقينا في طرف عيش قد مضى صدره ومعظمه وختره ، وقد يقع منه ذنبه .

قوله تعالى : «فَمَا أُوتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» يزيد من الغنى والسعادة في الدنيا . (فتانع) أي فإنما هو متاع في أيام قليلة تمضي وتذهب ، فلا ينبغي أن يتغاضر به . والخطاب للشركين . (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْيَقُ) يزيد من الثواب على الطاعة (للذين آمنوا) صدقوا ووحدوا (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) نزلت في أبي بكر الصديق حين أتفق جميع ماله في طاعة الله فلما هـ الناس . وجاء في الحديث أنه : أنفق ثمانين ألفا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَّارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٢٧)

في هذه مسائلتان :

الأولى — قوله تعالى : (والذين يجتنبون) الذين في موضع جزء معطوف على قوله : «خير وأبى للذين آمنوا» أي وهو للذين يجتنبون (كبار الإثم) وقد مضى القول في الكثار في «النساء» . وقرأ حمزة والكسائي «كبير الإثم» والواحد قد يراد به الجمع عند الإضافة ؛ كقوله تعالى : «وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصِّنُوهَا» ، وكما جاء في الحديث : «منعت العراق درهماً وفقيها» . الباقيون بالجمع هنا وفي «النجم» . (والفواحش) قال الشذري : يعني الزنى . وقاله ابن عباس ، وقال : كبير الإثم الشرك . وقال قوم : كبار الإثم ما تقع على الصغار مغفورة عند اجتنابها . والفواحش داخلة في الكبار ، ولكنها تكون أخف وأشنع كالقتل بالنسبة إلى الجرح ، والزنى بالنسبة إلى المراودة . وقيل : الفواحش والكبار بمعنى واحد ؛ فذكر تعدد اللفظ ؛ أي يجتنبون المعاصي لأنهما كبار وفواحش . وقال مقاتل : الفواحش موجبات الحدود .

الثانية — قوله تعالى : (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) أي يتجاوزون ويحلّون عن ظلمهم . قيل : نزلت في عمر حين شتم بمكة . وقيل في أبي بكر حين لامه الناس على

(١) آية ٣١ رابع ج ٥ ص ١٥٨ وما بعدها . (٢) آية ٣٤ سورة إبراهيم . ١٨ سورة التحل .

(٣) آية ٢٢

انفاق ماله كله وحين شتم فلم . وعن علي رضي الله عنه قال : اجتمع لأبي بكر مال مرة ، فتصدق به كله في سبيل الخير ؛ فلامه المسلمين وخطأه الكافرون فنزلت « وما أُوتِدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَابَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ — إلى قوله — وَإِذَا مَا غَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ » . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه شيئا ؛ فنزلت الآية . وهذه من مخاسن الأخلاق ، يُشفقون على ظالمهم ويصفقون لمن جهل عليهم ؛ يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ؛ لقوله تعالى في آل عمران « وَالْكَافِرُ مِنْ أَغْيَطَ وَالْمَاعِفُونَ عَنِ النَّاسِ » . وهو أن يتناولك الرجل فتكظم غيظك عنه . وأنشد بعضهم :

إني عفوت لظالمي ظالمي * ووهبت ذاك له على عالمي

ما زال يظلمني وأرحمه * حتى يكثت له من الظلم

قوله تعالى : وَالَّذِينَ آسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى
بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٢٨)

فيه ثلاثة مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) قال عبد الرحمن بن زيد : هم الأنصار بالمدينة ؛ استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيباً منهم قبل الهجرة . (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) أي أذواها لمواقعها بشروطها وهياكلها .

الثانية — قوله تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) أي يتشارون في الأمور . والشوري مصدر شاورته ؛ مثل البشري والذكرى ونحوه . فكانت الأنصار قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه ؛ فدحthem الله تعالى به ؛ قاله النقاش . وقال الحسن : أي إنهم لأنقيادهم إلى الرأي في أمورهم متافقون لا يختلفون ؛ فديحوا باتفاق كائمهم . قال الحسن : ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم . وقال

(١) آية ١٣٤ راجع ج ٤ ص ٢٠٦

الضحاك : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وورد النباء إليهم حتى اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به والنصرة له . وقيل تشاورهم فيما يعرض لهم ؛ فلا يستأثر بعضهم بخبر دون بعض . وقال ابن العربي : **الشورى** ألفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم فقط إلا هدوا . وقد قال الحكيم :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى لبيب أو مشورة حازم^(١)

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخوافي قوة للقوادم^(٢)

فبح الله المشورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتسلون ذلك . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب ؛ وذلك في الآراء كثيرة . ولم يكن يشاورهم في الأحكام ؛ لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمحابح والحرام . فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاررون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة . وأقول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها حتى كان فيها بين أبي بكر والأنصار ما سبق بيانه^(٣) .

وقال عمر رضي الله عنه : نرضى لدينا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا . وتشاوروا في أهل الردة فاستقر رأى أبي بكر على القتال . وتشاوروا في الجد وعياته ، وفي حد المهر وعدده . وتشاوروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحروب ؛ حتى شاور عمر الهرمزان حين وفَّد عليه مسلماً في المغازى ، فقال له الهرمزان : مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائره ريش وله جناحان ورجلان فإن كسر أحد الجناحين نهضت الرجالان بجناح والرأس وإن كسر الجناح الآخر نهضت الرجالان والرأس وإن شُدِّخ الرأس ذهب الرجالان والجناحان . والرأس كسرى والجناح الواحد قيسر والآخر فارس ؛ فسر المسلمين فلينفروا إلى كسرى ... وذكر الحديث . وقال بعض العقلاة : ما أخطأت قط ! إذا حربني أمر شاورت قومي ففعلت الذي يرون ؛ فإن أصبت فهم المصيرون ، وإن أخطأت فهم الخطئون .

(١) البستان لشافر بن برد . والخوافي : ريشات إذا تم الطائر جناحه خفت . والقوادم : عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبار الريش . (٢) في الأصول « نافع » . (٣) راجع ٤٤ ص ٢٤

الثالثة — قد مضى في «آل عمران» ما تضمنته الشورى من الأحكام عند قوله تعالى «وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ»^(١) . والمشورة بركة . والمشورة : الشورى ، وكذلك المشورة (بضم الشين) ؟ تقول منه : شاورته في الأمر واستشرته بمعنى . وروى الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سباءكم وأمرؤكم شورى بينكم فظاهر الأرض خير لكم من بطنه وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائمكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» . قال حديث غريب . «وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»^(٢) أي وما أعطيناهم يتصدقون . وقد تقدم في «البقرة» .

قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبُغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ** ﴿١﴾ وَجَزَّا وَّا
سَيِّئَاتِهِ سَيِّئَاتٍ مِثْلَهَا فَنَّ عَفَا وَأَصْلَحَ فَاجْرَهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ وَلَمَنِ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأَوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ آنَاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ أَوْلَئِكَ هُمْ عَذَابُ الْيَمِّ ﴿٣﴾ وَلَمَنْ صَرَرَ وَغَرَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمَنْ
عَزِمَ الْأُمُورِ ﴿٤﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : **(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبُغْيُ)** أي أصابهم بني المشركين . قال ابن عباس : وذلك أن المشركين يغوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وأذوهم وأنحرجوهم من مكة ، فإذا الله لهم بالخروج وتمكن لهم في الأرض ونصرهم على من بني عليهم ؟ وذلك قوله في سورة الحج «أَذْنَ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

(١) آية ١٥٩ راجع ج ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٨ وما بعدها .

لَقِدِيرُهُ . الَّذِينَ أَتْرِجُوا ... » الآيات كلها . وقيل : هو عام في بَنِي كل باغ من كافر وغيره ؛ أى إذا ناهم ظلم من ظالم لم يستسلموا لظلمه . وهذه إشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود . قال ابن العربي : ذكر الله الانتصار في البغي في معرض المدح ، وذكر العفو عن الجرم في موضع آخر في معرض المدح ؛ فاحتتمل أن يكون أحدهما رائعا للآخر ، واحتتمل أن يكون ذلك راجعا إلى حالتين ؛ إحداهما أن يكون الباغي معينا بالفجور ، وَهِقَا في الجمهور ، مؤذيا للصغير والكبير ؛ فيكون الانتقام منه أفضل . وفي مثله قال إبراهيم النَّخْعَنِي : كانوا يكرهون أَنْ يذلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق . الثانية – أن تكون الفلة ، أو يقع ذلك من يعترف بالزلة ويسأل المغفرة ؛ فالعفو هاهنا أفضل ، وفي مثله نزلت الآية ^(١) « وَإِنْ تَعْفُوا أَقْرُبُ لِلتَّقْوَى » . قوله : « فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ » . قوله ^(٢) : « وَلَيَعْفُوا وَلَيَصَفِّحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » .

قلت : هذا حسن ، وهكذا ذكر الكَيَّا الطبرى في أحكامه قال : قوله تعالى « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » يدل ظاهره على أن الانتصار في هذا الموضع أفضل ؛ ألا ترى أنه قرنه إلى ذكر الاستجابة للسبحان وتعالى وإقام الصلاة ؛ وهو محول على ما ذكر إبراهيم النَّخْعَنِي أنهم كانوا يكرهون للؤمنين أن يذلُّوا أنفسهم فتجترئ عليهم الفساق ؛ فهذا فيمن تعدى وأصر على ذلك . والموضع المأمور فيه بالعفو إذا كان الحسنى نادما مقلعا . وقد قال عقيب هذه الآية « وَلَمَنْ آتَتْصَرَ بَعْدَ طُلُنْيَهْ فَأَوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَيِّلٍ » . ويقتضى ذلك إباحة الانتصار لا الأمر به ؛ وقد عقبه بقوله « وَلَمَنْ صَرَّ وَغَفَرَ إِنْ ذَلِكَ لَمَنْ عَزِمَ الْأُمُورِ » . وهو محول على الغفران عن غير المصْرَر ، فاما المصْرَر على البغي والظلم فالأفضل الانتصار منه بدلاله الآية التي قبلها . وقيل : أى إذا أصابهم البغي تناصروا عليه حتى يزيلوه عنهم ويدفعوه ؛ قاله ابن بحر . وهو راجع إلى العموم على ما ذكرنا .

(١) آية ٣٩ راجع ج ١٢ ص ٦٧ (٢) آية ٤٥ سورة البقرة .

(٣) آية ٢٢ سورة النور .

الثانية — قوله تعالى : ((وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلًا)) قال العلماء : جعل الله المؤمنين صنفين ؟ صنف يغفون عن الظالم فبدأ بذلك رحمة في قوله : « وَإِذَا مَأْخَضْبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ». وصنف يتصررون من ظالمهم . ثم بين حد الانتصار بقوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلًا » فيتصررون من ظلمه من غير أن يعتدى . قال مقاتل وهشام بن حمير : هذا في المجروح يتقم من الخارج بالقصاص دون غيره من سب أو شتم . وقال الشافعى وأبو حنيفة وسفيان . قال سفيان : وكان ابن شربة يقول : ليس بعكلة مثل هشام ، وتأول الشافعى في هذه الآية أن للإنسان أن يأخذ من مال من خانه مثل ما خانه من غير عامله ؛ واستشهد في ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم لمن زوج أبى سفيان : « خذى من ماله ما يكفيك وولدك » فأجاز لها أخذ ذلك بغير إذنه . وقد مضى الكلام في هذا مستوفٌ في « البقرة » . وقال أبى أبي تجيج : إنه محول على المقابلة في البحارج . وإذا قال : أخرزه الله أو لعنه الله أن يقول مثله . ولا يقابل القذف بقذف ولا الكذب بكذب . وقال السدى : إنما مدح الله من انتصر من بغي عليه من غير اعتداء بالزيادة على مقدار ما فعل به ؛ يعني كا كانت العرب تفعله . وسمى الجزاء سيئة لأنها في مقابلتها ؛ فالأقل ساء هذا في مال أو بدن ، وهذا الاقتصاص يسوءه بمثل ذلك أيضا ؛ وقد مضى هذا كله في « البقرة » مستوفٌ .^(١)

الثالثة — قوله تعالى : ((فَنَّ عَفَا وَأَصْلَحَ)) قال ابن عباس : من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو ((فَاجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)) أي إن الله يأجره على ذلك . قال مقاتل : فكان العفو من الأعمال الصالحة . وقد مضى في « آل عمران » في هذا ما فيه كفاية ، والحمد لله . وذكر أبو نعيم الحافظ عن علي بن الحسين رضى الله عنهما قال : إذا كان يوم القيمة نادى منادياً أهلاً للفضل ؟ فيقوم ناس من الناس ؟ فيقال : انطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة ؛ فيقولون إلى أين ؟ فيقولون إلى الجنة ؛ قالوا قبل الحساب ؟ قالوا نعم قالوا من أنت ؟ قالوا أهلاً للفضل ؛ قالوا وما كان فضلكم ؟ قالوا كما إذا جهل علينا حلينا

(١) راجع ج ٢ ص ٤٥٥ (٢) راجع ج ٤ ص ٢٠٧

وإذا ظلمنا صبرنا وإذا سيء إلينا عفونا ، قالوا آدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وذكر الحديث . (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) أى من بدأ بالظلم ، قاله سعيد بن جُبْرِيْن . وقيل : لا يحب من يتعدى في الاقتصاص ويتجاوز الحد ، قاله ابن عيسى .

الرابعة — قوله تعالى : (وَلَمَنْ آتَتَصَرَّ بَعْدَ ظُلْمِهِ) أى المسلم إذا انتصر من الكافر فلا سبيل إلى لومه ، بل يُحَمِّدُ على ذلك مع الكافر . ولا لوم إن آنتصر الظالم من المسلم ، فالانتصار من الكافر حرام ، ومن المسلم مباح ، والعفو مندوب .

الخامسة — في قوله تعالى : (وَلَمَنْ آتَتَصَرَّ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) دليل على أن له أن يستوفى ذلك بنفسه . وهذا ينقسم ثلاثة أقسام : أحدها — أن يكون قصاصا في بدن يستحقه آدمي ، فلا حرج عليه إن استوفاه من غير عدوان وثبت حقه عند الحكام ، لكن يزجره الإمام في تفوتة بالقصاص لما فيه من الحرارة على سفك الدم . وإن كان حقه غير ثابت عند الحاكم فليس عليه فيما بينه وبين الله حرج ، وهو في الظاهر مطالب وبفعله مؤاخذ ومعاقب . القسم الثاني — أن يكون حد الله تعالى لا حق لآدمي فيه كحد الذي وقطع السرقة ، فإن لم يثبت ذلك عند حاكم أخذ به وعقوب عليه ، وإن ثبت عند حاكم نظر ، فإن كان قطعا في سرقة سقط به الحد لزوال العضو المستحق قطعا ، ولم يحب عليه في ذلك حق لأن التعزير أدب ، وإن كان جلدا لم يسقط به الحد لتعديه مع بقاء محله فكان مأخوذا بحكمه . القسم الثالث — أن يكون حقا في مال ، فيجوز لصاحبه أن يغافل على حقه حتى يصل إليه إن كان من هو عالم به ، وإن كان غير عالم نظر ، فإن أمكنه الوصول إليه عند المطالبة لم يكن له إلا الاستمرار بأخذه . وإن كان لا يصل إليه بالمطالبة بمحود من هو عليه من عدم يتنبه له ففي جواز استمراره بأخذه مذهبان : أحدهما — جوازه ، وهو قول مالك والشافعى . الثاني — المぬ ، وهو قول أبي حنيفة .

السادسة — قوله تعالى : (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الدِّينِ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) أى بعدوانهم عليهم ؟ في قول أكثر العلماء . وقال ابن بُرْجِيج : أى يظلمونهم بالشرك المحالف لدينهم .

((وَيَنْعِمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)) أى في النقوص والأموال؛ فقول الأكثرين . وقال مقاتل : بغيرهم عملهم بالمعاصي . وقال أبو مالك : هو ما يرجوه كفار قريش أن يكون بهمة غير الإسلام دينا . وعلى هذا الحديث قال ابن زيد : إن هذا كله منسوخ بالجهاد ، وإن هذا للشركين خاصة . وقول قتادة : إنه عام ؛ وكذا يدل ظاهر الكلام . وقد بناه والحمد لله .

السابعة — قال ابن العربي : هذه الآية في مقابلة الآية المتقدمة في «براءة» وهي قوله «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ»^(١) ؟ فكما نفي الله السبيل عنمن أحسن فكذلك نفتها على من ظلم ؛ واستوفى بيان القسمين .

الثامنة — وأختلف علماؤنا في السلطان يضع على أهل بلد مالاً معلوماً يأخذهم به ويؤذونه على قدر أموالهم ؟ هل من قدر على الخلاص من ذلك أن يفعل ، وهو إذا تخلص أخذ سائر أهل البلد ب تمام ما جعل عليهم . فقيل لا ؛ وهو قول سخنون من علمائنا . وقيل : نعم ، له ذلك إن قدر على الخلاص ؛ وإليه ذهب أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي ثم المالكي . قال : ويدل عليه قول مالك في الساعي يأخذ من غم أحد الخلطاء شاة وليس في جيعها نصاب إنها مظلمة على من أخذت له لا يرجع على أصحابه بشيء . قال : ولست آخذ بما روي عن سخنون ؛ لأن الظلم لا أسوة فيه ، ولا يلزم أحد أن يوج نفسه في ظلم مخافة أن يضاعف الظلم على غيره ، والله سبحانه يقول : «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ» .

النinthة — وأختلف العلماء في التحليل ؛ فكان ابن المسيب لا يحمل أحداً من عرض ولا مال . وكان سليمان بن يسار ومحمد بن سيرين يحملان من العرض والمالي . ورأى مالك التحليل من المال دون العرض . روى ابن القاسم وأبن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب «لا أحل أحداً» فقال : ذلك مختلف ؟ فقللت له يا أبا عبد الله ، الرجل يسلف الرجل فيملك ولا وفاء له ؟ قال : أرى أن يحمله وهو أفضل عندي ؟ فان الله تعالى يقول «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقُولَ فَيَتَبَعُونَ أَحْسَنَه» . فقيل له : الرجل يظلم الرجل ؟

(١) آية ٩١ . (٢) في ابن العربي : «أيتها» .

فقال : لا أرى ذلك ، هو عندي مخالف للا قول ؟ يقول الله تعالى « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ » ويقول تعالى « مَا عَلَى الْحَسِينِيْنِ مِنْ سَبِيلٍ » فلا أرى أن يجعله من ظلمه في حِلٍ . قال ابن العربي : فصار في المسألة ثلاثة أقوال : أحدها لا يحلله بحالٍ ؛ قاله سعيد ابن المسيب . الثاني - يحلله ؛ قاله محمد بن سيرين . الثالث - إن كان مالا حلله وإن كان ظلماً لم يحلله ؛ وهو قول مالك . وجه الأول ألا يحلل مارحَمَ الله ؛ فيكون كالتبدل لحكم الله . وجه الثاني أنه حقه فله أن يسقط كا يسقط دمه وعرضه . وجه الثالث الذي اختاره مالك هو أن الرجل إذا غالب على أداء حقك فمن الرفق به أن يحلله ، وإن كان ظالماً فلن الحق ألا تتركه لثلا تغتر بالظلمة ويسترسوا في أفعالهم القبيحة . وفي صحيح مسلم حديث أبي اليسر الطويل وفيه أنه قال لغريمه : أخرج إلى ، فقد علمت أين أنت ؟ خرج ؛ فقال : ما حملك على أن آخبتني ؟ قال : أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك ، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك ، وإن أعدك فأخلفك ، وكانت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت والله معسراً .^(١) قال قلت : الله ؟ قال الله ؛ قال : فاتي بصحيفة فمحاها فقال : إن وجدت قضاء فأقض ، وإن فانت في حِلٍ ... وذكر الحديث . قال ابن العربي : وهذا في الحقيقة الذي يرجى له الأداء لسلامة الذمة ورجاء الت محل ، فكيف باليت الذي لا محالة له ولا ذمة معه .^(٢)

العاشرة — قال بعض العلماء : إن من ظلم وأخذ له مال فإما له ثواب ما أح禀 عنه إلى موته ، ثم يرجع الثواب إلى ورثته ، ثم كذلك إلى آرثهم ، لأن المال يصير بعده للوارث . قال أبو جعفر الداودي المالكي : هذا صحيح في النظر ؛ وعلى هذا القول إن مات الظالم قبل من ظلمه ولم يترك شيئاً أو ترك مالا يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثة الظالم ؛ لأنه لم يحق للظالم ما يستوجبه ورثة المظلوم .^(٣)

(١) في بعض الأصول : « ويسترون » وفي البعض الآخر : « ويستترون » . (٢) قال النووي .

« الأول بهمزة ممددة على الاستفهام ، والثاني بلا مد ، وألاه ، فيما مكسورة . قال القاضي : وروينا بفتحهما معاً ، وأكثر أهل العربية لا يجزيون إلا الكسر » . (٣) في ابن العربي : « الت محل » . وقد كتب على هامش نسخة من الأصل بخط النافع : « يقال تحمل أى احتفال فهو مت محل قاله الجوهري » .

الحادية عشرة — قوله تعالى : «**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ**» أى صبر على الأذى و «غفر» أى ترك الانتصار لوجه الله تعالى ; وهذا فيمن ظلمه مسلم . ويحكي أن رجلا سبَّ مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكتظُ ويعرقُ فيمسعح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن : عقلها والله ! وفهمها إذ ضيّعها الباهلون . وبالمثلة العفو مندوب إليه ، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبًا إليه كما تقدم ، وذلك إذا احتج إلى كف زبادة البغي وقطع مادة الأذى ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل عليه ، وهو أن زينب أسمعت عائشة رضي الله عنها بحضوره فكان ينهاها فلا تنتهي ؛ فقال لعائشة :

”**دُونِكَ فَانْتَصِرِي**“ نرجحه مسلم في صحيحه بمعناه . وقيل : «صَبَرَ» عن المعاصي وستر على المساوى . «**إِنْ ذَلِكَ لَمَنْ عَزَّمَ الْأُمُورِ**» أى من عزم الله التي أمر بها . وقيل من عزم الصواب التي وفق لها . وذكر الكلبي والفراء أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع ثلات آيات قبلها ، وقد شتم بعض الأنصار فرد عليه ثم أمسك . وهي المدنيات من هذه السورة . وقيل : هذه الآيات في المشركين ، وكان هذا في ابتداء الإسلام قبل الأمر بالقتال ثم نسختها آية القتال ؛ وهو قول ابن زيد ، وقد تقدم . وفي تفسير ابن عباس «**وَلَمَنْ آتَنَتْهُ الْأَنْتَصَارَ بَعْدَ ظُلْمِهِ**» يريده حمزة بن عبد المطلب وعيادة وعلياً وبجميع المهاجرين رضوان الله عليهم . «**فَأَوْلَئِكَ مَا عَلَيْمُ مِنْ سَبِيلٍ**» يريده حمزة بن عبد المطلب وعيادة وعلياً رضوان الله عليهم أجمعين . «**أَنَّا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلَمُونَ النَّاسَ**» يريده عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبا جهل والأسود ، وكل من قاتل من المشركين يوم بدر . «**وَيَمْغُونَ فِي الْأَرْضِ**» يريده بالظلم والكفر . «**أُولَئِكَ هُمُ عَذَابُ أَلِيمٍ**» يريده وجيع . «**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ**» يريده أبو بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ومصعب بن عمير وبجميع أهل بدر رضوان الله عليهم أجمعين . «**إِنْ ذَلِكَ لَمَنْ عَزَّمَ الْأُمُورِ**» حيث قبوا الفداء وصبروا على الأذى .

قوله تعالى : **وَمَنْ يُضَلِّلَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى**

آلَظَالَمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ

قوله تعالى : « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ أَيُّ يَخْذِلُهُ » (فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٌّ مِنْ بَعْدِهِ) هذا فيمن أعرض عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما دعاه إليه من الإيمان بالله والموعدة في القربى ، ولم يصدقه في البعث وأن مداع الدنيا قليل . أى من أصله الله عن هذه الأشياء فلا يهديه هاد . قوله تعالى : « وَتَرَى الظَّالِمِينَ » أى الكافرين . « مَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ » يعني جهنم . وقيل رأوا العذاب عند الموت . « يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍ مِنْ سَبِيلٍ » يطلبون أن يردو إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجاوبون إلى ذلك .

قوله تعالى : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَائِشِعِينَ مِنَ الْذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرِفِ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَآهَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : « وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا » أى على النار لأنها عذابهم ؛ فكفى عن العذاب المذكور بحرف التأنيث ؛ لأن ذلك العذاب هو النار ، وإن شئت جهنم ، ولو راعى اللفظ لقال عليه . ثم قيل : هم المشركون جميعاً يعرضون على جهنم عند انطلاقهم إليها ؛ قاله الأكثرون . وقيل : آل فرعون خصوصاً ، تحبس أرواحهم في أجوف طير سود تغدو على جهنم وتروح ؛ فهو عرضهم عليها ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : إنهم عامة المشركون ، تعرض عليهم ذنوبهم في قبورهم ، ويعرضون على العذاب في قبورهم ؛ وهذا معنى قول أبي الحجاج . « خَائِشِعِينَ مِنَ الْذُّلِّ » ذهب بعض القراء إلى الوقف على « خَائِشِعِينَ » . وقوله : « مِنَ الْذُّلِّ » متعلق بـ « يَنْظُرُونَ » . وقيل : متعلق بـ « خَائِشِعِينَ » . والخشوع الانكسار والتواضع . ومعنى « يَنْظُرُونَ مِنْ طَرِفِ خَفِيٍّ » أى لا يرتفعون أبصارهم للنظر رفعاً تماماً ؛ لأنهم ناكسو الرءوس . والعرب تصف الذليل بغض النظر ، كما يستعملون في ضده حديد النظر إذا لم يتم لهم برية فيكون عليه منها غضاضة . وقال مجاهد : « مِنْ طَرِفِ خَفِيٍّ » أى ذليل ، قال : وإنما ينظرون بقلوبهم لأنهم يُخسرون عمياً ، وعين القلب طرف خفي . وقال قتادة والسدي والقرطبي وسعيد بن جبير : يسارقون النظر من شدة الخوف . وقيل : المعنى ينظرون من

عين ضعيفة النظر . وقال يونس : « مِنْ » بمعنى الباء ؛ أى ينظرون بطرف خفي ، أى ضعيف من الذل والخوف ، ونحوه عن الأخفش . وقال ابن عباس : بطرف ذايل ذليل . وقيل : أى يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب . ((وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْحَامِرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) أى يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حمل بالكفار إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء ، فانهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب الخلد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم ، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم . وقيل : خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم أهل في الجنة من الحور العين . وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا له متلاطن متزل في الجنة ومتزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة متزله فذلك قوله تعالى « أولئك هم الوارثون » ". وقد تقدم . وفي مسنـد الدارـمي عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يدخله الله الجنة إلا زوجـه اثنتـين وسبعين زوجـة من الحور العـين وسبعين من ميرـاثـه من أهلـالـنـارـ وـمـاـ مـنـهـ وـاحـدـةـ إـلـاـ وـهـاـ قـبـلـ شـمـيـ " . قال هـشـامـ ابنـ خـالـدـ : " مـنـ مـيرـاثـهـ مـنـ أـهـلـالـنـارـ " يـعـنيـ رـجـالـاـ أـدـخـلـوـالـنـارـ فـوـرـثـ أـهـلـالـجـنـةـ نـسـاءـهـمـ كـمـاـ وـرـثـتـ اـمـرـأـةـ فـرـعـوـنـ . ((أـلـاـ إـنـ الـظـالـمـيـنـ فـيـ عـذـابـ مـقـيمـ)) أـىـ دـائـمـ لـاـ يـنـقـطـعـ . ثـمـ يـحـوزـ أـنـ يـكـونـ هـذـاـ مـنـ قـوـلـ الـمـؤـمـنـيـنـ ، وـيـحـوزـ أـنـ يـكـونـ اـبـتـداءـ مـنـ اللهـ تـعـالـىـ .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أُولَيَاءِ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَقَدْ لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٠﴾
قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أُولَيَاءِ) أي أعواناً ونصراء (يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)
أي من عذابه (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَقَدْ لَهُ مِنْ سَبِيلٍ) أي طريق يصل به إلى الحق في الدنيا
والآخرة؛ لأنَّه قد سدت عليه طريق النجاة .

(١) راجع ج ١٢ ص ١٠٨

قوله تعالى : أَسْتَجِيبُوا لِرِبِّكُم مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ
اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : (استجيبوا ربكم) أى أجبيوه إلى ما دعاكم إليه من الإيمان به والطاعة . استجاب وأجاب بمعنى ؛ وقد تقدم . (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) يريد يوم القيمة ؛ أى لا يرده أحد بعد ماحكم الله به وجعله أجلا ووقتا . (ما لكم من ملجأ) أى من ملجا ينجيك من العذاب . (وما لكم من نكير) أى من ناصر ينصركم ؛ قاله مجاهد . وقيل : النكير بمعنى المنكر ؛ كالآليم بمعنى المؤلم ؛ أى لا تجدون يومئذ منكرا لما يتزل بكم من العذاب ؛ حكاہ ابن أبي حاتم ، وقوله الكبكي . الزجاج : معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها . وقيل : « من نكير » أى إنكار ما يتزل بكم من العذاب ، والنكير والإإنكار تغيير المنكر .

قوله تعالى : فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقَاتَرْسَلَنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ
إِلَّا أَلْبَاعُ وَإِنَّا إِذَا أَذْفَنَ الْإِنْسَنَ مِنَ رَحْمَةٍ فَرَحِيهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ
سَيِّئَةً مَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَنَ كَفُورٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (فَإِنْ أَعْرَضُوا) أى عن الإيمان (فَقَاتَرْسَلَنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) أى حافظا لأعمالهم حتى تخاسبهم عليها . وقيل : موكلابهم لا تفارقهم دون أن يؤمنوا ؛ أى ليس لك إلا كراههم على الإيمان . (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَاعُ) وقيل : نسخ هذا بآية القتال . (وَإِنَّا إِذَا
أَذْفَنَ الْإِنْسَنَ) الكافر . (مِنَ رَحْمَةٍ) رخاء وصحمة . (فَرَحِيهَا) بطر بها . (وَإِنْ تُصِيبُهُمْ
سَيِّئَةً) بلاء وشدة . (مَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَنَ كَفُورٌ) أى لما تقدم من النعمة فيعد المصائب وينسى النعم .

قوله تعالى : **لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبِطُ مِنْ يَشَاءُ إِنَّا وَهُبْ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُكُورَ** (١) **أَوْ يُزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** (٢)

قوله تعالى : **(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)** في أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** ابتداء وخبر . **(يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)** من الخلق . **(يَهْبِطُ يَشَاءُ إِنَّا وَهُبْ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُكُورَ)** قال أبو عبيدة وأبو مالك ومجاهد والحسن والضحاك : يهب لمن يشاء إناثا لا ذكور معهن ، ويهب لمن يشاء ذكورا لا إناث معهم ؛ وأدخل الألف واللام على الذكور دون الإناث لأنهم أشرف فيزهم بسمة التعريف . وقال وائلة بن الأسعف : إن من يعن المرأة تبكيها بالأنثى قبل الذكر ، وذلك أن الله تعالى قال : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » فبدأ بالإناث **(أَوْ يُزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا)** قال مجاهد : هو أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاما ثم تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد توئاما ، غلاما وجارية ، أو يزوجهما ذكرانا وإناثا . قال القتبي : التزويج هنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقول العرب : زوجت إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغر . **(وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا)** أى لا يولد له ، يقال : رجل عقيم ، وامرأة عقيم . وعقمت المرأة تعقم عقما مثل حميد محمد . وعقمت تعقم ، مثل عظم يعظم . وأصله القطع ، ومنه الملك العقيم ، أى تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفا على الملك . وريح عقيم ؛ أى لا تلتح سحابا ولا شبرا . ويوم القيمة يوم عقيم ؛ لأنه لا يوم بعده . ويقال : نساء عقم وعقم ؛ قال الشاعر :

عَقِيمُ النِّسَاءِ مَا يَلِدُنَ شَبِيهَهُ * إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عَقِيمٌ

(١) في لسان العرب : « قال أبو دهيل يدح عبد الله بن الأزرق المخزوي . وقبل هو المخزني الملبني » .

وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في الأنبياء خصوصا وإن عم حكمها . وهب لوط الإناث ليس معهن ذكر ، ووهب لإبراهيم الذكور ليس معهم أنثى ، ووهب لإسماعيل وإسحاق الذكور والإإناث ، وجعل عيسى ويحيى عقيمين ؟ ونحوه عن ابن عباس وأسحاق بن بشر . قال إسحاق : نزلت في الأنبياء ، ثم عممت . (يَهُبْ مَنْ يَشَاءُ إِنَّا) يعني لوطا عليه السلام ، لم يولد له ذكر وإنما ولد له ابنتان . (وَيَهُبْ مَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) يعني إبراهيم عليه السلام لم يولد له أنثى بل ولد له مائة ذكور . (أُوْيَزْقُجُهمْ ذُكَرًا وَإِنَّا) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد له أربعة بنين وأربع بنات . (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيقًا) يعني يحيى بن زكريا عليهما السلام ؛ لم يذكر عيسى . ابن العربي : قال علماً « يهب من يشاء إناثا » يعني لوطا كان له بنات ولم يكن له آبن . « ويهب من يشاء الذكور » يعني لإبراهيم ، كان له بنون ولم يكن له بنت . وقوله « أُويزوجهم ذكرانا وإناثا » يعني آدم ، كانت حواء تلد له في كل بطن توئين ذكا وأنثى ، ويزوج الذكر من هذا البطن من الأنثى من البطن الآخر ، حتى أحكم الله التحرير في شرع نوح صلى الله عليه وسلم . وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان له ذكور وإناث من الأولاد : القاسم والطيب والظاهر وعبد الله وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ، وكلهم من خديجة رضي الله عنها ، وإبراهيم وهو من مارية القبطية . وكذلك قسم الله الخلق من لدن آدم إلى زماننا هذا ، إلى أن تقوم الساعة ، على هذا التقدير المحدود بحكمته البالغة ومشيته النافذة ؛ ليبقى النسل ، ويقادى الخلق ، وينفذ الوعد ، ويتحقق الأمر ، وتعمر الدنيا ، وتأخذ الجنة وجهم كل واحدة ما يملؤها ويبقى . ففي الحديث : « إن النار لن تملئ حتى يضع الجبار فيها قدمه ، فتقول قط قط . وأما الجنة فيبقى منها فينشي الله لها خلقا آخر » .

الثانية — قال ابن العربي : إن الله تعالى لعموم قدرته وشديد قوته يخلق الخلق ابتداء من غير شيء ، وبعظيم لطفه وبالغ حكمته يخلق شيئاً من شيء لا عن حاجة ؛ فإنه قد توس

(١) القول الأصح أن الذكور ثلاثة : القاسم وعبد الله (ويسمى بالطيب والظاهر) وإبراهيم . راجع شرح

الواهب المحدثة . (٢) قال الفسطحاني : « أي يدلها تذليل من يوضع تحت الرجل ، والعرب تضع الأمثال

بالأعضا ، ولا تزيد إبعادها كقوتها للن adam : سقط في يده » . (٣) قوله : « قط قط » يكسر الطاء وسكونها

فيها ، ويجوز التنوين مع الكسر والمعنى : حسي حسي قد اكتفيت .

عن الحاجات سلام عن الآفات ، كما قال القدوس السلام ؛ خلق آدم من الأرض وخلق حواء من آدم وخلق النشأة من بينهما منهما مرتبًا على الوطء كائناً عن الحمل موجوداً في الجنين بالوضع ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ”إذا سبق ماءُ الرجل ماءُ المرأة أذكرا و إذا سبق ماءُ المرأة ماءُ الرجل آتنا“ ^(١) . وكذلك في الصحيح أيضاً ”إذا علا ماءُ الرجل ماءُ المرأة أشبه الولد أعمامه وإذا علا ماءُ المرأة ماءُ الرجل أشبه الولد أخوالي“ .

قلت : هذا معنى حديث عائشة لا لفظه خرجه مسلم من حديث عروة بن الزير عنها أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تغسل المرأة إذا احتلمت وأبصرت الماء ؟ فقال ”نعم“ ف وقال لها عائشة : ”تربيت يداك وألت“ ^(٢) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”دعيمها وهل يكون الشبه إلا من قبل ذلك . إذا علا ما ذهبتها ماءُ الرجل أشبه الولد أخوالي وإذا علا ماءُ الرجل ماءُها أشبه أعمامه“ . قال علماؤنا : فعلى مقتضى هذا الحديث أن العلو يقتضي الشبه ، وقد جاء في حديث توبان خرجه مسلم أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهودي : ”ماءُ الرجل أبيض وماءُ المرأة أصفر ، فإذا اجتمعوا فعلاً مَنِيُّ الرجل مَنِيُّ المرأة أذكرا باذن الله وإذا علا مَنِيُّ المرأة مَنِيُّ الرجل آتنا باذن الله ...“ الحديث . بفعل في هذا الحديث أيضاً العلو يقتضي الذكورة والأنوثة ؛ فعلى مقتضى الحديدين يلزم اقتران الشبه للاعمام والذكورة إن علا مَنِيُّ الرجل ، وكذلك يلزم إن علا مَنِيُّ المرأة اقتران الشبه للأحوال والأنوثة ؛ لأنهما معلوماً على واحدة ، وليس الأمر كذلك بل الوجود بخلاف ذلك ؛ لأننا نجد الشبه للأحوال والذكورة والشبه للأعمام والأنوثة فتعين تأويل أحد الحديدين . والذى يتعين تأويله الذى في حديث توبان فيقال : إن ذلك العلو معناه سبق الماء إلى الرحم ، ووجهه أن العلو لما كان معناه الغلبة من قوله سابقني فلان فسبقته أى غلبته ؛ ومنه قوله تعالى :

(١) روى بالمد وتحقيقه التون وبالقصر وتشديد التون . (٢) قوله : ”تربيت يداك“ . معناه : ما أصبت ! وهو في الأصل بمعنى صار في يدك التراب ولا أصبت خيراً أى افتقرت ، لكن لا يريدون به الدعا ، على المخاطب ، كما يقولون : قاتله الله ؛ إلى غير ذلك . وقوله ”وألت“ : أى صاحت لما أصابها من شدة هذا الكلام . وروى بضم المهمزة مع التشديد ، أى طعنت بالآلة وهي الحربة . قال ابن الأثير : وفيه بعد ؛ لأنه لا يلزم لفظ الحديث .

«وَمَا تَحْنَعُ مِسْبُوقِينَ» أى بمحظويين قيل عليه : علا . ويؤيد هذا التأويل قوله في الحديث : «إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ذكرها وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل آتثا» ، وقد بنى القاضي أبو بكر بن العرفي على هذه الأحاديث بناء فقال : إن للمرأتين أربعة أحوال : الأولى أن يخرج ماء الرجل أولاً ، الثاني أن يخرج ماء المرأة أولاً ، الثالث أن يخرج ماء الرجل أولاً ويكون أكثر ، الرابع أن يخرج ماء المرأة أولاً ويكون أكثر . ويتم التقسيم بأن يخرج ماء الرجل أولاً ثم يخرج ماء المرأة بعده ويكون أكثر أو بالعكس ، فإذا نجح ماء الرجل أولاً وكان أكثر جاء الولد ذكرها بحكم السبق وأشباه الولد أعمامه بحكم الكثرة . وإن نجح ماء المرأة أولاً وكان أكثر جاء الولد أختي بحكم السبق وأشباه أخواه بحكم الغابة . وإن نجح ماء الرجل أولاً لكن لما نجح ماء المرأة بعده كان أكثر كان الولد ذكرها بحكم السبق وأشباه أخواه بحكم غلبة ماء المرأة . وإن سبق ماء المرأة لكن لما نجح ماء الرجل كان أعلى من ماء المرأة كان الولد أختي بحكم سبق ماء المرأة وأشباه أعمامه بحكم غلبة ماء الرجل . قال : وبانتظام هذه الأقسام يستتب الكلام ويرتفع التعارض عن الأحاديث ، فسبحان الخالق العليم .

الثالثة — قال عالماؤنا : كانت الخلة مستمرة ذكرها وأختي إلى أن وقع في الجاهلية الأولى الخطي فأتى به فريض العرب ومعمرها عاص بن الظريف فلم يدر ما يقول فيه وأرجواهم عنه ؛ فلما جن عليه الليل تذكر موضعه ، وأقض عليه مضيجه ، وجعل ينتقل وينقلب ، وتتجيء به الأفكار وتذهب ، إلى أن أنكرت خادمه حالة فقالت : ما بك ؟ قال لها : سهرت لأمر قصدت به فلم أدرك ما أقول فيه ؟ فقالت ما هو ؟ قال لها : رجل له ذكر وفرج كيف يكون حاله في الميراث ؟ قالت له الأمة : ورثه من حيث يبوب ؛ فعقلها وأصبح فعرضها عليهم وانقلبوا بها راضين . وجاء الإسلام على ذلك فلم تنزل إلا في عهد علي رضي الله عنه فقضى فيها . وقد روى الفريضيون عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن مولود له قبل وذكر من أين يورث ؟ قال : من حيث يبوب . ودروي

(١) في ابن العربي : «ومعندها» . ويقال أنه عاش ثمانية عام .

أنه أتى بخني من الأنصار فقال : ”وزنوه من أول ما يبول“ . وكذا روى محمد بن الحنفية عن علي ، ونحوه عن ابن عباس ، وبه قال ابن الماسيب وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد ، وحكاه المارني عن الشافعى . وقال قوم : لا دلالة في البول ؟ فان نخرج البول منهما جميعا قال أبو يوسف : يحكم بالأكثير . وأنكهة أبو حنيفة وقال : أتickleه ! ولم يجعل أصحاب الشافعى للكثرة حكما . وحکى عن علي والحسن أنهم قالا : تعد أضلاعه ، فان المرأة تزيد على الرجل بضلع واحد . وقد مضى ما للعلماء في هذا في آية المواريث في « النساء » مجوداً^(١) والحمد لله .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربي : وقد أنكر قوم من رءوس العوام وجود الخنى ، لأن الله تعالى قسم الخلق إلى ذكر وأنثى . قلنا : هذا جهل باللغة ، وغباء عن مقطع الفصاحة ، وقصور عن معرفة سعة القدرة . أما قدرة الله سبحانه فإنه واسع عليم ، وأما ظاهر القرآن فلا ينفي وجود الخنى ؟ لأن الله تعالى قال : « الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء » . فهـذا عموم مدح فلا يجوز تخصيصه ؛ لأن القدرة تقتضيه . وأما قوله « يَهْبُ مِنْ يَشَاء إِنَّا وَيَهْبُ مِنْ يَشَاء الذِّكْر » . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عَقِيماً فهـذا إخبار عن الغالب في الموجودات ، وسكت عن ذكر النادر لدخوله تحت عموم الكلام الأول ، والوجود يشهد له والعيان يكذب منكره ، وقد كان يقرأ معنا برباط أبي سعيد على الإمام الشهيد من بلاد المغرب خنى ليس له حلية ولهم ثديان وعنده جارية ؟ فربك أعلم به ، ومع طول الصحبة عقلى الحياة عن سؤاله ، وبودي اليوم لو كشفته عن حاله .

قوله تعالى : **وَمَا كَانَ لِبَشِّرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَأْيٍ**
جَاءَ أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا فَيُوَحِّيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ^(١)

(١) راجع ج ٥ ص ٦٥ فما بعدها .

فيه مسأله :

الأولى - قوله تعالى ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)) سبب ذلك أن اليهود قالوا للنبي صل الله عليه وسلم : ألا تكلم الله وتتضرر إليه إن كنت نبياً كما كلامه موسى ونظر إليه ، فإنما لن تؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي صل الله عليه وسلم : "إن موسى لن ينظر إليه" فنزل قوله « وما كان لبشر أنت يكلمه الله إلا وحيًا » ؛ ذكره النقاش والواحدى والتعليق . ((وَحْيًا)) قال مجاهد : نَفَثَ يُنْفَثَ فِي قَلْبِهِ فَيَكُونُ إِلَهَامًا ، ومنه قوله صل الله عليه وسلم : "إن روح الْقُدُّس نَفَثَ فِي رُوعِي إِنْ نَفَسًا لَنْ تَمُوتْ حَتَّى تَسْتَكِلْ رِزْقَهَا وَأَجْلَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْلِلُوا فِي الطَّالِبِ . خَذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرَمَ" . ((أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)) كما كلام موسى . ((أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا)) كارساله جبريل عليه السلام . وقيل : « إلا وحيا » رؤيا يراها في منامه ؛ قاله محمد بن زهير . « أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » كما كلام موسى . « أو يرسل رسولاً » قال زهير هو جبريل عليه السلام . ((فَيُوحَى بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)) وهذا الوحي من الرسل خطاب منهم للأنباء يسمعونه نطقاً ويرونها عياناً . وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام إذا نزل بالوحي على النبي صل الله عليه وسلم . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبي فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وذكر ياء عليهم السلام . فأما غيرهم فكان وحيا إلهاما في المنام . وقيل « إلا وحيا » بارسال جبريل « أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » كما كلام موسى « أو يرسل رسولاً » إلى الناس كافة . وقرأ الزهرى وشيبة ونافع « أو يرسل رسولاً فِي وَحْيٍ » برفع الفعلين . الباقيون بنصبهما . فالرفع على الاستئناف ؛ أى وهو يرسل . وقيل « يرسل » بالرفع في موضع الحال ؛ والتقدير إلا موحيا أو مرسلا . ومن نصب عطفوه على محل الوحي ؛ لأن معناه وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا أن يوحى أو يرسل . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حذف الحال من أن المضمرة . ويكون في موضع الحال ؛ التقدير أو بأن يرسل رسولاً . ولا يجوز أن يعطف « أو يرسل » بالنصب على « أَنْ يُكَلِّمَهُ » لفساد المعنى ؛ لأنه يصير ما كان لبشر أن يرسله أو أن يرسل إليه رسولاً ، وهو قد أرسل الرسل من البشر وأرسل إليهم .

(١) الرُّوعُ (بالضم) : القلب والعقل . والرُّوعُ (بالفتح) : الفزع .

الثانية — احتج بهذه الآية من رأى فيمن حلف ألا يكلم رجلا فأرسل إليه رسولا أنه حانت ؛ لأن المرسل قد سُئل فيها مكتماً للرسول إليه ، إلا أن ينوى الحالف المواجهة بالخطاب . قال ابن المنذر : واختلفوا في الرجل يحلف ألا يكلم فلانا فكتب إليه كتاباً أو أرسل إليه رسولاً ؛ فقال الثوري : الرسول ليس بكلام . وقال الشافعى : لا يبين أن يحنت . وقال النخعى : والحكم في الكتاب يحنت . وقال مالك : يحنت في الكتاب والرسول . وقال مرّة : الرسول أسهمل من الكتاب . وقال أبو عبيد : الكلام سوى الخط والإشارة . وقال أبو نور : لا يحنت في الكتاب . قال ابن المنذر : لا يحنت في الكتاب والرسول . قلت : وهو قول مالك . قال أبو عمر : ومن حلف ألا يكلم رجلا فسلم عليه عامداً أو ساهياً ، أو سلم على جماعة هو فيهم فقد حنت في ذلك كله عند مالك . وإن أرسل إليه رسولاً أو سلم عليه في الصلاة لم يحنت .

قلت : يحنت في الرسول إلا أن ينوى المشافهة ؛ لآية ، وهو قول مالك وابن الماجشون .
 (١) وقد مضى في أول « سورة مریم » هذا المعنى عن علمائنا مستوفى ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا آلِكِتُبُ وَلَا أَلْيَمَدُنْ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صَرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٦) صَرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٢٧)
 فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) أي وكالذى أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك (روحًا) أي نبوة ؛ قاله ابن عباس . الحسن وقتادة : رحمة من عززنا . السدى : وحيًا . الكلبى : كتاباً . الربيع : هو جبريل . الضحاك : هو القرآن . وهو قول

(١) راجع ج ١١ ص ٨٦

مالك بن دينار . وسمّاه روها لأنّ فيه حيّةً من موت الجهل . وجعله من أمره بمعنى أنزله كما شاء على من يشاء من النظم المعجز والتأليف المعجب . ويمكن أن يجعل قوله « ويستلونك عن الروح » على القرآن أيضاً « قل الروح من أمر ربِّي » أى يستلونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر الله أنزله على معجزاً ذكره القشيري . وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإنّ القرآن ربّ كلّ القلوب كأنّ الغيث ربّ ربّ الأرض .

الثانية — قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَبَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » أى لم تكن تعرف الطريق إلى الإيمان . وظاهر هذا يدل على أنه ما كان قبل الإيحاء متصرفًا بالإيمان . قال القشيري : وهو من مجوزات العقول ، والذى صار إليه المعمّم أن الله ما بعث نبياً إلا كان مؤمناً به قبلبعثة . وفيه تحكم ، إلا أن يثبت ذلك بتوقف مقطوع به . قال القاضي أبو الفضل عياض : وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف ؛ والصواب أنّهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكّك في شيء من ذلك . وقد تعاصرت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتزويدهم عن هذه التقىصة منذ ولدوا ؛ ونشأتهم على التوحيد والإيمان ، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك ؛ كما عُرف من حال موسى وعيسى وبخي وسليمان وغيرهم عليهم السلام . قال الله تعالى « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » قال المفسرون : أعطى يحيى العلم بكاب الله في حال صباه . قال عمر : كان ابن سنتين أو ثلاثة ؛ فقال له الصبيان : لم لا تلعب ! فقال : ألعب خلقت ! وقيل في قوله « مُصَدِّقاً بِكَلِمَةِ مِنْ اللَّهِ » صدق يحيى عيسى وهو ابن ثلاثة سنين ، فشهد له أنه كلام الله وروحه . وقيل : صدق وهو في بطنه أمه ؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم إنّ أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له . وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله « لَا تَحْزَنْ فِي » على قراءة من قرأ « مَنْ »

(١) كما في الأصل . (٢) آية ١٢ سورة مرثيم . (٣) آية ٣٩ سورة آل عمران .

تَحْمِّلَهَا» ، وعلى قول من قال إن المنادي عيسى ونص على كلامه في مهده فقال «إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً» ، وقال : «فَقَهَّمَنَا هَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا» وقد ذكر من حُكْم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبي ما اقتدى به أبوه داود . وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوى الملك اثنى عشر عاما . وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذته بالحيلة وهو طفل . وقال المفسرون في قوله تعالى «ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلٍ» : أى هديناه صغيراً ، قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عطاء : أصطفاه قبل ابداء خلقه . وقال بعضهم : لما ولد إبراهيم بعث الله إليه ملائكة يأمره عن الله تعالى أن يعرِفه بقلبه ويذكره باسانه فقال : قد فعلت ؟ ولم يقل أفعل ؛ فذلك رشده . وقيل : إن إلقاء إبراهيم في النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة . وإن آبنته إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين . وإن آسندل إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمس عشرة سنة . وقيل : أوحى إلى يوسف وهو صبي عند ما هم إخوته بالقائمه في الجنة بقوله تعالى : «أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لِتَنْبَئُنَّهُمْ يَأْمُرُهُمْ هَذَا» الآية ، إلى غير ذلك من أخبارهم . وقد حكى أهل السير أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبأها محدثاً صلي الله عليه وسلم ولد حين ولد باسطوا يديه إلى الأرض رافعاً رأسه إلى السماء ، وقال في حديثه صلي الله عليه وسلم : «لَا نَشَأْتُ بُغْضَتَ إِلَى الْأَوْثَانِ وَبُغْضَ إِلَى الشَّعْرِ وَلَمْ أُمُّ بَشَّى ، مَا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ إِلَّا مَرَتَنِ فَعَصَمَنِي اللَّهُ مِنْهَا شَيْءاً لَمْ أُعْدُ» . ثم يذكر أن الأمر لهم ، وتترافق فتحات الله تعالى عليهم ، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم بالنسبة في تحصيل الخصال الشرفية النهاية دون ممارسة ولا رياضة . قال الله تعالى : «وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدُهُ وَأَسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» . قال القاضي : ولم يقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبياً وأصطفى من عرف بكفر وإشراك قبل ذلك . ومستند لهذا الباب النقل . وقد آسند بعضهم بأن القلوب تنفر عن كل من كانت هذه سببته .

(١) آية ٧٩ سورة الأنبياء . (٢) آية ٥١ سورة الأنبياء . (٣) في الأصول :

«خمسة عشر شهراً» راجع ج ٧ ص ٢٥ . (٤) آية ١٥ سورة يوسف . (٥) آية ١٤ سورة القصص .

قال القاضى : وأنا أقول إن قريشا قد رمت نبينا عليه السلام بكل ما أفترته ، وغير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها وأختلقته ، مما نص الله عليه أو نقلته إلينا الرواية ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرًا لواحد منهم برفضه آلهتهم وتقريره بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه . ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين ، وبتلونه في معبدوه متحججين ، ولكن توبيخهم له بهم عمما كان يعبد قبل أقطع وأقطع في الجحنة من توبيخه بهم عن ترك آلهتهم وما كان يعبد آباءهم من قبل ؟ ففي إطلاعهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبلا إليه ؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا « مَا وَلَاهُمْ عَنِ الْقِبْلَةِ مَا كَانُوا عَلَيْهَا » كما حكاه الله عنهم .

الثالثة — وتكلم العلماء في نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ هل كان متعبدًا بدین قبل الوحي أم لا ؟ فلنهم من منع ذلك مطلقا وأحاله عقلا . قالوا : لأنه يبعد أن يكون متبعا من عُرف تابعا ، وبنوا هذا على التحسين والتقييع . وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره عليه السلام وترك قطع الحكم عليه شيء في ذلك ، إذ لم يُحل الوجهين منهما العقل ولا آستان عندها في أحدهما طريق النقل ، وهذا مذهب أبي المعالي . وقالت فرقة ثالثة : إنه كان متعبدا بشرع من قبله وعملا به ؛ ثم آختلف هؤلاء في التعين ، فذهب طائفة إلى أنه كان على دين عيسى فإنه ناسخ لجميع الأديان والملل قبلها ، فلا يجوز أن يكون النبي على دين منسوخ . وذهب طائفة إلى أنه كان على دين إبراهيم ؛ لأنه من ولده وهو أبو الأنبياء . وذهب طائفة إلى أنه كان على دين موسى ؛ لأنه أقدم الأديان . وذهب المعتزلة إلى أنه لا بد أن يكون على دين ولكن عين الدين غير معلومة عندنا . وقد أبطل هذه الأقوال كلها أنتينا ؛ إذ هي أقوال متعارضة وليس فيها دلاله قاطعة ، وإن كان العقل يحوز ذلك كله . والذى يقطع به أنه عليه السلام لم يكن منسوبا إلى واحد من الأنبياء نسبة تقضى أن يكون واحدا من أمته ومحاطبا بكل شريعته ؛ بل شريعته مستقلة بنفسها مفتوحة من عند الله الحاكم جل وعز . وأنه

(١) في الأصول : « عندهما » .

صلى الله عليه وسلم كان مؤمناً بالله عز وجل ، ولا يُشرك بالله ، ولا زنى
 ولا شرب الخمر ، ولا شهد السامر ^(١) ولا حضر حلف المطبيين ^(٢)؛ بل نزهه الله
 وصانه عن ذلك . فإن قيل : فقد روى عثمان بن أبي شيبة حديثاً بسنده عن جابر أن النبي
 صلى الله عليه وسلم قد كان يشهد مع المشركين مشاهدتهم ، فسمع ملكين خلفه أحدهما يقول
 لصاحبه : أذهب حتى تقوم خلفه ؟ فقال الآخر : كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام فلم
 يشهدهم بعد ؟ فابن حماد أتى بهم في إسناده ، والحديث بالجملة منكر غير
 متفق على إسناده فلا ينفت إليه ، والمعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافه عند أهل
 العلم من قوله : "بغضت إلى الأصنام" وقوله في قصة بحيرا حين استخلف النبي صلى الله
 عليه وسلم باللات والعزى إذ لقيه بالشام في سفره مع عمّه أبي طالب وهو صبي ، ورأى فيه
 علامات النبوة فأخبره بذلك ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تسألني بهما فوالله
 ما أبغضت شيئاً قط بغضهما" فقال له بحيرا : فإنه إلا ما أخبرتني بما أسألك عنه ؛ فقال :
 "سل عما بدا لك" . وكذلك المعروف من سيرته عليه السلام وتوفيق الله إياه له أنه كان
 قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمذلولة في الجح، وكان يقف هو بعرفة، لأنّه كان

(١) الموضع الذي يجتمعون للسفر فيه . (٢) كذا في الأصول . (٣) في الأصول : «المطلب» .
 قال ابن الأثير : «أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التناعد والتساعد والاتفاق . فاكان منه في الجاهلية عل الفتن
 والقتال بين القائل والغاريات ، فذلك الذي ورد النبي عليه في الإسلام بقوله صلوات الله عليه : "لا حلف في الإسلام" .
 وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام تحالف المطبيين وما جرى مجراء ذلك الذي قال فيه الرسول صلى الله
 عليه وسلم : "وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة" . يزيد من المعاقدة على التبرير ونصرة الحق ؛
 وبذلك يجتمع الحديثان ، وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام . وإن نوع منه ما خالف حكم الإسلام » .
 ويلاحظ أنه قال صلى الله عليه وسلم : "شهدت غلاماً مع عمومي حلف المطبيين" . اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة
 وبنو دار ابن جدعان في الجاهلية وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم فيه وتحالقو على الناصر والأخذ من المظلوم
 للظالم ، فسموا المطبيين . وقال عليه السلام : "شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت إلى مثله في الإسلام
 لأججت" . قال ابن الأثير : يعني حلف الفضول . (راجع نهاية ابن الأثير مادة حلف . طيب . فضل) .

موقف إبراهيم عليه السلام . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « قُلْ بَلْ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ » وقال : « أَنِ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » وقال « شَرَعْ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » الآية . وهذا يقتضي أن يكون متبعاً بشرع . فالحواب أن ذلك فيما لا تختلف فيه الشرائع من التوحيد وإقامة الدين ؛ على ما تقدم بيانه في غير موضوع وفي هذه السورة عند قوله « شَرَعْ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ » والحمد لله .

الرابعة - إذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في تأويل قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ ». فقال جماعة : معنى الإيمان في هذه الآية شرائع الإيمان ومعالمه ؛ ذكره الشعبي . وقيل : تفاصيل هذا الشرع ؛ أى كنت غافلاً عن هذه التفاصيل . ويحيوز إطلاق لفظ الإيمان على تفاصيل الشرع ؛ ذكره القشيري : وقيل : ما كنت تدرى قبل الوحي أن تقرأ القرآن ، ولا كيف تدعوا الخلق إلى الإيمان ؛ ونحوه عن أبي العالية . وقال بك القاضي : ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام . قال : وكان قبل مؤمناً بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدر بها قبل ؛ فزاد بالتكليف إيماناً . وهذه الأقوال الأربع متقاربة . وقال ابن خزيمة : عن بالإيمان الصلاة ، لقوله تعالى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ » أى صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص . وقال الحسين بن الفضل : أى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا أهل الإيمان . وهو من باب حذف المضاف ؛ أى من الذي يؤمن ؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما . وقيل : ما كنت تدرى شيئاً إذ كنت في المهد وقبل البلوغ . وحكي الماوردي نحوه عن علي بن عيسى قال : ما كنت تدرى ما الكتاب لو لا الرسالة ، ولا الإيمان لو لا البلوغ . وقيل : ما كنت تدرى ما الكتاب لو لا إيماناً عليك ، ولا الإيمان لو لا هدايتك ؛ وهو محتمل . وفي هذا الإيمان وجهان : أحدهما أنه الإيمان بالله ، وهذا يعرفه بعد بلوغه وقبل نبوته . والثاني - أنه دين الإسلام ، وهذا لا يعرفه إلا بعد النبوة .

(١) آية ١٣٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٢٣ سورة النحل . (٣) آية ١٣ من هذه السورة .

قلت : إنه صلى الله عليه وسلم كان مؤمناً بالله عز وجل من حين نشأ إلى حين بلوغه ، على ما تقدم . وقيل : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » أى كنت من قوم أميين لا يعرفون الكتاب ولا الإيمان ، حتى تكون قد أخذت ما جثتم به عن كأنك يعلم ذلك منهم ؟^(١) وهو كقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتَلَوَّ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلَا تَخْطُلُهُ بِيَمِينَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ » . روى معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما . « وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ » قال ابن عباس والضحاك : يعني الإيمان . السُّدَّى : القرآن . وقيل الوحي . أى جعلنا هذا الوحي (نُورًا تهدي به من نشأ) أى من نختاره للنبيوة ، كقوله تعالى : « يَعْصُصُ بِرَحْمَةِ مَنْ يَشَاءُ » . ووحد الكالية لأن الفعل في كثرة أسمائه بمنزلة الفعل في الاسم الواحد ، ألا ترى أنك تقول : إقبالك وإدبارك يعجبني ، فتوحد ، وهو اثنان . « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي » أى تدعوا وترشد (إلى صراط مستقيم) دين قوم لا اعوجاج فيه . وقال علي : إلى كتاب مستقيم . وقرأ عاصم الجحدري وحوشب « وإنك لتهدي » غير مسمى الفاعل ، أى تُدعى . الباقيون « اتهدي » مسمى الفاعل . وفي قراءة أبي « وإنك لتدعوا » . قال النحاس : وهذا لا يقرأ به ، لأنه خالف للساد ، وإنما يحمل ما كات مثله على أنه من قائله على جهة التفسير ، كما قال « وإنك لتهدي » أى تندعوا . وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ » قال : « ولكل قوم هاد » . (صِرَاطِ اللَّهِ) بدل من الأول بدل المعرفة من النكرة . قال علي : هو القرآن . وقيل الإسلام . ورواوه التواب بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم . (الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ملكاً وعبدًا وخلقًا . (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) وعيد بالبعث والجزاء . قال سهل بن أبي الجعد : احترق مصحف فلم يرق إلا قوله « ألا إلى الله تصير الأمور » . وغرق مصحف فلم يرق كله إلا قوله « ألا إلى الله تصير الأمور » . والحمد لله وحده .

(١) آية ٤ سورة العنكبوت . (٢) آية ٥ سورة البقرة .

سورة الزخرف

مكية بإجماع . وقال مقاتل : إلا قوله « وَأَسْأَلَ مَنْ أَرْسَلَنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا » .
وهي تسع وثمانون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُوله تعالى : حَمَ (ۚ) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (ۚ) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (ۚ)

قوله تعالى : « (حم . والكتاب المبين) تقدم الكلام فيه . وقيل : « حم » قسم .
« والكتاب المبين » قسم ثان ؛ والله أأن يقسم بما شاء . والجواب « إنما جعلناه » . وقال
ابن الأنباري : من جعل جواب « والكتاب » « حم » – كما تقول نزل والله وجَب والله –
وقف على « الكتاب المبين » . ومن جعل جواب القسم « إنما جعلناه » لم يقف على « الكتاب
المبين » . ومعنى « جعلناه » أى سميَناه ووصفناه ؛ ولذلك تعدى إلى مفعولين ؛ كقوله تعالى :
« مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةً » . (٢) وقال السدي : أى أنزلناه قرآنًا . مجاهد : قلناه . الزجاج
وسفيان الثوري : بينناه . (عَرَبِيًّا) أى أنزلناه بلسان العرب ؛ لأن كل نبي أنزل كتابه
بلسان قومه ؛ قاله سفيان الثوري وغيره . وقال مقاتل : لأن إنسان أهل السماء عربي .
وقيل : المراد بالكتاب جميع الكتب المتزلة على الأنبياء ؛ لأن الكتاب اسم جنس فكانه أقسام
يعتبر ما أنزل من الكتب أنه جعل القرآن عربيا . والكافية في قوله « جعلناه » ترجع إلى
القرآن وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .
« لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى تفهمون أحكامه ومعانيه . فعل هذا القول يكون خاصا للعرب دون
العجم ؛ قاله ابن عيسى . وقال ابن زيد : المعنى لعلكم تتفكرون ؛ فعل هذا يكون خطابا عاما
للعرب والعجم . ونعت الكتاب بالمبين لأن الله بين فيه أحكامه وفرائضه ؛ على ما تقدم
في غير موضع .

(١) آية ٤ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٨٩ . (٣) آية ١٠٣ سورة المساندة .

قوله تعالى : وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّيُّ حَكِيمٌ ﴿١﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ) يعني القرآن في اللوح المحفوظ (لَدَيْنَا) عندنا (الْعَلِّيُّ حَكِيمٌ) أي رفيع عَلَم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ؛ قال الله تعالى : «إِنَّه لِقُرْآنٍ كَرِيمٍ»^(١) في كتاب مَكْنُونٍ « وقال تعالى : «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ حَمِيدٌ»^(٢) في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » . وقال ابن جرير : المراد بقوله تعالى « وإنَّه » أي أعمال الخلق من إيمان وكفر وطاعة ومعصية . « لَعَلِّيُّ » أي رفيع عن أن يبال فَيَبْدِلْ « حَكِيمٌ » أي محفوظ من نقص أو تغيير . وقال ابن عباس : أَقْلَى ما خلق الله القلم فأمره أَنْ يَكْتُبْ ما يَرِيدُ أَنْ يَخْلُقْ ؛ فالكتاب عندَه ، ثم قرأ « وإنَّه فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّيُّ حَكِيمٌ » . وكسر الهمزة من « أُمِّ الْكِتَابِ » حَزَةُ الْكَسَائِيُّ . وضم الباقيون ، وقد تقدم .^(٣)

قوله تعالى : أَفَنَضِرُّ بَعْنَمُكُ الَّذِي كُرِّصَفَحَا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (أَفَنَضِرُّ بَعْنَمُكُ الَّذِي كُرِّصَفَحَا) يعني : القرآن ؛ عن الصحاك وغيره . وقيل : المراد بالذكر العذاب ؛ أي أفنضرب عنكم العذاب ولا تعاقبكم على إسرافكم وكفركم ؛ قاله مجاهد وأبو صالح والسدي ، ورواه العوفي عن ابن عباس . وقال ابن عباس : المعنى أَخْسِبْتُمْ أَنْ نَصْفَحَ عَنْكُمُ الْعَذَابَ وَلَا تَفْعَلُوا مَا أَمْرَتُمْ بِهِ . وعنه أيضاً أن المعنى أَتَكْذِبُونَ بالقرآن ولا تعاقبون . وقال السدي أيضاً : المَعْنَى أَفْتَرَكُمْ سُدَّى فَلَا نَأْمِرُكُمْ وَلَا نَهَاكُمْ . وقال قتادة : المعنى أَفْنِلُكُمْ وَلَا نَأْمِرُكُمْ وَلَا نَهَاكُمْ . وعنه أيضاً : أَفْنِسْكُ عن إِنْزَالِ القرآن من قبل أنكم لا تؤمنون به فلا ننزله عليكم . وقاله ابن زيد . قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين رذته أولى هذه الأمة هلكوا ، ولكن الله رذده وكرره عليهم برحمته . وقال الكسائي : أَفْنَطْوَى عَنْكُمُ الَّذِي كَرِيئًا فَلَا تَوْعَظُونَ وَلَا تُؤْمِنُونَ . وقيل : الذكر التذكرة ؛ فكانه قال أَنْتَرَكَ تذكرة لأنكم قوماً مُسْرِفِينَ ؛ في قراءة من فتح ومن كسر جعلها للشرط

(١) آية ٧٧، سورة الواقعة . (٢) آية ٢١، سورة البروج . (٣) راجع ج ٥ ص ٧٢

وَمَا قَبْلَهَا جَوَابًا لَهَا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَعْمَلْ فِي اللفظِ. وَنَظِيرُهُ «وَدَرُوا مَا بَقَى مِنَ الرَّبَّا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^(١)
وَقَيلَ: الْجَوَابُ مُحْذَفٌ دَلُّ عَلَيْهِ مَا تَقْدِيمٌ؛ كَمَا تَقُولُ: أَنْتَ ظَالِمٌ إِنْ فَعَلْتَ. وَمَعْنَى الْكَسْرِ
عِنْدَ الزِّجَاجِ الْحَالِ؛ لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَعْنَى التَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ. وَمَعْنَى (صَفْحًا) إِعْرَاضًا؛
يَقَالُ: صَفَحَتْ عَنْ فَلَانٍ إِذَا أَعْرَضْتَ عَنْ ذَنْبِهِ. وَقَدْ ضَرَبَتْ عَنْهُ صَفْحًا إِذَا أَعْرَضْتَ
عَنْهُ وَتَرَكْتَهُ. وَالْأَصْلُ فِيهِ صَفَحَةُ الْعَنْقِ؛ يَقَالُ: أَعْرَضْتَ عَنْهُ أَيِّ وَلِيَتَهُ صَفَحَةُ الْعَنْقِ.
قَالَ الشَّاعِرُ^(٢):

صَفُوحًا فَمَا تَلَقَاكَ إِلَّا بِخِيلَةَ * فَنَّ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصَلَ مَلِتَ
وَاتَّصَبَ «صَفْحَا» عَلَى الْمُصْدَرِ لِأَنَّ مَعْنَى «أَفَنَضَرَ» أَفَنَصَفَحَ. وَقَيلَ: التَّقْدِيرُ أَفَنَضَرَ
عَنْكُمُ الْذَّكْرَ صَاحِفِينَ، كَمَا يَقَالُ: جَاءَ فَلَانٌ مَشْيَاً. وَمَعْنَى (مُسْرِفِينَ) مُشَرِّكِينَ. وَاخْتَارَ أَبُو عَيْدَةَ
الْفُتْحَ فِي «أَنْ» وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عُمَرٍ وَعَاصِمٍ وَابْنِ عَامِرٍ، قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَاهَدَهُمْ
عَلَى مَا كَانُوا مِنْهُمْ، وَعَلَمَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ فَعْلِهِمْ.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (١) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا يَهُدُونَ (٢) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى
مَشْلُ الْأَوَّلِينَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) «كَمْ» هُنَا خَبْرِيَّةُ الْمَرَادِ بِهَا التَّكْثِيرُ؛ وَالْمَعْنَى
مَا أَكْثَرَ مَا أَرْسَلْنَا مِنَ الْأَنبِيَاءِ. كَمَا قَالَ «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَانٍ وَعِيُونَ» أَيْ مَا أَكْثَرَ مَا تَرَكُوا.
(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ) أَيْ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِمْ نَبِيٌّ (إِلَّا كَانُوا يَهُدُونَ) كَاسْتَهْزَاءُ قَوْمٍ بِكَهْ وَ
يَعْزِي نَبِيَّهُ مَحْدَدًا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُسْلِيهِ. (فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا) أَيْ قَوْمًا أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً. وَالْكَايَا فِي «مِنْهُمْ» تَرْجُعٌ إِلَى الْمُشَرِّكِينَ الْمُخَاطَبِينَ بِقَوْلِهِ «أَفَنَضَرَ عَنْكُمُ الْذَّكْرَ صَفَحَا»
فَكَتَّى عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ خَاطَبُوهُمْ. وَ«أَشَدَّ» نَصِيبٌ عَلَى الْحَالِ. وَقَيْلُهُ هُوَ مَفْعُولٌ؛ أَيْ فَقَدْ أَهْلَكَ

(١) آية ٢٧٨ سورة البقرة . (٢) آية ٢٥ سورة الدخان . (٣) هو كثير عزوة .

أقوى من هؤلاء المشركين في أبدانهم وأتباعهم . ((ومَضَى مَثْلُ الْأَوْلِينَ)) أي عقوبهم ؛ عن قتادة . وقيل : صفة الأولين ؛ خبرهم بأنهم أهلكوا على كفرهم ؛ حكاية النقاش والمهدي .
والمثل : الوصف والخبر .

قوله تعالى : **وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُوهُنَّ أَلْعَزِيزُ الْعَالِيمُ**

قوله تعالى : ((ولَئِنْ سَأَلْتُهُمْ)) يعني المشركين . ((مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُوهُنَّ أَلْعَزِيزُ الْعَالِيمُ)) فاقرروا له بالخلق والإيماد ، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم . وقد مضى في غير موضع .^(١)

قوله تعالى : **أَلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَلْأَرْضَ مَهَدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ**

قوله تعالى : ((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا)) وصف نفسه سبحانه بكمال القدرة . وهذا ابتداء إخبار منه عن نفسه ، ولو كان هذا إخبارا عن قول الكفار لقال الذي جعل لنا الأرض . ((مِهَادًا)) فراشا وبساطا . وقد تقدم . وقرأ الكوفيون « مَهَادًا » ((وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُّلًا)) أي معايش . وقيل طرقا ، لتسلكوا منها إلى حيث أردتم . ((لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ)) فستدلون بعقولكم على قدرته . وقيل « لعلمكم تهتدون » في أسفاركم ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : لعلمكم تعرفون نعمة الله عليكم ؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : تهتدون إلى معايشكم .

قوله تعالى : **وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقَدِّرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتَ كَذَّالَكَ مُهْرَجُونَ**

قوله تعالى : ((وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقَدِّرُ)) قال ابن عباس : أي لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم ، بل هو بقدر لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة ، حتى

(١) راجع ج ٦ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٠٩ .

يكون معاشا لكم ولأنعامكم . (فَانْشَرْنَا) أى أحينا . (به) أى بالماء . (بلدة ميتاً) أى مقفرة من النبات . (كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ) أى من قبوركم ؛ لأن من قدر على هذا قدر على ذلك . وقد مضى في « الأعراف » مجددا . وقرأ يحيى بن وثأب والأعمش ومحزنة والكسائي وابن دشكوان عن ابن عاصم « يَخْرُجُونَ » بفتح الياء وضم الراء . الباقيون على الفعل المحظوظ .

قوله تعالى : وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ
وَالْأَنْعَمِ مَا تَرْكَبُونَ (١) لِتَسْتَوُا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ
رَبِّكُمْ إِذَا آسَتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ اللَّهِ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا
لَهُ مُقْرِنٌينَ (٢) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْتَقِلُونَ (٣)

فيه خمس مسائل :

الأولى – قوله تعالى : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ) أى والله الذي خلق الأزواج . قال سعيد بن جبير : أى الأصناف كلها . وقال الحسن : الشتاء والصيف والليل والنهر والسموات والأرض والشمس والقمر والخنة والنار . وقيل : أزواج الحيوان من ذكر وأنثى ؛ قاله ابن عيسى . وقيل : أراد أزواج النبات ، كما قال تعالى : « وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِيج » (٤) و « مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٌ » . وقيل ما يتقلب فيه الإنسان من خير وشر ، وإيمان وكفر ، وتفع وضر ، وفقر وغنى ، وصحوة وسقم .

قالت : وهذا القول يعم الأقوال كلها ويجمعها بعمومه . (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ) السفن (وَالْأَنْعَامِ) الإبل (مَا تَرْكَبُونَ) في البر والبحر . (لِتَسْتَوُا عَلَى ظُهُورِهِ) ذكر الكافية لأنها رده إلى ما في قوله « ما ترکبون » ؛ قاله أبو عبيد . وقال القراء : أضاف الظهور إلى واحد لأن المراد به الجنس ، فصار الواحد في معنى الجمع بعزلة الجيش والخندق ، فلهذا ذكر ، وبجمع الظهور ، أى على ظهور هذا الجنس .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٠ (٢) آية ٧ سورة ق . (٣) آية ٧ سورة الشعرا .

الثانية — قال سعيد بن جبير: الأنعام هنا الإبل والبقر. وقال أبو معاذ: الإبل وحدها
وهو الصحيح لقوله عليه السلام: «**بِنَا رَجُلٌ رَاكِبٌ بَقْرًا إِذْ قَالَتْ لَهُ مَنْ أَخْلَقَ هَذَا إِنَّمَا**
خَلَقْتَ لِلْحَرَثَ»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَمْنَتْ بِذَلِكَ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ»، وما هما
فِي الْقَوْمِ . وقد مضى هذا في أول سورة «التحل» مستوفٍ والحمد لله .

الثالثة — قوله تعالى: «**لِتَسْتُوْدُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ**» يعني به الإبل خاصة بدليل ما ذكرنا،
ولأن الفلك إنما ترك بطونها ، ولكن ذكرها جميعا في أول الآية وعطف آخرها على
أحدهما . ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما ، لأن الماء غمره وستره وباطنهما ظاهرها ،
لأنه آنکشف للظاهرين وظهر للبصرين .

الرابعة — قوله تعالى: «**إِنَّمَا تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا آتَوْتُمْ عَلَيْهِ**» أي ركبتم عليه .
وذكر النعمة هو الحمد لله على سخري ذلك لنا في البر والبحر . «**وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الدُّّنِيَا سَخَّرَ لَنَا**
هَذَا» أي ذلل لنا هذا المركب . وفي قراءة علي بن أبي طالب «سبحان من سخر لنا هذا» .
«**وَمَا كَانَ لَهُ مُقْرِنٌ**» أي مطيقين ؛ في قول ابن عباس والكلبي . وقال الأخفش وأبو عبيدة:
«مقرنين» ضابطين . وقيل: ماثلين في الأيد والقوة ؛ من قوله: «**هُوَ قَرْنٌ فَلَانٌ إِذَا**
كان مثله في القوة . ويقال: «**فَلَانٌ مُقْرِنٌ لَفَلَانٌ أَيْ ضَابِطٌ لَهُ**» . وأقرنت كما أى أطقته .
وأقرن له أى أطاقه وقوى عليه ؛ كأنه صار له قرنا . قال الله تعالى: «**وَمَا كَانَ لَهُ مُقْرِنٌ**»
أى مطيقين . وأنشد قطرب قول عمرو بن معدنيكب :

لقد علم القبائل ما عُقِلَ * لنا في النباتات بمقرنينا

وقال آخر:

ركبت صعبتي أشرأ وحيقا * ولست للصعب بمقرنينا

والقرن أيضا: الذي غلبه ضياعته ؛ يكون له إبل أو غنم ولا معين له عليها ، أو يكون يسوق
إبله ولا زائد له يذودها . قال ابن سكيت: وفي أصله قوله: «**أَنَّهُ مَا خُوذَ**
من الإقران؛ يقال: أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق . وأقرنت كما إذا أطقته وحكته؛ كأنه جعله

(١) أي أبو بكر وعمر لم يكونا حاضرين . (٢) راجع ج ١٠ ص ٧٢

في قرن — وهو الحبل — فأونقه به وشده . والثاني — أنه مأخذ من المقارنة وهو أن يقرن بعضها ببعض في السير ؛ يقال : قرنت كذا بكتنا إذا ربطته به وجعلته قرينه .

الخامسة — علمنا الله سبحانه ما تقول إذا ركنا الدواب ، وعريفنا في آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما تقول إذا ركنا السفن ؛ وهي قوله تعالى : « وقال أركبوا فيهمَا بِسْمِ اللَّهِ جَعْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِذْ رَبَّ لِغْفُورٍ رَّحِيمٍ » فكم من راكب دابة عثرت به أو شئت أو تقدمت أو طاح من ظهرها فهلك . وكم من راكبين في سفينة آنسكروا بهم ففرقوا . فلما كان الركوب مباشرةً أمر مظور واتصالاً بأسباب من أسباب التلف أمر لا ينسى عند آتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة منقلب إلى الله عن وجل غير منفلت من قضائه . ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه . والحد من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه . حكى سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنِين » وكان فيهم رجل على ناقة له رازم — وهي التي لا تحرك هنالا — فقال : ألم أنا فإن هذه مقرن ، قال : فقمصت به فدقت عنقه . وروى أن أعرابياً ركب قعوداً له وقال إن لم تقرن له فركضت به القعود حتى صرعته فأندقت عنقه . ذكر الأول المأوردى والثانى ابن العربى . قال : وما ينبغي لعبد أن يدع قول هذا وليس بواجب ذكره باللسان ؛ فيقول متى ركب وخاصة في السفر إذا تذكر : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنِين . وإنما إلى ربنا مُنْقَلِبُونَ اللهم أنت الصاحب في السفر ، وال الخليفة في الأهل والمال ، اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر ، وكابة المنقلب ، وبالحور بعد الكور ، وسوء المنظر في الأهل والمال . يعني بـ « بالحور بعد الكور » تشتت أمر الرجل بعد آجتاعه .

وقال عمرو بن دينار : ركب مع أبي جعفر إلى أرض له نحو حائط يقال لها مدركة ، فركب

(١) آية ٤١ سورة هود . (٢) تقدم الفرس براكبه ألقاه على وجهه . (٣) في الأصول :

« فهلكت » . (٤) وجد على هامش نسخة من الأصل بخط ناسخه : « الرازم من الإبل : الثابت على الأرض الذي لا يقوم من أطزال . وقد رزمت الناقة ترزم وترزم رزوماً ورزاماً فامت من الإعيا ، وأطزال فلم تتحرك فهي رازم . قاله الجوهري في الصحاح » . (٥) هذه عبارة ابن العربي والأصول : وبالاحظ أن القعود مذكرة .

على جمل صعب فقلت له : أبا جعفر ! أما تخاف أن يصرعك ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " على سلام كل بعير شيطان إذا ركبتموها فاذكروا أسم الله كما أمركم ثم آتتهنها لأنفسكم فإنما يحمل الله " . وقال علي بن ربيعة : شهدت على بن أبي طالب ركب دابة يوماً ووضع رجله في الركاب قال : باسم الله ، فلما أستوى على الدابة قال الحمد لله ، ثم قال « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كله مقرنين . وإنما إلى ربنا مُنقِّلُون » ثم قال : الحمد لله والله أكبر — ثلاثاً — اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك فقلت له : ما أضحكك ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ، وقال كما قلت ، ثم ضحك فقلت له ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : " العبد — أو قال — عجباً لعبد أن يقول اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيره " . نحرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، وأبو عبد الله محمد بن خويز منداد في أحكامه . وذكر الثعلبي " نحوه مختصراً عن علي " رضى الله عنه ، ولفظه عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا وضع رجله في الركاب قال : " باسم الله — فإذا أستوى قال — الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا وما كله مقرنين وإنما إلى ربنا مُنقِّلُون وإذا نزلتم من الفلك والأنعام فقولوا اللهم أنزلنا متولاً مباركاً وأنت خير المتزلين " . وروى ابن أبي تحيّح عن مجاهد قال : من ركب ولم يقل « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كله مقرنين » قال له الشيطان تَقْنَه ؛ فإن لم يحسن قال له تَمَّنْه ؛ ذكره النحاس . ويستعيد بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نترى على الخيل أو في بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أوانى الخمر والمعازف ، فلا يزالون يستقون حتى تُمَلِّ طلَّاهم وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا ينتظرون إلا أوامره . الرَّحْمَنِي : ولقد يلغى أن بعض السلاطين ركب وهو يشرب الخمر من بلد إلى بلد بينما مسيرة شهرين ، فلم يَصُحُّ إلا بعد ما آطمنات به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ؛ فكم بين فعل أولئك الراكيين وبين ما أمر الله به في هذه الآية ! ؟

(١) العلا : ماطبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاء . وبعض العرب يسمى الخمر العلا . يزيد بذلك تحسين اسمها .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزًّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَكَفُورٌ
مُّبِينٌ (١)

قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزًّا) أى عِدْلاً ؛ عن فتادة . يعني ما عبد من دون الله عن وجل . الزجاج والمبرد : الجزء هاهنا البنات ؛ تحب المؤمنين من جههم إذ أقروا بأن خالق السموات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكا أو ولدا ، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتمد به أو يستأنس به ؛ لأن هذا من صفات النقص . قال الماوردى : والجزء عند أهل العربية البنات ؛ يقال : قد أجزاء المرأة إذا ولدت البنات ؛ قال الشاعر :

إِنْ أَجْزَاتْ حَرَةٍ يَوْمًا فَلَا يَعْجَبُ * قَدْ تَجْزَى الْحَرَةُ لِمَذْكَارِ أَحِيَا
الرَّمْخَشِرِيَّ : ومن يدع التفاسير تفسير الجزء بالإثاث ، وأداءه أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث متحوق ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتفوا منه : أجزاء المرأة ، ثم صنعوا بيته ، وبهذا :

* إِنْ أَجْزَاتْ حَرَةٍ يَوْمًا فَلَا يَعْجَبُ *

* زُوْجَتُهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْنِسِ مُجْزِنَةٌ *

وإما قوله « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزًّا » متصل بقوله « وَإِنَّ سَائِلَهُمْ » أى ولين سائلهم عن خالق السموات والأرض ليعرفن به ؛ وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى « مِنْ عِبَادِهِ جُزًّا » أن قالوا الملائكة بنات الله ؛ بفعلوهم جزءا له وبعضا ، كما يكون الولد بضماء من والده وجده له . وقرئ « جزءا » بضمتين . (إِنَّ الْإِنْسَانَ) يعني الكافر . (لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) قال الحسن : يعد المصائب وينسى النعم . « مُّبِينٌ » مظاهر الكفر .

(١) وتمامه كافي اللسان مادة جرأ : * للموسوعة اللسان في أبياتها زجل *

قوله تعالى : **أَمْ أَنْخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاصُكُمْ بِالْبَيْنَ** (١)

قوله تعالى : **(أَمْ أَنْخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ)** الميم صلة ؛ تقديره آخذ ما يخلق بنات كا زعمت أن الملائكة بنات الله ؛ فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه التوبيخ . **(وَأَصْفَاصُكُمْ بِالْبَيْنَ)** أي آختصكم وأخلصكم بالبنين ؛ يقال : أصفتيه بكل ، أي آثرته به . وأصفيفته الود أخصسته له . وصافيتها وتصافينا تحالفنا . عجب من إضافتهم إلى الله آختيار البنات مع اختيارهم لأنفسهم البنين ؛ وهو مقدس عن أن يكون له ولد إن توهم جاهل أنه آخذ لنفسه ولدا فهلا أضاف إليه أرفع الجنسين ! ولم جعل هؤلاء لأنفسهم أشرف الجنسين ولو الأحسن ؟ وهذا كما قال تعالى : **«أَلَّمْ يَرَ الذَّكْرُ وَلِهِ الْأَئْتَى . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةً يُضَيِّزَى»** (٢)

قوله تعالى : **وَإِذَا بَشَرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِرَحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِدًا وَهُوَ كَظِيمٌ** (٣)

قوله تعالى : **(وَإِذَا بَشَرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِرَحْمَنِ مَثَلًا)** أي بأنه ولدت له بنت **(ظَلَّ وَجْهُهُ)** أي صار وجهه **(مُسْوِدًا)** قيل ببطلان مثله الذي ضربه . وقيل : بما بشر به من الأنثى ؛ دليله في سورة النحل «وَإِذَا بَشَرَ أَحَدُهُمْ بِالْأَئْتَى» . ومن حالم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت له أنثى اغتم وأربد وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب أن أمر أنه وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت :

**ما لِأَبِي حِمْزَةَ لَا يَأْتِينَا * يَظْلِمُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَاتُ أَلَانِدَ الْبَيْنََا * وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أَعْطَيْنَا
وَقَرَئَ «مسود»، و«مسواد» . وعلى قراءة الجماعة يكون وجهه اسم «ظل» و «مسوداً»
خبر «ظل» . ويجوز أن يكون في «ظل» ضمير عائد على أحد وهو اسمها ، و «وجهه»**

(١) آية ٢١ سورة النجم . (٢) راجع ج ١٠ ص ١١٦ . (٣) في رواية «جرة» بالعلم .

وفي بلوغ الأربع للأوسمى : «أَبِي الدَّفَاءِ» .

بدل من الضمير . و « مسودا » خبر « ظل » . ويجوز أن يكون رفع « وجهه » بالابتداء ، ويرفع « مسودا » على أنه خبره ، وفي « ظل » اسمها والجملة خبرها . (وَهُوَ كَفِيلٌ) أى حزين ؛ قاله قنادة . وقيل مكروب ؛ قاله عكرمة . وقيل ساكت ؛ قاله ابن أبي حاتم ؛ وذلك لفساد مثله وبطلان حجته . ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبهًا لله ؛ لأن الولد من جنس الوالد وشبهه . ومن اسود وجهه بما يضاف إليه مما لا يرضي ، أولى من أن يسود وجهه بالإضافة مثل ذلك إلى من هو أجل منه ؛ فكيف إلى الله عن وجع ! وقد مضى في « النحل » في معنى هذه الآية ما فيه كفاية^(١) .

قوله تعالى : أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْخَلِيلَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الْمَرْحَمَنِ إِنَّا أَشَدُّهُمْ خَلْقَهُمْ سُتُّكَتُّ
شَهَدَتْهُمْ وَيُسْعَلُونَ (١٩)

قوله تعالى : (أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْخَلِيلَةِ) فيه مسائلتان :

الأولى — قوله تعالى : (أَوْ مَنْ يُنشَأُ) أى يربى ويشب . والثانية : التربية ؛ يقال : نشأت في بني فلان نشأنا ونشوء إذا شببت فيهم . ونشئ وأنشئ بمعنى . وقرأ ابن عباس والضحاك وابن وتاب وحفص وحزة والكسائي وخلف « ينشأ » بضم الياء وفتح التون وتشديد الشين ؛ أى يربى ويكتبر في الخليقة . وآخذه أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى . وقرأ الباقيون « ينشأ » بفتح الياء وإسكان التون ، وآخذه أبو حاتم ؛ أى يربى وينبت ؛ وأصله من نشأ أى ارتفع ؛ قاله المروي . فـ « يُنشَأُ » متعدد ، وـ « ينشأ » لازم .

الثانية — قوله تعالى : (فِي الْخَلِيلَةِ) أى في الزينة . قال ابن عباس وغيره : هن الجواري زيهن غير زى الرجال . قال مجاهد : رخص للنساء في الذهب والحرير . وقرأ هذه الآية . قال الكجا : فيه دلالة على إباحة الحلي للنساء ، والإجماع منعقد عليه والأخبار فيه لا تخصى .

(١) راجع ج ١٠ ص ١١٦

قلت - روی عن أبي هريرة أنه كان يقول لابنته : يا بنتي ، إياك والتعلّق بالذهب !
فاني أخاف عليك اللهم .

قوله تعالى : (وَهُوَ فِي الْحِصَامِ غَيْرُ مِبْيَنٍ) أى في المحاجلة والإدلاء بالجحظة . قال قتادة : ما تكلمت أمرأة وطا جحظة إلا جعلتها على نفسها . وفي مصحف عبد الله « وهو في الكلام غير مبين » . ومعنى الآية : أضاف إلى الله من هذا وصفه ! أى لا يجوز ذلك . وقيل : المنشأ في الخلية أصنامهم التي صاغوها من ذهب وفضة وحلوها ؛ قاله ابن زيد والضحاك . ويكون معنى « وهو في الحصام غير مبين » على هذا القول : أى ساكت عن الجواب . و « من » في محل نصب ؟ أى اتخذوا الله من ينشأ في الخلية . ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء والخبر مضمر ؛ قاله الفزاء . وتقديره : أو من كان على هذه الحالة يستحق العبادة . وإن شئت قلت خفض ردا إلى أول الكلام وهو قوله « بما ضرب » ، أو على « ما » في قوله « مما يخلق بنات » . وكون البدل في هذين الموضعين ضعيف لكون ألف الاستفهام حائلا بين البدل والبدل منه . (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَا) فرأى الكوفيون « عباد » بالجمع . واختاره أبو عبيد ؛ لأن الإسناد فيها أعلى ، ولأن الله تعالى إنما كذبهم في قوله لهم إنهم بنات الله ، فأخبرهم أنهم عبيد وأنهم ليسوا بناته . وعن ابن عباس أنه قرأ « عباد الرحمن » ، فقال سعيد بن جبير : إن في مصحفى « عبد الرحمن » فقال : آخها وأكتبه « عباد الرحمن » . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « بل عباد مكرمون » .^(١) قوله تعالى : « أَخْسَبَ الدِّينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّحَدُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أُولَئِكَ » .^(٢) وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا مِثْلَكُمْ » .^(٣) وقرأ الآقاون « عند الرحمن » بـ^(٤) بنون ساكنة ، وآخراه أبو حاتم . وتصديق هذه القراءة قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ » .^(٥) وقوله « وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ » . والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم

(١) آية ٢٦ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٠٢ سورة الكهف . (٣) آية ١٩٤ سورة الأعراف .

(٤) آخر سورة الأعراف . (٥) آية ١٩ سورة الأنبياء .

فـنـسـبـةـ الـأـوـلـادـ إـلـىـ اللهـ سـبـحـانـهـ ،ـ ثـمـ فـتـحـكـمـهـ بـأـنـ الـمـلـائـكـةـ إـنـاثـ وـهـمـ بـنـاتـ اللهـ .ـ وـذـكـرـ العـبـادـ مـدـحـ لـهـ ؛ـ أـيـ كـيـفـ عـبـدـواـ مـنـ هـوـ فـنـهـاـيـةـ الـعـبـادـةـ ،ـ ثـمـ كـيـفـ حـكـمـواـ بـأـنـهـمـ إـنـاثـ مـنـ غـيرـ دـلـيلـ .ـ وـالـجـلـلـ هـنـاـ بـعـنـيـ القـوـلـ وـالـحـكـمـ ؛ـ تـقـوـلـ :ـ جـعـلـتـ زـيـداـ أـعـلـمـ النـاسـ ؛ـ أـيـ حـكـمـتـ لـهـ بـذـلـكـ .ـ (أـشـهـدـوـاـ خـلـقـهـمـ)ـ أـيـ أـحـضـرـوـاـ حـالـةـ خـلـقـهـمـ حـتـىـ حـكـمـواـ بـأـنـهـمـ إـنـاثـ .ـ وـقـيـلـ :ـ إـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ سـلـمـ وـقـالـ :ـ (فـاـ يـدـرـ يـكـمـ أـنـهـمـ إـنـاثـ)ـ ؟ـ فـقـالـوـاـ :ـ سـمـعـنـاـ بـذـلـكـ مـنـ آـبـائـنـاـ وـنـحـنـ نـشـهـدـ أـنـهـمـ لـمـ يـكـذـبـواـ فـأـنـهـمـ إـنـاثـ ،ـ فـقـالـ اللـهـ تـعـالـىـ :ـ (سـتـكـتـبـ شـهـادـتـهـمـ وـيـسـأـلـونـ)ـ أـيـ يـسـتـلـوـنـ عـنـهـاـ فـالـآـنـرـةـ .ـ وـقـرـأـ نـافـعـ «ـ أـشـهـدـوـاـ»ـ بـهـمـزـةـ آـسـتـفـهـامـ دـاـخـلـةـ عـلـيـهـمـزـةـ مـضـمـوـمـةـ مـسـهـلـةـ ،ـ وـلـاـ يـمـدـ سـوـىـ مـارـوـيـ الـمـسـيـحـ عـنـهـ أـنـهـ يـمـدـ .ـ وـرـوـيـ الـفـضـلـ عـنـ عـاصـمـ مـشـلـ ذـلـكـ وـتـحـقـقـ الـهـمـزـيـنـ .ـ وـالـبـاقـوـنـ «ـ أـشـهـدـوـاـ»ـ بـهـمـزـةـ وـاحـدـةـ لـلـاـسـتـفـهـامـ .ـ وـرـوـيـ عـنـ الـزـهـرـىـ «ـ أـشـهـدـوـاـ خـلـقـهـمـ»ـ عـلـىـ الـخـبـرـ ،ـ (سـتـكـتـبـ)ـ قـرـاءـةـ الـعـامـةـ بـضـمـ التـاءـ عـلـىـ الـفـعـلـ الـجـهـولـ «ـ شـهـادـتـهـمـ»ـ رـفـعـاـ .ـ وـقـرـأـ السـلـمـيـ وـأـبـنـ السـمـيـقـ وـهـبـيـرـةـ عـنـ حـفـصـ «ـ سـنـكـتـبـ»ـ بـنـوـنـ ،ـ «ـ شـهـادـتـهـمـ»ـ نـصـبـاـ بـتـسـمـيـةـ الـفـاعـلـ .ـ وـعـنـ أـبـيـ رـجـاءـ «ـ سـتـكـتـبـ شـهـادـتـهـمـ»ـ بـالـجـمـعـ .ـ

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الْرَّحْمَنُ مَا عَبَدَنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ
مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢)

قوله تعالى : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ)ـ يـعـنـيـ قـالـ المـشـرـكـوـنـ عـلـىـ طـرـيـقـ الـاـسـتـهـزـاءـ وـالـسـخـرـيـةـ :ـ لـوـ شـاءـ الرـجـنـ عـلـىـ زـعـمـكـ مـاعـبـدـنـاـ هـذـهـ الـمـلـائـكـةـ .ـ وـهـذـاـ مـنـهـمـ كـلـمـةـ حـقـ أـرـيدـ بـهـ باـطـلـ .ـ وـكـلـ شـيـءـ بـيـارـادـةـ اللـهـ ،ـ وـإـرـادـةـ تـحـبـ وـكـذـاـ عـلـمـهـ فـلـاـ يـعـكـنـ الـاـحـتـجاجـ بـهـاـ ؛ـ وـخـلـافـ الـمـعـلـومـ وـالـمـرـادـ مـقـدـورـ وـإـنـ لـمـ يـقـعـ .ـ وـلـوـ عـبـدـوـ اللـهـ بـدـلـ الـأـصـنـامـ اـعـلـمـنـاـ أـنـ اللـهـ أـرـادـ مـنـهـمـ مـاـ حـصـلـ (٢)ـ مـنـهـمـ .ـ وـقـدـمـضـىـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ فـالـأـنـعـامـ عـنـدـ قـوـلـهـ «ـ سـيـقـوـلـ الـدـيـنـ أـشـرـكـوـاـ لـوـ شـاءـ اللـهـ مـاـ أـشـرـكـاـ»ـ (٣)ـ وـفـيـ يـسـ :ـ «ـ أـنـطـعـمـ مـنـ لـوـ شـاءـ اللـهـ أـطـعـمـهـ»ـ .ـ وـقـوـلـهـ (مـاـ لـهـمـ بـذـلـكـ مـنـ عـلـمـ)ـ مـرـدـودـ إـلـىـ

(١) رـمـنـاـهـاـ هـذـاـ تـصـوـرـاـ لـلـغـلـقـ .ـ (٢) رـاجـعـ جـ ٧ صـ ١٢٨ .ـ (٣) رـاجـعـ جـ ١٥ صـ ١٥

قوله « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الدِّينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَا » أى مالهم بقوتهم : الملائكة بنات الله ، من علم ، قاله قنادة ومقاتل والكلبي . وقال مجاهد وابن جرير : يعنى الأوئنان ، أى مالهم بعبداً الأوئنان من علم . « مِنْ » صلة . « إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » أى يَخْدِسُونَ وَيَكْذِبُونَ ، فلا عذر لهم في عبادة غير الله عن وجع . وكان في ضمن كلامهم أن الله أمرنا بهـذا أو رضـ ذلك منا ، وهذا لم ينهـنا ولم يعـجلـنا بالعقوبة .

قوله تعالى : أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٩﴾
هـذا معـادـلـ لـقولـه « أَشْهِدُوا خَلْقَهُمْ » . والمـعـنى : أحـضـروا خـلقـهمـ أـمـ آتـيـناـهـمـ كـتابـاـ مـنـ قبلـهـ ، أـىـ منـ قـبـلـ القرآنـ بـماـ آـدـعـوهـ ، فـهـمـ بـهـ مـتـسـكـونـ بـهـ فـيـهـ .

قوله تعالى : بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا إِبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى
أَثْرِهِمْ مُهَتَّدُونَ ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ
نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا إِبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى أَثْرِهِمْ
مُقْتَدُونَ ﴿٣١﴾

فيـهـ مـسـائـاتـ :

الأولـيـ - قولـهـ تـعـالـيـ : (عـلـىـ أـمـةـ) أـىـ عـلـىـ طـرـيقـةـ وـمـذـهـبـ ، قالـهـ عمرـ بنـ عبدـ العـزـيزـ .
وـكانـ يـقـرـأـ هوـ وـمجـاهـدـ وـقـنـادـةـ (عـلـىـ إـقـةـ) بـكـسـرـ الـأـلـفـ . وـالـأـمـةـ الـطـرـيقـةـ . وـقالـ الجـوـهـرـىـ :
وـالـإـمـةـ (بـالـكـسـرـ) : النـعـمـةـ ، وـالـإـقـةـ أـيـضاـ لـغـةـ فـيـ الـأـمـةـ ، وـهـىـ الـطـرـيقـةـ وـالـدـينـ ؛ عـنـ أـبـىـ عـيـدةـ .
قالـ عـدـىـ بنـ زـيـدـ فـيـ النـعـمـةـ :

ثـمـ بـعـدـ الـفـلاحـ وـالـمـلـكـ وـالـأـمـةـ وـارـتـهـمـ هـنـاكـ الـقـبـورـ

عـنـ غـيـرـ الجـوـهـرـىـ . وـقـالـ قـنـادـةـ وـعـطـيـةـ : (عـلـىـ أـمـةـ) عـلـىـ دـيـنـ ؛ وـمـنـهـ قـوـلـ قـيـسـ بـنـ الـخـطـيمـ :
كـنـاـ عـلـىـ أـقـةـ أـبـانـاـ * وـيـقـتـسـدـيـ الـآـخـرـ بـالـأـقـلـ

قال الجوهري : والأئمة الطريقة والدين ، يقال : فلان لا أمة له ؛ أى لا دين له ولا نحنة .
قال الشاعر :

* وهل يستوى ذو أمة وَكَفُورٌ *

وقال مجاهد وقطرب : على دين على ملة . وفي بعض المصاحف « قالوا إنا وجدنا آباءنا على
ملة » وهذه الأقوال متقاربة . وحكي عن القراء على ملة على قبلة . الأخفش : على استقامة ،
وأنشد قول النابغة :

خلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً * وهل يأْمِنْ ذُو أَمْةٍ وهو طائع

الثانية - ((وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهَتَّدُونَ)) أى نهتدى بهم . وفي الآية الأخرى « مقتدون »

أى نقتدى بهم ، والمعنى واحد . قال قتادة : مقتدون متبعون . وفي هذا دليل على إبطال
التقليد ، لذقه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم .
وقد مضى القول في هذا في « البقرة » مستوى . وحكي مقاتل أن هذه الآية نزلت في الوليد
ابن المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبة وشيبة أباً ربعة من قريش ؛ أى وكما قال هؤلاء
فقد قال من قبلهم أيضاً . يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ
قِيلَ لِرَسُولِ مِنْ قَبْلِكَ » . والمترف : المنعم ؛ والمراد هنا الملوك والجبارية .

قوله تعالى : قَلْ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَ كُمْ

قَالُوا إِنَّا مَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ (٢٤)

قوله تعالى : ((قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَى)) أى قل يا محمد لقومك : أو ليس قد جئتم
من عند الله بأهدي ؟ يريد بالرشد . ((مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَ كُمْ قَالُوا إِنَّا مَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ))
يعني بكل ما أرسل به الرسول . فان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولفظه لفظ الجمع ؛ لأن
تكذيبه تكذيب لمن سواه . وقرئ « قل وقال وجئتم وجئناكم » يعني أنتبعون آباءكم ولو
جئتم بدين أهدي من دين آبائكم ؟ قالوا إنا ناتبعون على دين آبائنا لانفك عنه وإن جئتنا
بما هو أهدي . وقد مضى في « البقرة » القول في التقليد وذمه فلا معنى لإعادته .

(١) رابع ج ٢ ص ٢١١ فما بعدها ، طبعة ثانية . (٢) آية ٤٣ سورة فصلت .

قوله تعالى : فَأَنْتَقْمَنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾
 قوله تعالى : (فَأَنْتَقْمَنَا مِنْهُمْ) بالقطط والقتل والسي (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)
 آخر أمر من كذب الرسل . [وقراءة العامة « قل ألو جتنكم » . وقرأ ابن عامر وحفص
 « قال ألو » على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة . وقرأ أبو جعفر « قل ألو جتناكم »
 بـون وألف ؛ على أن المخاطبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جميع الرسل] .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيْهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَآءٌ مَّا
 تَعْبُدُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِنَا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ) أى ذكرهم إذ قال . (إِبْرَاهِيمُ لِأَيْهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَآءٌ مَّا تَعْبُدُونَ)
 البراء يستعمل للواحد فـلا يـتـى ولا يـجـمع ولا يـؤـنـث؛ لأنـه مصدر وضع موضع النـعـت؛
 لا يـقـال: البراءـانـ والبراءـونـ؛ لأنـ المعـنى ذو البراءـ وذـوـ البراءـ . قال الجوهـريـ: وـتـبرـأتـ منـ
 كـذاـ، وـأـنـهـ بـرـاءـ، وـخـلـاءـ مـنـهـ، لـاـ يـتـىـ وـلـاـ يـجـمعـ لـأـنـهـ مصدرـ فيـ الأـصـلـ؛ مـثـلـ: سـمـاعـاـ.
 فـاـذـاـ قـلـتـ: أـنـاـ بـرـىـءـ مـنـهـ وـخـلـيـ ثـنـيـتـ وـجـعـتـ وـأـنـتـ، وـقـلـتـ فـيـ الجـمـعـ: نـحـنـ مـنـهـ بـرـاءـ مـثـلـ
 فـقـيـهـ وـفـقـهـاءـ، وـبـرـاءـ أـيـضـاـ مـثـلـ كـرـمـ وـكـامـ، وـأـبـراءـ مـثـلـ شـرـيفـ وـأـشـرـافـ، وـأـبـرـيـاءـ مـثـلـ نـصـيبـ
 وـأـنـصـبـاءـ، وـبـرـيـئـونـ . وـأـمـرـأـ بـرـيـثـةـ وـهـمـاـ بـرـيـئـانـ وـهـنـ بـرـيـئـاتـ وـبـرـيـاـ . وـرـجـلـ بـرـىـءـ وـبـرـاءـ
 مـثـلـ عـجـيـبـ وـعـجـابـ . وـالـبـرـاءـ (بالـفـتـحـ) أـوـلـ لـيـلـةـ مـنـ الشـهـرـ، سـمـيـتـ بـذـلـكـ لـتـبـرـؤـ الـقـمـرـ مـنـ الشـمـسـ .
 (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) استثناء متصل ، لأنـهمـ عـبـدـواـ اللـهـ مـعـ آلهـتـمـ . قال قـتـادةـ: كـانـواـ يـقـولـونـ
 اللـهـ رـبـنـاـ مـعـ عـبـادـةـ الـأـوـثـانـ . وـيـحـوـزـ أـنـ يـكـونـ مـنـقـطـعاـ؛ أـىـ لـكـنـ الـذـىـ فـطـرـنـىـ فـهـوـ يـهـدـىـ .
 قال ذـلـكـ ثـقـةـ بـالـلـهـ وـتـبـنـيـهـ لـقـوـمـهـ إـنـ الـهـدـىـ مـنـ رـبـهـ .

قوله تعالى : وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾

(١) ما بين المربعين مقسم من الآية السابقة .

فيه ثلاثة مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَجَعَلَهَا كَلْمَةً بَاقِيَةً » الضمير في « جعلها » عائد على قوله « إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي » . وضمير الفاعل في « جعلها » لله عن وجل ؛ أى وجعل الله هذه الكلمة والمقالة باقية في عقبه ، وهم ولده وولد ولده ؛ أى إنهم توارثوا البراءة عن عبادة غير الله ، وأوصى بعضهم بعضا في ذلك . والعقب من يأتي بعده . وقال السدي : هم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : قوله « في عقبه » أى في خلفه . وفي الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى فإنه سيهدى لهم يرجعون وجعلها كلمة باقية في عقبه . أى قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله . قال مجاهد وقتادة : الكلمة لا إله إلّا الله . قال قتادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيمة . وقال الضحاك : الكلمة أن لا تعبدوا إلّا الله . عكرمة :

الإسلام ؛ لقوله تعالى « هُوَ سَمَّا كُمُّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِهِ » . القرطبي : وجعل وصية إبراهيم التي وصى بها بنيه وهو قوله « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِي لِكُمُ الدِّينِ » — الآية المذكورة في البقرة — كلمة باقية في ذريته وبناته . وقال ابن زيد : الكلمة قوله « أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وقرأ « هو سَمَّا كُمُّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِهِ » . وقيل : الكلمة النبوة . قال ابن العربي : ولم تزل النبوة باقية في ذرية إبراهيم . والتوحيد هم أصله وغيرهم فيه تبع لهم .

الثانية — قال ابن العربي : إنما كانت لابراهيم في الأعقاب موصولة بالأحكام بدعويته المجايبتين ؛ إحداها في قوله « إِنِّي جَاعَلُكَ لِلَّهِ أَمَّا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْأِي
 (٣) عَهْدِي الظَّالِمِينَ » فقد قال نعم إلّا من ظلم منهم فلا عهد . ثانية ما قوله « وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ إِنَّ
 نَعْبُدُ إِلَّا أَنْتَنَا » . وقيل : بل الأولى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانًا صَدِيقًا فِي الْآخِرِينَ » فكل أمة
 تعظمها ، بنوه وغيرهم من يجتمع معه في سام أو نوح .

الثالثة — قال ابن العربي : جرى ذكر العقب ها هنا موصولة في المعنى ، وذلك مما يدخل في الأحكام وترتبا عليه عقد العمرى والتحبيس . قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) آخر سورة الحج . (٢) آية ١٢٤ . (٣) آية ١٢٤ سورة البقرة . (٤) آية ٣٥ .
 سورة لابراهيم . (٥) آية ٨٤ سورة الشورى . (٦) العمرى (كحبلى) : تمليل الشىء مدة العمر .

”أَيُّهَا رَجُلُ أَعْمَرُ عُمَرَى لَهُ وَلِعَبِيهِ فِينَاهَا لِلَّذِى أَعْطَيْهَا لَا تَرْجِعُ إِلَى الَّذِى أَعْطَى
عَطَاءً وَقَعَتْ فِيهِ الْمَوَارِيثُ“ . وهى تَرِدُ عَلَى أَحَدِ عَشَرَ لِفَاظًا :

اللفظ الأول — الولد، وهو عند الإطلاق عبارة عنمن وُجد من الرجل وأمرأته في الإناث والذكور . وعن ولد الذكور دون الإناث لغة وشرعاً؛ ولذلك وقع الميراث على الولد المعين وأولاد الذكور من المعين دون ولد الإناث لأنه من قوم آخرين، ولذلك لم يدخلوا في الحبس بهذا اللفظ ؛ قاله مالك في الجموعة وغيرها .

قلت : هذا مذهب مالك وبجمع أصحابه المتقدمين ، ومن حجتهم على ذلك الإجماع على أن ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى «^(١) يُوصِّيْكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ» . وقد ذهب بجماعة من العلماء إلى أن ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس ؛ يقول الحبيس : حُبِسْتَ عَلَى وَلَدِي أَوْ عَلَى عَقِبِي . وهذا اختيار أبي عمر بن عبد البر وغيره ؛ واحتجوا بقول الله جل وعز : «^(٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ» . قالوا : فلما حَرَمَ الله البنات خرمت بذلك بنت البنات بجماع علم أنها بنت ووجب أن تدخل في حبس أبيها إذا حبس على ولده أو عقبه . وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» مستوفياً .

اللفظ الثاني — البنون ؛ فإن قال : هذا حبس على ابني ؟ فلا يتعدى الولد المعين ولا يتعدى . ولو قال ولدي ، لتعتدى وتتعدى في كل من ولد . وإن قال على بنى ، دخل فيه الذكور والإناث . قال مالك : من تصدق على بناته وبنيه فإن بناته وبنات بناته يدخلن في ذلك . روى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته فإن بنات بنته يدخلن في ذلك مع بنات صلبه . والذى عليه جماعة أصحابه أن ولد البنات لا يدخلون في البنين . فإن قيل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحسن آبن آبنته : ”إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَاعْلَمُ اللَّهُ أَنْ يَصْلِحَ بَيْنَ فِتْنَيْنِ عَظِيمَتِيْنِ مِنَ الْمُسَالِمِيْنِ“ . قلنا : هذا مجاز ، وإنما وأشار به إلى تshirefه وتقديره ؛ ألا ترى أنه يجوز نفيه عنه فيقول الرجل في ولد بنته ليس بأبني ؟ ولو كان حقيقة ما جاز نفيه عنه ؟

(١) آية ١١ سورة النساء .

(٢) آية ٢٣ سورة النساء .

(٣) راجع ج ٧ ص ٣١ .

لأن الحقائق لا تنفي عن منتباتها^(١) . ألا ترى أنه يننسب إلى أبيه دون أمه ؟ ولذلك قيل في عبد الله بن عباس : إنه هاشمي وليس بهلالي وإن كانت أمه هلالية .

قلت : هذا الاستدلال غير صحيح ، بل هو ورد على الحقيقة في اللغة لوجود معنى الولادة فيه ، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت من قول الله تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم »^(٢) . وقال تعالى « ومن ذرِّيَّةِ داودَ وسليمانَ – إلى قوله – مِن الصَّالِحِينَ » بفعل عيسى من ذريته وهو ابن بنته على ما تقدم بيانه هناك . فان قيل فقد قال الشاعر :

ينونا بنسو أبنائنا ، وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الأبعد

قيل لهم : هذا لا دليل فيه ؛ لأن معنى قوله إنما هو ولد بناته الذكران هم الذين لهم حكم بنيه في الموارثة والنسب ، وإن ولد بناته ليس لهم حكم بناته في ذلك ؛ إذ ينسبون إلى غيره فأخبر بالفترق بينهم بالحكم مع آجتنابهم في التسمية ولم ينفع عن ولد البنات اسم الولد لأنه ابن ؛ وقد يقول الرجل في ولده ليس هو بأبني إذ لا يطعني ولا يرى لي حقا ، ولا يريد بذلك نفي اسم الولد عنه وإنما يريد أن ينفي عنه حكمه . ومن استدل بهذا البيت على أن ولد البنت لا يسمى ولدا فقد أفسد معناه وأبطل فائدته ، وتأول على قائله ما لا يصح ؛ إذ لا يمكن أن يسمى ولد الابن في اللسان العربي أبنا ، ولا يسمى ولد الابنة أبنا ، من أجل أن معنى الولادة التي اشتق منها اسم الولد فيه أبین وأقوی ، لأن ولد الابنة هو ولدتها بحقيقة الولادة ، وولد الابن إنما هو ولد بماله مما كان سببا للولادة .

ولم يخرج مالك رحمه الله أولاد البنات من حبس على ولده من أجل أن اسم الولد غير واقع عليه عنده في اللسان ، وإنما أخرجهم منه قياسا على الموارثة . وقد مضى هذا في « الأنعام » والحمد لله .

اللفظ الثالث – الذريّة ؛ وهي مأخوذه من ذراً الله الخلق ؛ فيدخل فيه ولد البنات لقوله « ومن ذرِّيَّةِ داودَ وسليمانَ – إلى أن قال – وذُكْرِيَا ويعْصِي »^(٣) . وإنما كان من ذريته من قبل أمه . وقد مضى في « البقرة » اشتراق الذريّة وفي « الأنعام » الكلام على « ومن ذرِّيَّةِ » الآية ؛ فلا معنى للإعادة .

(١) في نسخة من الأصل : « مشبهاتها » . وفي ابن العربي « مسمياتها » .

(٢) آية ٨٤ سورة الأنعام . راجع ج ٧ ص ٣١ . (٣) راجع ج ٢ ص ١٠٧ طبعة ثانية .

اللفظ الرابع — العقب؛ وهو في اللغة عبارة عن شيءٍ بعد شيءٍ كان من جنسه أو من غير جنسه؛ يقال: أعقب الله بخير؛ أي جاء بعد الشدة بالرخاء. وأعقب الشيبُ السوادَ. وعقب يعقب عقوباً وعقباً إذا جاء شيئاً بعد شيءٍ؛ وهذا قيل لولد الرجل: عقبه. والمعقاب من النساء: التي تلد ذكراً بعد أنثى، هكذا أبداً. وعقب الرجل: ولده ولد ولد الباقيون بعده. والعاقبة الولد؛ قال يعقوب: في القرآن «وجعلها كلمة باقية في عقيمه». وقيل: بل الورثة كلهم عقب. والعاقبة الولد؛ ولذلك فسره مجاهد هنا. وقال ابن زيد: ها هنا هم الذريّة. وقال ابن شهاب: هم الولد ولد الولد. وقيل غيره على ما تقدم عن السدي. وفي الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهي مؤشّة. وعقب الرجل أيضاً ولده ولد ولده. وفيه لغتان: عقب وعقب (بالتسكين) وهي أيضاً مؤشّة، عن الأخفش. وعقب ^(١) فلان مكان أبيه عاقبة أبي خلفه؛ وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى «ليس لوعيئها كاذبة». ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد في المعنى. واختلف في الذريّة والنسل فقيل إنّهما بمنزلة الولد والعقب؛ لا يدخل ولد البنات فيما على مذهب مالك. وقيل: إنّهم يدخلون فيما ^(٢). وقد مضى الكلام في الذريّة هنا وفي «الأنعام».

اللفظ الخامس . نسل؛ وهو عند علمائنا كقوله ولدى ولد ولدى؛ فإنه يدخل فيه ولد البنات . ويجب أن يدخلوا؛ لأن نسل يعني نحرج، ولد البنات قد خرجوا منه بوجيه، ولم يقترب به ما يخصه كما اقترب بقوله عقي ما تناسلوا . وقال بعض علمائنا: إن النسل بمنزلة الولد والعقب لا يدخل فيه ولد البنات؛ إلا أن يقول المحبس نسل ونسل نسل، كما إذا قال عقي وعقب عقي . وأما إذا قال ولدى أو عقي مفرداً فلا يدخل فيه البنات .

اللفظ السادس — الآل؛ وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع . قال ابن القاسم: هما سواء، وهم العصبة والإخوة والبنات والعمات، ولا يدخل فيه الحالات . وأصل أهل الاجتماع،

(١) آية ٢ سورة الواقيمة .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣١ .

(١) يقال : مكان أهل إذا كان فيه جماعة ، وذلك بالعصبة ومن دخل في القُعْدَة من النساء ، والعصبة مشتقة منه وهي أخص به . وفي حديث الإفك : يا رسول الله ، أهلك ! ولا نعلم إلا خيرا ؛ يعني عائشة . ولكن لا تدخل فيه الزوجة بجماع وإن كانت أصل التأهل ، لأن ثبوتها ليس بيقين إذ قد يتبدل ربها ويحصل بالطلاق . وقد قال مالك : آل محمد كل تق ؛ وليس من هذا الباب . وإنما أراد أن الإيمان أخص من القرابة فأشتملت عليه الدعوة وقصد بالرحمة . وقد قال أبو إسحاق التونسي : يدخل في الأهل كل من كان من جهة الآبين ؛ فوق الاشتغال حقه وغفل عن العرف ومطلق الاستعمال . وهذه المعانى إنما تبني على الحقيقة أو على العرف المستعمل عند الإطلاق ؛ فهذا لفظان .

اللفظ الثامن — قرابة ؛ فيه أربعة أقوال : الأول — قال مالك في كتاب محمد وابن عبدوس : إنهم الأقرب فالأقرب بالاجتهاد ، ولا يدخل فيه ولد البنات ولا ولد الحالات . الثاني — يدخل فيه أقاربه من قبل أبيه وأمه ؛ قاله علي بن زياد . الثالث — قال أثيم : يدخل فيه كل رحم من الرجال والنساء . الرابع — قال ابن كاتمة : يدخل فيه الأعمام والعهات والأخوال والحالات وبنات الأخ . وقد قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى « قُلْ لَا أَسْتَلِمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » قال : إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم . وقال : لم يكن بطن من قريش إلا كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ فهذا يضفيه والله أعلم .

اللفظ التاسع — العشيرة ؛ ويضفيه الحديث الصحيح : إن الله تعالى لما نزل « وَأَنذَرَ عَشِيرَاتَ الْأَقْرَبِينَ » دعا النبي صلى الله عليه وسلم بطون قريش وسماهم — كما تقدم ذكره — وهم العشيرة الأقربون ؛ وسماهم عشيرة في الإطلاق . واللفظ يحمل على الأخص الأقرب بالاجتهاد ، كما تقدم من قول علمائنا .

(١) في الأصل : « ومن دخل في العقد » . وفي ابن العربي : « ومن دخل في العقدة » وقد أثبتناه كما ترى استنادا بما في شرح الباجي على الموطأ ؛ وعبارة : « ... ولا يدخل في ذلك الحالات . ومعنى ذلك عندى العصبة أو من كان في قعدهن من النساء » . والقعدة (بضم أوله وسكون ثانية وضم ثالثه وفتحه) : القرابة .

(٢) آية ٢٣ سورة الشورى . (٣) آية ٢١٤ سورة الشعراء . راجع ج ١٣ ص ١٤٣

اللفظ العاشر — القوم ؛ يحمل ذلك على الرجال خاصة من العصبة دون النساء . والقوم يشمل الرجال والنساء ، وإن كان الشاعر قد قال :

وَمَا أَدْرِي وَسُوفَ إِخْرَاجُ أَدْرِي * أَقْوَمَ آلَ حَضْنِنَ أَمْ نِسَاءَ
وَلَكُنْهُ أَرَادَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ لِلنَّصْرَةِ عَنِ الرَّجُلِ ، وَإِذَا دَعَاهُمْ لِلْحُرْمَةِ دَخَلَ فِيهِمْ
الرَّجُلُ وَالنِّسَاءُ ؛ فَتَعْمَمُهُ الصِّفَةُ وَتَخْصَصُهُ الْقَرِينَةُ .

اللفظ الحادي عشر — المولى ؛ قال مالك : يدخل فيه موالٍ أبيه وابنه مع مواليه .
وقال ابن وهب : يدخل فيه أولاد مواليه . قال ابن العربي : والذى يحصل منه أنه يدخل
فيه من يرثه بالولاء ؛ قال : وهذه فصول الكلام وأصوله المرتبطة بظاهر القرآن والسنة
المبيّنة له ؛ والتفریع والتفتیح في كتاب المسائل ، والله أعلم .

قوله تعالى : بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ
وَرَسُولُ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا يَهْ
كَفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِينَيْنِ
عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ تَخْنُونُ فَسَمَّنَا بِلِنْهُمْ مَعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخَذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سُخْرِيَّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مَا يَجْمِعُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : «(بَلْ مَتَّعْتُ)» وقرئ «بل متعنا» . «(هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ)» أي
في الدنيا بالإمهال . «(حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ)» أي مد صلٰ الله عليه وسلم بالتوحيد
والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم . وهو الكلمة التي بقاحتها الله في عقبه . «(وَرَسُولُ
مُبِينٍ)» أي يبين لهم ما إليه حاجة . «(وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ)» يعني القرآن . «(قَالُوا هَذَا
سِحْرٌ وَإِنَّا يَهْ كَافِرُونَ)» جادلوا . «(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ)» أي هل لأنزل (هذا القرآن على رجل)

وَقَرِئَ «عَلَى رَجُلٍ» بِسَكُونِ الْجِيمِ . ((مِنَ الْقَرِيَّتِينَ عَظِيمٌ)) أَيْ مِنْ مَاحْدِي الْقَرِيَّتِينَ ؟ كَقُولَهُ تَعَالَى : «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ» أَيْ مِنْ أَحَدِهِمَا . أَوْ عَلَى أَحَدِ رِجَالِيْنَ مِنَ الْقَرِيَّتِينَ . الْقَرِيَّتَانِ : مَكَّةُ وَالْطَّائِفُ . وَالْجَلَانُ : الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغَيْرَةِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرِ بْنِ مُخْزُومِ أَبِي جَهْلٍ . وَالَّذِي مِنَ الطَّائِفِ أَبُو مُسْعُودُ عُرْوَةُ بْنُ مُسْعُودِ التَّقْفِيُّ ؛ قَالَهُ قَاتَادَةُ . وَقَيْلُ : عُمَيْرُ بْنُ عَبْدِ يَالِيلِ التَّقْفِيِّ مِنَ الطَّائِفِ ، وَعَتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ مِنْ مَكَّةَ ؛ وَهُوَ قَوْلُ مَجَاهِدٍ . وَعَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ عَظِيمَ الطَّائِفِ حَبِيبُ بْنُ عُمَرِ التَّقْفِيُّ . وَقَالَ السَّدِيُّ : كَانَةُ بْنُ عَبْدِ بْنِ عُمَرٍ . وَرَوَى أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغَيْرَةِ — وَكَانَ يُسَمَّى رِيحَانَةَ قَرِيشٍ — كَانَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ مَا يَقُولُهُ مَهْدِ حَقًا لَّتَزَلَ عَلَى أَبْنِ مُسْعُودٍ ؛ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ((أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ)) يَعْنِي النَّبَّةَ فِي ضَعْوَنَهَا حَيْثُ شَاءُوا . ((نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) أَيْ أَفَقَرَنَا قَوْمًا وَأَغْنَيَنَا قَوْمًا ؟ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الدُّنْيَا إِلَيْهِمْ فَكَيْفَ يَفْوَضُ أَمْرَ النَّبَّةِ إِلَيْهِمْ . قَالَ قَاتَادَةُ : تَلَقَّاهُ ضَعِيفُ الْقَوْةِ قَلِيلُ الْحِيلَةِ عَيْنُ الْلِّسَانِ وَهُوَ مَبْسُوطٌ لَّهُ ، وَتَلَقَّاهُ شَدِيدُ الْحِيلَةِ بِسَيْطُ الْلِّسَانِ وَهُوَ مَقْتُرٌ عَلَيْهِ . وَقَرَأَ أَبْنُ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدَ وَأَبْنَ مُحَيْصِنَ فِي رِوَايَةِ عَنْهُ «مَعَايِشَهُمْ» . وَقَيْلُ : أَيْ نَحْنُ أَعْطَيْنَا عَظِيمَ الْقَرِيَّتِينَ مَا أَعْطَيْنَا لَهُمْ لِكَرَامَتِهِمْ عَلَى أَنَا قَادِرٌ عَلَى نَزْعِ التَّعْمَةِ عَنْهُمَا ؟ فَأَيْ فَضْلٌ وَقَدْرُهُمَا . ((وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتِهِ)) أَيْ فَاضَلَنَا بَيْنَهُمْ ؛ فَنَّ فَاضِلٌ وَمَفْضُولٌ وَرَئِسٌ وَمَرْءَوْسٌ ؛ قَالَهُ مَقَاتَلٌ . وَقَيْلُ : بِالْحَرِيَّةِ وَالْوَرْقِ ؟ فَبَعْضُهُمْ مَالِكٌ وَبَعْضُهُمْ مَمْلُوكٌ . وَقَيْلُ : بِالْفَنِّ وَالْفَقْرِ ؟ فَبَعْضُهُمْ غَنِيٌّ وَبَعْضُهُمْ فَقِيرٌ . وَقَيْلُ : بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ . ((لَيَتَّجَدَّدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)) قَالَ السَّدِيُّ وَأَبْنُ زِيدٍ : خَوَّلَ وَخَدَادَاهُ ، يَسْخِرُ الْأَغْنِيَاءَ الْفَقَرَاءَ فَيَكُونُ بَعْضُهُمْ سَبِيلًا لِمَعَاشِ بَعْضٍ . وَقَالَ قَاتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ : يَعْنِي لِيَمْلِكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَقَيْلُ : هُوَ مِنَ السُّعْدِرِيَّةِ الَّتِي بَعْنِي الْأَسْتِهْزَاءُ ؟ أَيْ لِيَسْتَهْزَأُ الْفَنِّ بِالْفَقِيرِ . قَالَ الْأَخْفَشُ : سَخَرَتْ بِهِ وَسَخَرَتْ مِنْهُ ، وَصَحَّكَتْ مِنْهُ وَصَحَّكَتْ بِهِ ، وَهَرَّتْ مِنْهُ وَبِهِ ؛ كُلُّ يَقَالُ ، وَالْأَسْمَاءُ السُّعْدِرِيَّةُ (بِالضِّمْنِ) . وَالسُّعْدِرِيَّةُ وَالسُّعْدِرِيَّةُ (بِالضِّمْنِ وَالْكَسْرِ) . وَكُلُّ النَّاسِ صَنَعُوا «سُخْرِيَّا» إِلَّا أَبْنَ مُحَيْصِنَ وَمَجَاهِدَ فَإِنَّهُمَا قَرَا «سُخْرِيَّا» . ((وَرَحْمَةُ رَبِّكَ

خِيرٌ مَا يَجْعَلُونَ) أى أفضل مما يجتمعون من الدنيا . ثم قيل : الرحمة النبوة ، وقيل الجنة . وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة التوافل . وقيل : ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم .

قوله تعالى : ولَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قال العلماء : ذكر حقاره الدنيا وقلة خطرها ، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفارة درجة ذهبا وفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب ؛ فيحمل ذلك على الكفر . قال الحسن : المعنى لولا أن يكفر الناس جيما بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركتهم الآخرة لاعطيناهم في الدنيا ما وصفناه ؛ هوان الدنيا عند الله عن وجىل . وعلى هذا أكثر المفسرين ابن عباس والسدى وغيرهم . وقال ابن زيد : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة » في طلب الدنيا و اختيارها على الآخرة « لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة » . وقال الكسائي : المعنى لولا أن يكون في الكفار غنىًّا وفقر وفي المسلمين مثل ذلك لاعطينا الكفار من الدنيا هذا هوانها .

الثانية — قرأ ابن كثير وأبو عمرو و « سقفاً » بفتح السين وإسكان القاف على الواحد ومعناه الجمع ؛ اعتبارا بقوله تعالى « نَخْرَزُ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْقَهِمْ » . وقرأ الباقيون بضم السين والقاف على الجمع ؛ مثل رهن ورهن . قال أبو عبيد : ولا ثالث لها . وقيل : هو جمع سقيف ؛ مثل كثيب وكشب ، ورغيف ورغف ؛ قاله الفراء . وقيل : هو جمع سقوف ؛ فيصير جمع الجمع : سقف وسقوف ، نحو فلس وفلوس . ثم جعلوا فعلاً كأنه اسم واحد بضم عه على القاف . وروى عن مجاهد « سقفاً » بإسكان القاف . وقيل : اللام في « لبيوتهم » يعني على ؛ أى على بيوتهم . وقيل : بدل ؛ كما تقول فعلت هذا لزيد لكرامته ؛ قال الله تعالى « وَلَا يَوْمَ يَرَى
لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُّسَ » كذلك قال هنا « لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم » .

الثالثة — قوله تعالى : ((وَمَعَارِجَ)) يعني الدرَّاج ؛ قاله ابن عباس وهو قول الجمهور . واحدها مِعراج ، والمِعراج السُّلْم ؛ ومنه ليلة المِعراج . والجمع مِعراج وَمَعَارِج ؛ مثل مفاتيح ومفاتيح ؛ لغتان . «ومَعَارِج» قرأ أبو رجاء العُطَّارِي وطلحة بن مُصْرَف ؛ وهي المراق والسلايم . قال الأخفش : إن شئت جعلت الواحد مِعراج وَمَعَارِج ؛ مثل مِرقاء وَمَرْقاة . ((عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)) أى على المِعراج يرتفعون ويصعدون ؛ يقال : ظهرت على البيت أى علوت سطحه . وهذا لأن من علا شيئاً وارتفاع عليه ظهر للناظرين . ويقال : ظهرت على الشيء أى عالمته . وظهرت على العدُو أى غلبته . وأنشد نابغة بن جعده رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

(١)

عَلَّوْنَا السَّمَاءَ عِزَّةً وَمَهَابَةً * وَإِنَا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظَاهِرًا

أى مصعداً؛ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال "إلى أين؟" ؛ قال إلى الجنة ؛ قال "أجل إن شاء الله" . قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثَر أهلها وما فعل ذلك ! فكيف لو فعل ؟ !

الرابعة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لاحق في رب الْعِلوِّ لأن الله تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها . وهذا مذهب مالك رحمه الله . قال ابن العربي : وذلك لأن البيت عبارة عن قاعة وجدار وسقف وباب ؛ فمن له البيت فله أركانه . ولا خلاف أن العقل له إلى السماء . واختلفوا في السفل ؛ فنهم من قال هو له ، ومنهم من قال ليس له في باطن الأرض شيء . وفي مذهبنا القولان . وقد بين حديث الاسرائيلي الصحيح فيما تقدم : أن رجلاً باع من رجل دارا فبنيها فوجد فيها جرة من ذهب ، بخاء بها إلى البائع فقال : إنما اشتريت الدار دون الجرة ، وقال البائع : إنما بعت الدار بما فيها ؛ وكلهم تداععاً فقضى بينهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يزوج أحدهما ولده من بنت

(١) رواية البيت كافية في كتاب الأغاني ج ٥ ص ٨ طبع دار الكتب المصرية : * بلغنا السماء مجدها وجدودنا *

وروايته كافية في جمهرة أشعار العرب : * بلغنا السماء مجدها وجودها وسُؤددنا *

وروايته كافية في اللسان مادة « ظهر » : * بلغنا السماء مجدها ومسناونا *

الآخر ويكون المال لها . والصحيح أن العلو والسفل له إلا أن يخرج عنهما بالبيع ، فإذا باع أحدهما أحد الموضعين فله منه ما ينفع به وباقيه للبائع منه .

الخامسة — من أحكام العلو والسفل . إذا كان العلو والسفل بين رجلين فيقتل السفل أو يريد صاحبه هدمه ؛ فذكروا سخنون عن أشہب أنه قال : إذا أراد صاحب السفل أن يهدم ، أو أراد صاحب العلو أن يبني علوه فليس لصاحب السفل أن يهدم إلا من ضرورة ، ويكون هدمه له أرفق لصاحب العلو ؛ ثلثاً ينهدم بانهدامه العلو ، وليس لرب العلو أن يبني على علوه شيئاً لم يكن قبل ذلك إلا الشيء الخفيف الذي لا يضر بصاحب السفل . ولو انكسرت خشبة من سقف العلو لأدخل مكانها خشبة ما لم تكن أثقل منها وينجف ضررها على صاحب السفل . قال أشہب : وباب الدار على صاحب السفل . قال : ولو أنهدم السفل أجبر صاحبه على بنائه ، وليس على صاحب العلو أن يبني السفل ؛ فإن أبي صاحب السفل من البناء قيل له يُعْنِي من يبني . وروى ابن القاسم عن مالك في السفل لرجل والعلو لأنعر فأعتل السفل ، فإن صاحبه على رب السفل وعليه تعليق العلو حتى يصلح سفله ؛ لأن عليه إنما أن يحمله على بنيان أو على تعليق ، وكذلك لو كان على العلو علو فتعليق العلو الثاني على صاحب الأوسط . وقد قيل : إن تعليق العلو الثاني على رب العلو حتى يبني الأسفل . وحديث النعمان بن بشير عن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلىها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقروا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنا نحرقنا في نصيبينا حرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوه وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " — أصل في هذا الباب . وهو حجة لمالك وأشہب . وفيه دليل على أن صاحب السفل ليس له أن يحدث على صاحب العلو ما يضره ، وأنه إن أحدث عليه ضرراً لزمه إصلاحه دون صاحب العلو ، وأن لصاحب العلو منه من الضرر ؛ لقوله عليه السلام : " فإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " ولا يجوز الأخذ إلا على يد الظالم أو من هو منع من إحداث

ما لا يجوز له في السنة . وفيه دليل على استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد مضى في « الأنفال » . وفيه دليل على جواز القرعة وأستعمالها ، وقد مضى في « آل عمران » فتأمل كلاماً في موضعه تتجده مبيناً ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَلِبِيوْتِهِمْ أَبُوْبَا وَسُرَا عَلَيْهِمْ يَتَكَبُّونَ وَزَنْحُرَفَا
وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ عِنْدَ رِبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ

قوله تعالى : (ولِبِيوْتِهِمْ أَبُوْبَا) أي وجعلنا لبيوتهم . وقيل : « لبيوتهم » بدل اشتمال من قوله « لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ » . « أَبُوْبَا » أي من فضة . (وسُرَا) كذلك ؛ وهو جمع السرير . وقيل : جمع الأسرة ، والأسرة جمع السرير ، فيكون جمع الجمع . (يَتَكَبُّونَ عَلَيْهِمْ) الاتكاء والتوكؤ : التحام على الشيء ؛ ومنه « أَتَوْكَأَ عَلَيْهِ » . ورجل توكأ ؛ مثال همزة ؛ كثير الاتكاء . والثكأ أيضاً : ما يتكأ عليه . واتكأ على الشيء فهو متكي ؛ والموضع متكاً . وطعنه حتى أتكأه (على أفعله) أي ألقاه على هيئة المتكي . وتوكت على العصا . وأصل التاء في جميع ذلك واو ، ففعّل به ما فعل بأترن واتعد . (وَزَنْحُرَفَا) الزنرف هنا الذهب ؛ عن آبن عباس وغيره . نظيره : « أَوْيَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَنْحُرِفٍ » وقد تقدم . وقال آبن زيد : هو ما يتخذ الناس في منازلهم من الأمتنة والأثاث . وقال الحسن : النقوش ؛ وأصله الزينة . يقال : زنرف الدار ؛ أي زيتها . وترنرف فلان ؛ أي تزين . وانتصب « زنرف » على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زنرفا . وقيل : بتزع الخاض ؛ والمعنى بفعلنا لهم سقفاً وأبواباً وسراماً من فضة ومن ذهب ؛ فلما حذف « من » قال « وزنرف » فنصب . (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا
مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) قرأ عاصم وحمزة وهشام عن آبن عامر « وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » بالتشديد . الباقيون بالتحفيف ؛ وقد ذُكر هذا . وروى عن أبي رجاء كسر اللام من « لَمَّا » ؛ فـ « مما » عنده منزلة الذي ، والعائد عليها ممحض ، والتقدير : وإن كل ذلك للذي

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩١ فا بعدها . (٢) راجع ج ٤ ص ٨٦ فا بعدها . (٣) راجع ج ١٠ ص ٣٣١

هو متع الحياة الدنيا ، وحذف الضمير ها هنا كحذفه في قراءة من قرأ « مَثَلًا مَا بِعُوْضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا » و « عَامًا عَلِي الْذِي أَحْسَنَ » . أبو الفتح : ينبغي أن يكون « كُلُّ » على هذه القراءة منصوبة ، لأن « إن » مخففة من الثقيلة ، وهي إذا خفت وبطل عملها لزتمها اللام في آخر الكلام لفرق بينها وبين « إن » النافية التي يعني ما ، نحو إن زيد لقائم ، ولا لام هنا سوى البخارة . (والآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِتُسْتَقِنَ) يريد البخارة لمن آتني وحاف . وقال كعب : إن لا يجد في بعض كتب الله المزلة : لو لا أن يحزن عبد المؤمن لكتلت رأس عبد الكافر بالإكيليل ، ولا يتتصدع ولا ينفض منه عرق بوجع . وفي صحيح الترمذى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعذل عند الله جناح بعوضة ماسقة كافرا منها شربة ماء » . وفي الباب عن أبي هريرة ، وقال : حديث حسن غريب . وأنشدوا :

فَلَوْ كَانَ الدِّينِيَا جَزَاءً لَحَسْنٍ * إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَعَاشٌ لِظَالِمٍ
لَقَدْ جَاءَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ كَرَامَةً * وَقَدْ شَيَّعْتَ فِيهَا بَطْوَنَ الْبَهَائِمَ
وَقَالَ آخَرٌ :

تَمْتَّعْ مِنَ الْأَيَّامِ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا * فَإِنْكَ فِيهَا بَيْنَ نَاهٍ وَآمِرٍ
إِذَا أَبْقَتَ الدِّينِيَا عَلَى الْمَرْءِ دِينَهُ * فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلِيْسَ بِضَارٍ
فَلَا تَرْزَنِ الدِّينِيَا جَنْحًا بِعُوْضَةٍ * وَلَا وزْنَ رَقَّ مِنْ جَنْحَاجَ لَطَائِرٍ
فَلَمْ يَرْضِ بِالْدِينِيَا ثَوَابًا لِحَسْنٍ * وَلَا رَضِيَ الدِّينِيَا عَقَابًا لِكَافِرٍ

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيْضُ لَهُ شَيْطَنًا فَهُوَ
لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّمَا لَيُصْدِّونَهُمْ عَنِ الْسَّبِيلِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ
مَهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ نَذْيَاتٍ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمُشَرِّقَيْنِ
فَيُنَسَّ الْقَرِينُ ﴿٢٨﴾

(١) راجع ج ١ ص ٢٤٣ (٢) راجع ج ٧ ص ١٤٢

قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فُقِيسْ لَهُ شَيْطَانًا . فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقرأ ابن عباس وعكرمة « وَمَنْ يَعْشَ » بفتح الشين ، ومعناه يعمى ؛ يقال منه عشي يعشى عشا إذا عمي . ورجل أعشى وأمرأة عشواء إذا كان لا يبصرها ومنه قول الأعشى :

(١) رأت رجلاً غائب الواقدي * بن مختلف الحلق أعشى ضريرا
وقوله :

إلن رأت رجلاً أعشى أضرَّ به * رَبُّ الْمَنْوَنِ وَدَهْرُ مَفْنِدِ خَوْلُ
الباكون بالضم ؛ من عشا يعشوا إذا لحقه ما يلحق الأعشى . وقال الخليل : العشو هو النظر
ببصر ضعيف ؛ وأنشد :

(٢) مَتَّ ثَائِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ * تَحْمِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مُوْقَدٌ
وقال آخر :

لنعم الفتى يعشوا إلى ضوء ناره * إذا الريح هبت والمكان جديب
الحوهري : والعشا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويصر بالنهر .
والمرأة عشواء ، وأمرأة عشواؤان . وأعشاه الله فعشى (بالكسر) يعشى عشي ، وهمما يعشيان ،
ولم يقولوا يعشوان ؛ لأن الواو لمسا صارت في الواحد ياء لکمرة ما قبلها تركت في التثنية على
حالها . وتعاشى إذا أرى من نفسه أنه أعشى . والذيبة إلى أعشى أعشوى . وإلى العيشة
عشوى . والعشواء : الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تحبط بيدها كل شيء . وركب فلان
العشواء إذا خطأ أمره على غير بصيرة . وفلان خابط خطأ عشواء .

وهذه الآية تتصل بقوله أول السورة « أَفَنْضِرُ بِعَنْكُمُ الذَّكَرَ صَفَحًا » أي نواصل لكم
الذكر ؛ فمن يعش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقوال المضلين وأباطيلهم (« فُقِيسْ لَهُ
شَيْطَانًا ») أي نسب له شيطانا جزاء له على كفره (« فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ») قيل في الدنيا ، يمنعه من
الحلال ، ويعنته على الحرام ، وينهان عن الطاعة ، وأمره بالمعصية ؛ وهو معنى قول ابن عباس .

(١) في المسان مادة « وفده » : « والواحدان اللذان في شعر الأعشى هما الناثران من الخذلين عند المضخ ؛ فإذا

هرم الإنسان غاب واداء » . (٢) آية ٥ . (٣) البيت للخطبة .

وقيل في الآخرة إذا قام من قبره ؛ قاله سعيد الجُرَيْرِي . وفي الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يُشفع بـشيطان لا يزال معه حتى يدخل النار . وأن المؤمن يُشفع بـملك حتى يقضى الله بين خلقه ؟ ذكره المهدوى . وقال القشيري : والصحيح فهو له قرين في الدنيا والآخرة . وقال أبو الهيثم والأزهري : عَشَوْت إِلَى كَذَا أَىْ قَصْدَتْهُ . وعَشَوْتْ عَنْ كَذَا أَىْ أَعْرَضْتْ عَنْهُ ، فَتَفَرَّقَ بَيْنَ «إِلَى» و«عَنْ» ؛ مِثْلُ : مِلْتُ إِلَيْهِ ، وَمِلْتُ عَنْهُ . وكذا قال قتادة : يَعْشُ ، يُعْرِضُ ؛ وهو قول الفراء . النحاس : وهو غير معروف في اللغة . وقال القرطبي : يَوْئِي ظَهَرَهُ ؛ والمعنى واحد . وقال أبو عبيدة والأخفش : تُظْلِمُ عَيْنَهُ . وأنك العَنْبَرِي عَشَوْتْ بِعَنْيِ أَعْرَضْتْ ؛ قال : وإنما الصواب تعاشت . والقول قول أبي الهيثم والأزهري . وكذلك قال جميع أهل المعرفة . وقرأ السَّلَمِي وآبَنْ أَبِي إِسْحَاقِ وَيَعْقُوبُ وَعِصْمَةُ عَنْ عَاصِمٍ وَعَنْ الْأَعْمَشِ «يَقِيسُ» (بالياء) لذكر «الرحن» أولاً ؛ أي يقيس له الرحمن شيطاناً . الباقيون بالنون . وعن ابن عباس «يَقِيسُ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» أي ملازم ومصاحب . قيل : «فَهُوَ» كالية عن الشيطان ؟ (١) على ما تقدم . وقيل : عن الإعراض عن القرآن ؛ أي هو قرين للشيطان . (وَإِنَّهُمْ لِيَصْدُونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) أي وإن الشيطان ليصدونهم عن سبيل المدى ؛ وذكر بلفظ الجمع لأن «مَنْ» في قوله «وَمَنْ يَعْشُ» في معنى الجمع . (وَيَحْسِبُونَ) أي ويحسب الكفار (أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ) وقيل : ويحسب الكفار أن الشياطين مهتدون فيطیعونهم . (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا) على التوحيد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ؛ يعني الكافر يوم القيمة . الباقيون « جاءَنَا » على الثنية ، يعني الكافر وقرنه وقد جعلوا في سلسلة واحدة ، فيقول الكافر (يَا لَيْتَ بَيْتَ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمُشْرِقَيْنِ) أي مشرق الشتاء وشرق الصيف ، كما قال تعالى : « رَبُّ الْمُشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمُغْرِبَيْنِ » ونحوه قول مقاتل . وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرها الإفراد فالمعنى لها جميعاً ؛ لأنَّه قد عرف ذلك بما بعده ؛ كما قال :

وَعِنْ هَذِهِ حَدْرَةٍ بَدْرَةٌ * شُفِّتْ مَا فِيهَا مِنْ أَخْرَى^(٣)

(١) في الأصول : « عن التعرض ». (٢) آية ١٧ سورة الرحمن . (٣) البيت لامرئ القيس .
حدرة : مكتنزة صلبة ، وقيل الواسعة الباحظة . وبدرة : تبدى بالنظر ، وقيل تامة كال الدر .

قال مقاتل : يتنى الكافر أن بينهما بعْدَ مَشْرِقَ أطْوَلَ يَوْمَ فِي السَّنَةِ إِلَى مَشْرِقَ أَقْصَرِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ ، ولذلك قال «بَعْدَ الْمُشْرِقَيْنَ» . وقال الفراء : أراد المشرق والمغرب فقلَّبَ آسِمَ أحدهما ، كَا يَقُولُ : الْقَمَرَانُ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَالْعُمَرَانُ لِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ، وَالْبَصَرَانُ لِلْكُوفَةِ وَالْبَصَرَةِ ، وَالْعَصْرَانُ لِلْغَدَةِ وَالْعَصْرِ . وقال الشاعر :

أَخْذَنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ * لَنَا قِرَاهَا وَالنَّجُومُ الطَّوَالُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَيْدَةَ بْنَ زَيْرَهُ :

مَا كَانَ يَرْضِي رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَيْهِمْ * وَالْعُمَرَانُ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عَمْرٍ

وَأَنْشَدَ سَبِيلِيَّهُ :

* قَدِنِي مِنْ نَصْرِ الْحُبَيْبَيْنِ قَدِنِي *

يريد عبد الله ومصعب ابى الزبير ، واما أبو خبيب عبد الله . ((فَيَسَّسَ الْقَرِينُ)) أى فليس الصاحب أنت ؟ لأنَّه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخدري : إذا بُعْثِتَ الْكَافِرُ زُقِّ بِقَرِينِهِ مِنَ الشَّيَاطِينَ فَلَا يَفْارِقُهُ حَتَّى يَصِيرَهُ إِلَى النَّارِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَنْ يَنْفَعُكُمْ آلَيَّوْمٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ

مُشْتَرِكُونَ ٣٩

قوله تعالى : ((وَلَنْ يَنْفَعُكُمْ آلَيَّوْمٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ)) «إذ» بدل من اليوم ؛ أى يقول الله للكافر لن ينفعكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلام ؛ وهو قول الكافر «يَالَّتَّ يَنْبَنِي وَيَنْبَنِكَ بَعْدَ الْمُشْرِقَيْنَ» أى لا تنفع الدمامه اليوم . «إنكم» بالكسر ((فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)) وهى قراءة ابن عامر باختلاف عنده . الباقيون بالفتح . وهى فى موضع رفع تقديره : ولن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب ؛ لأن لكل واحد نصيبه الأوفر منه . أعلم الله تعالى أنه منع أهل النار النأسى كا يتأسى أهل المصائب في الدنيا ، وذلك أن النأسى يستروحه أهل الدنيا فيقول أحدهم : لى في البلاء والمصيبة أسوة ؛ فيسكن ذلك من حزنه ؛ كما قالت الحنساء :

فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي * عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقُتِلتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَنِّي وَلَكُنْ * أَعْزَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِى

فَإِذَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ لَمْ يَنْفَعُهُمُ التَّأْسِي شَيْئاً لِشَغْلِهِمُ بِالْعَذَابِ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : لَنْ يَنْفَعُكُمُ الاعْتَدَارُ وَالنَّدَمُ الْيَوْمَ ؛ لَأَنَّ قُرْنَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشَتَّكُونَ كَمَا اشْتَرَكْتُمْ فِي الْكُفَّرِ .

قوله تعالى : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأَصْمَاءِ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَاءِ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَاءِ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَاءِ) يا مُحَمَّدٌ (وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أَيْ لِيْسَ لَكَ ذَلِكَ فَلَا يُضِيقُ صُدُورَكَ إِنْ كَفَرُوا؛ فَفِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْقَدْرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَأَنَّ الْمَهْدِيَ وَالرَّشِيدَ وَالْخَذْلَانَ فِي الْقَلْبِ خَلَقُ اللَّهُ تَعَالَى ، يَضُلُّ مِنْ يُشَاءُ وَيَهْدِي مِنْ يُشَاءُ .

قوله تعالى : فَإِمَّا نَذَهَبَنَا إِلَيْكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُمْتَقِمُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ تُرِينَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُمْتَدِرُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (فَإِمَّا نَذَهَبَنَا إِلَيْكَ) يُرِيدُ نَحْرِجَنَّكَ مِنْ مَكَّةَ مِنْ أَذْى قُرِيشٍ . (فَإِنَّا مِنْهُمْ مُمْتَقِمُونَ . أَوْ تُرِينَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ) وَهُوَ الانتقامُ مِنْهُمْ فِي حَيَاكَ . (فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُمْتَدِرُونَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَدْ أَرَاهُ اللَّهُ يَذَلِّكُ يَوْمَ بَدْرٍ ؛ وَهُوَ قَوْلٌ أَكْثَرَ الْمُفْسِرِينَ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَاتِدَةُ : هِيَ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ ؛ يُرِيدُ مَا كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْفَتْنَ . وَ «نَذَهَبَنَا إِلَيْكَ» عَلَى هَذَا تَتْوِيفِكَ . وَقَدْ كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَقْمَةٌ شَدِيدَةٌ فَأَكْرَمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَهَبَ بِهِ فَلَمْ يُرِهِ فِي أُمَّتِهِ إِلَّا الَّتِي تَقْرَبُ بِهِ عَيْنَهُ وَأَبْقِيَ النَّقْمَةَ بَعْدَهُ، وَلَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَرَى النَّقْمَةَ فِي أُمَّتِهِ . وَرَوَى أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَى مَا لَقِيتَ أُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا زَالَ مُنْقَبِضاً، مَا ابْسَطَ ضَاحِكًا حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ . وَعَنْ ابْنِ مُسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأُمَّةٍ خَيْرًا قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا بِفَعْلِهِ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفاً . وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأُمَّةٍ عَذَابًا عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حُلِّيَّ لَتَقْرَبَ عَيْنَهُ لِمَا كَذَبَهُ وَعَصَوَ أَمْرَهُ» .

قوله تعالى : فَاسْتَمِسْكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْعَلُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (فَاسْتَمِسْكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ) يريد القرآن ، وإن كذب به من كذب ، فـ (إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه . (وَإِنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ) يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش ، إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم ؛ نظيره : «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ» أي شرفكم . فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خطاب ، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم كل من آمن بذلك فصاروا عباداً عليهم ، لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عنى به من الأمر والنهي وبجميع ما فيه من الأنبياء ، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سمي عربياً . وقيل : بيان لك ولأمتك فيما يمك إلية حاجة . وقيل : تذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به . وقيل : «وَإِنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني الخلافة فإنما في قريش لا تكون في غيرهم ؛ قال النبي - صلى الله عليه وسلم : «الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلموهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم» . وقال مالك : هو قول الرجل حدثني أبي عن أبيه ، حكاہ ابن أبي سلمة عن أبيه عن مالك بن أنس فيما ذكر الماوردي - والشعبي - وغيرهما . قال ابن العربي : ولم أجده في الإسلام هذه المرتبة لأحد إلا ببغداد فإن بني التيمى بها يقولون : حدثني أبي قال حدثني أبي ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك شرفت أقدارهم ، وعظم الناس شأنهم ، وتهجمت الخلافة بهم . ورأيت بمدينة السلام أبي محمد رزق الله بن عبد الوهاب أبي الفرج بن عبد العزيز بن الحارث بن الأسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد ابن أكينة بن عبد الله التيمى وكان يقولان : سمعنا أبا رزق الله يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي طالب سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت أبي يقول سمعت على بن أبي طالب

يقول وقد سئل عن الحنان المثان فقال : الحنان الذي يُقبل على من أعرض عنه ، والحنان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال . والسائل سمعت علياً : أكينة بن عبد الله جدهم الأعلى . والأقوى أن يكون المراد بقوله « وإنه لذِكْرُكَ ولقومك » يعني القرآن ، فعليه أبني الكلام وإليه يرجع المصير ، والله أعلم . قال الماوردي : « ولقومك » فيهم قوله : أحدهما - من اتبعك من أمتك ؟ قاله قنادة وذكره الشعبي عن الحسن . الثاني - لقومك من قريش ؟ فيقال من هذا ؟ فيقال من العرب ، فيقال من أيّ العرب ؟ فيقال من قريش ؛ قاله مجاهد . قلت - والصحيح أنه شرف لم يُعمل به ، كان من قريش أو من غيرهم . روى ابن عباس قال : أقبل نبى الله صلى الله عليه وسلم من سيرية أو غزارة فدعى فاطمة فقال : « يا فاطمة اشتري نفسك من الله فإنني لا أُغنى عنك من الله شيئاً » وقال مثل ذلك لنسوته ، وقال مثل ذلك لعترته ، ثم قال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « ما بنو هاشم بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقوين ولا قريش بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقوين ولا الأنصار بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقوين ولا المواتي بأولى الناس بأمتى إن أولى الناس بأمتى المتقوين . إنما أنتم من رجل وأمرأة وأنتم ^(١) كهام الصاع ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقى » . وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليتهن أقوام يفتخرن بفح من فهم جهنم أو يكونون شرّا عند الله من الحلال التي تدفع التّن بأنفها كلّكم بنو آدم وآدم من تراب إن الله أذهب عنكم عيّنة الباھلية ونخرها بالآباء [الناس] مؤمن تق وفاجر شق » . خرجهما الطبرى . وسيأتي لهذا مزيد بيان في الجغرافيات شاء الله تعالى . (وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) أي عن الشكر عليه ؛ قاله مقاتل والفراء . وقال ابن جرير : أي تسألون أنت ومن معك على ما أذاك . وقيل تسألون بما عملتم فيه ؛ والمعنى متقارب .

قوله تعالى : وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلَكَ مِنْ رَسُولَنَا أَجَعَنَا

مِنْ دُونِ الْرَّحْمَنِ إِلَهَهُمْ يُعبُدُونَ (٢)

(١) الجام (بالثبات) : ما علا رأس المكاب من العلaf .

قال ابن عباس وابن زيد : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى – وهو مسجد بيت المقدس – بعث الله له آدم ومن ولد من المرسلين، وجبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأذن جبريل صلى الله عليه وسلم ثم أقام الصلاة، ثم قال : يا محمد تقدم فصل بهم ؟ فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له جبريل صلى الله عليه وسلم : ”سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسالنا أجعلنا من دون الرحمن آلة يعبدون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”لا أسأل قد اكتفيت“ . قال ابن عباس : وكانوا سبعين نبياً منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ؛ فلم يسألهم لأنهم كان أعلم بالله منهم . في غير رواية ابن عباس : فصلوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة صفوف، المرسلون ثلاثة صفوف والنبيون أربعة ؛ وكان يلي ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل وعلى يساره إسحاق ثم موسى ثم سائر المرسلين فأتمهم ركعتين ؛

(١) فلما انقتل قام فقال : ”إن ربّي أوحى إلىـ أن أسألكم هل أرسل أحد منكم يدعوا إلى عبادة غير الله“ ؟ فقالوا : يا محمد، إننا نشهد إنـا أرسلنا أجمعين بدعاوة واحدة أن لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وإنـك خاتم النبـيين وسيـد المرسلـين ، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيانـا، وأـنـ لا نـبـيـ بعدكـ إلىـ يوم القيـمة إـلاـ عـيسـىـ بنـ مـصـيمـ فإـنهـ مـأـمـورـ أنـ يـتـبعـ أـثـرـكـ“ . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى «واسأّل من أرسلنا من قبلكَ من رسلنا» قال : لقي الرسـلـ لـيـلـةـ أـسـرـىـ بـهـ . وـقـالـ الـوـلـيـدـ بـنـ مـسـلـمـ فـقـولـهـ تـعـالـيـ «واسـأـلـ مـنـ أـرـسـلـنـاـ مـنـ قـبـلـكـ مـنـ رـسـلـنـاـ»ـ قالـ : لـقـيـ الرـسـلـ قـالـ : سـأـلـتـ عـنـ ذـلـكـ خـلـيـدـ بـنـ دـعـلـجـ خـدـشـنـيـ عـنـ قـتـادـةـ قـالـ سـأـلـهـ لـيـلـةـ أـسـرـىـ بـهـ ، لـقـيـ الـأـنـبـيـاءـ وـلـقـ آـدـمـ وـمـالـكـ حـازـنـ النـارـ .

قلت : هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية . و «من» التي قبل «رسالنا» على هذا القول غير زائدة . وقال المبرد وجماعة من العلماء : إن المعنى وسائل أم من قد أرسلنا من قبلك من رسالنا . وروى أن في قراءة ابن مسعود «واسـأـلـ الذـىـ أـرـسـلـنـاـ إـلـيـهـ قـبـلـكـ رسـلـنـاـ» .

(١) انـتـلـ عـنـ الصـلـاـةـ : اـذـاـ اـنـصـرـفـ عـنـهاـ .

وهذه قراءة مفسرة ؛ فـ«يُمْن» على هذا زائد ، وهو قول مجاهد والستى والضحاك وقتادة وعطاء والحسن وأبن عباس أيضاً . أى وسائل مؤمن أهل الكتاب التوراة والإنجيل . وقيل : المعنى سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك ؛ خذلت «عن» ، والوقف على «رسلنا» على هذا تام ، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار . وقيل : المعنى وسائل تباع من أرسلنا من قبلك من رسالنا ، خذلت المضاف . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمه . ((أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلهَةً يُعْبُدُونَ)) أخبر عن الآلة كاً أخبر عنهم يعقل فقال «يعبدون» ولم يقل تعبد ولا يعبدن ؛ لأن الآلة جرت عندهم مجرى من يعقل فأجرى الخبر عنهم مجرى الخبر عنهم يعقل .

وسبب هذا الأمر بالسؤال أن اليهود والашرقيين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياء على جهة التوفيق والتقرير ؛ لا لأنك كان في شك منه . وآختلف أهل التأويل في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم لهم على قولين : أحدهما — أنه سألهم فقالت الرسل بعثنا بالتوحيد ؛ قاله الواقدي . الثاني — أنه لم يسألهم ليقينه بالله عن وجوبه حتى حكى ابن زيد أن ميكائيل قال لجبريل : «هل سألك محمد عن ذلك ؟ فقال جبريل : هو أشد إيمانا وأعظم يقينا من أن يسأل عن ذلك» . وقد تقدم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِكَةٍ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِعَايَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهُمْ يَضْمَحُكُونَ (٢) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخْذَنَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٣) وَقَالُوا يَتَاهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥)

قوله تعالى : «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ إِلَيْاَنَا**» لَمَّا أَعْلَمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مُتَّقِمٌ
لَهُ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَقَامَ الْجُحَيْةَ بِاسْتِشْهَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَآتَافَاقَ الْكُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَصْةِ
مُوسَىٰ وَفَرْعَوْنَ، وَمَا كَانَ مِنْ فَرْعَوْنَ مِنَ الْكَذِيبِ، وَمَا نَزَّلَ بِهِ وَبِقَوْمِهِ مِنَ الْإِغْرِيْقَاقِ
وَالْكَذِيبِ؛ أَىٰ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِالْمَعْجَزَاتِ وَهِيَ النَّسْعُ الْآيَاتِ فَكَذَّبَ؛ بِفَعْلَتِ الْعَاقِبَةِ الْجَمِيلَةِ
لَهُ، فَكَذَّلَ أَنْتَ. وَمَعْنَى (يَضْحَكُونَ) اسْتِهْزَاءٌ وَسَخْرِيَّةٌ، يَوْهُمُونَ أَتَابِعُهُمْ أَنْ تَلَكَّ
الْآيَاتِ سَحْرٌ وَتَخْيِيلٌ، وَأَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا. وَقَوْلُهُ : «**وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ**
آخِتَهَا» أَىٰ كَانَتْ آيَاتِ مُوسَىٰ مِنْ كَبَارِ الْآيَاتِ، وَكَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ أَعْظَمَ مَا قَبْلَهَا. وَقَوْلُهُ :
«إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ آخِتَهَا» لِأَنَّ الْأُولَى تَقْتَضِي عَلَمًا وَالثَّانِيَةَ تَقْتَضِي عَلَمًا، فَنُضُمُّ الثَّانِيَةَ إِلَى
الْأُولَى فَيُزَدَّادُ الوضُوحُ. وَمَعْنَى الْأَخْوَةِ الْمَشَاكِلُ وَالْمَنَاسِبُ؛ كَمَا يَقُولُ : هَذِهِ صَاحِبَةُ هَذِهِ؛
أَىٰ هَمَا قَرِيبَتَانِ فِي الْمَعْنَى. «**وَأَخْذَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ**» أَىٰ عَلَى تَكْذِيْبِهِمْ بِتَلَكَ الْآيَاتِ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ
تعالَى : «**وَلَقَدْ أَخْذَنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيْئِنِ وَنَقْصِ مِنَ الْمَرَاثِ**» . وَالْطَّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمُلُ
وَالضَّفَادُعُ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْأُخِيرَةُ عَذَابًا لَهُمْ وَآيَاتٌ لِمُوسَىٰ . «**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**» مِنْ
كُفْرِهِمْ . «**وَقَالُوا يَا إِيَّاهَا السَّاحِرُ**» لَمَّا عَانَوْا عَذَابَهُمْ قَالُوا يَا إِيَّاهَا السَّاحِرُ؛ نَادَوْهُ بِمَا كَانُوا
يَنَادِونَهُ بِهِ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ عَلَى حَسْبِ عَادِتِهِمْ. وَقَوْلُهُ : كَانُوا يَسْمُونُ الْعَالَمَاءَ سَحْرَةً فَنَادُوهُ بِذَلِكَ
عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : «يَا إِيَّاهَا السَّاحِرُ» يَا إِيَّاهَا الْعَالَمُ، وَكَانَ السَّاحِرُ فِيهِمْ عَظِيمًا
يُوقَرُونَهُ؛ وَلَمْ يَكُنْ السَّاحِرُ صَفَةً ذَمَّةً . وَقَوْلُهُ : يَا إِيَّاهَا الَّذِي غَلَبَنَا بِسَحْرِهِ، يَقُولُ : سَاحِرُهُ
فَسَحْرُهُ؛ أَىٰ غَلَبَتْهُ بِالسَّاحِرِ؛ كَمَوْلُ الْعَرَبِ : خَاصِمَتْهُ خَاصِمَتْهُ أَىٰ غَلَبَتْهُ بِالْمُحْصُومَةِ،
وَفَاضَتْهُ فَفَضَلَتْهُ؛ وَنَحْوُهَا . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادُوا بِهِ السَّاحِرُ عَلَى الْحَقِيقَةِ عَلَى مَعْنَى
الْإِسْتِفَاهَامِ، فَلَمْ يَأْتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ رَجَاءً أَنْ يُؤْمِنُوا. وَقَرَا ابْنُ عَمَّارٍ وَأَبُو حَيَّةَ وَيَحْيَى بْنَ وَنَّابَ
«يَا إِيَّاهَا السَّاحِرُ» بِغَيْرِ أَلْفَ وَالْمَائَةِ مَضْمُومَةٍ؛ وَعَلَّمَهَا أَنَّ الْمَاءَ خَلَطَتْ بِمَا قَبْلَهَا وَأَلْزَمَتْ ضَمِّ الْيَاءَ
الَّذِي أَوجَبَهُ النَّدَاءُ الْمُفْرَدُ . وَأَنْشَدَ الْفَزَاءَ :

يَا إِيَّاهَا الْقَلْبُ الْبَلْوَجُ النَّفْسُ * أَفَقُ عَنِ الْبَيْضِ الْحَسَانِ اللَّعِيسِ

(١) آية ١٣٠ سورة الأعراف .

فضم أطاء حمل على ضم الياء، وقد مضى في «النور» معنى هذا. ووقف أبو عمرو وأبن أبي إسحاق ويحيى والكسائي «أيها» بالألف على الأصل. الباقيون بغير ألف؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف. ((أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهَدَ عِنْدَكَ)) أي بما أخبرنا عن عهده إليك إنما إن آمنا كشف عنها؛ فسله يكشف عنها. ((إِنَّا لَمُهْتَدُونَ)) أي فيما يستقبل. ((فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ)) أي فدعا فكشفنا. ((إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)) أي ينقضون العهد الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا. وقيل: قوله «إنما لم يهتدُون» إخبار من هم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذاب ارتدوا.

قوله تعالى: ((وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ)) قيل: لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إليه بخمع قومه فقال؛ فنادى بمعنى قال؛ قاله أبو مالك. فيجوز أن يكون عنده عظمه القبط فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم ينشر عنه في جموع القبط؛ وكأنه نودى به بينهم. وقيل: إنه أمر من ينادي في قومه؛ قاله ابن جريج. ((قَالَ يَا قَوْمَ أَلِيسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)) أي لا يناظعني فيه أحد. وقيل: إنه ملك منها أو يعين فرسخاً في مثلها؛ حكاه النقاش. وقيل: أراد بالملك هنا الإسكندرية. ((وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي)) يعني أنهار النيل، ومعظمها أربعة: نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تيس. قال قنادة: كانت جنانا وأنهارا تجري من تحت قصوره. وقيل: من تحت سريره، وقيل: «من تحتي» أي تصرف نافذ فيها من غير صانع. وقيل: كان إذا أمسك عنانه أمسك النيل عن البحر. قال القشيري: ويجوز ظهور خوارق العادة على مدى الربوبية؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعل خارق للعادة. وقيل: معنى «وهذه الأنهر تجري من تحتي» أي القواد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائى؛ قاله الصحاح. وقيل: أراد بالأنهر الأموال، وعبر عنها بالأنهر لكثرتها وظهورها. وقوله «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» أي أفرقتها على من يتبعني؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون

(١) رابع ج ١٢ ص ٢٣٨

(٢) في كتاب روح المعانى للألوسي: «والأنهر: الخلجان التي تخرج من النيل المبارك؛ كنهر الملك ونهر دمياط ونهر تيس، ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك، لكنه اندر من بقى منه أحد بن طولون ملك مصر في الإسلام».

الأهار . (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) عظمى وقوتى وضعف موسى . وقيل قدرتى على نفقتكم وعجز موسى . والواو في « وهذه » يجوز أن تكون عاطفة للأهار على « مُلُك مصر » و « تجربى » نصب على الحال منها . ويجوز أن تكون واو الحال ، وأسم الإشارة مبتدأ ، و « الأهار » صفة لاسم الإشارة ، و « تجربى » خبر للبتدأ . وفتح الياء من « تحى » أهل المدينة والبَزَى وأبو عمرو ، وأسكن الباقيون . وعن الرشيد أنه لما قرأها قال : لا أولئنها أحسن عيدي ، فولاتها الخصيب ، وكان على وضوئه . وعن عبد الله بن طاهر أنه ولها نخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : بهذه القرية التي أفتخر بها فرعون حتى قال « أليس لي ملك مصر » ؟ ! والله لهى عندي أقل من أن أدخلها ! فتى عنانه . ثم صرّح بحاله فقال (أَمْ أَنَا خَيْرٌ) قال أبو عبيدة والسدى : « أَمْ » بمعنى « بل » وليس بحرف عطف ؛ على قول أكثر المفسرين . والمعنى : قال فرعون لقومه بل أنا خير (مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) أى لا يعن له فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه (وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ) يعني ما كان في لسانه من العقدة ؛ على ما تقدم في « طه » . وقال الفراء : في « أَمْ » وجهان : إن شئت جعلتها من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله ، وإن شئت جعلتها نسقاً على قوله « أليس لي ملك مصر » . وقيل : هي زائدة . وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون « أَمْ » زائدة ؛ والمعنى أنا خير من هـذا الذي هو مهين . وقال الأخفش : في الكلام حذف ، والمعنى أفلاتبصرون أم تبصرون ؟ كما قال :

أيا ظبيةَ الوعَسَاءَ بَيْنَ جُلَاجِلِ^(٢) * وَبَيْنَ النَّقَآ آأَنْتَ أَمْ أَمْ سَالِمْ

أى أنت أحسن أم سالم . ثم آبتدأ فقال أنا خير . وقال الخليل وسيبوه : المعنى أفلاتبصرون ، أم أتم بصراء ، فعطف بـ« أَمْ » على « أفلاتبصرون » لأن معنى « أَمْ أنا خير » أى أَمْ تبصرون ؟ وذلك أنهم إذا قالوا له أنت خير منه كانوا عنده بصراء . وروى عن عيسى

(١) راجع ج ١١ ص ١٩٢ .

(٢) القائل هو ذو الرمة . والوعسأ : رملة لينة . وجلاجل : موضع بعينه . والنقاء : الكثيب من الرمل .

النَّفِيِّ وَ يَعْقُوبُ الْحَضْرَمِيُّ أَنْهُمَا وَقَفَا عَلَى «أُمٌّ» عَلَى أَنْ يَكُونَ النَّقِيرُ أَفَلَا تَبْصِرُونَ أُمَّا
تَبْصِرُونَ ؟ خَذْفٌ تَبْصِرُونَ التَّانِيُّ . وَقِيلٌ : مَنْ وَقَفَ عَلَى «أُمٌّ» جَعَلَهَا زَائِدَةً ، وَكَانَهُ وَقَفَ
عَلَى «تَبْصِرُونَ» مِنْ قَوْلِهِ «أَفَلَا تَبْصِرُونَ» . وَلَا يَمْكُرُ الْكَلَامُ عَلَى «تَبْصِرُونَ» عِنْ الْخَلِيلِ
وَسِيْبُوْيِهِ ؛ لِأَنَّ «أُمٌّ» تَقْتَضِيُ الاتِّصالَ بِمَا قَبْلَهَا . وَقَالَ قَوْمٌ : الْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ «أَفَلَا تَبْصِرُونَ»
ثُمَّ آبَدَهُ «أُمٌّ أَنَا خَيْرٌ» بِمَعْنَى بَلْ أَنَا خَيْرٌ ؛ وَأَنْشَدَ الْفَرَاءُ :

بَدْتَ مَهْلَ قَرْنَ الشَّمْسِ فِي رَوْقَنِ الضَّحْجِيِّ * وَصُورَتِهَا أُمٌّ أَنِّي فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ
فَعَنَاهُ : بَلْ أَنِّي أَمْلَحُ . وَذَكَرَ الْفَرَاءُ أَنَّ بَعْضَ الْقَرَاءَ قَرَأَ «أَمَّا أَنَا خَيْرٌ» ؛ وَمَعْنَى هَذَا أَلْسُتُ
خَيْرًا . وَرَوْيٌ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى «أُمٌّ» ثُمَّ يَاتَدَّئُ «أَنَا خَيْرٌ» وَقَدْ ذُكِرَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسَاوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : «فَلَوْلَا» أَيْ هَلَّا («أَلْقَى عَلَيْهِ أَسَاوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ») إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ
كَانَ عَادَةُ الْوَقْتِ وَزِيَّ أَهْلِ الْشَّرْفِ . وَقَرَأَ حَفْصٌ «أَسَاوِرَةً» جَمْعُ سِوارٍ، نَحْمَارٍ وَأَنْحَرَةٍ .
وَقَرَأَ أَبُو «أَسَاوِرَ» جَمْعُ إِسْوَارٍ . وَابْنُ مُسْعُودٍ «أَسَاوِيرٍ» . الْبَاقُوتُ «أَسَاوِرَةً» جَمْع
الْأَسَاوِرَةِ ؛ فَهُوَ جَمْعُ الْجَمْعِ . وَيُحَوَّلُ أَنْ يَكُونَ «أَسَاوِرَةً» جَمْعُ «إِسْوَارٍ» وَالْحَلْقَةُ الْأَهَاءُ
فِي الْجَمْعِ عَوْضًا مِنْ الْإِيَاءِ؛ فَهُوَ مِثْلُ زَنَادِيقٍ وَزَنَادِقَةٍ، وَبَطَارِيقٍ وَبَطَارِقَةٍ، وَشَبَهَهُ . وَقَالَ أَبُو عُمَرٍ
ابْنُ الْعَلَاءَ : وَاحِدُ الْأَسَاوِرَةِ وَالْأَسَاوِرِ وَالْأَسَاوِيرِ إِسْوَارٍ، وَهِيَ لُغَةُ فِي سُوارٍ . قَالَ مُجَاهِدٌ :
كَانُوا إِذَا سَوَرُوا رِجَالًا سَوَرُوهُ بِسِوارِيْنِ وَطَوْقَوْهُ بِطَوْقِ ذَهَبٍ عَلَامَةً لِسِيَادَتِهِ، فَقَالَ فَرَعُوْنُ :
هَلَا أَلْقَى رَبُّ مُوسَى عَلَيْهِ أَسَاوِرَةً مِنْ ذَهَبٍ إِنْ كَانَ صَادِقًا ! (أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)
يَعْنِي مُتَابِعِيْنِ ؛ فِي قَوْلِ قَنَادِيْهِ . مُجَاهِدٌ : يَمْشُونَ مَعًا . ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعَاوَنُونَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ؛
وَالْمَعْنَى : هَلَا ضِمْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي يَزْعُمُ أَنَّهَا عِنْدَ رَبِّهِ حَتَّى يَتَكَبَّرُ بِهِمْ وَيَصْرُفُهُمْ عَلَى أَمْرِهِ
وَنَهْيِهِ ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَهْيَبَ فِي الْقُلُوبِ . فَأَوْهَمُ قَوْمَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا

كرسل الملوك في الشاهد ، ولم يعلم أن رسول الله إنما أيددوا بالجنود السماوية ؟ وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى مع تفرده ووحدته من فرعون مع كثرة أتباعه ، وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسور أو ملائكة يكونون معه أعوانا — في قول مقاتل — أو دليلا على صدقه — في قول الكلبى — وليس يلزم هذا لأن الإعجاز كاف ، وقد كان في الحال زائف يكذب مع معنى الملائكة كما كذب مع ظهور الآيات . وذكر فرعون الملائكة حكاية عن لفظ موسى ؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة من لا يعرف خالقهم .

قوله تعالى : فَاسْتَخْفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ (٢٠)

قوله تعالى : ((فَاسْتَخْفَ قَوْمَهُ)) قال ابن الأعرابى : المعنى فاستجهل قومه ((فَأَطَاعُوهُ)) لخلفة أحلامهم وقلة عقوتهم ؛ يقال : استخفه الفرح أى أزعجه ، واستخفه أى حمله على الجهل ؛ ومنه « ولا يَسْتَخْفَنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » . وقيل : استفزهم بالقول فأطاعوه على التكذيب . وقيل : استخف قومه أى وجدهم خفاف العقول . وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه ، فلابد من إضمار بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . وقيل : استخف قومه وقهرهم حتى آتبواه ؛ يقال استخفه خلاف استقله ، واستخف به أهانه . ((إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)) أى خارجين عن طاعة الله .

قوله تعالى : فَلَمَّا آسَفُونَا آنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٢١)

قوله تعالى : ((فَلَمَّا آسَفُونَا آنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)) روى الضحاك عن ابن عباس : أى غاظونا وأغضبونا . وروى عنه علي بن أبي طلحة : أى أبغضنا . قال المساورى : ومعناهما مختلف ، والفرق بينهما أن السخط إظهار الكراهة ، والغضب إرادة الانتقام . القُشْرِي : والأسف هنا بمعنى الغضب ؛ والغضب من الله إما إرادة العقوبة فيكون من صفات الذات ، وإما عين العقوبة فيكون من صفات الفعل ؛ وهو معنى قول المساورى .

(١) آية ٦٠ سورة الروم .

وقال عمر بن ذئب : يأهـل معاـصـى اللهـ ، لا تغـرـروا بـطـول حـلـمـ اللهـ عـنـكـ ، وـآحـذـرـوا أـسـفـهـ ؛ فـإـنـهـ قالـ «فـمـا آـسـفـوـنا اـنـقـمـنـا مـنـهـ» . وـقـيـلـ : «آـسـفـوـنا» أـى أـغـضـبـوا رـسـلـنـا وـأـلـيـاءـنـا الـمـؤـمـنـينـ ؟^(١)
نـحـوـ السـحـرـةـ وـبـنـي اـسـرـائـيلـ . وـهـوـ كـقـوـلـهـ تـعـالـىـ : «يـؤـذـونـ اللهـ» وـ«يـخـارـبـونـ اللهـ»
أـىـ أـلـيـاءـهـ وـرـسـلـهـ .

قولـهـ تـعـالـىـ : بـعـلـنـتـهـمـ سـلـفـاـ وـمـثـلـاـ لـلـأـنـجـرـينـ ^(٢)

قولـهـ تـعـالـىـ : (بـعـلـنـتـهـمـ سـلـفـاـ) أـىـ جـعـلـنـا قـوـمـ فـرـعـوـنـ سـلـفـاـ . قـالـ أـبـوـ جـلـزـ : «سـلـفـاـ»
لـمـ عـمـلـهـمـ ، «وـمـثـلـاـ» لـمـ يـعـمـلـهـمـ . وـقـالـ مـجـاهـدـ : «سـلـفـاـ» إـخـبـارـاـ لـأـمـةـ مـهـدـ صـلـيـ اللـهـ
عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، «وـمـثـلـاـ» أـىـ عـبـرـهـ لـهـ . وـعـنـهـ أـيـضاـ «سـلـفـاـ» لـكـفـارـ قـوـمـ يـتـقـدـمـونـهـ إـلـىـ النـارـ .
قـاتـادـةـ : «سـلـفـاـ» إـلـىـ النـارـ ، «وـمـثـلـاـ» عـظـةـ لـمـ يـأـتـيـ بـعـدـهـمـ . وـالـسـلـفـ الـمـتـقـدـمـ ؛ يـقـالـ :
سـلـفـ يـسـلـفـ ، سـلـفـاـ ؛ مـثـلـ طـلـبـ طـلـبـاـ ؛ أـىـ تـقـدـمـ وـمـضـىـ . وـسـلـفـ لـهـ عـمـلـ صـالـحـ أـىـ تـقـدـمـ .
وـالـقـوـمـ السـلـافـ الـمـتـقـدـمـونـ . وـسـلـفـ الرـجـلـ : آـبـاؤـهـ الـمـتـقـدـمـونـ ؛ وـالـجـمـعـ أـسـلـافـ وـسـلـافـ .
وـقـرـاءـةـ الـعـامـةـ «سـلـفـاـ» (بـفتحـ السـيـنـ وـالـلامـ) جـعـ سـالـفـ ؛ نـخـادـمـ وـخـدـمـ ، وـرـاصـدـ وـرـصدـ ،
وـحـارـسـ وـحـرـسـ . وـقـرـأـ حـزـةـ وـالـكـسـائـيـ «سـلـفـاـ» (بـضمـ السـيـنـ وـالـلامـ) . قـالـ الفـرـاءـ : هـوـ جـعـ
سـلـيفـ ، نـحـوـ سـرـيرـ وـسـرـرـ . وـقـالـ أـبـوـ حـاتـمـ : هـوـ جـعـ سـلـفـ ؛ نـحـوـ خـشـبـ وـخـشـبـ ، وـثـمـرـ
وـثـمـرـ ؛ وـمـعـنـاهـمـ وـاحـدـ . وـقـرـأـ عـلـيـ وـابـنـ مـسـعـودـ وـعـلـقـمـةـ وـأـبـوـ وـائـلـ وـالـنـخـعـيـ وـحـمـيدـ بـنـ قـبـيسـ «سـلـفـاـ»
(بـضمـ السـيـنـ وـفـسـحـ الـلامـ) جـعـ سـلـفـةـ ، أـىـ فـرـقةـ مـتـقـدـمـةـ . قـالـ الـمـؤـرـجـ وـالـنـضـرـ بـنـ شـمـيلـ :
«سـلـفـاـ» جـعـ سـلـفـةـ ، نـحـوـ غـرـفـةـ وـغـرـفـ ، وـطـرـفـةـ وـطـرـفـ ، وـظـلـمـةـ وـظـلـمـ .

قولـهـ تـعـالـىـ : وـلـمـا ضـرـبـ آـبـنـ مـرـيمـ مـثـلـاـ إـذـا قـوـمـكـ مـنـهـ يـصـدـوـنـ ^(٣)
لـمـ قـالـ تـعـالـىـ : «وـأـسـأـلـ مـنـ أـرـسـلـنـا مـنـ قـبـلـكـ مـنـ رـسـلـنـا أـجـعـلـنـا مـنـ دـوـنـ الرـحـمـنـ آـلـهـةـ
يـعـبـدـوـنـ» تـعـلـقـ المـشـرـكـوـنـ بـأـمـرـ عـيـسـيـ وـقـالـوـاـ : مـاـ يـرـيدـ مـهـدـ إـلـاـ أـنـ تـخـذـنـهـ إـلـهـاـ كـاـنـخـذـتـ
الـنـصـارـىـ عـيـسـيـ بـنـ مـرـيمـ إـلـهـاـ ؛ قـالـهـ قـاتـادـةـ . وـنـحـوـهـ عـنـ مـجـاهـدـ قـالـ : إـنـ قـرـيـشـاـ قـالـتـ إـنـ مـهـداـ

(١) آية ٥٧ سورة الأحزاب . (٢) آية ٣٣ سورة المائدـة .

يريد أن نعبده كعبد قوم عيسى ؟ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن عباس : أراد به مناظرة عبد الله بن الزبير مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزبير السهبي . حالة كفوه لما قال له قريش إن مهدا يتلو « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ؟ قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عنزيرآ ، أفهمها من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خصم ، وذلك معنى قوله « يَصُدُّونَ » . فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقُتْ لَهُم مِنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبَدِّدُونَ » . ولو تأمل ابن الزبير الآية ما آتعرض عليها ؟ لأنه قال « وما تعبدون » ولم يقول ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين . وقد مضى هذا في آخر سورة « الأنبياء » . وروى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : « يا معاشر قريش لا خير في أحد يعبد من دون الله » . قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبدا نبياً وعبدا صالحا ، فإن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون الله ! . فأنزل الله تعالى « وَلَمَّا ضَرَبَ أَبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ » أي يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . فرقا نافع وابن عامر والكسائي « يَصُدُّونَ » (بضم الصاد) ومعناه يُعرضون ، قاله النجاشي ، وكسر الباقيون . قال الكسائي : هما لغتان ؛ مثل يَعْرِشُونَ وَيَعْرِشُونَ ، وَيَنْمُونَ وَيَمْنُونَ ، ومعناه يضجون . قال الجوهري : وَصَدَ يَصُدُّ صديدا ؛ أي ضجه . وقيل : إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض ، وبالكسر من الضجيج ؛ قاله قطرب . قال أبو عبيد : لو كانت من الصدود عن الحق لكان : إذا قومك عنه يصدون . الفتراء : هما سواء ؛ منه وعنه . ابن المسب : يصادون يضجون . الضحاك يعيجون . ابن عباس : يضمون . أبو عبيدة : من ضم فعنده يعدلون ؛ فيكون المعنى : من أجل المثيل يعدلون . ولا يُؤتَى « يصادون » بمن ، ومن كسر فعنده يضجون ؛ فـ « من » متصلة بـ « يصادون » والمعنى يضجون منه .

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء.. (٢) آية ١٠١ سورة الأنبياء.. (٣) راجع ج ١١ ص ٣٤٣ فا بعدها.

قوله تعالى : وَقَالُوا أَلْهَتْنَا خَيْرًا مِمَّا هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا أَلْهَتْنَا خَيْرًا مِمَّا هُوَ) أى آلهتنا خير أم عيسى ؟ قاله السدى . وقال : خاصموه وقالوا إن كل من عبد من دون الله في النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعذير ، فأنزل الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقُتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآية . وقال قتادة : « أَمْ هُوَ » يعنون مهدا صلى الله عليه وسلم . وفي قراءة ابن مسعود « آلهتنا خير أم هذا » . وهو يقوى قول قتادة ، فهو استفهام تقرير في أن آلهتهم خير . وقرأ الكوفيون ويعقوب « آلهتنا » بتحقيق الهمزة ، ولَمَّا الباقيون . وقد تقدم . (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا) « جدلا » حال ؛ أى جدلين . يعني ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل ؛ لأنهم علموا أن المراد بحسب جهنم ما اخذهوه من الموات (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ) مجادلون بالباطل . وفي صحيح الترمذى عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل – ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية – « ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون » ” .

قوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ) أى ما عيسى إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة ، وجعله مثلاً لبني إسرائيل ؛ أى آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى ؛ فإن عيسى كان من غير أب ، ثم جعل إليه من أحياء الموتى وإبراء الأئمة والأبرص والأسقام كلها مالم يجعل لغيره في زمانه ، مع أن بنى إسرائيل كانوا يومئذ خير الخلق وأححبه إلى الله عن وجى ، والناس دونهم ، ليس أحد عند الله عن وجى مثلهم . وقيل : المراد بالعبد المنعم عليه محمد صلى الله عليه

وسلم؛ والأول أظهر . ((ولَوْ نَسِيْأَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ)) أى بدلًا منكم ((مَلَائِكَةً)) يكونون خالقًا عنكم؛ قاله السدى . ونحوه عن مجاهد قال : ملائكة يعمرون الأرض بدلًا منكم . وقال الأزهرى : إن «من» قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية .

قلت : قد تقدم هذا المعنى في «براءة» وغيرها . وقيل : لو نشاء لجعلنا من الإنس ملائكة وإن لم تجر العادة بذلك ، والجواهر جنس واحد والاختلاف بالأوصاف ؛ والمعنى : لو نشاء لأسكن الأرض الملائكة ، وليس في إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يبعدوا ، أو يقال لهم بنات الله . ومعنى ((يَخْلُقُونَ)) يختلف بعضهم ببعض ، قاله ابن عباس .

قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَعَلِمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْرُنْ بِهَا وَآتَيْتُهُنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٢) وَلَا يَصِدَّنَّكُمُ الْشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٣)

قوله تعالى : ((وَإِنَّهُ لَعَلِمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْرُنْ بِهَا)) قال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير : يزيد القرآن ، لأن الله يدل على قرب بحث الساعة ، أو به تعلم الساعة وأهوالها وأحوالها . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة أيضا : إنه خروج عيسى عليه السلام ، وذلك من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لعلم لساعة» (فتح العين واللام) أى أمارة . وقد روى عن عكرمة « وإنه لعلم » (بلامين) وذلك خلاف للصحابف . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما كان ليلاً أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إبراهيم وهو عيسى عليهم السلام فتذكروا الساعة فبدروا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ، ثم سألا موسى فلم يكن عنده منها علم ؛ فرد الحديث إلى عيسى بن مريم قال : قد عهدت إلى فيما دون وجيتها فاما وجيتها فلا يعلمه إلا الله عن وجل ؛ فذكر خروج الدجال — قال : فأنزل فأقتله . وذكر الحديث ، نترجمه ابن ماجه في سننه . وفي صحيح مسلم «فيينا هو — يعني المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرق-

(١) راجع ج ٨ ص ١٤١

دِمْشَقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنَ وَاضْعَاعًا كَفِيهَ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَيْنَ إِذَا طَاطَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحْتَرَ^(١)
 مَنْهُ جَهَانَ كَالْأَلْوَهِ فَلَا يَحْلِلُ لِكَافِرٍ يَمْدُدُ رَبِيعَ نَفْسَهُ إِلَّا مَاتَ وَنَفْسُهُ [يَتَهَى]^(٢) حِيثُ يَتَهَى طَرْفَهُ
 فِي طَلْبِهِ حَتَّى يَدْرَكَهُ بَبَابَ لَدُّ فِيقْتَاهِ ... ”الْحَدِيثُ ... وَذِكْرُ الشَّعْلَبِيِّ وَالْمُخْتَشَرِيِّ“ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ
 أَبِي هَرِيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ”يَتَزَلَّ عَيْسَى بْنُ مُرْسِيمٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ^(٣)
 عَلَى ثَنَيَّةِ مِنَ الْأَرْضِ الْمَقْدَسَةِ يَقَالُ لَهَا أَفِيقَ بَيْنَ مُمْصَرَتَيْنَ وَشَعْرَ رَأْسِهِ دَهِينٌ وَبِيَدِهِ حَرْبَةٌ يُقْتَلُ^(٤)
 بِهَا الدِّجَالُ فَيَأْتِي بَيْتُ الْمَقْدَسِ وَالنَّاسُ فِي صَلَةِ الْعَصْرِ وَالْإِمَامُ يُؤْمِنُ بِهِمْ فَيَأْتِي الْإِمَامُ فَيَقْدِمُهُ
 عَيْسَى وَيَصْلِي خَلْفَهُ عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يُقْتَلُ الْخَنَازِيرُ وَيُكْسِرُ الصَّلِيبُ
 وَيُخْرِبُ الْبَيْعَ وَالْكَنَائِسُ وَيُقْتَلُ الْنَّصَارَى إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ“ . وَرَوَى خَالِدُ بْنُ الْحَسَنَ قَالَ قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتٍ أَمْهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ وَأَنَا أَوْلَى^(٥)
 النَّاسُ بِعِيْسَى بْنِ مُرْسِيمٍ إِنَّهُ لَيْسَ بِذِنِي وَبِذِنِهِ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ أَوْلَى نَازِلٍ فِي كِسْرِ الصَّلِيبِ وَيُقْتَلُ الْخَنَازِيرُ
 وَيُقَاتَلُ النَّاسُ عَلَى الْإِسْلَامِ“ . قَالَ الْمَاوَرِدِيُّ : وَحْكَى أَبْنُ عِيْسَى عَنْ قَوْمٍ أَنَّهُمْ قَالُوا إِذَا
 نَزَلَ عِيْسَى رُفِعَ التَّكْلِيفُ لِلَّهِ يَكُونُ رَسُولًا إِلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ يَأْمُرُهُمْ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَنْهَا مِنْهُمْ .
 وَهَذَا قَوْلٌ مَرْدُودٌ لِثَلَاثَةِ أَمْرَّ ؛ مِنْهَا الْحَدِيثُ ، وَلَا إِنْ بَقاءَ الدُّنْيَا يَقْضِي التَّكْلِيفَ فِيهَا ، وَلَا إِنَّهُ
 يَنْزَلُ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ وَنَهَايَاً عَنِ الْمُنْكَرِ . وَلَيْسَ يُسْتَنْكِرُ أَنْ يَكُونَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مَقْصُورًا عَلَى
 تَأْيِيدِ الْإِسْلَامِ وَالْأَمْرِ بِهِ وَالْدُّعَاءُ إِلَيْهِ .

قَلْتُ : ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَابْنِ مَاجِهِ عَنْ أَبِي هَرِيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : ”لَيَتَزَلَّ عَيْسَى بْنُ مُرْسِيمٍ حَكَّا عَادِلًا فَلَيُكْسِرَ الصَّلِيبُ وَلَيُقْتَلَ الْخَنَازِيرُ وَلَيَضَعَنَّ الْحِزْبَةَ^(٦)
 وَلَتُتَرَكَنَّ الْقِلَاصَ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا وَلَتَدْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالْتَّبَاغُضُ وَالْتَّحَاسِدُ وَلَيُدَعَوْنَ إِلَى الْمَالِ
 فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ“ . وَعَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”كَيْفَ أَتُمْ إِذَا نَزَلَ
 أَبْنُ مُرْسِيمٍ فِيهِمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ“ وَفِي رِوَايَةِ ”فَأَمَّکُمْ مِنْكُمْ“ قَالَ أَبْنُ أَبِي ذِئْبٍ : تَدْرِي ”مَا أَمَّکُمْ“

(١) أَى شَقَقَتْنِيْنِ أَوْ حَلَقَتْنِيْنِ . (٢) لَدْ (الضم والتَّشِيدِ) : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

(٣) فِي رُوحِ الْمَعْانِي : «أَفِيقَ بِهَا وَقَافَ بِوزْنِ أَمِيرٍ ، وَهِيَ هَذَا مَكَانٌ بِالْقَدِيسِ الشَّرِيفِ نَفْسَهُ ...» .

(٤) الْمُصْرَةُ مِنَ الْثَّيَابِ : الَّتِي فِيهَا صَفْرَةٌ خَفِيفَةٌ .

«نِعْمَكُمْ» ؟ قلت : تَحْبِرْنِي ؟ قال : فَأَمَّا كِتابُ رَبِّكُمْ وَسُنْنَةُ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » . قال عَلِمَائُونَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : فَهَذَا نَصٌّ عَلَى أَنَّهُ يَنْزَلُ مُجَدِّداً لِدِينِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي دُرْسَ مِنْهُ ، لَا يُشْرِعُ مُبْتَدِأً وَالْتَّكْلِيفُ بِاقٍِ ؛ عَلَى مَا بَيْنَاهُ هُنَا وَفِي كِتابِ التَّذْكُرَةِ . وَقِيلَ : «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أَيْ وَإِنَّ إِحْيَاءَ عِيسَى الْمَوْتَى دَلِيلٌ عَلَى السَّاعَةِ وَبَعْثَتِ الْمَوْتَى ؟ قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ .

قلت : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى «وَإِنَّهُ» وَإِنْ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِلْمِ السَّاعَةِ ؟ بَدِيلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «بُعْثَتْ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتِينَ» وَضَمَّ السَّبَابَةُ وَالْوَسْطَى ؛ نَحْرَجُهُ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ . وَقَالَ الْحَسْنُ : أَوْلَى أَشْرَاطِهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . (فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) فَلَا تَنْتَهُكُونَ فِيهَا ؛ يَعْنِي فِي السَّاعَةِ ، قَالَهُ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ . وَقَالَ السَّدِّيُّ : فَلَا تَكْذِبُونَ بِهَا ، وَلَا تَجَادُلُونَ فِيهَا فَإِنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةٌ . (وَاتَّبِعُونِي) أَيْ فِي التَّوْحِيدِ وَفِيمَا أَبْلَغْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ . (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أَيْ طَرِيقٌ قَوِيمٌ إِلَى اللَّهِ ، أَيْ إِلَى جَنَّتِهِ . وَأَثْبَتَ الْيَاءُ يَعْقُوبُ فِي قَوْلِهِ «وَاتَّبِعُونَ» فِي الْحَالَيْنِ ، وَكَذَلِكَ «وَأَطِيعُونَ» . وَأَبُو عُمَرُ وَإِسْمَاعِيلُ عَنْ نَافِعِ فِي الْوَصْلِ دُونَ الْوَقْفِ ، وَحَذَفَ الْبَاقِونَ فِي الْحَالَيْنِ . (وَلَا يَصُدُّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ) أَيْ لَا تَغْرِبُوا بِوَسْوَاسِهِ وَشَبَهِ الْكُفَّارِ الْجَاهَدِينَ ، فَانْ شَرَاعَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يَخْتَلِفْ فِي التَّوْحِيدِ وَلَا فِي أَخْبَرِ وَابِهِ مِنْ عِلْمٍ (١) السَّاعَةِ وَغَيْرُهَا بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ . (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) تَقْدِيمٌ فِي «الْبَقَرَةِ» وَغَيْرُهَا

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَا يَأْبَيْنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي (٢) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَرِيدُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ وَخَلْقِ الطَّيْرِ وَالْمَائِدَةِ وَغَيْرِهَا ، وَالإِخْبَارُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْغَيْوَبِ . وَقَالَ قَنَادِهُ : الْبَيِّنَاتِ

(١) راجع ج ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

هنا الإنجيل . (قَالَ قَدْ جِئْتُمْ بِالْحَكْمَةِ) أى النبوة ؛ قاله السُّلْطَنِي . ابن عباس : علم ما يؤدى إلى الجميل ويكتفى به عن القبيح . وقيل الإنجيل ؛ ذكره القشيري والمماوردي . (وَلَا يَأْتُنَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) قال مجاهد : من تبديل التوراة . الرجاج : المعنى لأئمَّةِ لِكَمْ في الإنجيل بعض الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة . قال مجاهد : وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل : بين لهم بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ماسأله . ويجوز أن يختلفوا فيأشياء غير ذلك لم يسألوه عنها . وقيل : إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موته موسى فيأشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دينهم فيين لهم أمر دينهم . ومذهب أبي عبيدة أن البعض بمعنى الكل ؛ ومنه قوله تعالى : « يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ » : وأنشد الأخفش قول لييد :

تراث أمكانة إذا لم أرضها * أو تعانق بعض النفوس حمامها
والموت لا يعتنق بعض النفوس دون بعض . ويقال للنية : علوق وعلاقة . قال المفضل

البكري :

وَسَائِلَةَ بَشْعَلَةَ بْنِ سِيرٍ * وَقَدْ عَلِقْتَ بَشْعَلَةَ الْعَلُوقَ^(١)
وقال مقاتل : هو كقوله « وَلَا حَلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حَرَمَ عَلَيْكُمْ » . يعني ما أحل في الإنجيل
ما كان محظيا في التوراة ؛ كالحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت .
« فَاتَّقُوا اللَّهَ » أى آتقو الشرك ولا تبدوا إلا الله وحده ؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف
يجوز أن يكون إلهآ أو ابن الله . « وَأَطِيعُونِي » فيما أدعوك إلى الله من التوحيد وغيره .
« إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أى عبادة الله صراط مستقيم ،
وما سواه معوج لا يؤدى سالكه إلى الحق .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَآخْتَلَفَ آنَّهُرَابُ مِنْ بَنِيهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِينِ^(٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَسْلَامَةَ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَسْعُرُونَ^(٣)

(١) آية ٢٨ سورة غافر .

(٢) بريد شعبان بن سبار .

(٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .

قوله تعالى : ((فَأَخْتَلَّ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ)) قال قتادة : يعني ما بينهم ، وفيهم قوله : أحدهما — أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، خالف بعضهم بعضًا ؛ قاله مجاهد والسدى . الثاني — فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا في عيسى ؛ فقالت النسطورية : هو ابن الله . وقالت العياقة : هو الله . وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله ؛ قاله الكلبى ومقاتل ، وقد مضى هذا في سورة « مريم » . ((فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا)) أى كفروا وأشردوا ، كما في سورة « مريم » . ((مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِ)) أى أليم عذابه ؛ ومثله : ليل نائم ؛ أى ينام فيه . ((هَلْ يَنْظَرُونَ)) يريد الأحزاب لا يتذمرون . ((إِلَّا السَّاعَة)) يريد القيمة . ((أَنْ تَأْتِيهِمْ بَعْتَهَا)) أى بغاة . ((وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)) يفطنون . وقد مضى في غير موضع . وقيل : المعنى لا يتذمرون مشركون العرب إلا الساعة . ويكون « الأحزاب » على هذا ، الذين تخذلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوا من المشركين . ويتصل هذا بقوله تعالى : « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا » .

قوله تعالى : آلَّا خَلَاءٌ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)

قوله تعالى : ((الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ)) يريد يوم القيمة . ((بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)) أى أعداء ، يعادى بعضهم بعضاً ويعلن بعضهم بعضاً . ((إِلَّا الْمُتَّقِينَ)) فلنهم أخلاق في الدنيا والآخرة ؛ قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وحكي النقاش أن هذه الآية نزلت في أمية بن خلف الجعجي وعقبة بن أبي معيط ، كانوا خاليين ؛ وكان عقبة يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : قد صبا عقبة بن أبي معيط ؛ فقال لها أمية : وجها من وجهك حرام إن لقيت محمدًا ولم تُتَّقِلْ في وجهه ؛ ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبي صلى الله عليه وسلم قتله يوم بدر صبرا ، وقتل أمية في المعركة ؛ وفيهم نزلت هذه الآية . وذكر الثعلبي رضى الله عنه في هذه الآية قال : كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، مات أحد المؤمنين فقال : يا رب ،

(١) راجع ج ١١ ص ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ . (٢) راجع ج ١ ص ١٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) آية ٥٨ من هذه السورة . (٤) الصبر : نصب الإنسان للقتل .

إِنْ فَلَانَا كَانَ يَأْمُرُنِي بِطَاعَتِكَ وَطَاعَةَ رَسُولِكَ، وَكَانَ يَأْمُرُنِي بِالْخَيْرِ وَيَنْهَايِ عنِ الشَّرِّ، وَيَخْبُرُنِي أَنِّي مَلَاقِيكَ، يَا رَبَّ فَلَا تُضْلِلْهُ بَعْدِي، وَآهَدْهُ كَمَا هَدَيْتَنِي، وَأَكْرَمْهُ كَمَا أَكْرَمْتَنِي؛ فَإِذَا مَاتَ خَلِيلُهُ الْمُؤْمِنُ جَمْعُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لَيْسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى صَاحِبِهِ؛ فَيَقُولُ يَا رَبَّ، إِنَّهُ كَانَ يَأْمُرُنِي بِطَاعَتِكَ وَطَاعَةَ رَسُولِكَ، وَيَأْمُرُنِي بِالْخَيْرِ وَيَنْهَايِ عنِ الشَّرِّ، وَيَخْبُرُنِي أَنِّي مَلَاقِيكَ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: نَعَمْ اخْلَلْتِنِي وَنَعَمْ الْأَخْ وَنَعَمْ الصَّاحِبِ كَانَ. قَالَ: وَيَوْمَ تَضَعُفُ أَحَدُ الْكَافِرِينَ فَيَقُولُ: يَا رَبَّ، إِنْ فَلَانَا كَانَ يَنْهَايِ عنِ طَاعَتِكَ وَطَاعَةَ رَسُولِكَ، وَيَأْمُرُنِي بِالْشَّرِّ وَيَنْهَايِ عنِ الْخَيْرِ، وَيَخْبُرُنِي أَنِّي غَيْرُ مَلَاقِيكَ، فَأَسْأَلُكَ يَا رَبَّ الْآَتَاهِدَهِ بَعْدِي، وَأَنْ تَضَعُفَنِي كَمَا أَضَلَّتَنِي، وَأَنْ تَهْبِئَنِي كَمَا أَهْتَنِي؛ فَإِذَا مَاتَ خَلِيلُهُ الْكَافِرُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمَا: لَيْسَ كُلُّ تَضَلُّلٍ كَمَا أَضَلَّلْتُنِي، وَلَا تَهْبِئَنِي كَمَا أَهْبَيْتُنِي؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَأْمُرُنِي بِمَعْصِيَتِكَ وَمَعْصِيَةِ رَسُولِكَ، وَيَأْمُرُنِي بِالْشَّرِّ وَيَنْهَايِ عنِ الْخَيْرِ وَيَخْبُرُنِي أَنِّي غَيْرُ مَلَاقِيكَ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَضَعُفَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ؛ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَئْسَ الصَّاحِبُ وَالْأَخْ وَالْخَلِيلُ كَمَنْتُ. فَيَلْعَنُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبِهِ.

قَلَتْ: وَالآيَةُ عَامَةٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُمْتَقِيٍّ وَكَافِرٍ وَمُمْضِلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَعْبُادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ آلَيَّوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾

قال مقاتل ورواه المعتمر بن سليمان عن أبيه: ينادي منادٍ في العروضات "يَا عَبْدَ اللَّهِ لا خوف علىكِ اليوم" ، فيرفع أهل العروض رءوسهم؛ فيقول المنادي: «الَّذِينَ آمَنُوا يَأْتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ» فينكح أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين . وذكر المحاسبي في الرعاية: وقد روى في هذا الحديث أن المنادي ينادي يوم القيمة: «يَا عَبْدَ اللَّهِ لا خوف علىكِ اليوم ولا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» فيرفع الخلاقين رءوسهم، يقولون: نحن عباد الله . ثم ينادي الثانية: «الَّذِينَ آمَنُوا يَأْتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ» فينكح الكفار رءوسهم ويبقى الموحدون رافعى رءوسهم . ثم ينادي الثالثة: «الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» فينكح أهل الكبار رءوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم . قد أزال عنهم الخوف والحزن ك وعدهم؛ لأنَّه أكرم الأكرمين ، لا يخذل ولِيهِ ولا يُسلمه عند الْهَلْكَةِ . وَقَرَئَ «يَا عَبَادَ» .

قوله تعالى : **أَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِعَايَتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٢٧) أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَازْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ (٢٨)**

قال الزجاج : « الذين » نصب على النعت لـ « عبادى » لأن « عبادى » منادى مضاد .
وقيل : « الذين آمنوا » [خبر لم يبدأ ممحظى ^(١) أو] ابتداء وخبره ممحظى ؛ تقديره هم الذين آمنوا ، أو الذين آمنوا يقال لهم « أدخلوا الجنة » . وقرأ أبو بكر ووزر بن حبيش « يا عبادى » بفتح الياء وإثباتها في الحالين ؛ ولذلك أثبتتها نافع وابن عامر وأبو عمرو ورويس ساكنة في الحالين . ومحظها الباقون في الحالين ؛ لأنها وقعت مثبتة في مصاحف أهل الشام والمدينة لا غير . **(أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ)** أى يقال لهم أدخلوا الجنة ، أو يا عبادى الذين آمنوا أدخلوا الجنة . **(أَنْتُمْ وَازْوَاجُكُمْ)** المسلمات في الدنيا . وقيل : فرقاً لكم من المؤمنين . وقيل : زوجاتكم من الحُور العين . **(تُخْبَرُونَ)** تکمون ؛ قاله ابن عباس ؛ والكلمة في المنزلة . الحسن ^ر تفرحون ، والفرح في القلب . قادة : تنعمون ؛ والنعم في البدن . مجاهد : تسرون ؛ والسرور في العين . ابن أبي نجيح : تعجبون ؛ والعجب هاهنا درك ما يستطرف . يحيى بن أبي كثير : هو التلذذ بالسماع . وقد مضى هذا في « الروم » . ^(٢)

قوله تعالى : **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشَبَّهُهُ أَلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ أَلْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَلَدُونَ (٢٩)**

فيه أربع مسائل :

الأولى – قوله تعالى : **(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ)** أى لهم في الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم في صحاف من ذهب وأكواب . ولم يذكر الأطعمة والأشربة ؛ لأنها يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء . وذكر الذهب في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب ؛ كقوله تعالى :

(١) زيادة لا يستقيم المعنى إليها . (٢) راجع ج ١٤ ص ١٢

«وَالَّذِي كَرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذِي كَرِاتِ»^(١) . وفي الصحيحين عن حذيفة أنه سمع النبيَ صلى الله عليه وسلم يقول : «لَا تلبسو الحسیر ولا الدیاج ولا تشربوا فی آنیة الذهب والفضة ولا تأكلوا فی صحافها فانها لهم فی الدنيا ولهم فی الآخرة»^(٢) . وقد مضى في سورة «الجح»^(٣) أن من أكل فيما فی الدنيا أو لبس الحریر فی الدنيا ولم يتبع حرم ذلك فی الآخرة تحریماً مُؤبداً . والله أعلم . وقال المفسرون : يطوف على أدناهم فی الجنة متزلةً سبعون ألف غلام بسبعين ألف حشفة من ذهب ، يُغدو عليه بها ، فی كل واحدة منها لون ليس فی صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً ، ويراح عليه بمنتها . ويطوف على أرفعهم درجة كل يوم سبعاً نه Alf غلام ، مع كل غلام حشفة من ذهب ، فيها لون من الطعام ليس فی صاحبتها ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، ويجد طعم آخرها كما يجد طعم أولها ، لا يشبه بعضه بعضاً . (وأكواب)^(٤) أى ويطاف عليهم بأكواب ؛ كما قال تعالى : «وَيُطَافُ عَلَيْمُ رَبِّيَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَكَوَابٍ» . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا معمر عن رجل عن أبي قلابة قال : يُؤْتُونَ بالطعام والشراب ، فإذا كان فی آخر ذلك أتوا بالشراب الطهور فتضمر لذلك بطونهم ، ويفيض عرقاً من جلودهم أطيب من ريح المسک ؛ ثم قرأ «شرا با طهورا» . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم يقول : «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرُبُونَ وَلَا يَتَفَلُّونَ وَلَا يَبْولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ [وَلَا يَتَخَطَّوْنَ] قَالُوا فَمَا بِالْطَّعَامِ ؟ قَالَ : جُشَاءُ وَرَشْ كَرْشُ الْمَسْكِ يُلْهِمُونَ التَسْبِيحَ وَالْحَمْدَ وَالْكَبْرَى — فِي رَوْيَةِ — كَمَا يَأْهُمُونَ النَّفْسَ» . الثانية — روی الأئمة من حديث أم سلمة عن النبيَ صلی الله علیه وسلم قال : «الذی يشرب فی آنیة الذهب والفضة إنما يُحرِّف بطنه نار جهنم»^(٥) . وقال : «لَا تشربوا فی آنیة الذهب والفضة ولا تأكلوا فی صحافها» وهذا يقتضي التحريم ، ولا خلاف فی ذلك .

(١) آية ٣٥ سورة الأحزاب . راجع ج ١٤ ص ١٨٥ (٢) قوله «فی صحافها» علی حد قوله تعالى :

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَهَبَ وَالْفَضَّةَ وَلَا يَنْفَقُونَهَا ...» . فالضمير «عائد على الفضة» ، ويلزم حكم الذهب بطريق الأولى .

(٣) راجع ج ١٢ ص ٢٩ (٤) آية ١٥ سورة الإنسان .

واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك . قال آبن العربي : وال الصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها في شيء ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الذهب والحرير : "هذا حرام لذكور أمتي حل لإناشها" . والنهى عن الأكل والشرب فيما يدل على تحريم استعمالها ، لأنه نوع من المنوع فلم يجز . أصله الأكل والشرب ، ولأن العلة في ذلك استعمال أمر الآخرة ، وذلك يستوي فيه الأكل والشرب وسائر أجزاء الانتفاع ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : "هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة" فلم يجعل لها فيها حظا في الدنيا .

الثالثة — إذا كان الإناء مضبباً بهما أو فيه حلقة منهما ، فقال مالك : لا يعجبني أن يشرب فيه ، وكذلك المرأة تكون فيها الحلقة من الفضة ولا يعجبني أن ينظر فيها وجهه . وقد كان عند أنس إماء مضبب بفضة وقال : لقد سقيت فيه النبي صلى الله عليه وسلم . قال آبن سيرين : كانت فيه حلقة حديد فأراد أنس أن يجعل فيه حلقة فضة ؛ فقال أبو طلحة : لا أغير شيئاً مما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتركه .

الرابعة — إذا لم يجز استعمالها لم يجز اقتناها ؛ لأن ما لا يجوز استعماله لا يجوز اقتناه
(٢٤) كالصنم والطنبور . وفي كتب علمائنا أنه يلزم الغرم في قيمتها ملن كسرها ، وهو معنى فاسد ، فإن كسرها واجب فلا ثمن لقيمتها . ولا يجوز تقويمها في الزكاة بمحال . وغير هذا لا يلتفت إليه .

قوله تعالى : ((بِصَحَافٍ)) قال الجوهري : الصحفة كالقصبة والجمع صحاف . قال الكسائي : أعظم القصاع الحفنة ثم القصبة تليها تسبع العشرة ، ثم الصحفة تسبع الخمسة ، ثم المشكلاة تسبع الرجلين والثلاثة ، ثم الصحيفية تسبع الرجل . والصحيفية الكتاب والجمع صحاف وصحابف .

قوله تعالى : ((وَأَكْوَابٍ)) قال الجوهري : الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب .

قال الأعشى يصف الخمر :

(١) في آبن العربي : «أجر» .

(٢) الطنبور : من آلات الطرب ذو عنق ملوي وستة أوتار من نحاس ؛ معرب .

صَرِيفَةَ طَيْبَ طَعْمَهَا * هَازَ بَدْيَنْ كُوبَ وَدَنْ
 (١) وقال آخر:
 (٢)

مُتَكَّنًا تَصْفِيقَ أَبْوَابَهُ * يَسْعى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ

وقال قتادة: الكوب المدور القصير العنق القصير العروة . والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة . وقال الأخفش: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها . وقال قطرب: هي الأباريق التي ليست لها عُرَى . وقال مجاهد: إنها الآنية المدوربة الأفواه . السُّتْرِي: هي التي لا آذان لها . ابن عَزِيز: «أَكواب» أباريق لا عُرَى لها ولا خراطيم؛ واحدها كوب . قلت: وهو معنى قول مجاهد والسُّتْرِي ، وهو مذهب أهل اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرَى .

قوله تعالى: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيَ الْأَنفُسُ وَتَلَدُّ الْأَعْيُنُ» روى الترمذى عن سليمان بن بُريدة عن أبيه أن رجلاً سأله النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَدْخُلُكَ الْجَنَّةَ فَلَا تَشَاءُ أَنْ تَحْمِلَ عَلَى فَرْسٍ مِّنْ يَاقُوتَةِ حِرَاءِ يَطِيرُ بِكَ [في الجنة] حِيثُ شَئْتَ» . قال: وسأله رجل فقال يا رسول الله، هل في الجنة من إبل؟ قال: فلم يقل له مثل ما قال لصاحبته قال: «إِنْ يُدْخِلَكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ يَكْنِ لَكَ فِيهَا مَا اشْتَهَيْتَ نَفْسَكَ وَلَذْتَ عَيْنَكَ» . وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأهل الشام «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيَ الْأَنفُسُ» ، الباقيون «تَشْتَهِيَ الْأَنفُسُ» أي تشتهي الأنفس؛ تقول: الذي ضربت زيداً، أو الذي ضربته زيداً . «وَتَلَدُّ الْأَعْيُنُ» تقول: لَذَ الشَّيْءُ يَلَدَ لَذَادَا، ولَذَادَةً . ولَذَذَتْ بِالشَّيْءِ الَّذِي (بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل) لَذَادَا وَلَذَادَةً؛ أي وجدته لذيداً . والتلذذت به وتلذذت به بمعنى، أي في الجنة ما تستلذه العين فكان حسن المنظر . وقال سعيد بن جبير: «وَتَلَدُّ الْأَعْيُنُ» النظر إلى الله عن وجہ، كما في الخبر: «أَسْأَلُكَ لَذَةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ» . «وَأَنْتُمْ فِيهَا حَالِدُونَ» باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبعضت .

(١) الصريفية: الخمر المنسوبة إلى صريفون، وهي فريمة عند عكيرا، أولئك أخذت من الدن ساعتها كالبن الصريف (الخليب الحار ساعة يصرف من الضرع). (٢) هو عدى بن زيد . (٣) زيادة عن سن الترمذى .

قوله تعالى : وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا إِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٦) قوله تعالى : ((وَتِلْكَ الْجَنَّةُ)) أى يقال لهم هذه تلك الجنة التي كانت توصف لكم في الدنيا . وقال ابن خالويه : أشار تعالى إلى الجنة بتلك وإلى جهنم بهذه ، ليخوف بجهنم ويؤكد التحذير منها . وجعلها بالإشارة القريبة كالحاضرة التي ينظر إليها . ((الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا إِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)) قال ابن عباس : خلق الله لكل نفس جنة ونارا ؛ فالكافر يرث نار المسلمين والمسلم يرث جنة الكافر ؛ وقد تقدم هذا مرفوعا في « قد أفلح المؤمنون » من حديث أبي هريرة، وفي « الأعراف » أيضا .^(١)

قوله تعالى : لَكُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُونَ (٧٧) الفاكهة معروفة ، وأجناسها الفواكه ، والفاكهانى الذى يبيعها . وقال ابن عباس : هي الشاركها ، رطبهما وياسها ؛ أى لهم في الجنة سوى الطعام والشراب فاكهة كثيرة يأكلون منها .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٨) لا يُفْتَرُ عنهم وهم فيه مُبِيسُونَ (٧٩) وما ظلمتهم ولكن كانوا هم الظالمين (٨٠) قوله تعالى : ((إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)) لما ذكر أحوال أهل الجنة ذكر أحوال أهل النار أيضا ليبين فضل المطيع على العاصي . ((لا يُفْتَرُ عنهم)) أى لا يخفى عنهم ذلك العذاب . ((وَهُمْ فِيهِ مُبِيسُونَ)) أى آيسون من الرحمة . وقيل : ساكتون سكتوت يأس ؛ وقد مضى في « الأنعام » . ((وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ)) بالعذاب ((ولِكْنَ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)) أنفسهم بالشرك . ويجوز « ولكن كانوا هم الظالمون» بالرفع على الابتداء والخبر ، والجملة خبر كان .

قوله تعالى : وَنَادَاهَا يَمَلِكُ لِيَقْضِي عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنْكُثُونَ (٨١)

(١) راجع ج ١٢ ص ١٠٨ (٢) راجع ج ٧ ص ٢٠٨ (٣) راجع ج ٦ ص ٤٢٦

قوله تعالى : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ » وهو حازن جهنم ، خلقه لغضبه ؛ إذا زجر النار زجة أكل بعضها بعضاً . وقرأ على " وابن مسعود رضي الله عنهما « وَنَادَوْا يَا مَالِ » وذلك خلاف المصحف . وقال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « وَنَادَوْا يَا مَالِ » باللام خاصة ؛ يعني رخيم الاسم وحذف الكاف . والترخيق الحذف ، ومنه ترخيق الاسم في النداء ، وهو أن يمحى من آخره حرف أو أكثر ، فتقؤل في مالك : ياماً ، وفي حارث : يا حارث ، وفي فاطمة : يا فاطمة ، وفي عائشة : يا عائش ، وفي مروان : يا مروان ، وهكذا . قال :

يا حار لا أرمين منكم بداعية * لم يلقها سوقه قبل ولا ملك

وقال أمير المؤمنين :

أحرار ترى برقاً أريك ومضـه * كل مع اليدين في حـي مـكـلـ

وقال أيضاً :

أفاطـم مـهـلاً بـعـصـ هـذـا التـدـلـ * وإن كـنـتـ قدـأـزـمعـتـ صـرـمـيـ فأـجـيلـ

وقال آخر :

يـامـروـانـ مـطـقـيـ مـحبـوسـةـ * تـرجـوـ الـحـباءـ وـرـبـهاـ لـمـ يـيـأسـ

وف صحيح الحديث "أى فل ، هلّم" . ولذلك في آخر الاسم المرخص وجهان : أحدهما — أن تبقى على ما كان عليه قبل الحذف . والآخر — أن تبني على الضم ؛ مثل : يازيد ؟ كأنك أزلته منزلته ولم تراع المذوق . وذكر أبو بكر الأباري قال : حدثنا محمد بن يحيى المروزي قال حدثنا محمد — وهو ابن سعدان — قال حدثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن

(١) البيت لزهير بن أبي سلمي ، وهو من قصيدة يخاطب بها الحارث بن ورقاء الصيداوي وكان أغار على بن عبد الله ابن غطفان فعم وأخذ أبل زهير ورعايه يساراً ، فطالبه بذلك ليروا عليه ما أخذوه وتوعدهم باهتجاء ... الخ ، راجع شرح ديوان زهير ص ١٦٤ المطبوع بدار الكتب المصرية .

(٢) يروى « أصح » . والمعنى : السحاب المعترض بالأفق . والمكلل : المراكب .

(٣) فاطمة هي ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر . والصرم (بالضم) : القطبعة .

(٤) هو الفرزدق يخاطب مروان بن الحكم وكان والياً على المدينة فوند عليه مادحاته ، فأبطأ عليه جائزته ... والحياة (كسر الحاء، المهملة) : العطا . وبحمل الرجا ، للناقة وهو يرد نفسه مجازاً . (شرح الشواهد للشتمري) .

عينة عن مجاهد قال : كَمَا لَا ندرى مَا الزخرف حتى وجدناه في قراءة عبد الله « بيت من ذهب » ، وكَمَا لَا ندرى « ونادوا يا مالك » أو يا ملك (بفتح اللام وكسرها) حتى وجدناه في قراءة عبد الله « ونادوا يا مال » على الترخيم . قال أبو بكر : لا يعمل على هذا الحديث لأنَّه مقطوع لا يقبل مثله في الرواية عن الرسول عليه السلام ; وَكَبِيرُ الله أحق بـأَنْ يحتاط له وينهى عنه الباطل .

قلت : وفي صحيح البخاري عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال سمعت النبي صلَّى الله عليه وسلم يقرأ على المبر « ونادوا ياماِلِكَ ليَقِضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » بإثبات الكاف . وقال محمد بن كعب القرطي : باغنى — أو ذكرى — أنَّ أهل النار استغاثوا بالحزنة فقال الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِحَزَنَةِ جَهَنَّمِ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخْفَفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنِ الْعَذَابِ » فسألوا يوماً واحداً يخفف عنهم فيه العذاب ، فردت عليهم « أَوْلَمْ تَكُونُوا تَائِبِينَ رَسُولُكُمْ بِالْيَتَامَاتِ قَالُوا بَلَّ قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » قال : فلما يتسوا ما عند الحزنة نادوا مالكاً ، وهو عليهم ولهم مجلس في وسطها ، وجسور تم عليها ملائكة العذاب ، فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها فقالوا : « ياماِلِكَ ليَقِضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » قال : سأله الموت ، قال : فسكت عنهم لا يحييهم ثمانين سنة ، قال : والسنة ستون وثلاثة يوم ، والشهر ثلاثة ألف يوم ، واليوم كألف سنة مما تعدون ، ثم لحظ عليهم بعد الثمانين فقال : « إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ » ذكر الحديث ، ذكره ابن المبارك .

وفي حديث أبي الدرداء عن النبي صلَّى الله عليه وسلم قال : « فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكًا فَيَقُولُونَ ياماِلِكَ ليَقِضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ » . قال الأعمش : ثُبَّتَ أَنَّ بَيْنَ دُعَائِهِمْ وَبَيْنَ إِجَابَةِ مالك إِيَّاهُمْ أَلْفَ عَامٍ ؛ خرجه الترمذى . وقال ابن عباس : يقولون ذلك فلا يحييهم ألف سنة ، ثم يقول إنكم ما كنتم . وقال مجاهد ونوف البكالى : بين ندائهم وإجابته إياهم مائة سنة . وقال عبد الله بن عمرو : أربعون سنة ؛ ذكره ابن المبارك .

(١) في قوله تعالى : « أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زَخْرَفٍ » آية ٩٣ سورة الإسراء . راجع ج ١٠ ص ٢٢١

(٢) آية ٤٩ سورة غافر .

قوله تعالى : لَقَدْ جِئْنَاهُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ كَفَرُوهُنَّ ﴿٦﴾
 يتحمل أن يكون هذا من قول مالك لهم ؟ أى إنكم ما كثون في النار لأناجئناكم في الدنيا
 بالحق فلم تقبلوا . ويتحمل أن يكون من كلام الله لهم اليوم ، أى بينا لكم الأدلة وأرسلنا إليكم
 الرسل . (ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴿٦﴾) قال ابن عباس : « ولكن أكثركم » أى ولكن كلهم . وقيل :
 أراد بالكثرة الرؤساء والقادة منهم ، وأما الآتى فالآن لهم أثر . (الْحَقُّ ﴿٦﴾) أى للإسلام ودين الله
 (كَارِهُونَ ﴿٦﴾) .

قوله تعالى : أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧﴾

قال مقاتل : نزلت في تدبيرهم بالذكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ، حين استقر
 أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يربز من كل قبيلة رجل ليشركون في قتلها فتضعف
 المطالبة بدمه ؛ فنزلت هذه الآية ، وقتل الله جميعهم ببدر . « أَبْرَمُوا » أحكوا . والإبرام
 الإحکام . أبرمت الشيء أحکمه . وأبرم الفتال إذا أحکم الفتل ، وهو الفتال الثاني ، والأول
 سخيل ؛ كما قال :

* ... من سخيل ومبرم *

المعنى أَمْ أَحْكَمُوا كَيْدًا فَإِنَا مَحْكُونُ لَهُمْ كَيْدًا ، قاله ابن زيد ومجاهد . قتادة : أَمْ أَجْعَوْا
 على التكذيب فإذا مجمعون على الجزاء بالبعث . الكابي : أَمْ قَضَوْا أَمْرًا فَإِنَا قَاضُونَ عَلَيْهِمْ
 بالعذاب . وأَمْ بمعنى بل . وقيل : « أَمْ أَبْرَمُوا » عطف على قوله « أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
 آلِهَةً يَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ » . وقيل : أى ولقد جئناكم بالحق فلم تسمعوا ، أَمْ سمعوا فأعرضوا لأنفسهم
 في أنفسهم أَبْرَمُوا أَمْرًا آمنوا به العقاب .

قوله تعالى : أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا تَسْمَعُ سِرْهُمْ وَتَجُوَّلُهُمْ بَلَّ وَرَسْلُنَا
 لَدَّهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨﴾

(١) هذا بغير بيت لزهير بن أبي سليم . والبيت كاف في ديوانه :
 يمينا لنعم السيدان وجدتها * على كل حال من سخيل ومبرم
 والسخيل ، الغزل الذي لم يبرم . (٢) آية ٤ من هذه السورة .

قوله تعالى : « أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سَرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » أى ما يسمونه في أنفسهم ويتناجون به بينهم . « بَلَّا » نسمع ونعلم . « وَرَسَلْنَا لَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى الحفظة عندهم يكتبون عليهم . وروى أن هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ؟ وقال الثاني : إذا جَهَرْتُمْ سمع ، وإذا أسررتُمْ لم يسمع . وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتُم فهو يسمع إذا أسررتُم ، قاله محمد بن كعب القرطي . وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة « فصلت » .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّ كَانَ لِرَحْمَنِ وَلَدٌ فَإِنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿١﴾
سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَأَلْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : « قُلْ إِنَّ كَانَ لِرَحْمَنِ وَلَدٌ فَإِنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » اختلف في معناه ، فقال ابن عباس والحسن والسدى : المعني ما كان للرحمن ولد ، فـ«إن» بمعنى ما ، ويكون الكلام على هذا تماما ، ثم تبتدئ «فإنا أول العابدين» أى الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له . والوقف على « العابدين » تام . وقيل : المعني قل يا محمد إن ثبت لله ولد فـ«إنا أول من يعبد ولد» ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فـ«إنا أول من يعتقد» ، وهذا مبالغة في الاستبعاد ، أى لاستبعاده . وهذا ترقيق في الكلام ، كقوله : « وَإِنَّا أَوَّلُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » . والمعنى على هذا : فـ«إنا أول العابدين لذلك الولد» ، لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد . وقال مجاهد : المعني إن كان للرحمن ولد فـ«إنا أول من عبده وحده» ، على أنه لا ولد له . وقال السدى أيضا : المعني لو كان له ولد كنت أول من عبده ، على أن له ولدا ولكن لا ينبغي ذلك . قال المهدوى : فـ«إن» على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأرجواد ، وهو اختيار الطبرى ، لأن كونها بمعنى ما يتواتهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى . وقيل : إن معنى « العابدين » الآتين . وقال بعض العلماء : لو كان كذلك لكان العابدين .

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥١ (٢) آية ٢٤ سورة سبا . راجع ج ١٤ ص ٢٩٨

وَكَذَلِكَ قَرَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَالْيَمَانِي «فَإِنَّا أَقْلَى الْعَابِدِينَ» بِغَيْرِ أَلْفِ، يَقُولُ، عَيْدَ يَعْبُدَ عَبَدًا
(بالتَّحْرِيكِ) إِذَا أَنِيفَ وَغَضِيبَ فَهُوَ عَيْدٌ، وَالْأَسْمَ الْعَبْدَةُ مِثْلُ الْأَنْفَةِ، عَنْ أَبِي زِيدٍ، قَالَ الْفَرَزَدِقُ:
أَوْلَكَ أَجْلَاسِي بِخَفْنِي بَعْثَاهُمْ * وَأَعْبَدُ أَنْ أَهْبُو كُلَّيْتَ بَدَارِمْ
وَيَنشُدُ أَيْضًا :

أَوْلَكَ نَاسٍ إِنْ هَبُونِي هَبُوتَهُمْ * وَأَعْبَدُ أَنْ يَهْجِي كُلَّيْبَ بَدَارِمْ
قَالَ الْجَوَهْرِيُّ : وَقَالَ أَبُو عُمَرْ وَقُولُهُ تَعَالَى «فَإِنَّا أَقْلَى الْعَابِدِينَ» مِنَ الْأَنْفَ وَالْغَضِيبِ؛
وَقَالَهُ الْكَسَانِيُّ وَالْقُبَّانِيُّ، حَكَاهُ الْمَأْوَرِدِيُّ عَنْهُمَا . وَقَالَ الْمَهَرَوِيُّ : وَقُولُهُ تَعَالَى «فَإِنَّا أَقْلَى^{١)}
الْعَابِدِينَ» قِيلَ هُوَ مِنْ عَيْدَ يَعْبُدُ ؛ أَيْ مِنَ الْأَنْفَيْنِ . وَقَالَ ابْنَ عَرْفَةَ : إِنَّمَا يَقُولُ عَيْدَ يَعْبُدُ
فَهُوَ عَيْدٌ ؛ وَقَلَّمَا يَقُولُ عَابِدٌ، وَالْقُرْآنُ لَا يَأْتِي بِالْقَلِيلِ مِنَ الْلُّغَةِ وَلَا الشَّادِ ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى فَإِنَّا
أَقْلَى مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَنْ وَجْلِ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا وَلِدٌ لَهُ . وَرَوَى أَنَّ أَمْرَأَةَ دَخَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا
فَوَلَدَتْ مِنْهُ لِسْتَةَ أَشْهُرٍ، فَدُكِّرَ ذَلِكَ لِعْنَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَمْرَرَ بِرْجَهَا ؛ فَقَالَ لَهُ عَلَىٰ : قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى «وَحَمَلَهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» وَقَالَ فِي آيَةِ أُخْرَى «وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ» فَوَاللَّهِ
مَا عَيْدَ عَمَّا أَنْ بَعَثَ إِلَيْهَا تَرْدَ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ : يَعْنِي مَا اسْتَكْفَفَ وَلَا أَنِيفَ .
وَقَالَ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ : «فَإِنَّا أَقْلَى الْعَابِدِينَ» أَيْ الْفَضَابُ الْأَنْفَيْنِ . وَقِيلَ : «فَإِنَّا أَقْلَى الْعَابِدِينَ»
أَيْ أَنَا أَقْلَى مِنْ يَعْبُدُهُ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ مُخَالِفًا لَكُمْ . أَبُو عَبِيْدَةَ : مَعْنَاهُ الْجَاهِدِينَ ؛ وَحَكِيَ :
عَبَدَنِي حَقَّ أَيْ جَهَدَنِي . وَقَرَا أَهْلُ الْكُوفَةِ إِلَّا عَاصِمًا «وَلَدٌ» بِضمِ الْوَاءِ وَإِسْكَانِ الْلَّامِ .
الْبَاقُونَ وَعَاصِمٌ «وَلَدٌ» وَقَدْ تَقدَّمَ . ((سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) أَيْ تَنْزِيهِ لَهُ
وَتَقْدِيسِهِ . نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ مَا يَقْتَضِي الْحَدُوثُ ، وَأَمْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْتَّنْزِيهِ .
((عَمَّا يَصْفُونَ)) أَيْ عَمَّا يَقُولُونَ مِنَ الْكَذْبِ .

قُولُهُ تَعَالَى : فَذَرُوهُمْ يَحْوِضُوا وَيَلْعَبُوا حَقَّ يُلَامُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ (١)

(١) راجع ج ١١ ص ١٥٥

قوله تعالى : « فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا » يعني كفار مكة حين كذبوا بعذاب الآخرة .
أى اتركتهم يخوضوا في باطنهـم ويلعبوا في دنياهـم « حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ »
إما العذاب في الدنيا أو في الآخرة . وقيل : إن هذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو محكم ،
 وإنما أخرج مخرج التهديد . وقرأ ابن محيصـن ومجاـهد وحـميد وابن القـعـقـاع وابن السـمـيقـعـ(١)
« حَتَّى يَلْقَوْا » بفتح الياءـ واسكان اللامـ من غير ألفـ ، وفتح القافـ هنا وفي « الطورـ »
و « المـارـجـ » . الباقيـن « يُلَاقُوا » .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٤٦﴾

هذا تكذيب لهم في أن الله شريكـاـ ولـداـ ؛ أى هو المستحق للعبادة في السماءـ والأرضـ .
وقال عمر رضـيـ اللهـ عـنـهـ وغـيرـهـ : المعنى وهو الذي في السماءـ إلهـ في الأرضـ ، وكذلك قـرأـ .
والمعنى أنه يعبدـ فيـهماـ . وروى أنه قـرأـ هو وابن مسعودـ وغـيرـهـ « وهو الذي في السماءـ إلهـ
وفي الأرضـ إلهـ » وهذا خلافـ المـصـحـفـ . و « إِلَهٌ » رفعـ على أنه خـبرـ مـبـتدـاـ مـحـذـوفـ ؛ أـىـ
وهو الذي في السماءـ هو إـلهـ ؛ قالـهـ أبوـ عـلـيـ . وحسنـ حـذـفـ لـطـولـ الـكـلامـ . وـقـيلـ : « فـ »
بعـنىـ عـلـىـ ؛ كـقولـهـ تـعـالـىـ : « وَلَا صـلـبـنـكـ فـ جـدـوـعـ النـخـلـ » أـىـ عـلـىـ جـذـوعـ النـخـلـ ؛ أـىـ هوـ
الـقـادـرـ عـلـىـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ . « وَهـوـ الـحـكـيمـ الـعـلـيمـ » تـقـدـمـ .

قوله تعالى : وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْهُ عِلْمٌ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٧﴾

« تـبـارـكـ » تـفاعـلـ منـ البرـكةـ ؛ وـقـدـ تـقـدـمـ . « وـعـنـهـ عـلـمـ السـاعـةـ » أـىـ وقتـ قـيـامـهاـ .
« وـإـلـيـهـ تـرـجـعـونـ » قـرأـ ابنـ كـثـيرـ وـجـزـةـ وـالـكـسـائـ « وـإـلـيـهـ يـرـجـعـونـ » بـالـيـاءـ . الـبـاقـيـنـ بـالـتـاءـ .
وـكـانـ ابنـ مـحـيـصـنـ وـحـمـيدـ وـيـعقوـبـ وـابـنـ أـبـيـ إـسـحـاقـ يـفـتـحـونـ أـولـهـ عـلـىـ أـصـوـلـهـمـ . وـضمـ الـبـاقـيـنـ .

(١) آية ٤٥ (٢) آية ٤٢ (٣) في بعض نسخ الأصل : « ... في السماءـ اللهـ وفي الأرضـ ... »

(٤) راجـعـ جـ ١ صـ ٢٨٧ مـطبـعـةـ ثـانـيـةـ أوـ ثـالـثـةـ . (٥) راجـعـ جـ ٧ صـ ٢٢٣

قوله تعالى : **وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿٤٦﴾
فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِّ)** «من» في موضع الخفض . وأراد
بـ «الذين يدعون من دونه» عيسى وعُزيرًا والملائكة، المعنى ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا من
شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة ؛ قاله سعيد بن جبير وغيره . قال : وشهادة الحق لا إله
إلا الله . وقيل : «من» في محل رفع ؛ أى ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ؛ يعني
الآلة — في قول قنادة — أى لا يشفعون لعابديها إلا من شهد بالحق ؛ يعني عُزيرًا وعيسى
والملائكة فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية لله . **(وَهُمْ يَعْلَمُونَ)** حقيقة ما شهدوا به . وقيل :
إنما نزلت بسبب أن النضر بن الحارث ونفراً من قريش قالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً
فححن نتوئ الملائكة وهم أحق بالشفاعة لنا منه ؛ فأنزل الله **«وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِّ» أى اعتقدوا أن الملائكة أو الأصنام أو الجن أو الشياطين تشفع
لهم ولا شفاعة لأحد يوم القيمة . **(إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِّ)** يعني المؤمنين إذا أذن لهم . قال
ابن عباس : **«إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِّ**» أى شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وقيل :
أى لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يشفع لهم أحد إلا من شهد بالحق ؛ فإن من شهد
بالحق يشفع له ولا يشفع لمشرك . و «إلا» يعني لكن ؛ أى لا ينال المشركون الشفاعة لكن
ينال الشفاعة من شهد بالحق ؛ فهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلًا ، لأن في جملة
«الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الملائكة . ويقال : شفعته وشفعت له ؛ مثل كثنه وكيلت له .
وقد مضى في «البقرة» معنى الشفاعة واشتقاقها فلا معنى لإعادتها . وقيل : **«إِلَّا مَنْ شَهَدَ**
بِالْحَقِّ» إلا من تشهد له الملائكة بأنه كان على الحق في الدنيا ، مع علمهم بذلك منه بأن يكون
الله أخبرهم به ، أو بأن شاهدوه على الإيمان .

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثلاثة .

الثانية — قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ شَهَدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) يدل على معنيين : أحدهما — أن الشفاعة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يعني مع عدم العلم بصحة المقالة . والثاني — أن شرط سائر الشهادات في الحقوق وغيرها أن يكون الشاهد عالما بها . ونحوه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا رأيت مثل الشمس فأشهد وإلا فدع " . وقد مضى في « البقرة » ^(١) .

قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقُوكُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَإِنَّ يُؤْفَكُونَ ^ص_{٦٧}

قوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقُوكُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) أى لا يقتروا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . (فَإِنَّ يُؤْفَكُونَ) أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له . يقال : أَفَكَمْ يَأْفِكُهُ أَفْكَكَ ؟ أى قلبه وصرفه عن الشيء . ومنه قوله تعالى : « قَالُوا أَجَحَّتْنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلهَتِنَا » . وقيل : أى ولئن سألت الملائكة وعيسي « من خلقهم » لقالوا الله . « فَإِنَّ يُؤْفَكُونَ » أى فإن يُؤْفَك هؤلاء في آدعاهم إياهم آلة .

قوله تعالى : وَقِيلَهُ يَرَبَّ إِنَّ هَذُولَاءَ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ^ص_{٦٨}

في « قِيلَهُ » ثلاثة قراءات : النصب ، والبتر ، والرفع . فأما البتر فهو قراءة عاصم وحزة . وبقية السبعة بالنصب . وأما الرفع فهو قراءة الأعرج وقادمة وابن هُرْمَن ومسلم بن جندب . فمن جزمه على معنى : وعنه علم الساعة وعلم قيله . ومن نصب فعل معنى : وعنه علم الساعة وعلم قيله ؛ وهذا اختيار الزجاج . وقال الفراء والأخفش : يجوز أن يكون « قيله » عطفا على قوله « أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرْهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » . قال ابن الأنباري : سأله أبو العباس محمد بن يزيد المبرد بأى شيء تنصب القيل ؟ فقال : أنصبه على « وعنه علم الساعة وعلم قيله » . فمن هذا الوجه لا يحسن الوقف على « تُرْجِعُونَ » ، ولا على « يَعْلَمُونَ » . ويحسن الوقف على « يَكْتَبُونَ » . وأجاز الفراء والأخفش أن ينصب القيل على معنى : لا نسمع سرهم ونجواهم ^(٢) .

(١) راجع ج ٣ ص ٣٨٩ . (٢) آية ٢٢ سورة الأحقاف . (٣) آية ٨٠ من هذه السورة .

(٤) في آية ٨٠ .

وَقِيلَهُ كَمَا ذَكَرْنَا عَنْهُمَا . فَنَّ هَذَا الْوَجْهُ لَا يَحْسَنُ الْوَقْفَ عَلَى « يَكْتَبُونَ » . وَأَجَازَ الْفَرَاءُ
وَالْأَخْفَشُ أَيْضًا : أَنْ يَنْصُبَ عَلَى الْمَصْدَرِ ; كَأَنَّهُ قَالَ : وَقَالَ قِيلَهُ ، وَشَكَا شَكْوَاهُ إِلَى اللَّهِ
عَنْ وَجْلٍ ، كَمَا قَالَ كَعْبَ بْنَ زُهْرَةَ :

تَمَشِي الْوُشَاءُ جَنَابِهَا وَقِيلُهُمُ^(١) * إِنَّكَ يَا بُنَيْتَ أَبِي سُلَيْمَى لَمَقْتُولُ

أَرَادَ : وَيَقُولُنَّ قِيلَهُمْ . وَمِنْ رُفْعِ « قِيلَهُ » فَالْتَّقْدِيرُ : وَعِنْهُ قِيلَهُ ، أَوْ قِيلَهُ مَسْمُوعٌ ، أَوْ قِيلَهُ
هَذَا الْقَوْلُ . الزُّخْشَرِيُّ : وَالَّذِي قَالُوهُ لَيْسَ بِقُوَّى فِي الْمَعْنَى مَعَ وَقْوَعِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ
وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ بِمَا لَا يَحْسَنُ اعْتَرَاضًا وَمَعَ تَنَافُرِ النَّظَمِ . وَأَقْوَى مِنْ ذَلِكَ وَأَوْجَهُ أَنْ يَكُونَ الْجَرْ
وَالنَّصْبُ عَلَى إِضْدَارِ حَرْفِ الْقَسْمِ وَحْدَهُ . وَالرُّفْعُ عَلَى قَوْلِهِمْ : أَيْمَنُ اللَّهُ وَأَمَانَةُ اللَّهِ وَيَمِنُ اللَّهِ
وَلِعُمْرَكَ ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ « إِنْ هُؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ » جَوَابُ الْقَسْمِ ; كَأَنَّهُ قَالَ : وَأَقْسَمَ
بِقِيلَهِ يَارِبَّ ، أَوْ قِيلَهِ يَارِبَّ قَسْمِي ، إِنْ هُؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيُّ : وَيَحْمُوزُ
فِي الْعَرَبِيَّةِ « وَقِيلَهُ » بِالرُّفْعِ ، عَلَى أَنْ تَرْفَعَهُ بِإِنْ هُؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . الْمَهَدِيُّ^(٢) : أَوْ يَكُونُ عَلَى
تَقْدِيرِ وَقِيلَهِ قِيلَهِ يَارِبَّ ؛ خَذْفُ قِيلَهِ الثَّانِي الَّذِي هُوَ خَبْرٌ ، وَمَوْضِعُ « يَارِبَّ » نَصْبٌ بِالْخَبْرِ
الْمُضْمِرِ ، وَلَا يَتَنَعَّمُ ذَلِكَ مِنْ حِيثِ امْتِنَاعِ حَذْفِ بَعْضِ الْمَوْصُولِ وَبَقِيَّ بَعْضِهِ ، لِأَنَّ حَذْفَ
الْقَوْلِ قَدْ كَثُرَ حَتَّى صَارَ بِعِزْلَةِ الْمَذْكُورِ . وَالْهَاءُ فِي « قِيلَهُ » لِعِيسَى ، وَقَيْلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، وَقَدْ جَرَى ذَكْرُهُ إِذَا قَالَ « قُلْ إِنْ كَانَ لِرَحْمَنَ وَلَدٌ » . وَقَرَا أَبُو قَلَابَةَ « يَارِبَّ » بِفَتْحِ
الْبَاءِ . وَالْقَيْلُ مَصْدَرُ الْقَوْلِ ؛ وَمِنْهُ الْخَبْرُ « نَهَى عَنْ قَيْلٍ وَقَالَ » . وَيَقُولُ : قَاتَ قَوْلًا
وَقِيلًا وَقَالًا . وَفِي النِّسَاءِ « وَمَنْ أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ قِيلًا » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

قَالَ قَاتَدَةً : أَمْرَهُ بِالصَّفْحِ عَنْهُمْ ثُمَّ أَمْرَهُ بِقَتْلِهِمْ ؛ فَصَارَ الصَّفْحُ مَنْسُوْخًا بِالسَّيْفِ . وَنَحْوُهُ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « فَاصْفَحْ عَنْهُمْ » أَيْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ . (وَقُلْ سَلَامٌ) أَيْ مَعْرُوفًا ؛ أَيْ
قَلْ لِمَشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ « فَسُوفَ تَعْلَمُونَ » ثُمَّ تُسْخَنُ هَذِهِ فِي سُورَةِ « بَرَاءَةٍ » بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ » الْآيَةُ . وَقَيْلُهُ : هِيَ مُحَكَّمَةٌ لَمْ تُنَسِّخْ . وَقِرَاءَةُ الْعَامَةِ « فَسُوفَ
(١) أَيْ نَاحِيَنَّهَا . (٢) فِي الْأَصْوَلِ : « الْأَوَّلِ » . (٣) آيَةٌ ١٢٢ . (٤) آيَةٌ ٥ .

يعلمون» (بالياء) على أنه خبر من الله تعالى لنبيه بالتهديد . وقرأ نافع وابن عامر «تعلمون» (بالتاء) على أنه من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للشريكين بالتهديد . و «سلام» رفع بإضمار عليكم ؛ قاله الفراء . ومعناه الأمر بتوديعهم بالسلام ، ولم يجعله تحية لهم ؛ حكاها النقاش . وروى شعيب بن الحجاج أنَّه عرف بذلك كيف السلام عليهم ؛ والله أعلم .

سورة الدخان

مكة باتفاق ، إلا قوله تعالى : «إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا»^(١) . وهي سبع وخمسون آية . وقيل تسع . وفي مسنـد التدارـي عن أبي رافع قال : «من قرأ الدخـان في ليلة الجمعة أصبح مغفورـا له وزوجـ من الحورـ العـين» . رفعـه الشـاعـيـ من حـديثـ أبي هـرـيرـةـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ : «من قـرأـ الدـخـانـ فـيـ لـيـلـةـ الـجـمـعـةـ أـصـبـحـ مـغـفـرـاـ لـهـ» . وفي لـفـظـ آخرـ عنـ أـبـيـ هـرـيرـةـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ : «من قـرأـ الدـخـانـ فـيـ لـيـلـةـ الـجـمـعـةـ يـسـتـغـفـرـ لـهـ سـبـعـونـ أـلـفـ مـلـكـ» . وعنـ أـبـيـ أـمـامـةـ قـالـ : سـمـعـتـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـقـولـ : «من قـرأـ حـمـ الدـخـانـ لـيـلـةـ الـجـمـعـةـ أـوـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ بـنـيـ اللهـ لـهـ بـيـتـاـ فـيـ الـجـنـةـ» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَ وَالْكِتَابُ أَلْمِينٌ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ
إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ

إن جعلت «حم» جوابـ القـسمـ تمـ الكلامـ عندـ قولـهـ «المـينـ» ثمـ تـبـدـيـ «إـنـاـ أـنـزلـناـهـ» . وإن جعلـتـ «إـنـاـ كـنـاـ مـنـذـرـينـ» جـوابـ القـسمـ الذـىـ هوـ «الـكـتابـ» وـقـفتـ عـلـىـ «مـنـذـرـينـ» وـابـدـأـتـ «فـيـهـ يـفـرـقـ كـلـ أـنـيـ حـكـيمـ» . وـقـيلـ : الجـوابـ «إـنـاـ أـنـزلـناـهـ» ، وـأـنـكـهـ بـعـضـ التـحـوـيـلـينـ منـ حـيـثـ كـانـ صـفـةـ لـلـقـسـمـ بـهـ ، وـلـاـ تـكـوـنـ صـفـةـ المـقـسـمـ بـهـ جـوابـاـ لـلـقـسـمـ ، وـالـهـاءـ فـيـ «أـنـزلـناـهـ»

(١) آية ١٥ .

للقرآن . ومن قال : أقْسِمْ سَائِرَ الْكُتُبْ فَقُولُهُ «إِنَا أَنْزَلْنَاهُ» كَفَىْ بِهِ عَنْ غَيْرِ الْقُرْآنِ ؛ عَلَى
 ما تَقْدِمُ بِيَانِهِ فِي أَوْلِ «الْزُّخْرُفَ» . وَاللَّيْلَةُ الْمَبَارَكَةُ لَيْلَةُ الْقَدْرِ . وَيَقُولُ : لَيْلَةُ النَّصْفِ مِنْ
 شَعْبَانَ ، وَهَا أَرْبَعَةُ أَسْمَاءٍ : الْلَّيْلَةُ الْمَبَارَكَةُ ، وَلَيْلَةُ الْبَرَاءَةِ ، وَلَيْلَةُ الصَّدَقَ ، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ . وَوَصْفُهَا
 بِالْبَرَكَةِ مَا يَنْزَلُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الْبَرَكَاتِ وَالْحَسَنَاتِ وَالثَّوَابِ . وَرَوَى قَاتِدَةُ عَنْ وَاثِيلَةَ
 أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «أَنْزَلْتَ صَحْفَ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوْلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ وَأَنْزَلْتَ
 التُّورَاةَ لِسِتَّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ وَأَنْزَلْتَ الزُّبُورَ لِثَلَاثَتِيْنِ عَشَرَةَ مِنْ رَمَضَانَ وَأَنْزَلَتِ الْإِنْجِيلَ لِثَلَاثَ
 عَشَرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ وَأَنْزَلَتِ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ» . ثُمَّ قِيلَ : أَنْزَلَ
 الْقُرْآنَ كَلَّهُ إِلَى السَّمَاوَاتِ الدُّنْيَا فِي هَذِهِ الْلَّيْلَةِ . ثُمَّ أَنْزَلَ نَجْمًا تَجْمَعًا فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ عَلَى حَسْبِ اِنْفَاقِ
 الْأَسْبَابِ . وَقِيلَ : كَانَ يَنْزَلُ فِي كُلِّ لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَا يَنْزَلُ فِي سَائِرِ السَّنَةِ . وَقِيلَ كَانَ اِبْتِداَءَ
 الْإِنْزَالِ فِي هَذِهِ الْلَّيْلَةِ . وَقَالَ عَكْرَمَةُ : الْلَّيْلَةُ الْمَبَارَكَةُ هَا هُنَا لَيْلَةُ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ . وَالْأَقْلَى
 أَصْحَحُ لِقُولِهِ تَعَالَى : «إِنَا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» . قَالَ قَاتِدَةُ وَابْنُ زِيدٍ : أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ كَلَّهُ
 فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ أَمْ الْكِتَابِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي سَمَاوَاتِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْلَّيَالِيِّ وَالْأَيَّامِ فِي ثَلَاثَ وَعِشْرِينَ سَنَةً . وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ مُهْفَى فِي «الْبَقْرَةَ»
 (٢) عِنْ قُولِهِ تَعَالَى «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أَنْزَلْنَا فِيهِ الْقُرْآنَ» ، وَيَأْتِي آتِفًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُولُهُ تَعَالَى : فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَغْرِي حَكِيمٌ ﴿٣﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسَ : يُحْكِمُ اللَّهُ أَمْرَ الدُّنْيَا إِلَى قَابِلٍ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَا كَانَ مِنْ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ
 أَوْ رَزْقٍ . وَقَالَهُ قَاتِدَةُ وَمُجَاهِدُ الْحَسْنَ وَغَيْرِهِمْ . وَقِيلَ : إِلَّا الشَّقاءُ وَالسَّعَادَةُ فَإِنَّهُمَا لَا يَتَغَيِّرُانِ ؟
 قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ . قَالَ الْمَهْدُوِيُّ : وَمَعْنَى هَذَا الْقُولُ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلَائِكَةَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ
 الْعَامِ وَلَمْ يَزُلْ ذَلِكَ فِي عَلْمِهِ عَزَّ وَجَلَ . وَقَالَ عَكْرَمَةُ : هِيَ لَيْلَةُ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ يُبَرَّمُ فِيهَا
 أَمْرُ السَّنَةِ وَيُنْسَخُ الْأَحْيَاءُ مِنَ الْأَمْوَاتِ ، وَيُكْتَبُ الْحَاجَةُ فَلَا يَزَادُ فِيهِمْ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ
 أَحَدٌ . وَرَوَى عَمَانُ بْنُ الْمَغِيرَةِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «تَقْطَعُ الْآجَالُ مِنْ شَعْبَانَ

(١) راجع ص ٦١ مِنْ هَذَا الْجَزْءِ . (٢) آيَةٌ ١٨٥ راجع ج ٢ ص ٢٩٠ طبعة ثانية .

إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد نخرج اسمه في الموتى» . وعن النبي صل الله عليه وسلم قال : «إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا لياتها وصوموا نهارها فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول ألا مستغفرة فأغفر له ألا مبتلي فأعافيه ألا مسترزق فأرزقه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر» ذكره الثعلبي . ونخرج الترمذى بمعناه عن عائشة عن النبي صل الله عليه وسلم قال : «إن الله عن وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثರ من عدد شعر غنم كتب» . وفي الباب عن أبي بكر الصديق قال أبو عيسى : حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحجاج بن أرطاه عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة ، سمعت مهدا يضعف هذا الحديث ، وقال : يحيى بن أبي كثير لم يسمع من عروة والحجاج بن أرطاه لم يسمع من يحيى بن أبي كثير .

قلت : وقد ذكر حديث عائشة مطولا صاحب كتاب العروس ، واختار أن الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ليلة النصف من شعبان ، وأنها تسمى ليلة البراءة . وقد ذكرنا قوله والرد عليه في غيره - هذا الموضع ، وأن الصحيح إنما هي ليلة القدر على ما بیناه . روى حاد آبن سلمة قال أخبرنا ربيعة بن كلثوم قال : سأله رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد ، أرأيت ليلة القدر أفي كل رمضان هي؟ قال : أى والذى لا إله إلا هو ، إنها في كل رمضان ، إنها الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله كل خلق وأجل ورثة وعمل إلى مثلها . وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورثة ومطر حتى الجنة؛ يقال : يصح فلان ويصح فلان . وقال في هذه الآية : إنك لنترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى ، وهذه الإبانة لإحكام السنة إنما هي لللائمة الموكلين بأسباب الخلق . وقد ذكرنا هذا المعنى آنفا . وقال القاضى أبو بكر بن العربي : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر . ومنهم من قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع : «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن» فنص على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عين من زمانه الليل ها هنا بقوله «في ليلة مباركة» ؟

فَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْسِيَةَ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ فِي لَيْلَةِ النَّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ حَدِيثٌ يَعْقُولُ عَلَيْهِ لَا فِي فَضْلِهَا وَلَا فِي نُسْخَةِ الْأَجَالِ فِيهَا فَلَا تَنْتَفِعُوا إِلَيْهَا . الزُّخْشِرِيُّ : « وَقَيلَ يَبْدُأُ فِي اسْتِنْسَاخِ ذَلِكَ مِنَ الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي لَيْلَةِ الْبَرَاءَةِ وَيَقْعُدُ الْفَرَاغُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ؛ فَتَدْفَعُ نُسْخَةُ الْأَرْزَاقِ إِلَى مِيكَائِيلَ، وَنُسْخَةُ الْحَرْبِ إِلَى جَبَرِيلَ، وَكَذَلِكَ الْزَّلَازِلُ وَالصَّوَاعِقُ وَالنَّحْسُفُ ؛ وَنُسْخَةُ الْأَعْمَالِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ صَاحِبِ سَماءِ الدُّنْيَا وَهُوَ مَلِكُ عَظِيمٍ؛ وَنُسْخَةُ الْمَصَابِ إِلَى مَلِكِ الْمَوْتِ . وَعَنْ بَعْضِهِمْ يَعْطِي كُلُّ عَامِلٍ بِرَكَاتَ أَعْمَالِهِ؛ فَيُلْقِي عَلَى أَلْسُنَتِ الْخَلْقِ مَدْحَهُ، وَعَلَى قُلُوبِهِمْ هِيَبَتِهِ . وَقَرِئَ « نَفَرَقُ » بِالتَّشْدِيدِ، وَ« يَفْرَقُ » كُلُّ عَلَى بَنَائِهِ لِلْفَاعِلِ وَنَصْبِ « كُلٌّ »؛ وَالْفَارَقُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَرِئَ زِيدُ بْنُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « نَفَرَقُ » بِالنُّونِ . « كُلٌّ أَمْرٌ حَكِيمٌ » كُلٌّ شَأنٌ ذَي حَكْمَةٍ؛ أَمْيَ مَفْعُولٌ عَلَى مَا تَقْضِيهِ الْحَكْمَةُ » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كَانَ مُرْسِلِينَ (١٠٤) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَالِمُ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : (« أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ») قَالَ النَّقَاشُ : الْأَمْرُ هُوَ الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ عِنْدِهِ . وَقَالَ أَبْنَ عِيسَى : هُوَ مَا قَضَاهُ اللَّهُ فِي الْلَّيْلَةِ الْمَبَارَكَةِ مِنْ أَحْوَالِ عِبَادِهِ . وَهُوَ مَصْدِرُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ . وَكَذَلِكَ (« رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ») وَهُمَا عِنْدَ الْأَخْفَشِ حَالَانِ؛ تَقْدِيرُهُمَا : أَنْزَلَنَاهُمَا أَمْرَيْنِ بِهِ وَرَاحِمَيْنِ . الْمَبْرُدُ : « أَمْرًا » فِي مَوْضِعِ الْمَصْدِرِ؛ وَالتَّقْدِيرُ : أَنْزَلَنَاهُمَا إِنْزَالًا . الْفَرَاءُ وَالْزَّجَاجُ : « أَمْرًا » نَصِيبُهُ « يُفْرَقُ »؛ مِثْلُ قَوْلِكُ : يُفْرَقُ فَرْقًا . فَأَمْرٌ بِعَنْتِي فَرْقٌ فِيهِ مَصْدِرٌ؛ مِثْلُ قَوْلِكُ : يُضَرِّبُ ضَرِبًا . وَقَيْلُ : « يَفْرَقُ » يَدْلِلُ عَلَى يَؤْمِرُ ؛ فِيهِ مَصْدِرٌ عَمَلٌ فِيهِ مَا قَبْلَهُ . (« إِنَّا كَانَ مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ») قَالَ الْفَرَاءُ : « رَحْمَةً » مَفْعُولٌ بِ« مُرْسِلِينَ » . وَالرَّجْمَةُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ الْزَّجَاجُ : « رَحْمَةً » مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ؛ أَيْ أَرْسَلَنَاهُ للرَّحْمَةِ . وَقَيْلُ : هِيَ بَدْلٌ مِنْ قَوْلِهِ « أَمْرًا » . وَقَيْلُ : هِيَ مَصْدِرٌ . الزُّخْشِرِيُّ : « أَمْرًا » نَصِيبٌ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ؛ جَعَلَ كُلَّ أَمْرٍ جَزْلًا نَفْمَانِ بَأْنَ وَصَفَهُ بِالْحَكِيمِ، ثُمَّ زَادَهُ جَزَالَةً وَكَسْبَهِ

نخامة بـأـن قال : أـعـنى بـهـذـا الـأـمـرـ أـمـراـ حـاـصـلاـ مـنـ عـنـدـنـاـ ،ـ كـائـنـاـ مـنـ لـدـنـاـ ،ـ وـكـاـ اـقـضـاهـ عـلـىـ وـتـدـيـرـنـاـ .ـ وـفـيـ قـرـاءـةـ زـيـدـ بـنـ عـلـىـ «ـ أـمـرـ مـنـ عـنـدـنـاـ »ـ عـلـىـ هـوـ أـمـرـ ،ـ وـهـىـ تـنـصـرـ اـنـتـصـابـهـ عـلـىـ الـاـخـصـاصـ .ـ وـقـرـأـ الـحـسـنـ «ـ رـحـمـةـ »ـ عـلـىـ تـلـكـ هـىـ رـحـمـةـ ،ـ وـهـىـ تـنـصـرـ اـنـتـصـابـهـ بـأـنـهـ مـفـعـولـ لـهـ .ـ

قوله تعالى : **رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُ مُؤْمِنَ**
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمْتَدِّ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ
الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍ يَلْعَبُونَ

قوله تعالى : ((**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) فـرأـ الـكـوـفـيـوـنـ «ـ رـبـ»ـ بـالـجـرـ .ـ الـبـاقـوـنـ بـالـرـفعـ ؛ـ رـدـاـ عـلـىـ قـوـلـهـ «ـ إـنـهـ هـوـ السـمـيعـ الـعـلـيمـ»ـ .ـ وـإـنـ شـئـتـ عـلـىـ الـابـتـداءـ ،ـ وـالـجـرـ لـإـلـهـ إـلـاـ هـوـ .ـ أـوـ يـكـونـ خـبـرـ اـبـتـداءـ مـحـذـوفـ ؟ـ تـقـدـيرـهـ :ـ هـوـ رـبـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ .ـ وـالـجـرـ عـلـىـ الـبـدـلـ مـنـ ((**رـبـكـ**) وـكـذـلـكـ ((**رـبـ آبـائـكـ الـأـوـلـينـ**) بـالـجـرـ فـيـهـمـاـ) رـوـاهـ الشـيـرـيـ (١) عـنـ الـكـسـائـيـ .ـ الـبـاقـوـنـ بـالـرـفعـ عـلـىـ الـاسـتـئـافـ .ـ ثـمـ يـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ هـذـاـ الـخـطـابـ مـعـ الـمـعـرـفـ بـأـنـ اللـهـ خـلـقـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ ؛ـ أـىـ إـنـ كـنـتـ مـوـقـيـنـ بـهـ فـأـعـلـمـواـ أـنـ لـهـ أـنـ يـرـسـلـ الرـسـلـ ،ـ وـيـنـزـلـ الـكـتـبـ .ـ وـيـحـوـزـ أـنـ يـكـونـ الـخـطـابـ مـعـ مـنـ لـاـ يـعـرـفـ أـنـ الـخـالـقـ ؛ـ أـىـ يـبـغـيـ أـنـ يـعـرـفـوـاـ أـنـ الـخـالـقـ ،ـ وـأـنـ الـذـىـ يـحـيـيـ وـيـمـيـتـ .ـ وـقـيـلـ :ـ الـمـوـقـنـ هـاـ هـاـ هـوـ الـذـىـ يـرـيدـ الـيـقـيـنـ وـيـطـلـبـهـ ؛ـ كـاـ تـقـوـلـ :ـ فـلـاـ يـحـدـدـ ؛ـ أـىـ يـرـيدـ نـجـداـ .ـ وـيـمـيـمـ ؛ـ أـىـ يـرـيدـ تـهـامـةـ .ـ ((**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمْتَدِّ**) أـىـ هـوـ خـالـقـ الـعـالـمـ ؛ـ فـلـاـ يـحـوـزـ أـنـ يـشـرـكـ بـهـ غـيـرـهـ مـنـ لـاـ يـقـدـرـ عـلـىـ خـلـقـ شـيـءـ)ـ .ـ وـ((**هُوَ يَحْيِي وَيُمْتَدِّ**) أـىـ يـحـيـيـ الـأـمـوـاتـ وـيـمـيـتـ الـأـحـيـاءـ .ـ ((**رـبـكـ وـرـبـ آبـائـكـ الـأـوـلـينـ**) أـىـ مـالـكـ مـوـالـكـ مـنـ تـقـدـمـ مـنـكـ .ـ وـاتـقـواـ تـكـذـيبـ مـهـدـ لـهـاـ يـنـزـلـ بـكـ العـذـابـ .ـ ((**بـلـ هـمـ فـيـ شـكـ يـلـعـبـوـنـ**) أـىـ لـيـسـوـاـ عـلـىـ يـقـيـنـ فـيـاـ يـظـهـرـوـنـهـ مـنـ الـإـيمـانـ وـالـإـفـرـارـ فـيـ قـوـلـهـمـ :ـ إـنـ اللـهـ خـالـقـهـمـ ؛ـ وـإـنـاـ

(١) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الجازى، كان جازى يام اننقل الى شيرز (شكير، بلدة قرب حماة) وأقام بها الى أن مات فنسب اليها، أخذ القراءة عرضا وسماها من الكسائي، وله عنه افرادات . (غاية النهاية)

يقولونه لتقليد آباءِهم من غير علم فهم في شك ، وإن توهّموا أنهم مؤمنون فهم يلعبون في دينهم بما يعنّ لهم من غير حجة . وقيل : « يلعبون » يضيّفون إلى النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم الافتداء استهزاء ، ويقال لمن أعرض عن الموعظ : لاعب ، وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته .

قوله تعالى : فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (٦٩) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابُ الْيَمِينِ

قوله تعالى : « فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ » ارتفع معناه انتظري يا مهد بهؤلاء الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين ، قاله قنادة . وقيل : معناه احفظوا قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين ، ولذلك سمى الحافظ رقيبا . وفي الدخان أقوال ثلاثة : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجيئ بعد ، وأنه يكث في الأرض أربعين يوما يلاً ما بين السماء والأرض ، فاما المؤمن فيصيّبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيتنقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيمة . ومن قال إن الدخان لم يأت بعد : على و ابن عباس و ابن عمر وأبو هريرة وزيد بن علي والحسن و ابن أبي مليكة وغيرهم . وروى أبو سعيد الخدري مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيمة ، يأخذ المؤمن منه ، كالزكمة ، وينفع الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه ، ذكره الماوردي . وفي صحيح مسلم عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسييد الغفارى قال : أطّع النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال : « ما تذكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة ؟ قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات – فذكر – الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم وخروج ياجوج وماجوج وثلاثة خسوف خسوف بالشرق وخسوف بالغرب وخسوف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من آسمان تطرد الناس إلى محشرهم » . في روایة عن حذيفة « إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسوف بالشرق وخسوف بالغرب وخسوف في جزيرة العرب والدخان والدجال »

وَدَابَةُ الْأَرْضِ وَيَاجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَطَلْوُعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْدَةِ عَدَنَ تُرْحَلُ النَّاسُ». وَنَرْجِهُ التَّعْلِيَّ أَيْضًا عَنْ حُذْيَفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْلَى الْآيَاتِ نَرْوِجًا الدَّجَالَ وَنَزُولًا عِيسَى بْنَ مُرْسَى وَنَارًا تَخْرُجُ مِنْ قَعْدَةِ أَبِينَ تَسْوِقُ النَّاسَ إِلَى الْخَشْرِ تَبَيَّتْ مَعْهُمْ حِيثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعْهُمْ إِذَا قَالُوا وَتَصْبِحُ مَعْهُمْ إِذَا أَصْبَحُوا وَمُسْئِي مَعْهُمْ إِذَا أَمْسَوْا».

قَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا الدَّخَانُ؟ قَالَ هَذِهِ الْآيَةُ: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ» يَمْلأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَكْثُرُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلِيَلَةً أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَصْبِيَهُ مِنْهُ شَبَابُ الزَّكَامِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ السَّكَانِ يَخْرُجُ الدَّخَانُ مِنْ فَمِهِ وَمِنْ خَرْجِهِ وَعَيْنِيهِ وَأَذْنِيهِ وَدَرْبِهِ».

فَهَذَا قَوْلٌ . الْقَوْلُ الثَّانِي — أَنَّ الدَّخَانَ هُوَ مَا أَصَابَ قَرِيشًا مِنَ الْجَوْعِ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ يَرَى بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ دَخَانًا؛ قَالَهُ ابْنُ مُسْعُودٍ . قَالَ: وَقَدْ كَشَفَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَلَوْ كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكْشِفْهُ عَنْهُمْ . وَالْحَدِيثُ عَنْهُ بِهَذَا فِي صَحِيفَةِ الْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمِ وَالْتَّرمِذِيِّ . قَالَ الْبَخَارِيُّ: حَدَّثَنِي يَحْيَى قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو مَعاوِيَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّمَا كَانَ هَذَا لِأَنَّ قَرِيشًا لَمَا اسْتَعْصَمْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُعَا عَلَيْهِمْ بَسْنَيْنِ كَسْنَيْنِ يُوسُفَ، فَأَصَابَهُمْ حَقْطٌ وَجَهَدٌ حَتَّى أَكَلُوا الْعَظَامَ، بَفْعَلِ الرَّجُلِ يَسْتَنْظِرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهْيَةَ الدَّخَانِ مِنَ الْجَهَدِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

«فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابُ أَلِيمٍ» . قَالَ: فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَسْقِ اللَّهَ لِمُضَرِّ فَإِنَّمَا قَدْ هَلَكَتْ . قَالَ:

«لُمْضَرٌ! إِنَّكَ بِلَحْرِيَّ» . فَاسْتَسْقَى فَسُقُوا؛ فَنَزَّلَتْ: «إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» . فَلَمَّا أَصَابَهُمُ الْرَّفَاهِيَّةَ عَادُوا إِلَى حَالِهِمْ حِينَ أَصَابَهُمُ الْرَّفَاهِيَّةَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبُرَى إِنَّا مُتَقْمِمُونَ» . قَالَ: يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ . قَالَ أَبُو عَبِيدَةَ: وَالْدَّخَانُ الْجَدْبُ . الْقُتْبَى*: سُمَّيَ دَخَانًا لِبَسِ الْأَرْضِ مِنْهُ حِينَ يَرْتَفِعُ مِنْهَا كَالْدَخَانِ . الْقَوْلُ الثَّالِثُ — إِنَّهُ يَوْمُ فَتحِ مَكَّةَ لَمَّا جَهَتِ السَّمَاءُ الْعَبْرَةُ؛ قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجُ . (يَغْشَى النَّاسَ) فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِلْدَّخَانِ، فَإِنَّ كَانَ قَدْ مَضِيَ عَلَى مَا قَالَ ابْنُ مُسْعُودٍ فَهُوَ خَاصٌ بِالْمُشَرِّكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَإِنَّ كَانَ مِنْ

أشراط الساعة فهو عام على ما تقدم . (هَذَا عَذَابُ أَلِيمٌ) أى يقول الله لهم : « هذا عذاب أليم » . فن قال : إن الدخان قد مضى فقوله : « هذا عذاب أليم » حكاية حال ماضية ، ومن جعله مستقبلا فهو حكاية حال آتية . وقيل : « هذا » بمعنى ذلك . وقيل : أى يقول الناس لذلك الدخان : « هَذَا عَذَابُ أَلِيمٌ » . وقيل : هو إخبار عن دنو الأمر ؛ كما تقول : هذا الشتاء فأعد له .

قوله تعالى : رَبَّنَا آكِشِفٌ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾
أى يقولون ذلك ؛ أكشف عن العذاب فـ « إِنَّا مُؤْمِنُونَ » ؛ أى نؤمن بذلك إن كشفته عنا . قيل : إن قريشاً أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كشف الله عنا هذا العذاب أسلمنا ، ثم نقضوا هذا القول . قال قادة : « العذاب » هنا الدخان . وقيل : الجوع ؛ حكاية النقاش .

قلت : ولا تناقض ؛ فإن الدخان لم يكن إلا من الجوع الذي أصابهم ؛ على ما تقدم . وقد يقال للجوع والقيحط : الدخان ؛ ليس الأرض في سنة الحدب وارتفاع العبار بسبب قلة الأمطار ؛ وهذا يقال لسنة الحدب : الغراء . وقيل : إن العذاب هنا الناج . قال الماوردي : وهذا لا وجه له ؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة أو في أهل مكة ، ولم تكن مكة من بلاد الناج ؛ غير أنه مقول فحكياته .

قوله تعالى : أَئِ هُمْ أَلَذِكْرٍ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعْلِمٌ مَّجْنُونٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (أَئِ هُمْ أَلَذِكْرٍ) أى من أين يكون لهم التذكرة والانتهاز عند حلول العذاب . (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ) يبين لهم الحق ، والله ذكرى والله ذكر واحد . قاله البخاري . (ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ) أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتغطون والله أبعدهم من الانتهاز والتذكرة بعد توليهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم آياته . وقيل : أى أى ينفعهم

قولهم : «إِنَا مُؤْمِنُونَ» بعد ظهور العذاب غداً أو بعد ظهور أعلام الساعة ، فقد صارت المعارف ضرورية . وهذا إذا جعلت الدخان آية من قبة . ((وَقَالُوا مَعْلُومٌ مَجْنُونٌ)) أى علمه بشر أو علمه الكهنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

قوله تعالى : إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَادِدُونَ (٤٧)

قوله تعالى : ((إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا)) أى وقتاً قليلاً ، وعد أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً ؛ أى في زمان قليل ليعلم أنهم لا يفون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ؛ قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم عادوا إلى تكذيبه . ومن قال : إن الدخان متظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . ومن قال هذا في القيامة قال : أى لو كشفنا عنكم العذاب لعدتم إلى الكفر . وقيل : معنى ((إِنَّكُمْ عَادِدُونَ)) إلينا ، أى مبعوثون بعد الموت . وقيل : المعنى «إِنَّكُمْ عَادِدُونَ» إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

قوله تعالى : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (٤٨)

((يَوْمَ)) محول على مادل عليه ((مُنْتَقِمُونَ)) ؛ أى ننتقم منهم يوم بطش . وأبعده بعض التحويين بسبب أن ما بعد «إن» لا يفسر ما قبلها . وقيل : إن العامل فيه «منتقمون» . وهو بعيد أيضاً لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها . ولا يحسن تعليقه بقوله : «عائدون» ولا بقوله : «إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابِ» ؛ إذ ليس المعنى عليه . ويجوز نصبه بإضمار فعل ؛ كأنه قال : ذكرهم أو آذك . ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدون ، فإذا عدتم أنتقم منكم يوم بطش البطشة الكبرى . ولهذا وصل هذا بقصة فرعون ، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب ، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا . وقيل : «إِنَّا كَاسِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَادِدُونَ» كلام تام . ثم ابتدأ «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» أى ننتقم من جميع الكفار . وقيل : المعنى وارتفع الدخان وارتقب يوم بطش ، خذف واو العطف ؛

كما تقول : أتق النار أتق العذاب . و (الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى) في قول ابن مسعود : يوم بدر . وهو قول ابن عباس وأبي بن كعب ومجاحد والضحاك . وقيل : عذاب جهنم يوم القيمة ، قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً ، واختاره الرجاج . وقيل : دخان يقع في الدنيا ، أو جوع أو قحط يقع قبل يوم القيمة . المأوري (١) : ويحتمل أنها قيام الساعة ، لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا . ويقال : انتقم الله منه ، أى عاقبه . والاسم منه النّقمة والجمع النّقمات . وقيل بالفرق بين النّقمة والعقوبة ، فالعقوبة بعد المعصية لأنّها من العاقبة . والنّقمة قد تكون قبلها ، قاله ابن عباس . وقيل : العقوبة ما تقدّرت والانتقام غير مقدّر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾
أى آبتنيناهم . ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة . والمعنى : عاملناهم معاملة الخبراء
بعثة موسيٍ إليهم فكذبوا فأهلكوا ، فهكذا أ فعل بأعدائهم يا محمد إن لم يؤمنوا . وقيل : فتناهم
عذبناهم بالفرق . وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : ولقد جاء آل فرعون رسول كريم
وفتناهم ، أى أغرقناهم ، لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل . والواو لترتبط . ومعنى
(كَرِيمٌ) أى كريم في قومه . وقيل : كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح . وقال الفراء : كريم
على ربّه إذ اختصه بالنّبوة وإسماع الكلام .

قوله تعالى : أَنْ أَدْوَا إِلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾
وَأَنْ لَا تَعْلُوْ عَلَىٰ اللَّهِ إِنِّي أَنَا إِلَيْكُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (أَنْ أَدْوَا إِلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ) قال ابن عباس : المعنى جاءهم فقال اتبعوني .
ف « عِبَادَ اللَّهِ » منادي . وقال مجاهد : المعنى أرسلوا معي عباد الله وأطلقوهم من العذاب .
ف « عِبَادَ اللَّهِ » على هذا مفعول . وقيل : المعنى أدوا إلى سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربّي .
(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أى أمين على الوحي فأقبلوا نصحي . وقيل : أمين على ما أستأديه

(١) في كتب اللغة : « النّقمة بالكسر والنّفتح وكفرحة جمع نقم كلام وعنب وكلمات » .

منكم فلا أخون فيه . ((وَالآتَيْلُوا عَلَى اللَّهِ)) أى لا تستكروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته . وقال قتادة : لا تبغوا على الله . ابن عباس : لا تفتروا على الله . والفرق بين البغى والافراء أن البغى بالفعل والافراء بالقول . وقال ابن جریح : لا تعظُّموا على الله . يحيى بن سلام : لا تستكروا على عبادة الله . والفرق بين التعظيم والاستكبار أن التعظيم تطاول المقتدر ، والاستكبار ترفع المحتقر ، ذكره الماوردى . ((إِنَّ آتَيْكُمْ بِسْلَاطَانَ مُبِينٍ)) قال قتادة : بعد ذر بين . وقال يحيى بن سلام : بحجة بيته . والمعنى واحد ؛ أى برهان بين .

قوله تعالى : وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعدوه بالقتل فاستجبار بالله . قال قتادة : «ترجمون» بالمحارة . وقال ابن عباس : تشنمون ؟ فتقولوا ساحر كذاب . وأظهر الذال من «عذت» نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ويعقوب . وأدغم الباقون . والإدغام طلبا للتحفيف ، والإظهار على الأصل . ثم قيل : إنني عذت بالله فيما مضى ؛ لأن الله وعده فقال : «فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكَا» . وقيل : إنني أعوذ ، كما تقول : نشدتك بالله ، وأقسمت عليك بالله ؛ أى أقسم .

قوله تعالى : وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَرِلُونِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ((وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي)) أى إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني ؛ فاللام في «لي» لام أجل . وقيل : أى وإن لم تؤمنوا بي ؛ كقوله : «فَأَمَنَ لَهُ لُوطٌ» ^(٢) أى به . ((فَأَعْتَرِلُونِ)) أى دعوني كفافاً لا لي ولا على ؛ فالله مقاتل . وقيل : أى كونوا بمعزل مني وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا . وقيل : نخلوا سبيل وكفوا عن أذاء . والمعنى متقارب ، والله أعلم .

قوله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَنُولَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) آية ٣٥ سورة القصص . (٢) آية ٢٦ سورة العنكبوت . (٣) أى مكتوفاً عن شرك .

قوله تعالى : «فَدَعَا رَبُّهُ فِيهِ حَذْفٍ ، أَىٰ فَكَفَرُوا فَدَعَا رَبَّهُ . (أَنَّ هَؤُلَاءِ) بفتح «أَنَّ» أَىٰ بَأْنَ هَؤُلَاءِ . (قَوْمٌ مُجْرِمُونَ) أَىٰ مُشْرِكُونَ ، قَدْ امْتَنَعُوا مِنْ إِطْلَاقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِنِ الْإِيمَانِ .

قوله تعالى : فَاسْرِيْبِعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (٢٧)

فيه مسائلات :

الأولى — قوله تعالى : (فَاسْرِيْبِعَادِي لَيْلًا) أَىٰ فَاجْبَنَا دُعَاءَهُ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ أَسْرِيْبِعَادِي ؛ أَىٰ مِنْ آمِنَ بِاللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . (لَيْلًا) أَىٰ قَبْلَ الصَّبَاحِ . (إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ) وَقَرَا أَهْلُ الْجَزَارِ «فَاسْرِيْبِعَادِي» بِوَصْلِ الْأَلْفِ . وَكَذَلِكَ أَبْنَ كَثِيرٍ ؛ مِنْ سَرِيْبِيْرِيْبِعَادِي . الْبَاقِفُونَ «فَاسْرِيْبِعَادِي» بِالْقُطْعِ ؛ مِنْ أَسْرِيْبِعَادِي . وَقَدْ تَقْدَمَ . وَتَقْتَدِمُ خَرْجُوْنَ فَرْعَوْنَ وَرَاءَ مُوسَى فِي «الْبَقَرَةِ وَالْأَعْرَافِ» وَطَهُ وَالْشَّعْرَاءُ وَيُونُسُ وَإِغْرِيْبِيْرِيْبِعَادِي وَإِنْجَاءَ مُوسَى ؛ فَلَا مَعْنَى لِلِّإِعَادَةِ .

الثانية — أَسْرِيْبِعَادِي عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْخَرْجِ لِيَلَّا . وَسِيرُ الْلَّيلِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ خَوْفٍ ، وَالخُوفُ يَكُونُ بِوَجْهِيْنِ : إِمَامًا مِنَ الْعَدُوِّ فَيَتَّخِذُ الْلَّيْلَ سِرْتًا مُسْدِلًا ؛ فَهُوَ مِنْ أَسْتَارِ اللَّهِ تَعَالَى . وَإِمَامًا مِنْ خَوْفِ الْمُشْقَةِ عَلَى الدَّوَابِ وَالْأَبْدَانِ بَحْرًا أَوْ جَدْبًا ؛ فَيَتَّخِذُ السَّرَّى مُصْلَحَةً مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِرِيْبِعَادِي وَيُدْرِجُ وَيَتَرْفَقُ وَيَسْتَعْجِلُ ، بِحَسْبِ الْحَاجَةِ وَمَا تَقْتَضِيهِ الْمُصْلَحَةُ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْحِصْبِ فَاعْطُوْنَ الْإِبْلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَبَادِرُوهَا بِهَا تَقْيِيْهَا» . وَقَدْ مَضَى فِي أَوَّلِ «النَّحْلَ» ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

قوله تعالى : وَأَتَرْكِ الْبَحْرَ رَهَوْا إِنْهُمْ جُنْدٌ مَغْرُقُونَ (٢٨)

(١) راجع ج ٩ ص ٧٩ (٢) راجع ج ١ ص ٣٨٩ وَمَا بَعْدُهَا . وَجَ ٨ ص ٣٧٧ وَمَا بَعْدُهَا . وَجَ ١١ ص ٢٢٧ وَمَا بَعْدُهَا . وَجَ ١٣ ص ١٠٥ وَمَا بَعْدُهَا . (٣) قوله : «يَسِرِيْبِعَادِي» أَىٰ سِيرِ عَامَةِ الْلَّيْلِ . وَ«يُدْرِجُ» أَىٰ سَارَ مِنْ أَوَّلِ الْلَّيْلِ . وَرَبِّا اسْتَعْمَلَ سِيرِ آتَرِ الْلَّيْلِ . (٤) قوله : «فِي السَّنَةِ» أَىٰ فِي الْقِحْطِ وَالْنَّدَامِ بَاتِ الْأَرْضِ مِنْ يَدِهَا . وَالْقَنْ (يَكْسِرُ الْلَّوْنَ وَسَكُونُ الْقَافِ) هُوَ الْمِنْحَ ؛ وَمِنْهُ أَسْرَعُوا فِي السِّيرِ الْإِبْلِ لِتَصْلُوا إِلَى الْمَقْصِدِ وَفِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ قَوْتِهَا . (٥) راجع ج ١٠ ص ٧٣

قال ابن عباس : (رَهْوَا) أى طريقاً . وقاله كعب والحسن . وعن ابن عباس أيضاً سنتاً . الضحاك والربيع : سهلاً . عكرمة : يَسَّاً ، لقوله : « فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَسَّاً » . وقيل : مفترقاً . مجاهد : منفرجاً . عنه يابساً . عنه ساكناً . وهو المعروف في اللغة . وقال قتادة والمرؤي . وقال غيرهما : منفرجاً . وقال ابن عرفة : وهو يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما ، لأنه إذا سكن جريه انفراج . وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفراج لموسى عليه السلام . والرَّهُو عند العرب : الساكن ؛ يقال : جاءت الخيل رَهْوَا ؛ أى ساكنة . قال :

(١) والخَيْلَ تَمْزَعَ رَهْوَا فِي أَعْتَمَ * كَالْطَّيْرِ تَجْوُو مِنَ الشُّوْبُوبِ ذِي الْبَرِ
الجوهرى : ويقال أفعل ذلك رَهْوَا ؛ أى ساكن على هينتك . وعيش راه ؛ أى ساكن رافقه .
وتحمس راه ؛ إذا كان سهلاً . ورها البحر أى سكن . وقال أبو عبيد : رها بين رجاله يرهو
رَهْوَا أى فتح ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوَا » . والرَّهُو : السير السهل ؛ يقال :
جاءت الخيل رهوا . قال ابن الأعرابى : رها يرهو في السير أى رفق . قال القطامي
في نعت الركاب :

يَمِشِينَ رَهْوَا فَلَا الأَعْجَازُ خَادِلَةُ * لَا الصَّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَسْكِلُ
والرَّهُو والرَّهُوة : المكان المرتفع ، والمنخفض أيضاً يجتمع فيه الماء ؛ وهو من الأضداد .
وقال أبو عبيد : الرَّهُو : الجَوْبَةُ تكون في مَحَلَّةِ القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره . وفي الحديث
أنه قضى أن ”لا شفعة في فناء ولا طريق ولا منقبة ولا رمح ولا رهو“ . والجمع رهاء .
والرَّهُو : المرأة الواسعة الْهَنِّ ؛ حكاه النَّضْرَبُ شَمَيْلٌ . والرَّهُو : ضرب من الطير ؛ ويقال :

(١) البيت للتابعي الذبياني . و « تَمْزَعْ » : تمرأ سريعاً . وقد وردت هذه الكلمة في الأصل محرفة ؛ ففي بعضها « تَمْزَعْ » بالراء والخاء . وفي البعض الآخر : « تَمْزَعْ » بالراء والعين . وبروى : « غرباً » بدل « رهوا »
أى حدة . و « الشُّوْبُوبِ » : السحاب العظيم القطر . (٢) الْهَنِّ (بالكسر) : السكينة والوقار .
(٣) الفناء : فناء الدار ، وهو ما امتد منها من جوانبها . والمنقبة : هي الطريق بين الدارين . وتأيل :
هو الطريق الذي يملأ أنساز الأرض . والرَّيْحُ (بالضم) : ناحية البيت من ورائه ؛ وربما كان فضاء لا بناء فيه .

هو الْكُرْكِيْ . قال الْمَهْرُوْيِ : ويحوز أن يكون «رَهْوَا» من نعت موسى – وقاله القشيري – أى سِرْ سَاكَا عَلَى هِينَتِك ؟ فالرَّهُو من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر ، وعلى الأول هو من نعت البحر ؛ أى أتركه ساكانا هو قد انفرق فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر لما قطعه بعصاه حتى يلتئم ، وخالف أن يتبعه فرعون فقيل له هذا . وقيل : ليس الرَّهُو من السكون بل هو الفرجة بين الشَّيْئَيْن ؟ يقال : رَهَا ما بين الرجلين أى فرج . فقوله : «رَهْوَا» أى منفرجا . وقال الليث : الرَّهُو مشى في سكون ؛ يقال : رها يرهو رَهْوَا فهو راه . وعيش راه : وادع حافظ . وأ فعل ذلك سَهْوَا رَهْوَا ؛ أى ساكانا بغير شدة . وقد ذكرناه آنفا . (إِنَّمَا) أى إن فرعون وقومه . ((جَنْدٌ مُغْرَقُونَ)) أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه .

قوله تعالى : كُنْ تَرْكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ (٢٧) وَزَرْوَعٍ وَمَقَامِ
كَرِيمٍ (٢٨) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ (٢٩)

قوله تعالى : (كُنْ تَرْكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ . وَزَرْوَعٍ وَمَقَامِ كَرِيمٍ) (كُنْ) للتکثير . وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء» مستوفٍ . (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ) النَّعْمة (بالفتح) التَّنْعِيم ؛ يقال : نعمه الله وناعمه فتنعم . وأمرأة نعمة ومنعمة ؛ بمعنى . والنَّعْمة (بالكسر) الْيَدُ والصَّيْنِيَّة والمِنَّة وما أنعم به عليك . وكذلك النَّعْمَى . فإن فتح النون مددت وقلت : النَّعْمَى . والنَّعِيم مثله . وفلان واسع النَّعْمة ؛ أى واسع المال . جمعيه عن الجوهري . وقال ابن عمر : المراد بالنَّعْمة نيل مصر . ابن هليعة : الفيوم . ابن زياد : أرض مصر لكثرة خيرها . وقيل : ما كانوا فيه من السُّعَة والدَّعَة . وقد يقال : نعمة ونعمة (فتح النون وكسرها) ؛ حكاه الماوردي . قال : وفي الفرق بينهما وجهان : أحدهما – أنها بكسر النون في المِلْك ، وبفتحها في الْبَدَن والدِّين ؛ قاله التَّضْرِيز شَمِيل . الثاني – أنها بالكسر من المِنَّة وهو الإِفْضَال والعطَيَّة ، وبالفتح من التَّنْعِيم وهو سَمَة العيش والراحة ؛ قاله ابن زياد .

(١) راجع ج ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

قلت : هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه . وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشہب والأعرج وأبو جعفر وشیبة « فَكِهِين » بغير ألف ؛ ومعناه أشرين بطرین . قال الجوهري : فَكِهِ الرجل (بالكسر) فهو فَكِه إذا كان طيّب النفس مزاجا . والفِكَه أيضاً الأشر الباطر . وقرئ « وَنَعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَكِهِين » أى أشرين بطرین . و « فَاكِهِين » أى ناعمين . القشيري : « فَاكِهِين » لا هين مازحين ؛ يقال : إنه لفا كه أى مزاج . وفيه فُكاهة أى مزاج . التعليّ : وهم لغتان كالخاذر والخَذِير ، والفاره والفرَّه . وقيل : إن الفاكه هو المستمع بأنواع اللذة كما يمتع الآكل بأنواع الفاكهة . والفاكهة : فضل عن القوت الذي لا بد منه .

قوله تعالى : كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)

قال الزجاج : أى الأمر كذلك ؛ فيوقف على « كذلك » . وقيل : إن الكاف في موصع نصب ، على تقدير نفعل فعلا كذلك بمن نريد إهلاكه . وقال الكلبي : « كذلك » أفعال من عصاني . وقيل : « كذلك » كان أمرهم فأهلكوا . ((وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِين)) يعني بني إسرائيل ، ملتهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين ، فصاروا لها وارثين ؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث . ونظيره « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْفَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » الآية .

قوله تعالى : فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)

قوله تعالى : ((فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)) أى لکفرهم . ((وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ)) أى مؤخرین بالغرق . وكانت العرب تقول عند موته السيد منهم : بكث له السماء والأرض ؛ أى عمت مصيبته الأشياء حتى بكثه السماء والأرض والريح والبرق ، وبكته الليالي الشاتيات .

قال الشاعر :

(١) آية ١٣٧ سورة الأعراف .

(١) فالريح تبكي شجوانها * والبرق يلمع في الغامه

وقال آخر :

والشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمراء

وقالت الخارجيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجتمع على ابن طريف

وذلك على سبيل التثليل والتخيل مبالغة في وجوب الحزوع والبكاء عليه . والمعنى أنهم

هلكوا فلم تعظم مصيبيتهم ولم يوجد لهم فقد . وقيل : في الكلام إضمار ؛ أى ما بك عليهم

أهل السماء والأرض من الملائكة ؛ كقوله تعالى : « وأسائل القرية » بل سرروا بهلاكهم ؟

قاله الحسن . وروى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

” ما من مؤمن إلا وله في السماء باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه كلامه وعمله

فإذا مات فقداه فبكيًا عليه - ثم تلا - « ما بكت عليهم السماء والأرض » . يعني أنهم لم ي عملوا على

الأرض عملاً صالحًا تبكي عليهم لأجله ، ولا صعيد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي فقد ذلك .

وقال مجاهد : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً . قال أبو يحيى : فعجبت

من قوله فقال : أتعجب ! وما للأرض لا تبكي على عبد يعمُرها بالركوع والسجود !

وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيما دوى - كدوى النحل ! . وقال علي وابن

عباس رضي الله عنهما : إنه يبكي عليه مصلحة من الأرض ومصلحة عمله من السماء . وقد يرى

الآية على هذا : فما بكت عليهم مصاعد عملهم من السماء ولا مواضع عبادتهم من الأرض .

وهو معنى قول سعيد بن جبیر . وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه : أحدها أنه كالمعروف

من بكاء الحيوان . ويشبهه أن يكون قول مجاهد . وقال شریح الحضرمي قال النبي صلى الله عليه وسلم :

” إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء يوم القيمة -

(١) البيت ليزيد بن مفرغ الحميري . وقد ورد هذا البيت في الأصول محرفاً ؛ والتصويب عن وفيات الأعيان

وشرح الكامل . (٢) هو جبیر . (٣) الخارجيه هي ليل بنت طريف الشيباني رضي أخاها الوليد

ابن طريف ؛ وكان رأس الموارج وأشدهم بأساً وصولة .

قيل : من هم يارسول الله؟ قال — هم الذين إذا فسد الناس صلحوها — ثم قال — ألا لا غُرْبة على مؤمن وما مات مؤمن في غُرْبة غائباً عنه بوأكيه إلا بكت عليه السماء والأرض — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — « مَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » — ثم قال — ألا إنهم لا يبكيان على الكافر » .

قالت : وذكر أبو نعيم محمد بن معمر قال : حدثنا أبو شعيب الحزاني قال حدثنا يحيى بن عبد الله قال حدثنا الأوزاعي قال حدثني عطاء الخراساني قال : ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيمة وبكت عليه يوم يموت . وقيل : بكاؤهما حمرة أطرافهما ، قاله علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — وعطاء والستى والترمذى محمد ابن علي وحكاه عن الحسن . قال الستى : لما قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكثرة عليه السماء ، وبكاؤها حرمتها . وحكي جرير عن يزيد بن أبي زياد قال : لما قُتل الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما احتجله آفاق السماء أربعة أشهر . قال يزيد : وأحرارها بكاؤها . وقال محمد بن سيرين : أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشفق لم تكن حتى قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما . وقال سليمان القاضى : مُطرنا دمًا يوم قُتل الحسين .

قالت : روى الدارقطنى من حديث مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الشفق الحمرة " . وعن عبادة بن الصامت وشداد ابن أوس قالا : الشفق شفقان ، الحمرة والبياض ، فإذا غابت الحمرة حللت الصلاة . وعن أبي هريرة قال : الشفق الحمرة . وهذا يرد ما حكاه ابن سيرين . وقد تقدم في « سبحان » عن قترة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكرياء والحسين بن علي ، وحرمتها بكاؤها . وقال محمد بن علي الترمذى : البكاء إدرار الشىء فإذا أدرت العين بما فيها قيل بكت ، وإذا أدرت السماء بحرمتها قيل بكت ، وإذا أدرت الأرض بغيرتها قيل بكت ، لأن المؤمن نور ومعه نور الله ، فالأرض مضيئة بنوره وإن غاب عن عينيك ، فإن فقدت نور المؤمن اغترت فدررت

باغبارها ، لأنها كانت غراء بخطايا أهل الشرك ، وإنما صارت مضيئه بنور المؤمن ؛ فإذا قبض المؤمن منها دَرَتْ بغيرتها . وقال أنس : لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي - صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء كل شيء ، فلما كان اليوم الذي قبض فيه أظلم كل شيء ، وإنما لفني دفنه ما نقضنا الأيدي منه حتى أنكرنا قلوبنا . وأما بكاء النساء فمررتها كما قال الحسن .
وقال نصر بن عاصم : إن أول الآيات حُمْرَة تظُهر ، وإنما ذلك لدنو الساعة ، فندر بالبكاء خلاصها من أنوار المؤمنين . وقيل : بكاؤها أمارة تظهر منها تدل على أسف وحزن .
قلت : والقول الأول أظهر ، إذ لا استحالة في ذلك . وإذا كانت السموات والأرض تسبح وتسمع وتتكلم — كما بيناه في « سُبْحَانَ وَمَرِيمَ وَحْمَ فَصِّلَتْ » — فكذلك تبكي ، مع ما جاء من الخبر في ذلك .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ**
مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ
يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون ، من قتل الأبناء واستخدام النساء ، واستعبادهم لياهـم وتكلفهم الأعمال الشاقة . (من فـرعـون) بدل من « العذاب المـهـين » فلا تتعلق « من » بقوله : « من العذاب » لأنـه قد وصف ، وهو لا يعمل بعد الوصف عملـ الفعل . وقيل : أى نجيناـهم من العذاب ومن فـرعـون . (إـنـهـ كانـ عـالـيـاـ مـنـ الـمـسـرـفـينـ) أـى جـبارـاـ منـ المـشـركـينـ . ولـيس هـذـا عـاـوـ مـدـحـ بلـ هو عـلـوـ فـي الإـسـرـافـ ؛ كـقولـهـ : « إـنـ فـرعـونـ عـلـاـ فـي الـأـرـضـ » . وـقـيلـ : هـذـا عـلـوـ هـوـ التـرـفـ عـنـ عـبـادـةـ اللهـ .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**
قوله تعالى : (ولـقدـ اخـترـناـهـمـ) يعني بـنـي إـسـرـائـيلـ . (عـلـ عـلـيـمـ) أـى عـلـ علمـ مـنـاـ بهـمـ لـكـثـرـةـ الـأـنـيـاءـ مـنـهـمـ . (عـلـ الـعـالـمـيـنـ) أـى عـالـمـيـ زـمانـهـمـ ؛ بـدـلـيلـ قولـهـ لـهـذـهـ الـأـمـةـ : « كـنـتـ خـيـرـ

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٦٦ وج ١١ ص ١٥٧ وج ١٥٨ ص ٣٤٤ . (٢) آية ٤ سورة الفصلين .

أَمْةٌ أَنْجَرَجْتُ لِلنَّاسِ^(١) . وهذا قول قنادة وغيره . وقيل على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصة لهم وليس لغيرهم ؛ حكاه ابن عيسى والزمخشري وغيرهما . ويكون قوله : « كُنْتُ خَيْرَ أُمَّةٍ » أى بعد بني إسرائيل . والله أعلم . وقيل : يرجع هذا الاختيار إلى تخلصهم من الغرق ولإرثهم الأرض بعد فرعون .

قوله تعالى : وَإِذَا نَادَهُم مِّنْ آنَاءِ يَنْتَ مَا فِيهِ بَلَّدُوا مِبْيَنَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : (وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ) أى من المعجزات لموسى . (ما فيه بلاد مبين) قال قنادة : الآيات إنها لهم من فرعون وفلق البحر لهم ، وتنليل الغام عليهم وإنزال المتن والسُّلُوْى . ويكون هذا الخطاب متوجها إلى بني إسرائيل . وقيل : إنها العصا واليد . ويشبه أن يكون قول الفراء . ويكون الخطاب متوجها إلى قوم فرعون . وقول ثالث — إنه الشر الذي كفهم عنه والخير الذي أمرهم به ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . ويكون الخطاب متوجها إلى الفريقين معاً من قوم فرعون وبني إسرائيل . وفي قوله : « بلاء مبين » أربعة أوجه : أحدها — نعمة ظاهرة ؛ قاله الحسن وقتادة . كما قال الله تعالى : « وَلَيُسْأَلُ الْمُؤْمِنُينَ مِنْهُ بِلَاءٌ حَسْنًا^(٢) » . وقال زهير :

فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

الثاني — عذاب شديد ؛ قاله الفراء . الثالث — اختيار يميز به المؤمن من الكافر ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وعنده أيضا : ابتلاؤهم بالرخاء والشدة ؛ ثم قرأ « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً^(٤) » .

قوله تعالى : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ^(٥) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا آأَلَوَانَ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ^(٦) فَأَتُوا بِعَابِرَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٧)

(١) آية ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) آية ١٧ سورة الأنفال .

(٣) آية ٣٥ سورة الأنبياء .

(٤) آية ١١٠ سورة آل عمران .

* رأى الله بالاحسان ما فعلا بكم *

قوله تعالى : ((إِنْ هُوَ لَاءِ لَيَقُولُونَ)) يعني كفار قريش ((إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى)) ابتداء وخبر . مثل «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» ، «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةً نَا الدُّنْيَا» ((وَمَا نَحْنُ مُعْنَثِرِينَ)) أى بمعونين . ((فَأَتُوا بَآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) أنشر الله الموى فنشروا . وقد تقدم . والمنشرون المبعوثون . قيل : إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل ، قال : يا محمد ، إن كنت صادقا في قولك فابعد لنا رجلين من آبائنا ، أحدهما — قصي بن كلاب فإنه كان رجلا صادقا لسؤاله عما يكون بعد الموت . وهذا القول من أبي جهل من أضعف الشبهات ؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء للتکلیف ؛ فكانه قال : إن كنت صادقا في إعادتهم للجزاء فأعدهم للتکلیف . وهو كقول قائل : لو قال إن كان ينشأ بعدها قوم من الأبناء ؛ فلم لا يرجع من مضى من الآباء ؛ حكاه الماوردي . ثم قيل : «فَأَتُوا بَآبَائِنَا» مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وحده ؛ كقوله : «رَبُّ آرِجُونَ» قاله الفراء . وقيل : مخاطبة له ولأتباعه .

قوله تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبْغُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٢٩) وَمَا خَلَقْنَا الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِيْنَ (٣٠) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣١)

قوله تعالى : ((أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبْغُونَ)) هذا استيفهام إنكار ، أى إنهم مستحقون في هذا القول العذاب ، إذ ليسوا خيرا من قوم تبغ والأئم المهلكة ، وإذا أهلكوا أولئك فكذا هؤلاء . وقيل : المعنى أهتم أظهر نعمة وأكثر أموالا أم قوم تبغ . وقيل : أهتم أعز وأشد وأمنع أم قوم تبغ . وليس المراد بتبع رجلا واحدا بل المراد به ملوك اليمن ، فكانوا يسمون ملوكهم التبايعة . فتبع لقب لملك منهم كال الخليفة لاسميين ، وكسرى للفرس ، وقيصر للروم . وقال أبو عبيدة : سمي كل واحد منهم تبعا لأنه يتبع صاحبه . قال الجوهري : والتبايعة ملوك اليمن ، واحدهم تبع . والتابع أيضا الظلل ، وقال :

(١) آية ١٥٥ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٩ سورة الأنعام . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٧٨

(٤) آية ٩٩ سورة المؤمنون .

(١) يَرَدُ الْمَيَاهُ حَضِيرَةً وَنَفِيْضَةً * وَرَدَ الْقَطَّاءُ إِذَا آتَيْتَ أَلَّا تَتَّبِعَ
وَالْتَّبِعُ أَيْضًا ضَرَبَ مِنَ الطَّيْرِ . وَقَالَ السَّمِيلُ : تَتَّبِعُ أَمْ لِكُلِّ مَلِكِ الْيَمِنِ وَالشَّهْرِ
وَحَضْرَمَوْتِ ، وَإِنَّ مَلِكَ الْيَمِنِ وَحْدَهَا لَمْ يَقُلْ لَهُ تَتَّبِعَ ؛ قَالَهُ الْمَسْعُودِيُّ . فَنَّ التَّابِعَةُ : الْحَارِثُ
الرَّائِشُ ، وَهُوَ ابْنُ هَمَالَ ذَي سَدَدٍ . وَأَبْرَهَةُ ذُو الْمَنَارِ . وَعُمَرُو ذُو الْأَذْعَارِ . وَشَمْرُ بْنُ مَالِكٍ ،
الَّذِي تَنَسَّبُ إِلَيْهِ سَمَرْقَنْدُ . وَأَفْرِيَقِيسُ بْنُ قَيْسٍ ، الَّذِي سَاقَ الْبَرْبَرَ إِلَى أَفْرِيَقِيَّةِ مِنْ أَرْضِ
كَنْعَانَ ، وَبِهِ سَمِيتَ أَفْرِيَقِيَّةَ .

وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَاتِ أَنَّ اللَّهَ سَبَحَنَهُ إِنَّمَا أَرَادَ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَكَانَ الْعَرَبُ تَعْرَفُهُ
بِهَذَا الْإِسْمِ أَشَدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ غَيْرِهِ ؛ وَلَذِكَرَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "وَلَا أَدْرِي أَتَتَّبِعُ لَعِيْنَ أَمْ لَا" .
ثُمَّ قُدِّرَ رُوْيَ عنْهُ أَنَّهُ قَالَ : "لَا تَسْبُوا تَبَّعًا فَإِنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا" . فَهَذَا يَدِلُّكَ عَلَى أَنَّهُ كَانَ وَاحِدًا
بِعِيْنِهِ ، وَهُوَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَبُو كَربَلَ الذِّي كَسَى الْبَيْتَ بَعْدَ مَا أَرَادَ غَزْنَوَهُ ، وَبَعْدَ مَا غَزَّنَ
الْمَدِينَةَ وَأَرَادَ خَرَابَهَا ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهَا لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهَا مَهَاجِرَ بْنِ أَسَمَّهُ أَحْمَدُ . وَقَالَ شَعْرَاءُ
أُودُّهُ عَنْدَ أَهْلِهَا ؛ فَكَانُوا يَتَوَارَُّونَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ إِلَى أَنْ هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَأَذْوَهُ إِلَيْهِ . وَيَقُولُ : كَانَ الْكِتَابُ وَالشِّعْرُ عَنْدَ أَبِي أَيُوبِ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ . وَفِيهِ :

شَهَدَتْ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ * رَسُولُ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّاسَ

فَلَوْ مُدْعَى إِلَى عُمْرَةَ * لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَأَبْنَ عَمَّ

وَذَكَرَ الزَّجاجُ وَابْنُ أَبِي الدِّنَيَا وَالرِّمَحْشَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ أَنَّهُ حُفِرَ قَبْرُهُ بِصَنْعَاءِ - وَيَقُولُ بِنَاحِيَةِ
حَمِيرٍ - فِي الْإِسْلَامِ ، فَوُجِدَ فِيهِ أَصْرَافُ أَقْنَانِ صَحِيحَتَانِ ، وَعِنْدَ رَءُوسِهِمَا لَوْحٌ مِنْ فَضَّةٍ مَكْتُوبٌ
فِيهِ بِالْذَّهَبِ "هَذَا قَبْرُ حُبِيْبٍ وَلَمَّا يُسَمِّ" وَيَرْوَى أَيْضًا : حُبِيْبٌ وَتَمَاضِرٌ ، وَيَرْوَى أَيْضًا : هَذَا
قَبْرُ رَضْوَى وَقَبْرُ حُبِيْبٍ ابْنَتَاهُ ، مَاتَتَا وَهُمَا يَشْهَدَانَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يُشَرِّكَانَ بِهِ شَيْئًا ، وَعَلَى
ذَلِكَ مَاتَ الصَّالِحُونَ قَبْلَهُمَا .

(١) الْبَيْتُ لِسَعْدِيٍّ - وَقَبْلَ لَسْلَى - الْجَهْنَمَيْهُ تَرَقَّ أَخَاهَا أَسْعَدُ . وَالْحَضِيرَةُ وَالنَّفِيْضَةُ : جَمَاعَةُ الْقَوْمِ ، وَقَبْلَ
النَّفِيْضَةِ يُغْزِيُهُمْ . وَقَبْلَ غَيْرِهِمْ . وَأَمْهَالُ الْفَلَلِ : قَصْرُ وَضَرْ . وَذَلِكَ عِنْ نَصْفِ النَّهَارِ .
(٢) وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ مُخَرَّجَةً .

واختلف هل كان نبياً أو ملكاً؟ فقال ابن عباس : كان تبع نبياً . وقال كعب : كان
تبع ملكاً من الملوك ، وكان قومه كهاناً وكان معهم قوم من أهل الكتاب ، فأمر الفريقين
أن يقترب كل فريق منهم قرباناً ففعلوا ، فتُقبل قربان أهل الكتاب فأسلم . وقالت عائشة
رضي الله عنها : لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً . وحكي قتادة أن تبعاً كان رجلاً من
جمير ، سار بالجنود حتى عبر الحيرة وأتى سمرقند فهدمها ، حكم المساوردي . وحكي الثعلبي عن
قتادة أنه تبع الجميري ، وكان سار بالجنود حتى عبر الحيرة . وبني سمرقند وقتل وهدم البلاد .
وقال الكلبي : تبع هو أبو كرب أسعد بن ملكيكرب ، وإنما سمي تبعاً لأنَّه تبع من قبله .
وقال سعيد بن جعير : هو الذي كسا البيت الحبرات . وقال كعب : ذم الله قومه ولم يذمه ،
وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعظمتهم في نفوسهم ؟ فلما أهلكتهم الله تعالى
ومن قبلهم - لأنَّهم كانوا مجرمين - كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أخرى
بالملاك . وافتخر أهل اليمن بهذه الآية ، إذ جعل الله قوم تبع خيراً من قريش . وقيل :
سمى أقوفهم تبعاً لأنَّه تبع قرن الشمس وسافر في الشرق مع العساكر .

(١) اضطررت للأصول في هذا الكتاب وفي اسم مؤلفه ، ولم تنظر عليه .

(٢) الحبرات (بكسـر فـتح جـمـع حـبـرـة وحـبـرـة) : ضـرب مـن بـرـود الـيـمـن مـفـرـرـ.

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ » « الذين » في موضع رفع عطف على « قومٌ تُبْعَى » . « أهلكتناهم » صلته . ويكون « من قبلهم » متعلقاً به . ويجوز أن يكون « من قبلهم » صلة « الذين » ويكون في الظرف عائد إلى الموصول . وإذا كان كذلك كان « أهلكتناهم » على أحد أمرين : إما أن يقدر معه « قد » فيكون في موضع الحال . أو يقدر حذف موصوف ؛ كأنه قال : قوم أهلكتناهم . والتقدير أفلأ تعتبرون أنا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاء المذكورين قدرنا على إهلاك المشركين . ويجوز أن يكون « والَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ابتداء خبره « أهلكتناهم » . ويجوز أن يكون « الذين » في موضع جر عطفاً على « تُبْعَى » كأنه قال : قوم تُبْعَى المهلكين من قبلهم . ويجوز أن يكون « الذين » في موضع نصب باضمار فعل دل عليه « أهلكتناهم » . والله أعلم .

قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَنْهَا لَا يَعْيَنُ » أي غافلين ؛ قاله مقاتل . وقيل : لا هين ، وهو قول الكلبي . « مَا خَلَقْنَا هَمَّا إِلَّا بِالْحَقِّ » أي إلا بالأمر الحق ؛ قاله مقاتل . وقيل : إلا للحق ؛ قاله الكلبي والحسن . وقيل : إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والالتزام طاعته . وقد مضى هذا المعنى في « الآيات » . « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ » يعني أكثرا الناس . « لَا يَعْلَمُونَ » ذلك .

قوله تعالى : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجَمِيعِينَ (١)

(يَوْمَ الْفَصْلِ) هو يوم القيمة ؛ وسي بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . دليله قوله تعالى : « أَنْ تَفْعَمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أُولَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » . ونظيره قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئذٍ يَتَفَرَّقُونَ » . فـ « يوم الفصل » ميقات الكل ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » أي الوقت المجعل لتبييز المحسن من الحسن ، والفصل بينهما : فريق في الجنة وفريق في السعير . وهذا غاية في التحذير والوعيد . ولا خلاف بين القراء في رفع

(١) راجح ج ١١ ص ٢٧٦ . (٢) آية ٣ سورة الرحمن .

(٣) آية ١٧ سورة النبأ .

«مِيقَاتُهُمْ» على أنه خبر «إن» واسمها «يَوْمَ الْفَصْلِ» . وأجاز الكسائي والقراء نصب «مِيقَاتُهُمْ» بـ «إن» و «يَوْمَ الْفَصْلِ» ظرف في موضع خبر «إن» ؛ أى إن ميقاتهم يوم الفصل .

قوله تعالى : يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٢)

قوله تعالى : (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا) «يَوْمَ» بدل من «يَوْم» الأول . والـ مَوْلَى : الـ وَلِيُّ وهو ابن العم والناصر . أى لا يدفع ابن عم عن ابن عمده ، ولا قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه . (وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) أى لا ينصر المؤمن الكافر لقوابته . ونظير هذه الآية «وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجِزُّ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» الآية . (إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ) «مَنْ» رفع على البدل من المضمر في «يُنْصَرُونَ» ؛ كأنك قلت : لا يقوم أحد إلا فلان . أو على الابتداء والخبر مضمر ؛ كأنه قال : إلا من رحم الله فغفور له ؛ أو فيعني عنه ويشفع وينصر . أو على البدل من «مَوْلَى» الأول ؛ كأنه قال : لا يغنى إلا من رحم الله . وهو عند الكسائي والقراء نصب على الاستثناء المنقطع ؛ أى لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغනهم من المخلوقين . ويجوز أن يكون استثناء متصلة ؛ أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم البعض . (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أى المتقم من أعدائه الرحيم بأولئك ؛ كما قال «شَدِيدُ العِقَابِ ذِي الطُّولِ» فقرن الوعد بالوعيد .

قوله تعالى : إِنَّ شَجَرَةَ الْزَّقُومِ (١) طَعَامُ الْأَثْيَمِ (٢) كَالْمُهَلِّ يَغْلِي فِي الْبَطْوَنِ (٣) كَغَلِّي الْخَمِيمِ (٤)

قوله تعالى : (إِنَّ شَجَرَةَ الْزَّقُومِ) كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالباء ؛ إلا حرقا واحدا في سورة الدخان «إِنَّ شَجَرَةَ الْزَّقُومِ . طَعَامُ الْأَثْيَمِ» ؛ قاله

(١) آية ٤٨ سورة البقرة . (٢) آية ٣ سورة غافر .

ابن الأنباري . و (الأَثِيم) الفاجر ، قاله أبو الدرداء . وكذلك فرأ هو وابن مسعود . وقال همام بن الحارث : كان أبو الدرداء يقرئ رجلا « إن شجرة الرقوم طعام الأثيم » والرجل يقول : طعام اليتيم ؟ فلما لم يفهم قال له : « طعام الفاجر » . قال أبو بكر الأنباري : حدثني أبي قال حدثنا نصر قال حدثنا أبو عبيدة قال حدثنا نعيم بن حماد عن عبد العزيز بن محمد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : علم عبد الله بن مسعود رجلا « إن شجرة الرقوم . طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم ؟ فأعاد عليه عبد الله الصواب وأعاد الرجل الخطأ ؟ فلما رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له : أما تحسن أن تقول طعام الفاجر ؟ قال بل ؟ قال فافعل . ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزَّيْغ ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريراً للتعلم ، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إزاله الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الزمخشري : « وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤديةًّا معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهي أن يؤذى القارئ المعاني على كلامها من غير أن يخسر منها شيئاً . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلام العرب خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ، من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وبصر . وروى علي بن الجعفر عن أبي يوسف عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية » . وشجرة الرقوم : الشجرة التي خلقها الله في جهنم وسماتها الشجرة الملعونة ؛ فإذا جاء أهل النار التجأوا إليها فأكلوا منها ، فغلبت في بطونهم كأي غلى الماء الحار . وشبها ما يصير منها إلى بطونهم بالمهمل ، وهو النحاس المذاب . وقراءة العامة « تَغْلِي » بالتساء حلاً على الشجرة . وقرأ ابن كثير وحفص وابن حمِيصن ورويس عن يعقوب « يغلي » بالياء حلاً على الطعام ؛ وهو في معنى الشجرة . ولا يُحْمَل على المنهل لأنه

ذكر للتشبيه . و «الأنم» الأنم؛ من أئمِيامِ إثْمٍ؛ قاله الفشيري - و ابن عيسى . وقيل هو المشرك المكتسب للإثم؛ قاله يحيى بن سلام . وفي الصحاح : وقد أئمِ الرجل (بالكسر) إثماً وما ثماً إذا وقع في الإثم ، فهو آثم وأئمَّ وأنوم أيضاً . فمعنى «طَاعُمُ الْأَنْمِ» أى ذى الإثم الفاجر ؛ وهو أبو جهل . وذلك أنه قال : يَعِدُنَا مِدَانٌ فِي جَهَنَّمِ الرَّقْوَمِ ، وإنما هو التريد بالزبد والتمر ؛ فبَيْنَ الله خلاف ما قاله . وحكى النقاش عن مجاهد أن شجرة الرقوم أبو جهل .

قلت : وهذا لا يصح عن مجاهد . وهو مردود بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة الصافات وسبحان^(١) « أيضاً .

قوله تعالى : **خُذُوهُ فَأَعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ**^(٢) ثم صبوا فوق رأسه من عذابَ الجحيم^(٣) قوله تعالى : (خُذُوهُ) أى يقال للزبانية خذوه؛ يعني الأنم . (فَأَعْتِلُوهُ) أى جرّوه وسوقوه . والعتل : أن تأخذ بتلايب الرجل فتعتله ؛ أى تجتره إليك لتذهب به إلى حبس أو بلية . عتلت الرجل أعتله عتلًا إذا جذبته جذبًا عنيفاً . ورجل معتل (بالكسر) . وقال يصف فرساً :

* نفرعه فرعاً ولسنا نعملا *

وفيه لغتان : عتله وعنته (باللام والتون جميعاً) ؛ قاله ابن السكري . وقرأ الكوفيون وأبو عمرو «فَأَعْتِلُوهُ» بالكسر، وضم الباقيون . (إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ) وسط الجيم . (ثُمَّ صبوا فوق رأسه من عذابَ الجحيم) . قال مقاتل : يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبي جهل بمقع من حديد ؛ فيتفتت رأسه عن دماغه ، فيجري دماغه على جسده ،

(١) رابع ج ١٠ ص ٢٨٣ وج ١٥ ص ٨٥

(٢) القائل هو أبو النجم ؛ وقبله :

طار عن المهرَّسِيلِ يَسْلَهُ * عن مفرع الكتفين حَرَّ عَطْلَهُ

ثم يصب الملك فيه ماء حميأ قد انتهى حره فيقع في بطنه ؛ فيقول الملك : ذُق العذاب . ونظيره
« يصب من فوق رؤوسهم الحميم » .

قوله تعالى : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ
يَهْ مَسْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (ذَقْ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) قال ابن الأثباري : أجمعوا العوام على كسر « إن » . وروى عن الحسن عن علي رحمة الله « ذق أنك » بفتح « أن » وبها قرأ الكسائي . . فلن كسر « إن » وقف على « ذق » . ومن فتحها لم يقف على « ذق » ؛ لأن المعنى ذق لأنك و بأنك أنت العزيز الكريم . قال قتادة : نزلت في أبي جهل وكان قد قال : ما فيها أعنّ مني ولا أكرم ؟ فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم . وقال عكرمة : التقى النبي صلي الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبي صلي الله عليه وسلم : « إن الله أمرني أن أقول لك أوى لك فأوى » فقال : بأى شيء تهذبني ! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا ، إنى من أعن هذا الوادي وأكرمه على قومه ؛ فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية . أى يقول له الملك : ذق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك . وقيل : هو على معنى الاستخفاف والتوبخ والاسهان والإهانة والتنقيص ؛ أى قال له : إنك أنت الذليل المهان . وهو كما قال قوم شعيب لشعيب : « إنك لآنت الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » يعني السفيه الباهل في أحد التأويلات على ما تقدم . وهذا قول سعيد بن جبير . (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ) أى تقول لهم الملائكة : إن هذا ما كنتم تشكون فيه في الدنيا .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ ﴿١٥﴾ فِي جَنَّةٍ
وَعِيُونٍ ﴿١٦﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَرْبَقٍ مُتَقَبِّلَيْنَ

٨٧ ج ٩ ص راجع)٣)

آیة ۸۷ سورہ هود (۲)

(١) آية ١٩ سورة الحج.

قوله تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ) لما ذكر مستقر الكافرين وعداهم ذكر نزل المؤمنين ونعيهم . وقرأ نافع وابن عاص « في مَقَام » بضم الميم . الباقيون بالفتح .
قال الكسائي : المَقَام المكان ، والمُقَام الإقامة ، كما قال :

* عَفَتِ الْدِيَارُ عَلَيْهَا فَمَقَامُهَا *

قال الجوهري : وأما المقام والمُقام فقد يكون كل واحد منها بمعنى الإقامة ، وقد يكون بمعنى موضع القيام ؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم مفتوح ، وإن جعلته من أقام يقيم فضموم ، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم ، لأنه مشبه ببنات الأربع ، نحو درج وهذا مدرجنا . وقيل : المقام (بالفتح) المشهد والمجلس ، و (بالضم) يمكن أن يراد به المكان ، ويمكن أن يكون مصدرا و يقدر فيه المضاف ، أى في موضع إقامة . « أمين » يؤمن فيه الآفات (في جنات وعيون) بدل « من مقام أمين » . « يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين » لا يرى بعضهم قفا بعض ، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا .
 والسدس : مارق من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه . وقد مضى في « الكهف » .
 (٢)

قوله تعالى : كَذَلِكَ وَزَوْجَنَاهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : « كذلك » أي الأمر كذلك الذي ذكرناه . فيوقف على « كذلك » . وقيل :
 أي كـأدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدم ذكره ، كذلك أكرمناهم بأن زوجناهم حوراً عيناً .
 وقد مضى الكلام في العين في « والصافات » . والحور : البيض ؛ في قول قتادة والعامية ، جمع
 حوراء . والحوّراء : البيضاء التي يرى ساقها من وراء ثيابها ، ويرى الناظر وجهه في كعبها ؛
 كالمرأة من دقة الحلق وبضاقة البشرة وصفاء اللون . ودليل هذا التأويل أنها فحرف ابن
 مسعود « بعيس عين » . وذكر أبو بكر الأنباري أخبرنا أحمد بن الحسين قال حدثنا حسين
 (٤)

(١) هذا أول معلقة ليدي . وتمامه : * يعني تأبد غوطا فرجها

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٩٧ (٢) راجع ج ١٥ ص ٥

(٤) العيس (بالكم): بياض يخالفه شيء من شقرة.

قال حدثنا عمار بن محمد قال : صلّيت خلف منصور بن المعتمر فقرأ في « حمد » الدخان « بعيسٍ عين . لا يذوقون طعم الموت إلا الموت الأولى » . والعيس : البيض ؟ ومنه قيل للإبل البيض : عيس ، واحدتها بغير أعين وناقة عيساء . قال أصرؤ القيس :

(١) يرعن إلى صوتي إذا ما سمعته * كما ترعى عيطة إلى صوت عيسا

فعني الحور هنا : الحسان الثاقبات البياض بحسن . وذكر ابن المبارك أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور العين ليرى ساقها من وراء الخم والعظم ، ومن تحت سبعين حلة ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء . وقال مجاهد : إنما سميت الحور حورا لأنهن يختارن الطرف في حسنن وبياضهن وصفاء لونهن . وقيل : إنما قيل لهن حور لحور أعينهن . والحوَر : شدة بياض العين في شدة سوادها . امرأة حوراء بنتة الحور . يقال : أحورت عينه أحورارا ، وأحور الشيء أبيض . قال الأصمي : ما أدرى ما الحور في العين ؟ وقال أبو عمرو : الحور أن تسود العين كلاما مثل أعين الظباء والبقر . قال : وليس في بني آدم حور ؟ وإنما قيل للنساء : حور العين لأنهن يشبهن بالظباء والبقر . وقال العجاج :

* بأعين محورات حور *

يعنى الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الخدق . والعين جمع عيناء ؟ وهى الواسعة العظيمة العينين . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مهور الحور العين قبضات التر وفيق الخنزير » . وعن أبي قرقاصة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إخراج القمامات من المسجد مهور الحور العين » . وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) العيطة (جمع عيطة) . الناقة الفتية التي لم تتحمل . (٢) الثاقب : المضى .

(٣) في الأصول : * بأعين محورات بيسن *

والتصويب عن أراجيز العجاج . وقبله : * إذ ترمى من خلل الخدور *

وبعده : * نزرت بباب إلى صور *

(٤) أبو قرقاصة (بكسر أوله) أمه بعندة بن خيشة المكان .

قال : " كنس المساجد مهور الحور العين " ذكره التعلبي رحمه الله . وقد أفردنا لهذا المعنى باباً مفرداً في (كتاب التذكرة) والحمد لله .

وأختلف أئمـاً أفضـل فـي الـجـنـة ؟ نـسـاء الـآـدـمـيـات أـمـ الـحـور ؟ فـذـكـرـ أـبـنـ الـمـارـكـ قال : وأخـبـرـناـ رـشـدـيـنـ عنـ أـبـنـ أـنـعـمـ عنـ حـبـانـ بنـ أـبـيـ جـبـلـةـ قال : إنـ نـسـاءـ الـآـدـمـيـاتـ منـ دـخـلـ مـنـهـنـ الـجـنـةـ فـضـلـانـ عـلـىـ الـحـورـ العـيـنـ بـمـاـ عـمـلـنـ فـيـ الدـنـيـاـ . وـرـوـيـ مـرـفـوـعاـ إـنـ " الـآـدـمـيـاتـ أـفـضـلـ مـنـ الـحـورـ العـيـنـ بـسـبـعـيـنـ أـلـفـ ضـعـفـ " . وـقـيلـ : إـنـ الـحـورـ العـيـنـ أـفـضـلـ ؛ لـقـولـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـ دـعـائـهـ : " وـأـبـدـلـهـ زـوـجـاـ خـيـراـ مـنـ زـوـجـهـ " . وـالـهـ أـعـلـمـ . وـقـرـأـ عـكـرـمـةـ " بـحـورـ عـيـنـ " مـضـافـ . وـالـإـضـافـةـ وـالـتـنـوـيـنـ فـيـ " بـحـورـ عـيـنـ " سـوـاءـ .

قوله تعالى : يَدْعُونَ فِيهَا يُكْلِّي فَنِكِهَةً ۝ آمِنِينَ ۝

قال قتادة : « آمنين » من الموت والوصب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذى أو مكروه .

قوله تعالى : لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقْتُهُمْ

عَذَابَ الْجَنَّمِ ۝ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝

قوله تعالى : (لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) أى لا يذوقون فيها الموت أبداً لأنهم خالدون فيها . ثم قال : (إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) على الاستثناء المنقطع ، أى لكن الموت الأولى قد ذاقوها في الدنيا . وأنشد سيبويه :

من كان أسرع في تفرق فاج * فلبو نه جربت معًا وأغدت

(١) في كتاب سيبويه : * من كان أشرك *

والقائل هو عز الدين دجاجة المازني . وفاج هذا ، هو فاجل بن مازن بن مالك . سعى عليه بعض بنى مازن وأسأله حتى رحل عنهم ، ولحق بيني ذكوان بن بهنة فنسب اليهم . وكانت بنو مازن قد ضيقوا على رجل منهم يسمى « ناشرة » حتى انتقل عنهم إلى بني أسد ، فدعا هذا الشاعر المازني على بني مازن حيث اضطروا بهم فأجلج إلى الخروج عنهم . واستثنى « ناشرة » منهم ، لأنهم لم يرض فهلهم ، ولأنه قد امتنع عنده « فاج » بهم . واللبون : ذوات اللبان ، وتقع للواحد والجماعة . ومعنى « أغدت » صارت فيها الفسدة ، وهي من أدوات الإبل كالذبحة . والغلواه : النساء والارتفاع . والمنتبت : المنمي والمفتدي . ويروى بكسر الباء ، ومعناه النابت النامي . (عن شرح الشواهد) .

ثم استئنفي بما ليس من الأول فقال :

إِلَّا كَاشِرَةُ الَّذِي ضَيْعُمُ * كَالْغَصْنِ فِي غُلَوَانِهِ الْمُتَبَتِّ

وقيل : إن « إِلَّا » بمعنى بعد ، كقولك : ما كثُرت رجلاً اليوم إِلَّا رجلاً عندك ؟ أى بعد رجل عندك . وقيل : « إِلَّا » بمعنى سوى ، أى سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا ، كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس . وقال القمي : « إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى » معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلقى الروح والريحان ، وكانت موته في الجنة لاتصاله بأسبابها ، فهو استثناء صحيح . والموت عرض لا يذاق ، ولكن جعل كالطعام الذي يكره ذوقه ، فاستغير فيه لفظ الذوق . (وَوَقَاهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ . فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ) أى فعل ذلك بهم تفضلاً منه عليهم . فـ « فَضْلًا » مصدر عمل فيه « يَدْعُونَ » . وقيل : العامل فيه « وَوَقَاهُمْ » . وقيل فعل مضمر . وقيل : معنى الكلام الذي قبله ؛ لأنه تفضل منه عليهم ، إذ وفّقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة . (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أى السعادة والربح العظيم والنرجفة العظيمة . وقيل : هو من قولك فاز بكتاب ، أى ناله وظفر به .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسِّرْنَا لِإِسَانِكَ لِعَلَيْهِمْ يَتَذَكَّرُونَ فَارْتَقِبْ

إِنَّمَا مُرْتَقِبُونَ ٥٩

قوله تعالى : (فَإِنَّمَا يَسِّرْنَا لِإِسَانِكَ) يعني القرآن ؛ أى سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه . (لِعَلَيْهِمْ يَتَذَكَّرُونَ) أى يتعظون وينزرون . ونظيره « وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ كُرِّيَ فَهُمْ مِنْ مُذَكَّرِي » . نفهم السورة بال helt على آتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا ؛ كما قال في مفتاح السورة : « إِنَّا أَنْزَلْنَا فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةً » ، « إِنَّا أَنْزَلْنَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » على ما تقدم . (فَارْتَقِبْ إِنَّمَا مُرْتَقِبُونَ) أى انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم متظرون لك الموت ؛ حكاه

(١) آية ٢٢ سورة النساء .

(٢) آية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ سورة القمر .

النفاش . وقيل : آنتظر الفتح من ربكم إنهم متظرون بزعمهم فهوك . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم فإنهم ينتظرون بك رَبِّ الْحَدَّانَ . والمعنى متقارب . وقيل : ارتب ما وعدتك من الشواب فإنهم كالمتظرين لما وعدتهم من العقاب . وقيل : ارتب يوم القيمة فإنه يوم الفصل ، وإن لم يعتقدوا وقوع القيمة ، جعلوا كالمترقبين لأن عاقبهم ذلك . والله تعالى أعلم .

سورة الحاثية

مكية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ، هي : « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكره الماوردي ، وقال المهدوى والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت في عمر رضى الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عنـ وجلـ « قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » ثم نسخت بقوله : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوهُمْ » ^(١) . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف . وهي سبع وتلائون آية . وقيل ست .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

قوله تعالى : (حَمَّ) مبتدأ و (تَنْزِيلُ) خبره . وقال بعضهم : « حَمَّ » أسم السورة . و « تَنْزِيلُ الْكِتابِ » مبتدأ . وخبره « مِنَ اللَّهِ » . والكتاب القرآن . و « العزيز » المنع . « الحكيم » في فعله . وقد تقدم جمع هذا .

قوله تعالى : إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُثُ مِنْ دَأْبَةٍ إِنَّ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ
وَأَخْتِلَفُ

(١) آية ١٤ . (٢) آية ٥ سورة التوبه . (٣) رابع ج ١ ص ٢٨٧ و ج ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحِبَّا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الْرِّيحَ إِذَا يَنْجِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى في خلقهما (لآياتِ الْمُؤْمِنِينَ .
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُثُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتُ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ) يعني المطر . (فَأَحِبَّا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) تقدم جميعه مستوفٍ في «البقرة» وغيرها . وقراءة العامة «وما يبث من دابة آيات»^(١)
«وتصريف الرياح آيات» بالرفع فيما . وقرأ حزرة والكسائي بكسر الناء فيما . ولا خلاف
في الأول أنه بالنصب على اسم «إن» وخبرها «في السموات» . ووجه الكسر في «آيات»
الثاني العطف على ما عملت فيه ؛ التقدير : وإن في خلقكم وما يبث من دابة آيات . فاما
الثالث فقيل : إن وجه النصب فيه تكير «آيات» لما طال الكلام ؛ كما تقول : ضربت
زيدا زيدا . وقيل : إنه على الحمل على ما عملت فيه «إن» على تقدير حذف «ف» ؛ التقدير:
وفي اختلاف الليل والنهر آيات . خذفت «ف» لتقدم ذكرها . وأنشد سيبويه في الحذف :
أَكُلُّ أَمْرٍ تَخْسِيْنَ أَمْرًا * وَنَارٌ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا^(٢)

حذف «كل» المضاف إلى نار المحرورة لتقدم ذكرها . وقيل : هو من باب العطف على
عاملين . ولم يجزه سيبويه ، وأجازه الأخفش وجماعة من الكوفيين ؛ فعطف «اختلاف»
على قوله : «وفي خلقكم» ثم قال : «وتصريف الرياح آيات» فيحتاج إلى العطف على
عاملين ، والعطف على عاملين قبيح من أجل أن حروف العطف تنوب مناب العامل ، فلم
نقو أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب مناب رافع وناصب لكان رافعا ناصبا
في حال . وأما قراءة الرفع فحملها على موضع «إن» مع ما عملت فيه . وقد ألزم النحويون
في ذلك أيضا العطف على عاملين ، لأنهم عطف على «اختلاف» على «وفي خلقكم» ، وعطف
«آيات» على موضع «آيات» الأول ، ولكنه يقدّر على تكير «ف» . ويحوز أن يرفع

(١) راجع ج ٢ ص ١٩١ وما بعدها . وج ٤ ص ٥٨٣ (٢) البيت لأبي دزاد الأيدي .

على القطع مما قبله فيرفع بالابتداء، وما قبله خبره، ويكون عطف جملة على جملة . وحكي الفراء رفع «اختلاف» و«آيات» جيئاً، وجعل الاختلاف هو الآيات .

قوله تعالى : **تَلَكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتَلُوهَا عَلَيْكَ يَا حَقِيقَ فَيَأْيَ حَدِيثٍ بَعْدَ آلَلَهِ وَأَيَّتِهِ يُؤْمِنُونَ**

قوله تعالى : ((تِلَكَ آيَاتُ اللَّهِ)) أى هذه آيات الله ؛ أى حجه وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته . ((نَتَلُوهَا عَلَيْكَ يَا حَقِيقَ)) أى بالصدق الذى لا باطل ولا كذب فيه . وقرئ « يتلوها » بالياء . ((فَيَأْيَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ)) وقيل بعد قرآنه ((وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)) وقراءة العامة بالياء على الخبر . وقرأ ابن محيصن وأبو بكر عن عاصم وحزنة والكسائي « تؤمنون » بالباء على الخطاب .

قوله تعالى : **وَيَلٌ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثْيَمِ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ نُتَلِّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرِ مُسْتَكِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعُهَا فَبِشِّرْهُ بِعَذَابِ الْيَمِ**

قوله تعالى : ((وَيَلٌ لِكُلِّ أَفَاكِ أَثْيَمِ)) « يل » واد في جهنم . توعد من ترك الاستدلال بآياته . والأفاك : الكذاب . والإفك الكذب . « أثيم » أى مرتكب للإثم . والمراد فيها روى النضر بن الحارث . وعن ابن عباس أنه الحارث بن كلدة . وحكي التعلبي أنه أبو جهل وأصحابه . ((يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ نُتَلِّ عَلَيْهِ)) يعني آيات القرآن . ((ثُمَّ يُصْرِ مُسْتَكِرًا)) أى يخادى على كفره متعظماً في نفسه عن الانقياد ؛ مأخوذ من صر الصرة إذا شدتها . قال معناه ابن عباس وغيره . وقيل : أصله من إصرار الحمار على العانة ، وهو أن يخن على صارأً أذنيه . و « أث » من « كان » مخففة من التقليل ؛ كأنه لم يسمعها ، والضمير ضير الشأن ؛ كاف قوله : *** كَانْ ظَبْيَةٌ تَعْطُوا إِلَى نَاضِرِ السَّلْمِ ***

(١) العادة : الأثنان (الحارقة) . (٢) ويروى : إلى وارق السلم . وهذا بجز بيت لابن صريم اليشكري . وصدره كاف في كتاب مسيبويه والمقاصد التحوية : * وما توانينا بوجهه مقسم * والمقسم : المحسن . و « تعطوا » : تناول . و « السلم » : شجر بعينه . وصف امرأة حسنة الوجه فشيئها بظبية مخصبة المراعي .

و محل الجملة النصب ؛ أى يصرّ مثل غير السامع . وقد تقدم في أول « لقمان » القول في معنى هذه الآية . وتقدم معنى (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابِ الْيَمِّ) في « البقرة » .^(١)

قوله تعالى : وَإِذَا عَاهَ مِنْ أَيْتَنَا شَيْئًا آتَحْذَهَا هُرُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٢) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا آتَحْذَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَّاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣)

قوله تعالى : (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا آتَحْذَهَا هُرُواً) نحو قوله في الرقوم : إنه الزيد والتمر ، وقوله في حزنة جهنم : إن كانوا تسعه عشر فانا ألقاهم وحدى . (أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) مذلل مُخْزٍ . (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ) أى من وراء ما هم فيه من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق جهنم . وقال ابن عباس : « من وراءهم جهنم » أى أمامهم ؟ نظيره (٤) « مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءِ صَدِيقٍ » أى من أمامه . قال :

ليس ورأى إن تراخت متنى * أدب مع الولدان أزحف كالنسر

(وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا) أى من المال والولد ؛ نظيره « آنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أُولَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » أى من المال والولد . (وَلَا مَا آتَحْذَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَّاءَ) يعني الأصنام . (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) أى دائم مؤلم .

قوله تعالى : هَذَا هُدَىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ

مِنْ رِبْخَزِ الْيَمِّ (٤)

قوله تعالى : (هَذَا هُدَىٰ) ابتداء وخبر ؛ يعني القرآن . وقال ابن عباس : يعني كل ما جاء به مهد صلى الله عليه وسلم . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) أى جحدوا دلائله .

(١) راجع ج ١٤ ص ٥٧ (٢) راجع ج ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثلاثة .

(٣) آية ١٦ سورة إبراهيم . (٤) آية ١٠ سورة آل عمران .

(لَمْ عَذَابٌ مِنْ رَجُزِ الْيَمِّ) الرجز العذاب ؛ أى لم عذاب من عذاب أيم ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ » أى عذابا . وقيل : الرجز القذر مثل الرجس ؛ وهو كقوله تعالى : « وَيُسَقَّى مِنْ مَاءَ صَدِيدٍ » أى لم عذاب من تجزع الشراب القذر . وضم الراء من الرجز ابن حميسن حيث وقع . وقرأ ابن كثير وابن حميسن وحفص « أيم » بالرفع ؛ على معنى لم عذاب أيم من رجز . الباقيون بالحفظ نعتا للرجز .

قوله تعالى : آللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكَ فِيهِ يَأْمُرُهُ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢١) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٢)
قوله تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكَ فِيهِ يَأْمُرُهُ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) ذكر كمال قدرته و تمام نعمته على عباده ، وبين أنه خلق ما خلق لمنافعهم .
((وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)) يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسان
منه وإنعام . وقرأ ابن عباس والحمدري وغيرهما « جمِيعاً مِنْهُ » بكسر الميم وتشديد النون
وتثنين الهاء ، منصو با على المصدر . قال أبو عمرو : وكذلك سمعت مسلمة يقرؤها « مِنْهُ »
أى تفضلا وكمرا . وعن مسلمة بن محارب أيضا « جمِيعاً مِنْهُ » على إضافة المَنَ إلى هاء
الكافية . وهو عند أبي حاتم خبر ابتداء مخدوف ؛ أى ذلك ، أو هو منه . وقراءة الجماعة
ظاهرة . ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)).

قوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَامَ اللَّهِ
لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٢٣)

قوله تعالى : ((قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا)) جزم على جواب « قُل » تشبيها بالشرط
والجزاء ؛ كقولك : قم تصيب خيرا . وقيل : هو على حذف اللام . وقيل : على معنى قل

(١) آية ٥٩ سورة البقرة . (٢) آية ١٦ سورة إبراهيم .

لهم أغفروا يغفروا ؛ فهو جواب أمر مذوق دل الكلام عليه ؛ قاله علي بن عيسى و اختاره ابن العربي . وزلت الآية بسبب أن رجلا من قريش شتم عمر بن الخطاب فهم أن يبطن به . قال ابن العربي : وهذا لم يصح . وذكر الواحدى والقشيرى وغيرهما عن ابن عباس أن الآية نزلت في عمر مع عبد الله بن أبي فى غزوة بني المصطبلق ، فإنهم نزلوا على بئر قال لها المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي ، وأبطأ عليه فقال : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فاترك أحدا يستقي حتى ملا قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر ، وملا ملواه . فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك . فبلغ عمر رضى الله عنه قوله ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ؛ فأنزل الله هذه الآية . هذه رواية عطاء عن ابن عباس . وروى عنه ميمون بن مهران قال : لما نزلت « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » ^(١) قال يهودى بالمدينة يقال له فتحاصل : احتاج رب محمد ! قال : فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه ؛ بخاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « إن ربك يقول لك قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » . وأعلم أن عمر قد اشتمل على سيفه وخرج في طلب اليهودى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه ، فلما جاء قال : « يا عمر ، ضع سيفك » قال : يا رسول الله ، صدقت ، أشهدك أرسلت بالحق . قال : « فإن ربك يقول قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » قال : لاجرم ! والذى بعثك بالحق لاترى الغضب في وجهي .

قلت : وما ذكره المهدوى والتحاس فهو رواية الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول القرطى والسدى وعليه يتوجه النسخ في الآية . وعلى أن الآية نزلت بالمدينة أو في غزوة بني المصطبلق فليست بنسخة . ومعنى « يغفروا » : يغفوا ويتغافلوا . ومعنى « لا يرجون أيام الله » : أى لا يرجون نوابه . وقيل : أى لا يخافون بأس الله ونقمته . وقيل : الرجاء بمعنى الخوف ؛ كقوله : « مَالَّكُمْ لَا تَرْجُونَ لِهِ وَقَارًا » ^(٢) أى لا تخافون له عظمة . والمعنى : لا تخشون

(١) آية ٢٤٥ سورة البقرة . (٢) آية ١٣ سورة نوح .

مثل عذاب الأمم الخالية ، والأيام يعبر بها عن الواقع . وقيل : لا يأملون نصر الله لأولئك وإنقاصه بأعدائه . وقيل : المعنى لا يخافونبعث . (لِيَجِزِيَ قَوْمًا إِمَّا كَانُوا يَكِسِّبُونَ) قراءة العامة «ليجِزِي» بالياء على معنى ليجزى الله . وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر «ليجزِي» بالنون على التعظيم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة «ليجِزِي» باء مضمومة وفتح الزاي على الفعل المجهول ، «قَوْمًا» بالنصب . قال أبو عمرو : وهذا لحن ظاهر . وقال الكسائي : معناه ليجزى الحذاء قوما ، نظيره «وَكَذِلِكَ تُجَزِّي الْمُؤْمِنِينَ» على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة «الأنبياء» . قال الشاعر :

(٢) ولو ولدت فُقِيرَةً جَرَوْكَلِبْ * أَسْبَبَ بِذَلِكَ الْجَرَوِ الْكَلَابَا
أَى لَسْبَ السَّبْ .

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّفِسِيهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رِبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾
(٣) تقدم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ طَيِّبَاتِ وَفَضَّلَنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا آخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)
قوله تعالى : (ولَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ) يعني التوراة . (والْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) الحكم : الفهم في الكتاب . وقيل : الحكم على الناس والقضاء . « والنُّبُوَّةَ» يعني الأنبياء من وقت يوسف عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام . (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) أى الحال

(١) راجع ج ١١ ص ٣٢٤ (٢) قال الله جريراً جو الفرزدق . وفقيه (بحبته) : أم الفرزدق .

من الأقوات والثار والأطعمة التي كانت بالشام . وقيل : يعني المتن والسلوكي في التيه .
 (وَفَضَّلْنَا هُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) أى على عالم زمانهم ؛ على ما تقدم في « الدخان » بيانه .
 (وَأَتَيْنَاهُمْ بِيَنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ) قال ابن عباس : يعني أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وشاهده
 نبوته بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، وينصره أهل يثرب . وقيل : ينات الأمر شرائع
 وأحكام في الحلال والحرام ومعجزات . (فَآخْتَلُفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) يريد
 يوشع بن نون ؛ فآمن بعضهم وكفر بعضهم ؛ حكاه التقاش . وقيل : « إلا من بعد
 ما جاءهم العلم » نبوة النبي صلى الله عليه وسلم فاختلقو فيها . (بَغَيَا بَيْنَهُمْ) أى حسداً
 على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : معنى « بغياً » أى بغي بعضهم
 على بعض يطلب الفضل والرياسة ، وقتلوا الأنبياء ؛ فكذا مشركون عصركم يا مهد ، قد جاءتهم
 البينات ولكن أعرضوا عنها للنافسة في الرياسة . (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ) أى يحكم
 ويحصل . (يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَحْتَلِفُونَ) في الدنيا .

قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَنْبِغِي

أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

فيه مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ) الشريعة في اللغة :
 المذهب والملة . ويقال لشرعية الماء — وهي مورد الشارة — : شريعة . ومنه الشارع
 لأنّه طريق إلى المقصد . فالشرعية : ما شرع الله لعباده من الدين ؛ والجمع الشرائع . والشرعيات
 في الدين : المذاهب التي شرعاها الله خلقه . فمعنى « جعلناك على شريعة من الأمر » أى على
 منهاج واضح من أمر الدين يشرع به إلى الحق . وقال ابن عباس : « على شريعة » أى على
 هدى من الأمر . قنادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض . مقاتل : البينة ؛ لأنّها

(١) راجع ج ١٦ ص

طريق إلى الحق . الكلبي : **السُّنَّة** ، لأنه يُستَّن بطريقة من قبله من الأنبياء . ابن زيد : **الدِّين** ، لأنه طريق النجاة . قال ابن العربي : والأمر يُرد في اللغة بمعنىين : أحدهما — بمعنى الشأن كقوله : « فَاتَّبَعُوا أُمَّرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » . والثاني — أحد أقسام الكلام الذي يقابلنه النهي . وكلاهما يصح أن يكون مراداً لها هنا ؛ وتقديره : ثم جعلناك على طريقة من الدين وهي ملة الإسلام ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .^(١)

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمسارع والمصالح ، وإنما خالف بينهما في الفروع حسبما علمه سبحانه .

الثانية — قال ابن العربي : ظن بعض من يتكلما في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا ، لأن الله تعالى أفرد النبي صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية بشريعة ، ولا ننكر أن النبي صلى الله عليه وسلم وأمته منفردان بشريعة ، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا . قوله تعالى : « وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » يعني المشركين . وقال ابن عباس : قُرْيَظَةُ وَالْأَنْصَارِ . وعنده : نزلت لما دعوه قريش إلى دين آباءه .

قوله تعالى : **إِنَّهُمْ لَنَ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**^(٢)

قوله تعالى : « إِنَّهُمْ لَنَ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » أي إن اتبعت أهواهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً . « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أُولَاءِ بَعْضٌ » أي أصدقاء وأنصار وأحباب . قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أولياء اليهود . « وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ » أي ناصرهم ومعينهم . والمتقوون هنا : الذين اتقوا الشرك والمعاصي .

(١) آية ٩٧ سورة هود .

(٢) آية ١٢٢ سورة النحل .

قوله تعالى : هَذَا بَصَّرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ
قوله تعالى : (هَذَا بَصَارٌ لِلنَّاسِ) ابتداء وخبر ، أى هذا الذى أنزلت عليك براهين
ودلائل ومعالم للناس في الحدود والأحكام . وقرئ « هذه بصائر » أى هذه الآيات .
(وَهُدًى) أى رشد وطريق يؤدى إلى الجنة ملنأخذ به . (وَرَحْمَةٌ) في الآخرة (لِقَوْمٍ
يُوقَنُونَ) .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ آجْتَرُهُوا الْسَّيِّئَاتِ أَنْ تَجْعَلُهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحِيمُهُمْ وَمَمَّا هُمْ سَاءٌ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣٢﴾

(١) راجع ج ٦ ص ٦٦ . (٢) آية ٥ سورة فصلت .

نجعلهم سواء، وقرأ الأعمش أيضاً وعيسى بن عمر «وما تهم» بالنصب ؛ على معنى سواء في محياهم وما تهم ؛ فلما أسقط الخافض انتصب . ويحوز أن يكون «محياهم وما تهم» بدلاً من الهاه والميم في نجعلهم ؛ المعنى: أن نجعل محياهم وما تهم سواء كمحياهم الذين آمنوا وما تهم . ويحوز أن يكون الضمير في «محياهم وما تهم» للكفار والمؤمنين جميعاً . قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمناً ويعيث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً . وذكر ابن المبارك أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الصحا عن مسروق قال قال رجل من أهل مكة : هذا مقام تميم الداري ، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأ آية من كتاب الله ويركب ويسبح ويُسجد ويُكثي «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ» الآية كلها . وقال بشير: بت عند الربيع بن خيثم ذات ليلة فقام يصلى فتر بهذه الآية فشك ليله حتى أصبح لم يُعدْها ببكاء شديد . وقال إبراهيم بن الأشعث : كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ، ثم يقول : ليت شعري ! من أى الفريقين أنت ؟ وكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين لأنها محبطة .

قوله تعالى : وَخَلَقَ اللَّهُ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجَزَّ
كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : («وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ») أي بالأمر الحق . ((ولِتُجَزَّ)) أي ولكن تجزى . ((كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)) أي في الآخرة . ((وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)) .

قوله تعالى : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّحَدَ بِإِلَهٍ هُوَنُهُ وَاضْلَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ
وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ
اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

قال ابن عباس والحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ؛ فلا يهوى شيئاً إلا ركبه . وقال عكرمة: أرأيت من جعل إلهه الذي يعبد ما يهواه أو يستحسن ؛ فإذا استحسن

شيئاً وهو يهـ اتـ خـ دـ هـ إـ لـ هـ . قال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ؛ فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر . وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين ؛ لأنـهـ كانـ يـعـبـدـ ماـ تـهـواـهـ نفسهـ . وقال سفيان بن عيينة : إنـماـ عـبـدـواـ الحـجـارةـ لأنـ البيتـ حـجـارةـ . وقيل : المعنى أفرأيت من ينقاد هواهـ ومعبوـدـهـ تعـجـيبـاـ لـذـوـىـ العـقـولـ منـ هـذـاـ الـحـجـهـلـ . وقال الحسن بن الفضل : في هذه الآية تقديم وتأخير ؛ مجازهـ : أفرأيت من اتـ خـ دـ هـ هـواـهـ إـ لـ هـ . وقال الشـعـبـيـ : إنـماـ سـعـيـ المـهـوىـ [هـوـيـ] لأنـهـ يـهـمـوـيـ بـصـاحـبـهـ فـيـ النـارـ . وقال ابن عباس : ما ذـكـرـ اللـهـ هـوـيـ فـيـ الـقـرـآنـ إـلـاـ ذـمـهـ ؛ قال اللـهـ تـعـالـىـ : « وـأـتـبـعـ هـوـاهـ فـمـشـلـهـ كـمـثـلـ (١) الـكـلـبـ » . وقال تـعـالـىـ : « وـأـتـبـعـ هـوـاهـ وـكـانـ أـمـرـهـ فـرـطـاـ » . وقال تـعـالـىـ « بـلـ اتـبـعـ الـذـينـ ظـلـمـوـاـ (٢) أـهـوـاءـهـمـ يـغـيـرـ عـلـمـ فـنـ يـهـدـيـ مـنـ أـضـلـ اللـهـ » . وقال تـعـالـىـ : « وـمـنـ أـضـلـ مـنـ أـتـبـعـ هـوـاهـ يـغـيـرـ (٣) هـدـيـ مـنـ اللـهـ » . وقال تـعـالـىـ : « وـلـاـ تـتـبـعـ هـوـوىـ فـيـضـلـكـ عـنـ سـبـيلـ اللـهـ » . وقال عبد اللهـ ابنـ عمـروـ بـنـ العاصـ عـنـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : « لـاـ يـؤـمـنـ أـحـدـكـمـ حـتـيـ يـكـونـ هـوـاهـ تـبـعـاـ (٤) لـمـ جـئـتـ بـهـ » . وقال أبوـ أمـامـةـ سـمعـتـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـقـولـ : « مـاـ عـيـدـ تـحـتـ السـماءـ إـلـهـ أـبـغـضـ إـلـىـ اللـهـ مـنـ هـوـىـ » . وقال شـدادـ بـنـ أـوـسـ عـنـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : « الـكـيـسـ مـنـ دـانـ نـفـسـهـ وـعـمـلـ لـمـ بـعـدـ المـوتـ . وـالـفـاجـرـ مـنـ أـتـبـعـ نـفـسـهـ هـوـاهـاـ وـتـنـيـ عـلـ اللـهـ » . وقال عـلـيـهـ السـلامـ : « إـذـاـ رـأـيـتـ شـخـاـ مـطـاعـاـ وـهـوـيـ مـتـبـعـاـ وـدـنـيـاـ مـؤـثـرـةـ وـإـعـجابـ كـلـ ذـيـ رـأـيـ بـرـأـيـهـ فـعـلـيـكـ بـخـاصـةـ نـفـسـكـ وـدـعـ عـنـكـ أـمـرـ الـعـامـةـ » . وقال صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : « ثـلـاثـ مـهـلـكـاتـ وـثـلـاثـ مـنـجـياتـ فـالـمـهـلـكـاتـ شـخـ مـطـاعـ وـهـوـيـ مـتـبـعـ وـإـعـجابـ الـمـرـءـ بـنـفـسـهـ . وـالـمـنـجـياتـ خـشـيـةـ اللـهـ فـيـ السـرـ وـالـعـلـانـيـةـ وـالـقـصـدـ فـيـ الغـنـيـ وـالـفـقـرـ وـالـعـدـلـ فـيـ الرـضاـ وـالـغـضـبـ » . وقال أبوـ الدـرـداءـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ : إـذـاـ أـصـبـحـ الرـجـلـ اـجـتـمـعـ هـوـاهـ وـعـملـهـ وـعـلمـهـ ، فـإـنـ كـانـ كـانـ عـملـهـ

(١) آية ١٧٦ سورة الأعراف .

(٢) آية ٢٨ سورة الكهف .

(٣) آية ٢٩ سورة الروم .

(٤) آية ٥ سورة القصص .

(٥) آية ٢٦ سورة ص .

تباعاً لهواه في يومه يوم سوء ، وإن كان عمله تبعاً لعمله في يومه يوم صالح . وقال الأصمي
سمعت رحلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب آسماء * فإذا هويت فقد لقيت هوانا

نُونُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ * إِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانًا

وقال آخر :

إن الموى لهو الموان بعينه * فإذا هويت فقد كسبت هوانا

وإذا هويت فقد تعبدك الهوى * فاخضع لحبك كائناً من كانا

ولعبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامه * لا يُسرى لك عن هواك تزوع

العبد عبد النفس في شهواتها * والhardt يشبع تارةً ويحيطُ

ولاپت درید :

إذا طالبك النفس يوماً بشهوة * وكان إليها للخلاف طريق

فَمَدْعُوها وَخَالِفُ ما هَوَيْتَ فَإِنَّمَا * هُوَكَ عَدُوٌ وَالْخَلَافُ صَدِيقٌ

وَلَا بْنِ عَبْدِ الطُّوسِيِّ :

• والنفس إن أعطيتها منهاها * فاغرة نحو هواها فاها

وقال أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارَىٰ : مَرَرْتُ بِرَاهِبٍ فَوَجَدْتُهُ نَحِيفًا فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ عَلِيلٌ .

قال نعم . قلت مذكّم؟ قال : مذ عرفت نفسى ! قلت فداوى؟ قال : قد أعِنَّى الدواء ،

وقد عزرت على الكَيِّ . قلت وما الكَيِّ ؟ قال : مخالفة المَهْوِيِّ . وقال سهيل بن عبد الله

الْتَّسْتَرِي : هو أك داؤك ؟ فإن خالفته فدواؤك . وقال وهب : إذا شُكِّت في أمرٍ

ولم تدر خيرهم فانظر أبعدهما من هواك فـأته .

وللعلماء في هذا الباب في ذم المهوى ومخالفته كتب وأبواب أشرنا إلى ما فيه كفاية منه؛ وحسبك بقوله تعالى : « وَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْمُهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » ^(١) .

قوله تعالى : « (وَأَضَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) أى على علم قد علمه منه . وقيل : أضله عن التواب على علم منه بأنه لا يستحقه . وقال ابن عباس : أى على علم قد سبق عنده أنه سيضل . مقاتل : على علم منه أنه ضال ؛ والمعنى متقارب . وقيل : على علم من عايد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر . ثم قيل : « على علم » يجوز أن يكون حالا من الفاعل ؛ المعنى : أضله على علم منه به ، أى أضله عالما بأنه من أهل الضلال في سابق علمه . ويجوز أن يكون حالا من المفعول ؛ فيكون المعنى : أضله في حال علم الكافر بأنه ضال . « (وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) أى طبع على سمعه حتى لا يسمع الوعظ ، وطبع على قلبه حتى لا يفقه المهدى . « (وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرَهِ غِشَاوةً) أى غطاء حتى لا يبصر الرشد . وقرأ حمزة والكسائي « غشوة » بفتح الغين من غير ألف ، وقد مضى في « البقرة » . وقال الشاعر :

أَمَا وَالذِّي أَنَا عَبْدُهُ لَهُ * يَمِينًا وَمَالِكًا أَبِدِي الْيَمِينَا
لَئِنْ كُنْتَ أَبْسُتَنِي غَشْوَةً * لَقَدْ كُنْتَ أَصْفِيتُكَ الْوَدُّ حِينَا
(فَقَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ) أى من بعد أن أضلته . « (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) تتعظون وتعرفون
أنه قادر على ما يشاء .

وهذه الآية ترد على القدرية والإمامية ومن سلك سبيلهم في الاعتقاد ، إذ هي مصريحة بمنعهم من المداية . ثم قيل : « وختم على سمعه وقلبه » إنه خارج مخرج الخبر عن أحواهم . وقيل : إنه خارج مخرج الدعاء بذلك عليهم ؛ كما تقدم في أول « البقرة » . وحكى ابن جرير أنها نزلت

(١) آية ٤ سورة النازعات . (٢) في بعض نسخ الأصل : « الموى » بالواو .

(٣) راجع ج ١ ص ١٩١ طبعة ثانية أو ثلاثة .

(٤) راجع ج ١ ص ١٨٦ .

فِي الْحَارِثِ بْنِ قَيْسِ مِنَ الْغِيَاطِلَةِ . وَحَكَى النَّقَاشُ أَنَّهَا نَزَلتَ فِي الْحَارِثِ بْنِ نُوفَّلَ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ . وَقَالَ مَقَاتِلٌ : نَزَلتَ فِي أَبِي جَهَلٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ طَافَ بِالْبَيْتِ ذَاتَ لِيْلَةٍ وَمَعَهُ الْوَلِيدَ ابْنَ الْمُغَيْرَةِ ؛ فَجَهَدْتَ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ أَبُو جَهَلٍ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَصَادِقٌ ! فَقَالَ لَهُ مَهَّا ؟ وَمَا دَلَّكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ ، كَمَا نَسْمَعْتُ فِي صَبَاهُ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ؛ فَلَمَّا تَمَّ عَقْلُهُ وَكَلَّ رِشْدُهُ ، نَسْمَعْتُ الْكَذَابَ الْخَائِنَ ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَصَادِقٌ ! قَالَ : فَمَا يَعْنِيكَ أَنْ تَصْدِقَهُ وَتَؤْمِنَ بِهِ ؟ قَالَ : نَعْدَثُ عَنِ بَنَاتِ قَرِيشٍ أَنِّي قَدْ اتَّبَعْتُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَجْلِ كَمْرَةٍ ، وَاللَّاتِ وَالْعُزْيَى إِنْ اتَّبَعْتُهُ أَبَدًا . فَنَزَّلَتْ « وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِيْهِ وَقَلْبِيْهِ » .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةً أَلَّا دُنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظْنُونَ (١)

قوله تعالى : ((وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةً أَلَّا دُنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)) هذا إنكاراً منهم للآخرة وتکذيب للبعث وإبطال للجزاء، ومعنى «نمات ونجينا» أي نموت نحن ونجينا أولادنا، قاله الكلبي.

وقرئ «ونجينا» بضم النون . وقيل : يموت بعضنا ونجينا بعضنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير، أي نجينا ونمات؛ وهي قراءة ابن مسعود . ((وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)) قال مجاهد : يعني السنين والأيام . وقال قتادة : إلا العمر؛ والمعنى واحد . وقرئ «إلا دهر يمز» . وقال ابن عينية كان أهل الجاهلية يقولون : الدهر هو الذي يهلكنا وهو الذي يحياناً ويعيناً فنزلت هذه الآية . وقال قطرب : وما يهلكنا إلا الموت؛ وأنشد قول أبي ذؤيب :

أَمِنَ الْمَنْوِنَ وَرَبِّهَا نَتَوْجُعُ * وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مَّنْ يَحْزَعُ

(١) في كتاب الاشتقاقي لابن دريد (ص ٧٥ طبع أوربا) : «بنو قيس بن عدى كانوا من رجال قريش يلقون الغياطيل، وكان قيس سيد قريش في دهره غير مدافع». قال : «والغيطيل : جمع غبطة، وهو الشجر الملفت، واختلاط الفلام» .

وقال عكرمة : أى وما يهلك إلا الله . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان أهل الجاهلية يقولون ما يهلك إلا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويمتنا ويحيينا فيسبون الدهر قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم بسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار " .

قلت : قوله " قال الله " إلى آخره نص البخارى ولفظه . وخرجه مسلم أيضا وأبو داود . وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يقوان أحدكم ياخيبة الدهر فإن الله هو الدهر " . وقد استدل بهذا الحديث من قال : إن الدهر من أسماء الله . وقال : من لم يجعله من العلماء اسم إما خرج ردا على العرب في جاهليتها ؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم في هذه الآية ؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أو ضيم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر ؟ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي تضيفونها إلى الدهر فيرجع السب إليه سبحانه ؛ فنحو عن ذلك . ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم ... " الحديث . ولقد أحسن من قال ، وهو أبو علي الثقفي :

يا عاتِ الدهِرِ إِذَا نَابَهُ * لَا تَلِمُ الدهِرَ عَلَى غَدِيرِهِ
الدهِرُ مَأْسُورٌ لَهُ أَمْرٌ * وَيَنْتَهِ الدهِرُ إِلَى أَمْرِهِ
كَمْ كَافِرِ أَمْوَالُهُ جَمَّةُ * تَزْدَادُ أَضْعَافًا عَلَى كُفُرِهِ
وَمُؤْمِنٌ لِيُسْ لَهُ دَرْهَمٌ * يَزْدَادُ إِيمَانًا عَلَى فَقْرِبِهِ

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال : إياك يا بني وذكر الدهر ! وأنشد :

فَالْدَهْرُ بِالْحَانِي لِشَيْءٍ لَهُتِنِهِ * وَلَا جَالِبُ الْبَلَوَى فَلَا تَشْتَمُ الدَهْرَ
وَلَكِنْ مَتِّي مَا يَعْثُثُ اللَّهُ بَاعْثَانِهِ * عَلَى مَعْشَرٍ يَجْعَلُ مِيَاسِيرَهُمْ عُسْرَانِهِ

وقال أبو عبيد : ناظرت بعض الملحدة فقال : ألا تراه يقول "فإن الله هو الدهر" ؟ !

فقلت : وهل كان أحد يسب الله في آباد الدهر ، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى :

إِنَّ مَحَلًا وَإِنَّ مُرْتَحَلًا * وَإِنَّ فِي السَّفَرِ إِذَا مَضَوْا مَهَلًا

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْعَدْ * لَ وَوَلَى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا

قال أبو عبيد : ومن شأن العرب أن يذوقوا الدهر عند المصائب والنوائب ؟ حتى ذكروه

في أشعارهم ، ونسبوا الأحداث إليه . قال عمرو بن قميطة :

رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أُرِي * فَكَيْفَ بْنَ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِ

فَلَوْ أَنْهَا نَبْلَ إِذَا لَاقْتَيْتَهَا * وَلَكِنْتِي أَرْمَى بِغَيْرِ سَهَامِ

عَلَى الرَّاحِتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَاصِ * أَنْوَءُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي

ومثله كثير في الشعر . ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه ، والله سبحانه الفاعل لا رب

سواء . ((وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عَلِمٍ)) أى علم . و « من » زائدة ؛ أى قالوا ما قالوا شاكين .

((إِنَّهُمْ إِلَّا يَظْئُنُونَ)) أى ما هم إلا يتكلمون بالظن . وكان المشركون أصنافاً ، منهم هؤلاء ،

ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث ، ومنهم من كان يشك في البعث ولا يقطع بانكاره .

وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً من المسلمين ؛ فيتأولون ويرون

القيمة موت البدن ، ويرون الشواب والعقارب إلى خيالات تقع للارواح بزعمهم ؛ فشرّ

هؤلاء أضر من شر جميع الكفار ، لأن هؤلاء يُلْبسون على الحق ، ويعترضون عليهم الظاهر .

والمرتكب المعاشر بشركه يحذر المسلم . وقيل : نموت وتحيا آثارنا ؛ فهذه حياة الذكر .

وقيل وأشاروا إلى التناقض ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه في موات فتحيا به .

قوله تعالى : وَإِذَا نُشَرِّلَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيَّنَتْ مَا كَانَ جُنُونُهُمْ إِلَّا أَنْ

قَالُوا آتُنَا يَعَابَ إِنَّا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحِبِّي كُمْ ثُمَّ يُمِيِّتُكُمْ

ثُمَّ يَجْمِعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَا كَنْ أَكْثَرُ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : « وَإِذَا نُشْرِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيْنَاتٍ » أى وإذ نُثْرِلُ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة في جواز البعث لم يكن تم دفع « مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوَا بِآيَاتِنَا » « حُجَّتُهُمْ » خبر كان ، والأيم « إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوَا بِآيَاتِنَا » الموقى نسأله عن صدق ما تقولون ؟ فرد الله عليهم بقوله « قُلِ اللَّهُ يُحِيقُّكُمْ » يعني بعد كونكم نُظفَّأَ أمواتاً (ثم يُعِيشُوكُمْ ثُمَّ يَجْمِعُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) كَا أَحْيَاكُمْ فِي الدُّنْيَا . « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أَنَّ اللَّهَ يَعِدُهُمْ كَا بِدَاهُمْ . الرَّمْخَنِي : « فَإِنْ قَالَتْ لَمْ سَمِّيْ قَوْلُهُمْ حِجَّةٌ وَلِيُسْ بَحْجَةٌ ؟ قَلْتَ : لَأُنْهِمْ أَدْلُوْبَهُ كَا يُدْلِيْ بِالْحَجَّاجَتِهِ ، وَسَاقُوهُ مَسَاوَهَا فَسُمِّيَتْ حِجَّةٌ عَلَى سَبِيلِ التَّهْكِمِ . أَوْ لَأَنَّهُ فِي حِسْبَانِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ حِجَّةٌ . أَوْ لَأَنَّهُ فِي أَسْلُوبِ قَوْلِهِ :

* تَحْيَةٌ بِنَمْهٖ ضَرْبٌ وَجِيعٌ *

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحججة . والمراد نفي أن تكون لهم حجۃ الْبَيْتَةَ . فإن قلت : كيف وقع قوله « قُلِ اللَّهُ يُحِيقُّكُمْ » جواب « ائْتُوَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل ، وحسبوا أن ما قالوه قول مُبَكِّتٌ أَلْزَمُوا مَا هُمْ مفترضون به من أن الله عن وجّل هو الذي يحييهم ثم يميتهم ، وضمّ إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغفوا إلى داعي الحق وهو جمعهم يوم القيمة ، ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآيائهم ، وكان أهون شيء عليه » .

قوله تعالى : وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمٌئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبِطَّلُونَ (٢٧)

قوله تعالى : « وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » خلقاً وملكاً . « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمٌئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبِطَّلُونَ » . يوم « الأول من صوب » « يَخْمَرَ » و « يَوْمَئِذٍ » تكرير للتأكيد

* وخيل قد دلفت لها بخيل *

يقول : إذا تلاقوا في الحرب جعلوا بدلاً من تحية بعضهم البعض لبعض الضرب الوجيع . ودلفت : زحفت . والدليل : مقاربة الخطأ في المعنى .

أو بدل . وقيل : إن التقدير قوله الملك يوم تقوم الساعة . والعامل في « يومئذ » « يخسر » ، ومفعول « يخسر » مذوف ؛ والمعنى يخسرون منازلهم في الجنة .

قوله تعالى : **وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُذْعَنَ إِلَى كِتَابِهَا آمِيلًا**
تُحِزِّزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)

قوله تعالى : **(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً)** أي من هؤلء ذلك اليوم . والأمة هنا : أهل كل ملة . وفي الجائحة تأويلاً نحس : الأول — قال مجاهد : مستوفزة . وقال سفيان : المستوفر الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبته وأطراف أنامله . الضحاك : ذلك عند الحساب . الثاني — مجتمعة ؛ قاله ابن عباس . الفراء : المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين . الثالث — مميزة ؛ قاله عكرمة . الرابع — خاضعة بلغة قريش ؛ قاله مورج . الخامس — باركة على الركب ؛ قاله الحسن . والجثو^(١) : الجلوس على الركب . جثنا على ركبتيه يختو ويحيى جثوا وجثيا^(٢) ؛ على فعلهما ، وقد مضى في « مريم » : وأصل الجثوة : الجماعة من كل شيء . قال طرفة يصف قبرين :

تُرِي جُثُوتَيْنَ مِنْ تَرَابِ عَلَيْهِما * صَفَاعَيْنِ صَمِّ مِنْ صَفِيفِ مَنْصِدٍ (٣)

ثم قيل : هو خاص بالكافر ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : إنه عام للؤمن والكافر انتظارا للحساب . وقد روى سفيان بن عيينة عن عمرو عن عبد الله بن باه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **“كَأَنِّي أَرَاكُمْ بِالْكَوْمِ جَاهِنْ دُونْ جَهَنْ”** ذكره الماوردي . وقال سلمان : إن في يوم القيمة لساعة هي عشر سنين يخت الناس فيها جثة على ركبهم حتى إن إبراهيم عليه السلام لينادي **“لَا أَسْأَلُكُ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي”** . **(٤)** **كُلُّ أُمَّةٍ تُذْعَنَ إِلَى كِتَابِهَا** قال يحيى بن سلام : إلى حسابها . وقيل : إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر .

(١) رابع ج ١١ ص ١٣٢ . (٢) مثلثة الجم .

(٣) الصم : الصلب . والمنصد : الذي جعل بعضه على بعض .

(٤) الكوم : الموضع المشرفة .

قاله مقاتل . وهو معنى قول مجاهد . وقيل : « كاتبها » ما كتب الملائكة عليها . وقيل كاتبها المنزل عليها لينظر هل عملوا بما فيه . وقيل : الكتاب هنا اللوح المحفوظ . وقرأ يعقوب الحضرمي « كُلَّ أُمَّةً » بالنصب على البدل من « كل » الأولى لما في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى ؛ إذ ليس في جُنُونها شئ من حال شرح الجنو كا في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه وهو استدعاها إلى كتابها . وقيل : انتصب بـأعمال « ترى » مضمرا . والرفع على الابتداء . (الْيَوْمَ تَجْزَؤُنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) من خير أو شر .

قوله تعالى : هَذَا كَتَبْنَا يَنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْخِنُ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١)

قوله تعالى : (هَذَا كَتَبْنَا) قيل من قول الله لهم . وقيل من قول الملائكة . (يَنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ) أي يشهد . وهو استعارة ؛ يقال : نطق الكتاب بكتابه أى بين . وقيل : إنهم يقرءونه فيذكرهم الكتاب ما عملوا ؛ فكانه ينطق عليهم ؛ دليلا قوله : « وَيَقُولُونَ يَا وَيَلْتَسْخَنَ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » . وفي المؤمنين : « وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطَقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » وقد تقدم . و « يَنْطَقُ » في موضع الحال من الكتاب ، أو من ذا ، أو خبر ثان لهذا ، أو يكون « كتابنا » بدلا من « هذا » و « ينطق » الخبر . (إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْخِنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي نامر بنسخ ما كنتم تعملون . قال علي رضي الله عنه : إن الله ملائكة يتزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم . وقال ابن عباس : إن الله وكل ملائكة مطهرين فينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما يكون من أعمال بني آدم فيعارضون حفظة الله على العباد كل خميس ، فيجدون ما جاء به الحفظة من أعمال العباد موافقا لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب لا زيادة فيه ولا نقصان . قال ابن عباس : وهل يكون النسخ إلا من كتاب . الحسن : نستنسخ ما كتبته الحفظة

(١) آية ٤٩ سورة الكهف

(٢) آية ٦٢ سورة المؤمنون .

(٣) راجع ج ١٠ ص ٤١٨ و ج ١٢ ص ١٣٤

على بني آدم ؛ لأن الحفظة ترفع إلى الخزنة صحائف الأعمال . وقيل : تحمل الحفظة كل يوم ما كتبوا على العبد ، ثم إذا عادوا إلى مكانهم تُسخ منه الحسنات والسيئات ؛ ولا تحول المباحثات إلى النسخة الثانية . وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله عن وجل أمر بأن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعذاب ، ويسقط من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عذاب .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُؤْتَوْهُمْ رَحْمَةً فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّمَا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ إِيمَانُكُمْ نُشَانًا عَلَيْكُمْ فَأَسْتَكْبِرُونَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (فَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُؤْتَوْهُمْ رَحْمَةً فِي رَحْمَتِهِ) أى الجنة (ذلك هو الفوز المبين . وإنما الذين كفروا أفلام تُكَفَّنْ آياتي نُشَانًا عَلَيْكُمْ) أى في قال لهم ذلك . وهو استفهام توبيخ . (فَأَسْتَكْبِرُونَ) عن قبولها . (وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ) أى مشركون تكسبون المعاصي . يقال : فلان جريمة أهله إذا كان كاسِبَهـ ؛ فال مجرم من أَكَسَبَ نَفْسَهُ الْمُعَاصِي . وقد قال الله تعالى : «أَفَنَجْعَلُ الْمُسَاءِنَ كَالْمُجْرِمِينَ» فال مجرم ضد المسلم فهو المذنب بالكفر إذا .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدِرِي مَا الْسَّاعَةُ إِنْ نَظُنَّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِنِينَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أى البعث كائن . (والسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا) وقرأ حمزة «والسَّاعَةُ» بالنصب عطفا على «وَعْدَ» . الباقيون بالرفع على الابتداء ، أو العطف

(١) آية ٣٥ سورة القلم .

على موضع «إن وعد الله» . ولا يحسن على الضمير الذي في المصدر ، لأنَّه غير مؤكَّد ، والضمير المرفوع إنما يعطى عليه بغير تأكيد في الشعر . (فُلْتَمْ مَا نَذَرَيْ مَا السَّاعَةَ) هل هي حق أم باطل . (إِنَّنَّا نَظَنُ إِلَّا ظَنًا) تقديره عند المبد : إنَّنَّا نَظَنُ إِلَّا ظَنَ ظَنًا . (وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِينَ) أنَّ الساعة آتية .

قوله تعالى : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِرِسْمِ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهِزُونَ (٢٣)

قوله تعالى : (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) أى ظهر لهم جزاء سيئات ما عملوا .
(وَحَاقَ بِهِمْ) أى نزل بهم وأحاط . (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ) من عذاب الله .

قوله تعالى : وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْكُنُ كَمَا سِيَّطْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
وَمَا وَلَكُمْ أَنَارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَصِيرٍ (٢٤)

قوله تعالى : (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْكُنُمْ) أى ترکكم في النار كما تركتم لقاء يومكم هذا ،
أى تركتم العمل له . (وَمَا وَلَكُمُ النَّارُ) أى مسكنكم ومستقركم . (وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَاصِيرٍ) من ينصركم .

قوله تعالى : ذَلِكُمْ يَأْنَكُمْ أَنْتَمُ اتَّحَدْتُمْ إِذَا يَأْتِيَ اللَّهُ هُرُواً وَغَرَّتُكُمْ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَطُونَ (٢٥)

قوله تعالى : (ذَلِكُمْ يَأْنَكُمْ أَنْتَمُ اتَّحَدْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ) يعني القرآن . (هُرُواً) اهبا .
(وَغَرَّتُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أى خدعتكم بإباطيلها وزخارفها ؛ فظننتم أنَّ ليس ثمَّ غيرها ،
وأنَّ لا يبعث . (فَالْيَوْمَ لَا يُخْرُجُونَ مِنْهَا) أى من النار . (وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَطُونَ) يسترضون .
وقد تقدم . وقرأ حمزة والكسائي «فالْيَوْمَ لَا يُخْرُجُونَ» بفتح الياء وضم الراء ؛ لقوله تعالى :

(١) راجع ج ١٠ ص ١٦٢ وج ١٤ ص ٤٩ وج ١٥ ص ٣٥٣

«كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أَعْدُوا فِيهَا» الباقيون بضم الياء وفتح الراء ، لقوله تعالى :
 «رَبَّنَا أَنْحِرْ جَنَّا» . ونحوه .

قوله تعالى : فَلَهُ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١)
 وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

قوله تعالى : (فَلَهُ الْحَمْدُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ) قرأ مجاهد
 وحميد وابن محيصن «رب السموات ورب الأرض رب العالمين» بالرفع فيها كلها على معنى
 هو رب . ((وله الكبriاء)) أى العظمة واللال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال .
 ((في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)) والله أعلم .

سورة الأحقاف

مكة في قول جميعهم . وهي أربع وثلاثون آية ، وقيل خمس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَدٌ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَاجْلِ مُسْمَى وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)

قوله تعالى : (حَمَدٌ تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) تقدم . ((ما خلقنا السموات
 والأرض وما بينهما إلا بالحق)) تقدم أيضا . ((وَاجْلِ مُسْمَى)) يعني القيامة ، في قول
 ابن عباس وغيره . وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض . وقيل : إنه هو الأجل

(١) آية ٢٠ سورة السجدة . (٢) راجع ص ١٥٦ من هذا الجزء .

المقدور لكل مخلوق . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنذِرُوا) خُوْفُوه (مُعَرْضُونَ) مُولَّون لا هون غير مستعدّين له . ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ؛ أى عن إنذارهم ذلك اليوم .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونَى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شَرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَشْتُوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثْرَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى ما تعبدون من الأصنام والأنداد من دون الله . (أَرُونَى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أى هل خلقوا شيئاً من الأرض (أَمْ لَهُمْ شَرْكٌ) أى نصيب (فِي السَّمَاوَاتِ) أى في خلق السموات مع الله . (أَشْتُوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا) أى من قبل هذا القرآن .

الثانية — قوله تعالى : (أَوْ أَثْرَةً مِنْ عِلْمٍ) فراءة العامة « أو أثارة » بالف بعد الشاء . قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " هو خطأ كانت تخطه العرب في الأرض " . ذكره المهدوى والتعليق . قال ابن العربي : ولم يصح . وفي مشهور الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان نبي من الأنبياء يخطئ فلن وافق خطأه فذاك " . ولم يصح أيضاً .

قلت : هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمى ، خرجه مسلم ، وأسنده النحاس :
حدثنا محمد بن أحمد (يعرف بالحراري) قال حدثنا محمد بن بندار قال حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان الثورى عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عن وجع « أو أثارة من علم » قال " الخطأ " وهذا صحيح أيضاً . قال ابن العربي : واختلفوا في تأويله ؛ ف منهم من قال : جاء لإباحة الضرب ؛ لأن بعض الأنبياء كان يفعله .

(١) اضطررت الأصول في كتابة هذه النسبة .

ومنهم من قال جاء للنبي عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال : "فن وافق خطه فذاك" ولا سبيل إلى معرفة طريق النبي المتقدم فيه ، فإذا لا سبيل إلى العمل به . قال :
 لعمري ما تدرى الضوارب بالحصا * ولا زاجرات الطير ما الله صانع^(١)

وحقiqته عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب ، فيدل ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكب من سعد أو نحس يحل بهم ، فصار ظناً مبيناً على ظن ، وتعلقاً بأمر غائب قد درست طريقه وفاته تحقيقه ؛ وقد نهت الشريعة عنه ، وأخبرت أن ذلك مما اخض الله به ، وقطعه عن الخلق ، وإن كانت لهم قبل ذلك أسباب يتعلقون بها في درك الأشياء المغيبة ، فإن الله قد رفع تلك الأسباب وطمسم تيك الأبواب وأفرد نفسه بعلم الغيب ؛ فلا يجوز مراجعته في ذلك ، ولا يحل لأحد دعواه . وطلبه عناء لم يكن فيه نهي ؛ فإذا وقد ورد النهى فطلب معصية أو كفر بحسب قصد الطالب .

قالت : ما اختاره هو قول الخطابي . قال الخطابي : قوله عليه السلام : "فن وافق خطه فذاك" هذا يتحمل الزجر إذ كان ذلك علماً لنبوته وقد انقطعت ، فمبتنا عن التعاطي لذلك . قال القاضي عياض : الأظهر من اللفظ خلاف هذا ، وتصوّب خط من يوافق خطه ، لكن من أين تعلم الموافقة والشرع منع من التحرّص وأداء الغيب جملة – فاما معناه أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته ؛ لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم . وحكي مكي في تفسير قوله : "كان نبي من الأنبياء يخط" "أنه كان يخط بأصبعه السباقة والوسطى في الرمل ثم يزجر . وقال ابن عباس في تفسير قوله "ومنا رجال يخطون" : هو الخط الذي يخطه الحازى فيعطي حلواناً فيقول : أقعد حتى أخط لك ؛ وبين يدي الحازى غلام معه ميل ثم يأتي إلى أرض رخوة فيخط الأستاذ خطوطاً معجلة لثلا يلحقها العدد ، ثم يرجع فيما يحو على مهل خطين خطين ، فإن يقع خطانا فهو علامه النجاح ، وإن يقع خط فهو علامه الخيبة . والعرب تسميه الأئسم وهو مشئوم عندهم .

(١) البيت للبيه ، والرواية فيه : « الطوارق » بدل « الضوارب » . والطريق : الضرب بالحصا . والطوارق المتكهنات .

(٢) الحازى : الكاهن .

الثالثة — قال ابن العربي : إن الله تعالى لم يُبِقْ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعليق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا ، فإنه أذن فيها ، وأخبر أنها جزء من النبوة وكذلك الفأل ، وأما الطَّيِّرة والزَّجْر فإنَّه نهى عنهما . والفال : هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على ما يريد من الأمر إذا كان حسنا ، فإن سمع مكروها فهو تطير ، أمره الشرع بأن يفرح بالفأل ويعضى على أمره مسرورا . وإذا سمع المكرورة أعراض عنه ولم يرجع لأجله ، وقد قال النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ لَا طَيْرٌ إِلَّا طَرِيكَ وَلَا خَيْرٌ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا إِلَهٌ غَيْرُكَ ». وقد روى بعض الأدباء :

الفأل والزجر والكهان كلام * مضللون دون الغيب أفال

وهذا كلام صحيح ، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأمر به ، فلا يقبل من هذا الشاعر ما نظمه فيه ، فإنه تكلم بجهل ، وصاحب الشرع أصدق وأعلم وأحكم .

(١) قلت : قد مضى في الطَّيِّرة والفال وفي الفرق بينهما ما يكتفى في « المائدة » وغيرها .

ومضى في « الأنعام » أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب ، وأن أحدا لا يعلم ذلك إلا ما أعلمه الله ، أو يجعل على ذلك دلالة عادية يعلم بها ما يكون على جرِّ العادة . وقد يختلف مثاله إذا رأى نخلة قد أطلعت فإنه يعلم أنها ستثمر ، وإذا رأها قد تناثر طلعها علم أنها لا تثمر . وقد يجوز أن يأتي عليها آفة تملاك ثمرة فلا تثمر ، كما أنه جائز أن تكون النخلة التي تناثر طلعها يطلع الله فيها طلعا ثانيا فتثمر . وكما أنه جائز أيضا لا يليل شهرة شهر ولا يومه يوم إذا أراد الله إفشاء العالم ذلك الوقت . إلى غير ذلك مما تقدم في « الأنعام » بيانه .

الرابعة — قال ابن خَوَّازِمَنْدَاد : قوله تعالى : « أَوْ أَثَارَةً مِنْ عِلْمٍ » يريد الخلط .

وقد كان مالك رحمة الله يحكم بالخلط إذا عرف الشاهد خطه . وإذا عرف الحاكم خطه أو خط من كتب إليه حكم به ، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الجيل والتزوير . وقد روى عنه أنه قال : « يحيَّدُ النَّاسُ بِغُورِهِ فَتَحَدَّثُ لَهُمْ أَقْصِيَّةٌ » . فاما إذا شهد الشهود على الخلط المحكوم به ، مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابه ،أشهدهنا على

(٢) راجع ج ٦ ص ٥٩ وما بعدها .

(١) راجع ج ٦ ص ٥٩ وما بعدها .

ما فيه وإن لم يعلموا ما في الكتاب . وكذلك الوصية أو خط الرجل باعترافه بمال غيره يشهدون أنه خطه ونحو ذلك — فلا يختلف مذهبـه أنه يحكم به . وقيل : « أو أثارة من علم » أو بقية من علم ؛ قاله ابن عباس والكلبي وأبو بكر بن عياش وغيرهم . وفي الصبحان « أو أثارة من علم » بقية منه . وكذلك الآثارـة (بالتحريك) . ويقال : سبنت الإبل على أثارـة ؟ أى بقية شحم كان قبل ذلك . وأنشد الماوردي والشعلي قول الراعي :

وَذَاتِ أَثَارَةَ أَكْلَتْ عَلَيْهَا * نِسَاتاً فِي أَكْنَهِ فَفَارَا

وقال الهروىـ : والأثارة والأثرـ : البقية ؛ يقال : ما ثـم عين ولا أثرـ . وقال ميمون بن مهران وأبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : « أو أثارة من علمـ » خاصة من علمـ . وقال مجاهد : روايةـ تأثـرـونـها عـنـ كـانـ قـبـلـكـ . وقال عـكرـمةـ وـمـقـاتـلـ : روايةـ عنـ الأـنـيـاءـ . وقال القرـاطـىـ : هو الإسنـادـ . الحـسـنـ : المعـنىـ شـيـءـ يـشارـ أـوـ يـسـتـخـرـجـ . وـقـالـ الزـجاجـ : « أو أثـرـةـ » أـىـ عـلـامـةـ . والأـثـارـ مصدرـ كالـسـيـاحـةـ وـالـشـجـاعـةـ . وأـصـلـ الـكـلـمـةـ منـ الأـثـرـ ، وـهـيـ الروـاـيـةـ ؛ يـقالـ : أـثـرـتـ الـحـدـيـثـ آـثـرـهـ آـثـرـاـ وـآـثـارـةـ وـآـثـرـةـ فـاـنـاـ آـثـرـ ؛ إـذـاـ ذـكـرـتـهـ عـنـ غـيرـكـ . وـمـنـهـ قـيلـ :

حـدـيـثـ مـائـورـ ؛ أـىـ نـقـلـهـ خـلـفـ عـنـ سـلـفـ . قـالـ الأـعـشـىـ :

إـنـ الـذـىـ فـيـهـ تـمـارـيـثـ * بـيـنـ لـلـسـامـعـ وـالـأـثـرـ

ويروىـ « بـيـنـ » وـقـرـئـ « أوـ أـثـرـةـ » بـضمـ الـهـمـزـةـ وـسـكـونـ الثـاءـ . وـيـجـوزـ أـنـ يـكـونـ معـناـهـ بـقـيـةـ منـ عـلـمـ . وـيـجـوزـ أـنـ يـكـونـ معـناـهـ شـيـئـاـ مـائـورـاـ مـنـ كـتـبـ الـأـقـلـينـ . وـالـمـائـورـ : مـاـ يـخـدـثـ بـهـ مـاـ صـحـ سـنـدـهـ عـنـ تـحـدـثـ بـهـ عـنـهـ . وـقـرـأـ السـلـمـيـ وـالـحـسـنـ وـأـبـوـ رـجـاءـ بـفتحـ الـهـمـزـةـ وـالـثـاءـ مـنـ غـيرـ أـلـفـ ؛ أـىـ خـاصـةـ مـنـ عـلـمـ أـوـ يـتـمـوـهـاـ أـوـ أـثـرـتـهـ بـهـ عـلـىـ غـيرـكـ . وـرـوـيـ عـنـ الـحـسـنـ أـيـضـاـ وـطـائـفـةـ « أـثـرـةـ » مـفـتوـحـةـ الـأـلـفـ سـاـكـنـةـ الـثـاءـ ؛ ذـكـرـ الـأـوـلـىـ الشـعـلـيـ وـالـثـانـيـةـ الـمـاوـرـدـيـ . وـحـكـيـ الشـعـلـيـ عـنـ عـكـرـمـةـ : أـوـ مـيرـاثـ مـنـ عـلـمـ . (« إـنـ كـنـتـمـ صـادـقـيـنـ ») .

الـخـامـسـةـ — قـولـهـ تـعـالـىـ : (« اتـشـوـنـيـ يـكـابـ مـنـ قـبـلـ هـذـاـ أـوـ أـثـارـةـ مـنـ عـلـمـ ») فـيـهـ بـيـانـ مـسـالـكـ الـأـدـلـةـ بـأـسـرـهـاـ ؛ فـأـقـلـهـاـ الـمـعـقـولـ ، وـهـوـ قـولـهـ تـعـالـىـ : (« قـلـ أـرـأـيـتـ مـاـ تـدـعـونـ مـنـ دـوـنـ »)

الله أراني ماذا خلقو من الأرض أم هم شرك في السموات) وهو احتجاج بدليل العقل في أن الجماد لا يصح أن يدعى من دون الله فإنه لا يضر ولا ينفع . ثم قال : « ائتوني بكتاب من قبل هذا » فيه بيان أدلة السمع « أو أثارة من علم » .

قوله تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ
إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ أَضَلُّ) أى لا أحد أضل وأجهل (مِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) وهى الأوثان . (وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)
يعنى لا يسمعون ولا يفهمون ؛ فأنحرجها وهى جماد مخرج ذكور بني آدم ؛ إذ قد مثلتها
عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم .

قوله تعالى : وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا هُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا يَعْبَادُهُمْ

كُفَّارِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ) يريد يوم القيمة . (كَانُوا هُمْ أَعْدَاءُ) أى
هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيمة . فالملاكية أعداء الكفار ، والجن والشياطين
يتبرعون غداً من عبادتهم ، ويعلن بعضهم بعضاً . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين
عبدوها أعداء ؛ على تقدير خلق الحياة لها ؛ دليله قوله تعالى : « تَبَرَّأَنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيمَاناً
عَبَدُونَ » . وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكم ، وبحمد المعبودون
عبادتهم ؛ وهو قوله (وَكَانُوا يَعْبَادُهُمْ كَافِرِينَ) .

قوله تعالى : وَإِذَا تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَا يَعْتَدُونَ قَالَ الظَّالِمُونَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ

لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

(١) آية ٦٣ سورة القصص .

قوله تعالى : (وَإِذَا تُشْلَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَاتٍ) يعني القرآن . (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا يَسْخَرُونَ) .

قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْيِضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ) الميم صلة ؛ التقدير : أ يقولون افتراه ؛ أى تقوله
محمد . وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سخرا . ومعنى الهمزة في «أم» «الإنكار
والتعجب ؛ كأنه قال : دع هذا وأسمع قوله المستنكرون» منه العجب . وذلك أن محدثا
كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويقتريه على الله ، ولو قدر عليه دون أمة العرب ل كانت قدرته
عليه معجزة نحرقها العادة ، وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من الله له ، والحكم لا يصدق
الكافر فلا يكون مفتريا ، والضمير للحق ، والمراد به الآيات . (قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ) على
سبيل الفرض . (فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) أى لا تقدرون على أن تردوا عن عذاب
الله ؛ فكيف أفترى على الله لأجلكم . (هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْيِضُونَ فِيهِ) أى تقولونه ؛ عن
مجاهد . وقيل : تخوضون فيه من التكذيب . والإفادة في الشيء : الخوض فيه والاندفاع .
أفاضوا في الحديث أى اندفعوا فيه . وأفاض البعير أى دفع حربته من كرشة فانحرجها ؛ ومنه

قول الشاعر :

(١)

(١) هذا بعنوان «حقيبة الأبراق» ، وصدره كما في معجم البلدان لياقوت في «حقيبة» :

* من ذى الأبراق إذ رعن حقبلا *

وذو الأبراق وحقبيل : موضع واحد . يقول : كن كثروا من العطش (والكافر من الإبل الذي أمسك عن
الشربة) ، فلما ابتل ما في بطونها أفنن بحيرة .

وأفاض الناس من عرفة إلى متى أى دفعوا، وكل دفعة إفاضة . ((كَفَىٰ يَهُ شَهِيدًا))
نصب على التمييز . ((يَتَّبِعُونَ وَيَتَّبَعُوكُمْ)) أى هو يعلم صدق وأنكم مبطلون . ((وَهُوَ الْغَفُورُ))
لمن تاب ((الرَّحِيمُ)) بعباده المؤمنين .

قوله تعالى : قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاٰ مِنَ الرَّسُولِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي
وَلَا يَعْلَمُ إِنْ أَتَتْ بِإِلَآ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ((قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَاٰ مِنَ الرَّسُولِ)) أى أقول من أرسل ، قد كان قبل رسل ؟
عن ابن عباس وغيره . والبداع : الأول . وقرأ عكرمة وغيره « بِدُعَا » بفتح الدال ، على تقدير
حذف المضاف ؛ والمعنى : ما كنت صاحب بداع . وقيل : بداع وبداع بمعنى ؛ مثل
نصف ونصيف . وأبدع الشاعر : جاء بالبداع . وشيء بداع (بالكسر) أى مبتدع .
وفلان بداع في هذا الأمر أى بداع . وقوم أبداع ؛ عن الأخفش . وأنشد قطرب قول
عدي بن زيد :

فلا أنا بداع من حوادث تعترى * رجالاً غدت من بعد بؤسى بأسعد
((وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَعْلَمُ)) يزيد يوم القيمة . ولما نزلت فرح المشركون واليهود
والمنافقون وقالوا : كيف نتعذر نياً لا يدرى ما يفعل به ولا بنا ، وأنه لا فضل له علينا ، ولو لا
أنه ابتدع الذى يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذى بعثه بما يفعل به ؛ فنزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ
مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنِبِكَ وَمَا تَاءَرَ » فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت
الصحابة : هبنا لك يا رسول الله ، لقد بين الله لك ما يفعل بك يا رسول الله ، فليت شعرنا
ما هو فاعل بنا ؟ فنزلت « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْمِلَهَا الْأَنْهَارُ » الآية .
ونزلت « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَيْرًا » . قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن
وعكرمة والضحاك . وقالت أم العلاء امرأة من الأنصار : اقسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان

(١) هنا رواية البيت كما في نسخ الأصل . والذى في شعراء النصرانية :

ظلست من يخشى حوادث تعترى * رجالاً فبادوا بعد بؤس وأسعد

(٢) آية ٤٧ سورة الفتح . (٣) آية ٥ سورة الفتح . (٤) آية ٤٧ سورة الأحزاب .

ابن مَظْعُونَ بْنَ حُدَيْفَةَ بْنَ جُمَّعَ، فَأَنْزَلَنَاهُ أَبِيَاتًا قُتُوفِيَّةً، فَقَالَتْ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ! إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُكَ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "وَمَا يَدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُهُ" ؟ فَقَالَتْ : بَابِي وَأُمِّي يَارَسُولُ اللَّهِ ! فَمَنْ ؟ قَالَ : "أَمَا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَمَا رَأَيْنَا إِلَّا خَيْرًا فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَوَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ" . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ لَا أَزْكَى بَعْدِهِ أَحَدًا أَبِيدًا . ذَكْرُهُ التَّعْلِيَّ ، وَقَالَ : وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا حِينَ لَمْ يَعْلَمْ بِغَفْرَانِ ذَنْبِهِ ، وَإِنَّمَا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَهُ فِي غَنْوَةِ الْحَدِيدِيَّةِ قَبْلَ موْتِهِ بِأَرْبَعِ سَنِينِ .

قلت : حديث أم العلاء خرجه البخاري ، وروايتي فيه : " وما أدرى ما يفعل به " ليس فيه " بي ولا بكم " وهو الصحيح إن شاء الله ، على ما يأتي بيانه . والآية ليست منسوخة ؟ لأنها خبر . قال النحاس : محال أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين : أحدهما أنه خبر ، والآخر أنه من أول السورة إلى هذا الموضع خطاب للشركين واحتجاج عليهم وتبين لهم ؛ فوجب أن يكون هذا أيضا خطابا للشركين كما كان قبله وما بعده ، ومحال أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم للشركين " ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم " في الآخرة ؛ ولم يزل صلى الله عليه وسلم من أول مبعثه إلى مماته يخبر أن من مات على الكفر مخلد في النار ، ومن مات على الإيمان وأتبعه وأطاعه فهو في الجنة ؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم ما يفعل به وبهم في الآخرة ، وليس يجوز أن يقول لهم ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة ؛ فيقولون كيف تتبعك وأنت لا تدرى أنت تسير إلى خفض ودعة أم إلى عذاب وعقاب . وال الصحيح في الآية قول الحسن ، كما قرأ علي بن محمد بن جعفر بن حفص عن يوسف بن موسى قال حدثنا وكيف قال حدثنا أبو بكر المذلي عن الحسن « وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا » قال أبو جعفر : وهذا أصح قول وأحسنه ، لا يدرى صلى الله عليه وسلم ما يلحقه وإياهم من مرض وصحبة ورخص وغلاء وغنى وفقر . ومثله « ولو كنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنَّمَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبُشِّيرٌ » . وذكر الواحدى وغيره عن الكلبى عن أبي صالح عن

(١) آية ١٨٨ سورة الأعراف .

ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلمرأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكتعوا برهة لا يرون ذلك فقالوا : يا رسول الله ، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم » أي لا أدرى أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا . ثم قال : « إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يوح إلى » أي لم يوح إلى ما أخبرتكم به . قال القشيري : فعل هذا لا نسخ في الآية . وقيل : المعنى لا أدرى ما يفرض على وعليكم من الفرائض . واختار الطبرى أن يكون المعنى : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم في الدنيا ، أتومنون أم تكفرون ، أم تعاجلون بالعذاب أم تؤخرنون .

قالت : وهو معنى قول الحسن والسدى وغيرهما . قال الحسن : ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أما في الآخرة فمعاذ الله ! قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل ، ولكن قال ما أدرى ما يفعل بي في الدنيا أخرج الأنباء قبل ، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبل ، ولا أدرى ما يفعل بكم ؛ ألمى المصدقة أم المكذبة ، أم أمتى المرمية بالحجارة من السماء قدفاً ، أو منسوف بها خسفاً ؛ ثم نزلت « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ^(١) . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال في أمته : « وما كان الله ليغفر لهم وانت فيهم » ^(٢) . فأخبره تعالى بما يصنع به وبآمنته ، ولا نسخ على هذا كله ، والحمد لله . وقال الصحاوك أيضاً : « ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم » أي ما تؤمنون به وتنهون عنه . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين ما أدرى ما يفعل بي ولا بكم في القيمة ؛ ثم بين الله تعالى ذلك في قوله : « لِغَفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْدَمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ » وبين فيما بعد ذلك حال المؤمنين ثم بين حال الكافرين .

قالت : وهذا معنى القول الأول ؛ إلا أنه أطلق فيه النسخ بمعنى البيان ، وأنه أمر أن يقول ذلك للمؤمنين ، وال الصحيح ما ذكرناه عن الحسن وغيره ^(٣) . و « ما » في « ما يفعل » يجوز أن

(١) آية ٣٣ سورة التوبه . (٢) آية ٣٣ سورة الأنفال .

تكون موصولة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . ((إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)) وقرئ «يُوْحَى » أى الله عن وجل . تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَعَامَنَ وَأَسْتَكْبَرُتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِيءِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)) يعني القرآن . ((وَكَفَرْتُمْ بِهِ)) وقال الشعبي : المراد به صلى الله عليه وسلم . ((وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)) قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة وبجاهد : هو عبد الله بن سلام ، شهد على اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور في التوراة ، وأنه نبي من عند الله . وفي الترمذى عنه : وزرات في آيات من كتاب الله ، نزلت في « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَعَامَنَ وَأَسْتَكْبَرُتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِيءِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » . وقد تقدم في آخر سورة « الرعد » . وقال مسروق : هو موسى والتوراة ، لا ابن سلام ؛ لأنَّه أسلم بالمدينة والسوارة مكية . وقال : قوله « وَكَفَرْتُمْ بِهِ » مخاطبة لقريش . الشعبي : هو من آمن من بنى إسرائيل بموسى والتوراة ؛ لأنَّ ابن سلام إنما أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعامين ، والسوارة مكية . قال القشيري : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سلام قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بعامين . ويحوز أن تكون الآية زالت بالمدينة وتوضع في سورة مكية ؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبي صلى الله عليه وسلم ضعوها في سورة كذا . والآية في محاجة المشركين ، ووجه الجهة أنهم كانوا يرجعون اليهود في أشياء ؛ أى شهادتهم لهم وشهادة نبيهم لي من أوضح المخرج . ولا يبعد أن تكون السورة في محاجة اليهود ، ولما جاء ابن سلام مسلماً من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال : يا رسول الله ، اجعلنى حَكَماً بينك وبين اليهود ، فسألهم عنه : « أى رجل هو فيكم » قالوا : سيدنا وعلمنا . فقال : « إنه قد آمن بي » فأساءوا القول فيه .. الحديث ،

(١) رابع ج ٩ ص ٣٢٥

(١) وقد تقدم . قال ابن عباس : رضيت اليهود بحكم ابن سلام ، وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن يشهد لك آمنا بك ؛ فسئل فشهد ثم أسلم . (على مثله) أي على مثل ما جثتم به ؛ فشهد موسى على التوراة و Muhammad على القرآن . وقال الجرجاني . «مثل» صلة ، أي وشهد شاهد عليه أنه من عند الله . (فَآمَنَ) أي هذا الشاهد . (وَاسْتَكْبَرُتُمْ) أتم عن الإيمان . وجواب «إن كان» مهدوف تقديره : فآمن أو ثمنون ؛ قاله الزجاج . وقيل : «فآمن واستكبرتم» أليس قد ظلمتم ؟ سينه (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وقيل : «فآمن واستكبرتم» أفتؤمنون عذاب الله . و «رأيتم» لفظ موضوع للسؤال والاستفهام ؛ ولذلك لا يقتضي مفعولا . وحكي النقاش وغيره : إن في الآية تقديرها وتأخيرها ، وتقديره : قلرأيتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل فآمن هو وكفرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا
إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا يَهْدِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْلُكُ قَدِيمٌ^(١)
قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) اختلف
في سبب نزولها على ستة أقوال :

الأول - أن أباذر الغفارى دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام بمكة فأجاب ، واستجار به قومه فأتاه زعيمهم فأسلم ، ثم دعاهم الرعيم فأسلموا ؛ فبلغ ذلك قريشا فقالوا : غفار الحلفاء لو كان هذا خيرا ما سبقونا إليه ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو الم وكل .

الثانى - أن زينة أسلمت فأصيب بصرها فقالوا لها : أصابك اللات والعزى ؟ فرد الله عليها بصرها . فقال عظاء قريش : لو كان ما جاء به مهد خيرا ما سبقتنا إليه زينة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ قاله عروة بن الزبير .

(١) راجع ج ٩ ص ٣٣٥ (٢) كما في نسخ الأصل . ويلاحظ أن المؤلف رجحه الله ذكر خمسة أقوال .

(٢) زينة (بكسر الزاي وتشديد النون المكسورة) : رومية ، وكانت من السابقات إلى الإسلام ، ومن يذهب في الله ، وكان أبو جهل يعذبها ، وهي من السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق وأنفذهم من التعذيب .

الثالث — أن الذين كفروا هم بنو عاص وغطfan وقيم وأسد وحنظلة وأشجع ، قالوا
لمن أسلم من غفار وأسلم وجهينة ومزينة ونراعة : لو كان ما جاء به مهد خيرا ما سبقتنا إليه
رعاة البهيم إذ نحن أعزهم ؛ قاله الكلبي والزجاج ، وحكاه القشيري عن ابن عباس ، وقال
قتادة : نزلت في مشركي قريش ، قالوا : لو كان ما يدعونا إليه مهد خيرا ما سبقنا إليه بلال
وصهيب وعمار وفلان وفلان . وهو القول الرابع .

القول الخامس — أن الذين كفروا من اليهود قالوا الذين آمنوا يعني عبد الله بن سلام
وأصحابه : لو كان دين مهد حقاً ما سبقونا إليه ؛ قاله أكثر المفسرين ، حكاه الشعابي . وقال
مسروق : إن الكفار قالوا لو كان خيرا ما سبقتنا إليه اليهود ؛ فنزلت هذه الآية .

وهذه المعارضة من الكفار في قوله : لو كان خيرا ما سبقونا إليه من أكبر المعارضات
بانقلابها عليهم لكل من خالفهم ؛ حتى يقال لهم : لو كان ما أنت عليه خيرا ما عدلنا عنه ،
لو كان تكذيبكم للرسول خيرا ما سبقتمونا إليه ؛ ذكره الماوردي . ثم قيل : قوله « ما سبقونا
إليه » يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين ، ويجوز أن يكون على الخروج من
الخطاب إلى الغيبة ؛ كقوله تعالى « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرِينَ إِلَيْهِمْ » (١) . « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا
إِلَيْهِمْ » يعني الإيمان . وقيل مهد صلى الله عليه وسلم . (فَسَيِّقُولُونَ هَذَا إِلَيْكُ قَدِيمٌ)
أى لما يصيروا المهد بالقرآن ولا بن جاء به عادوه ونسبوه إلى الكذب ، وقالوا هذا
إفك قديم ؟ كما قالوا : أساطير الأولين . وقيل لبعضهم : هل في القرآن : من جهل شيئاً
عاده ؟ فقال نعم ؟ قال الله تعالى : « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ فَسَيِّقُولُونَ هَذَا إِلَيْكُ قَدِيمٌ » ومثله
« بل كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » (٢) .

قوله تعالى : وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كَتَبْ
مَصْدِيقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَى لِلْمُحْسِنِينَ (٣)

(١) آية ٢٢ سورة يونس . (٢) آية ٣٩ سورة يونس .

قوله تعالى : «(وَمِنْ قَبْلِهِ)» أى ومن قبل القرآن (كتاب موسى) أى التوراة (إماماً) يقتدى بما فيه (ورحمة) من الله . وفي الكلام حذف ، أى فلم تهتدوا به . وذلك أنه كان في التوراة نعمت النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان به فتركتوا ذلك . و «إماماً» نصب على الحال ، لأن المعنى : وتقديمه كتاب موسى إماماً . «ورحمة» معطوف عليه . وقيل : انتصب بإضمار فعل ، أى أنزلناه إماماً ورحمة . وقال الأخفش : على القطع ، لأن كتاب موسى معرفة بالإضافة ، لأن النكرة إذا أعيدهت أو أضيفت أو أدخل عليها ألفاً ولا مصارت معرفة . «وهذا كتاب» يعني القرآن (مصدق) يعني للتوراة ولما قبله من الكتب . وقيل : مصدق (النبي) صلى الله عليه وسلم . «لساناً عَرَبِيًّا» منصوب على الحال ، أى مصدق لما قبله عربياً ، و «لساناً» توطئة الحال أى تأكيد ، كقولهم : جاءني زيد رجلاً صالحاً ، فذكر رجلاً توكيداً . وقيل : نصب بإضمار فعل تقديره : وهذا كتاب مصدق أعني لساناً عربياً . وقيل : نصب بإسقاط حرف الخفض تقديره : بلسان عربي . وقيل : إن لساناً مفعول والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم ، أى وهذا كتاب مصدق للنبي صلى الله عليه وسلم لأن الله معجزته ، والتقدير : مصدق ذا لسان عربي . فاللسان منصوب بمصدق ، وهو النبي صل الله عليه وسلم . ويبعد أن يكون اللسان القرآن ، لأن المعنى يكون يصدق نفسه . «لينذر الدين ظلموا» قراءة العامة «لينذر» بالياء خبراً عن الكتاب ، أى لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . وقيل : هو خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقرأ نافع وأبن عامر والبيزي بالتساء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ» . «وَبُشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ» «بشرى» في موضع رفع ، أى وهو بشري . وقيل : عطفاً على الكتاب ، أى وهذا كتاب مصدق وبشري . ويجوز أن يكون منصوباً بإسقاط حرف الخفض ، أى لينذر الذين ظلموا والبشرى ، فلما حذف الخاض نصب . وقيل : على المصدر ، أى وتبشر المحسنين بشري ؟ فلما جعل مكان وتبشر بشري أو بشارة نصب ؟ كما تقول : أتيتك لأزورك ، وكراهة لك وقضاء لحقك ؟ يعني لأزورك وأكرمل وأقضى حقك ؛ فتصبح الكراهة بفعل مضمر .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقْدَمُوا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢) أَوْلَئِكَ أَضَحَّبُ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً
مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣)

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ أَسْتَقْدَمُوا) الآية تقدم معناها . وقال ابن عباس : نزلت في أبي بكر الصديق . والآية تعم . (جزاء) نصب على المصدر .

قوله تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ إِحْسَانًا حَمَلْتَهُ أَمْهُرْ كُرْهًا
وَوَضْعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلْتُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشْدَهُ
وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أُوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرْ نِعْمَتَكَ أَلَّا تَنْعَمْ
عَلَىٰ وَعَلَىٰ وَالَّدَىٰ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرَضَهُ وَأَصْمَاحِنِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي
تُبُدُّ إِلَيْكَ وَإِلَيْيَ منَ الْمُسْلِمِينَ (٤)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ إِحْسَانًا) بين اختلاف حال الإنسان مع أبيه ، فقد يطيعهما وقد يخالفهما ، أى فلا يبعد مثل هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم وقومه حتى يستجيب له البعض ويکفر البعض . فهذا وجه اتصال الكلام ببعضه ببعض ؛ قاله القشيري .

الثانية — قوله تعالى : « حسنا » القراءة العامة « حُسْنَا » وكذا هو في مصاحف أهل الحرمتين والبصرة والشام . وقرأ ابن عباس والковفيون « إحساناً » وحجتهم قوله تعالى في سورة (الأنعام وبني إسرائيل) : « وَيَا الَّذِينَ إِحْسَنُوا » وكذا هو في مصاحف الكوفة . وجة القراءة الأولى قوله تعالى في سورة العنكبوت : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ حُسْنَا »

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥٧ (٢) آية ١٥١ سورة الأنعام ، ٢٣ سورة الإسراء . (٣) آية ٨

ولم يختلفوا فيها ، والحسن خلاف القبح . والإحسان خلاف الإساءة . والتوصية الأمر .
وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت .^(١)

الثالثة — قوله تعالى : ((حَلَتْ أَمْهَ كُرَهَا وَوَضَعَتْهُ كُرَهَا)) أي بكره ومشقة . وقراءة العامة بفتح الكاف . واختاره أبو عبيد ، قال : وكذلك لفظ الكره في كل القرآن بالفتح إلا التي في سورة البقرة « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ » لأن ذلك اسم وهذه كلها مصادر . وقرأ الكوفيون « كُرَهَا » بالضم . قيل : هما لغتان مثل الصُّفُفُ والضُّعُفُ والشَّهْدُ والشَّهْدُ بـ قاله الكسائي ، وكذلك هو عند جميع البصريين . وقال الكسائي : أيضاً والفراء في الفرق بينهما : إن الكره (بالضم) ما حمل الإنسان على نفسه ، وبالفتح ما حمل على غيره ؛ أي قهراً وغضباً .
وهذا قال بعض أهل العربية : إن كرها (فتح الكاف) لحن .

الرابعة — قوله تعالى : ((وَحَمَلَهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)) قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً ، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً . وروى أن عثمان قد أتى بأمرأة قد ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقضى عليها بالحد . فقال له علي رضى الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى : « وَحَمَلَهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » . وقال تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أُولَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فالرضاع أربعة وعشرون شهراً .
والحمل ستة أشهر ، فرجع عثمان عن قوله ولم يحذها . وقد مضى في « البقرة » . وقيل : لم يعد ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل ، لأن الولد فيها نطفة وعلقة ومُضْعَة فلا يكون له نقل يُحُسْ به ، وهو معنى قوله تعالى : « قَلَّمَا تَغْشَاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيقًا فَرَتْ بِهِ » . والفصائل
الفطام . وقد تقدم في « لقمان » الكلام فيه . وقرأ الحسن ويعقوب وغيرهما « وَفِصَالَهُ » بفتح الفاء وسكون الصاد . وروى أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، وكان حمله وفصائله في ثلاثة شهراً ، حملته أمه تسعة أشهر وأرضعته إحدى وعشرين شهراً . وفي الكلام إضمار .

(١) راجع ج ١٢ ص ٣٢٨ (٢) آية ٢١٦ (٣) آية ٣٢٨ ص ١٦٠ وما بعدها .

(٤) آية ١٨٩ سورة الأعراف . (٥) راجع ج ١٤ ص ٦٤ وما بعدها .

أى و مدة حمله و مدة فصاله ثلاثة شهرا ؛ ولو لا هذا الإضمار لنصب ثلاثة على الظرف
و تغير المعنى .

الخامسة — قوله تعالى : **(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشْدَدَهُ)** قال ابن عباس : ثمانى عشرة سنة .
وقال في رواية عطاء عنه : إن أبو بكر صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة
والنبي صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة ، وهم يريدون الشام للتجارة ، فنزلوا متزلا فيه
سدرة ، فقعد النبي صلى الله عليه وسلم في ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك فسألته عن
الدين . فقال الراهب : من الرجل الذي في ظل الشجرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب . فقال : هذا والله نبي ، وما أستظل أحد تحتها بعد عيني . فوقع في قلب
أبي بكر اليقين والتصديق ^١ وكان لا يكاد يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره وحضره ،
فلما ^٢ نبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، صدق أبو بكر رضي الله عنه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة . فلما بلغ أربعين سنة قال :
« رَبُّ أُوزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِّدِي » الآية . وقال الشعبي
وابن زيد : الأشد الحلم . وقال الحسن : هو بلوغ الأربعين . وعنده قيام الجنة عليه . وقد
مضى في « الأنعام » الكلام في الآية . وقال السدي والضحاك : نزلت في سعد بن أبي وقاص .
وقد تقدم . وقال الحسن : هي مرسلة نزلت على العموم . والله أعلم .

ال السادسة — قوله تعالى : **(قَالَ رَبَّ أُوزِعْنِي)** أى ألهمني . **(أَنْ أَشْكُرَ)** في موضع
نصب على المصدر ؛ أى شكر نعمتك **(عَلَيَّ)** أى ما أنعمت به على من المدحية **(وَعَلَىٰ وَالِّدِي)**
بالتحنن والشفقة حتى ربياني صغيرا . وقيل : أنعمت على بالصحة والعافية وعلى
والدى بالغنى والثروة . وقال على رضي الله عنه : هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله
عنه ! أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره ، فأوصاه الله بهما ولزم ذلك
من بعده . ووالده هو أبو خفافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم . وأمه

(١) راجع ج ٧ ص ١٣٤ وما بعدها . (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٢٨ و ج ١٤ ص ٦٣ .

أم الخير ، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد . وأم أبيه أبي خافة « قيلة » (بالباء المعجمة باثنتين من تحتها) . وامرأة أبي بكر الصديق اسمها « قتيلة » (بالباء المعجمة باثنتين من فوقها) بنت عبد العزى . (وَإِنْ أَعْمَلْ صَالِحًا تُرَضَاهُ) قال ابن عباس : فأجابه الله فأعتقد تسعه من المؤمنين يعذبون في الله منهم بلال وعامر بن فهيرة ؛ ولم يدع شيئاً من الخير إلا أعاذه الله عليه . وفي الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح منكم اليوم صائماً » ؟ قال أبو بكر أنا . قال : « فمن تبع منكم اليوم جنaza » ؟ قال أبو بكر أنا . قال : « فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً » ؟ قال أبو بكر أنا . قال : « فمن عاد منكم اليوم مريضاً » ؟ قال أبو بكر أنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعن في أمرٍ إلا دخل الجنة » .

السابعة – قوله تعالى : (وَاصْلِحْ لِي فِي دُرْبِي) أى أجعل ذريتي صالحين . قال ابن عباس : فلم يبق له ولد ولا والد ولا والدة إلا آمنوا بالله وحده . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم هو وأبواه وأولاده وبناته كلهم إلا أبو بكر . وقال سهل بن عبد الله : المعنى أجعلهم لي خلف صدق ، ولك عبيد حق . وقال أبو عثمان : أجعلهم أبراهم مطيعين لك . وقال ابن عطاء : وفهم بصالح أعمال ترضى بها عنهم . وقال محمد بن علي : لا يجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً . وقال مالك بن مغول : اشتكي أبو عشر آبنته إلى طلحة بن مهران ، فقال : استعن عليه بهذه الآية ؛ وتلا « رَبَّ أَوْزِعُنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِي وَإِنْ أَعْمَلْ صَالِحًا تُرَضَاهُ وَاصْلِحْ لِي فِي دُرْبِي إِنِّي تُبَدِّلُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . (إِنِّي تُبَدِّلُ إِلَيْكَ) قال ابن عباس : رجعت عن الأمر الذي كنت عليه . (وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) أى المخلصين بالتوحيد .

قوله تعالى : أَوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَّقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَّجَاوِزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَخْحَذُ بِآجْنَانِهِ وَعَدَ الْصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٧)

قوله تعالى : **(أَولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقْبِلُونَ مِنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَوَّزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ)** قراءة العامة بضم الياء فيهما . وقرئ **« يتَقْبِلُ ، وَيَتَجَوَّزُ »** بفتح الياء ، والضمير فيما يرجع لـ الله عن وجع . وقرأ حفص ومحنة والكسائي **« تَقْبِلُ ، وَتَجَوَّزُ »** بالتنون فيما ؟ أي نغفرها ونصفح عنها . والتجاوز أصله من جزت الشيء إذا لم تتفق عليه . وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها **« ووصينا الإنسان »** إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم . وهو قول الحسن . ومعنى **« تَقْبِلُ عَنْهُمْ »** أي تتقبل منهم الحسنات وتجاوز عن السيئات . قال زيد بن أسلم - ويحيى بن مرفوعا - : إنهم إذا أسلموا قبلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم . وقيل : الأحسن ما يقتضي الثواب من الطاعات ، وليس في الحسن المباح ثواب ولا عقاب ؛ حكاه ابن عيسى . **(فِي أَخْحَابِ الْجَنَّةِ)** « فِي » بمعنى مع ، أي مع أصحاب الجنة ، تقول : أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد ، أي مع جميعهم . **(وَعَدَ الصَّدِيقِ)** نصب لأنـه مصدر مؤكـد لما قبلـه ؛ أي وعد الله أهل الإيمان أن يتـقبلـ من محسـنـهم ويتـجاوزـ عن مسيـئـهم وعد الصـدقـ . وهو من بـاب إضـافـة الشـيءـ إـلـى نـفـسـهـ ؛ لأنـ الصـدقـ هو ذـلكـ الـوعـدـ الـذـي وـعـدـ اللهـ ؛ وهو كـقولـهـ تـعـالـىـ : **« حَقُّ الْيَقِينِ »** . وهذا عند الكوفيين ، فـاماـ عندـ البـصـريـينـ فقدـ يـدـيـرـهـ : **وَعَدَ الْكَلَامُ الصَّدِيقُ أَوَ الْكَلَامُ الصَّدِيقُ ، خَذَفَ الْمَوْصُوفَ** . وقدـ مضـىـ هـذـاـ فـيـ غـيرـ مـوـضـعـ . **(الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ)** فـالـدـنـيـاـ عـلـىـ أـلـسـنـ الرـسـلـ ؛ وـذـلـكـ الجـنـةـ .

قوله تعالى : **وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفَ لَمْ كُمَّا تَعَدَّانِي أَنْ أُنْجَرَ**
وَقَدْ خَلَتْ آنِقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغْيِثَانَ اللَّهَ وَيُنَذِّكَ إِنَّ وَعْدَ
الَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ **(١)** **أَوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقٌّ**
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مَنْ آتَنَّ وَآتَيْنَ
إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ **(٢)**

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة .

(٢) راجع ج ٩ ص ٣٥٦ .

قوله تعالى : «**وَالَّذِي قَالَ لِوَالدَّيْهِ أَفَ لَكُمَا تَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ**» أى أن أبىت .
(وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) قراءة نافع ومحض وغيرهما «أَفَ» مكسور متون . وقرأ ابن كثير وابن حيمصون وابن عامر والمفضل عن عاصم «أَفَ» بالفتح من غير تنوين ، الباقيون بالكسر غير متون ؛ وكلها لغات ، وقد مضى في «**بَنِي إِسْرَائِيلَ**» . وقراءة العامة «**أَتَعْدَانِي**»^(١) بنونين مخففين . وفتح ياءه أهل المدينة ومكة . وأسكن الباقيون . وقرأ أبو حَيَّة والمعيرة وهشام «**أَتَعْدَانِي**» بنون واحدة مشددة ، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام . والعامة على ضم الألف وفتح الراء من «**أَنْ أُخْرَجَ**» . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء . قال ابن عباس والسدى وأبو العالية وبمحاده : نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما ، وكان يدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيئهما بما أخبر الله عنه وجل . وقال قتادة والسدى أيضا : هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وكان أبوه وأمه أم رومان يدعوانه إلى الإسلام ويعدانه بالبعث ، فيرد عليهما بما حكاه الله عن وجـلـ عنه ؛ وكان هذا منه قبل إسلامه . وروى أن عائشة رضي الله عنها أذكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن . وقال الحسن وقاتدة أيضا : هي نعت عبد كافر عاقد لوالديه . وقال الزجاج : كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه والله عن وجـلـ يقول : «**أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّيْمٍ**» أى العذاب ، ومن ضرورته عدم الإيمان ، وعبد الرحمن من أفضـلـ المؤمنين ؛ فالصحيح أنها نزلت في عبد كافر عاقد لوالديه . وقال محمد بن زيـادـ : كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى يبـاعـ الناس ليزيد ؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بـكرـ : لقد جئت بها هـرـقلـيةـ ، أـتـبـاعـونـ لأـبـنـائـكـ ! فقال مـروـانـ : هو الـذـي يـقـولـ اللهـ فـيـهـ «ـوـالـذـيـ قـالـ لـوـالـدـيـهـ أـفـ لـكـاـ»ـ الآيةـ . فقالـ^(٢)ـ واللهـ ماـ هوـ بـهـ ، ولوـ شـئـتـ لـسـمـيـتـ ، ولكنـ اللهـ لـعـنـ أـبـاكـ وـأـنـتـ فـيـ صـلـبـهـ ، فـأـنـتـ فـضـضـنـ منـ لـعـنـ اللهـ . قالـ المـهـدوـيـ : ومنـ جـعـلـ الآـيـةـ فـيـ عـبـدـ الـرـحـمـنـ كانـ قـوـلـهـ بـعـدـ ذـلـكـ «ـأـوـلـئـكـ الـذـينـ

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٤٢ .

(٢) أراد أن البيعة لأولاد الملك ستة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

(٣) كل ما اقطع من شيء فهو فرض ؛ أراد أنك قطعة وطاقة منها .

حق عليهم القول» يراد به من اعتقاد ما تقدم ذكره، فأقول الآية خاص وآخرها عام . وقيل : إن عبد الرحمن لما قال « وقد خلت القرون من قبلي » قال مع ذلك : فain عبد الله آبن جدعان ، وأين عثمان بن عمرو ، وأين عامر بن كعب ومشايخ قريش حتى أسلمهم عما يقولون . فقوله « أولئك الذين حق عليهم القول » يرجع إلى أولئك الأقوام .

قلت : قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة « الأنعام » عند قوله « له أصحاب يدعونه إلى المهدى »^(١) ما يدل على نزول هذه الآية فيه ؛ إذ كان كافراً وعند إسلامه وفضله تعين أنه ليس المراد بقوله « أولئك الذين حق عليهم القول » . « (وهما) يعني والديه . (يَسْتَغْيِثُانِ اللَّهَ) أي يدعوان الله له بالهدى . أو يستغيثان بالله من كفره ؛ فلما حذف البار وصل الفعل فنصب . وقيل : الاستغاثة الدعاء ؛ فلا حاجة إلى الباء . قال الفراء : أجاب الله دعاءه وغواه . (وَيَلْكَ أَمِنْ) أي صدق بالبعث . (إِنْ وَعَدَ اللَّهَ حَقًّا) أي صدق لا خلف فيه . (فَيَقُولُ مَا هَذَا) أي ما يقوله والده . (إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) أي أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له . (أَوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) يعني الذين أشار إليهم آبن أبي بكر في قوله أخيوالى مشايخ قريش ، وهم المعنيون بقوله « وقد خلت القرون من قبلي » . فاما آبن أبي بكر عبد الله أو عبد الرحمن فقد أجاب الله فيه دعاء أبيه في قوله « وَاصْلِحْ لِي فِي ذُرْرِتِي » على ما تقدم . ومعنى « حق عليهم القول » أي وجب عليهم العذاب ، وهي كلمة الله : « هؤلاء في الجنة ولا أبالى وهؤلاء في النار ولا أبالى » . (في أميم) أي مع أم . (فَدَخَلُوكُمْ تَقْدَمْتْ وَمَضَتْ . (مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) الكافرين (لَنْهُمْ) أي تلك الأمم الكافرة (كَانُوا خَاسِرِينَ) لأنهم ؛ أي ضاع سعيهم وخسروا الجنة .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوْفِيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢)

(١) راجع ج ٧ ص ١٨

قوله تعالى : « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ » أى ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مرتب عند الله يوم القيمة بأعمالهم . قال ابن زيد : درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سفلاً ، ودرج أهل الجنة علوًّا . « وَلِيُوْقِيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ » فرأى ابن كثير وأبن محيصن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لذكر الله قبله ، وهو قوله تعالى : « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » واختاره أبو حاتم . الباقيون بالسون ردًا على قوله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ » وهو اختيار أبي عبيد . « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى لا يزداد على مسيء ولا ينقص من محسن .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاةِكُمْ الَّذِيْنَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ أَهْمُونَ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُدُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُعَرَّضُ » أى ذكرهم يا محمد يوم يعرض . « الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ » أى يكشف الغطاء فيقتربون من النار وينظرون إليها . « أَذْهَبْتُمْ طَبِيبَاتُكُمْ » أى يقال لهم أذهبتم ؟ فالقول مضمر . وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير « أَذْهَبْتُمْ » بهمزتين مخففتين ، واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو حمزة وهشام « آذْهَبْتُمْ » بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام ، الباقيون بهمزة واحدة من غير مد على الخبر ، وكلها لغات فصيحة ومعناها التوبيخ ، والعرب توبيخ بالاستفهام وبغير الاستفهام ؛ وقد تقدم . واختار أبو عبيد ترك الاستفهام لأن قراءة أكثر أئمة السبع نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي ، مع من وافقهم شيبة والزهري وابن محيصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثاب وغيرهم ؛ فهذه عليها جلة الناس . وترك الاستفهام أحسن ؛ لأن إثباته يوم أنهم لم يفعلوا ذلك ، كما تقول : أنا ظلمتك ؟ تريد أنا لم أظلمك . وإثباته حسن أيضا ؛ يقول القائل : ذهبت فعلت كذا ؟ يُوَبِّخُ ويقول : أذهبت فعلت ! كل ذلك جائز . ومعنى

«أذهبتم طيباتكم» أى تعمتم بالطيبات في الدنيا وتأبتم الشهوات واللذات؛ يعني المعاصي .
 (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ) أى عذاب الحزى والفضيحة . قال مجاهد : الهون الهوان .
 قتادة : بلغة قريش .

(إِمَّا كُنْتُمْ تَسْكُنُونَ فِي الْأَرْضِ يُغَيِّرُ الْحَقَّ) أى تستعلون على أهلها بغير استحقاق .
 (وَإِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُدُونَ) في أفعالكم بغيًا وظلمًا . وقيل : «أذهبتم طيباتكم» أى أفنتم شبابكم في الكفر والمعاصي . قال ابن بحر : الطيبات الشباب والقوءة؛ مأخوذ من قوله : ذهب أطiable؛ أى شبابه وقوته . قال الماوردي : ووجدت الصحاكم قاله أيضًا .

قلت : القول الأول أظهر ، روى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لأنّا أعلم بخفة العيش ، ولو شئت بخلعك أبكادا وصلاءً وصنايا وصلائق ، ولكنني استيق حسناي ؛ فإن الله عن وجّل وصف أقواما فقال «أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» وقال أبو عبيدة في حديث عمر : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب وكراكي وأسمة . وفي بعض الحديث : وأفلاذ . قال أبو عمرو وغيره : الصلاة (بالمد والكسر) : الشواء ، ممّى بذلك لأنّه يصلّى بالنار . والصلاء أيضا : صلاة النار ، فإن فتح الصاد قصرت وقت : صلّى النار . والصناب : الأصبغة المتخذة من الخردل والزبيب .
 قال أبو عمرو : وهذا قيل للرذون : صنابي ؛ وإنما شبه لونه بذلك . قال : والصلائق (بالسين) هو ما يسلق من البقول وغيرها . وقال غيره : هي الصلائق بالصاد ؛ قال جرير :

تُكَافِئُنِي معيشة آل زيد *

* وَمَنْ لِي بِالصَّلَائِقِ وَالصَّنَابِ

والصلائق : الخبز الرفاق العربيض . وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف» .
 وأما الكراكر الإبل ، واحدتها كركرة وهي معروفة ؛ هذا قول أبي عبيدة .
 وفي الصحاح : والكركرة رحى زور البعير ، وهي إحدى التفاتات الحمس . والكركرة أيضا الجماعة من

(١) راجع ج ٧ ص ١٩٨

الناس . وأبو مالك عمرو بن كونكة رجل من علماء اللغة . قال أبو عبيد : وأما الأفلاذ فإن واحدها فلذ ، وهي القطعة من الكبد . قال أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حُزْنَةُ فِلْذٍ إِنَّ أَلَمَ بِهَا * مِنَ الشَّوَاءِ وَيُرُوِي شُرْبَةَ الْعَمَرِ

وقال قادة : ذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال : لو شئت كنت أطيفكم طعاما ، وألينكم لباسا ، ولكنني أستيق طيباتي للآخرة . ولما قدم عمر الشام صنع له طعام لم ير قط مثله قال : هذا لنا ! فـ لـ فقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير ! فقال خالد بن الوليد : لهم الجنة ؟ فـ اغـ وـ رـ وـ قـ عـ يـ نـا عـ مـ رـ بالـ دـ مـ وـ قـ وـ قـ وقال : لئن كان حظنا من الدنيا هذا الخطام ، وذهبوا هم في حظهم بالجنة فـ لـ قـ دـ بـ يـ نـ وـ بـ وـ نـ بـ عـ يـ دـ ا . وفي صحيح مسلم وغيره أن عمر رضي الله عنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مشربته حين هجر نساءه قال : فالتفت فـ لـ مـ أـ رـ شـ يـ بـ يـ رـ يـ زـ الـ بـ صـرـ إـ لـ أـ هـ بـ جـ لـ وـ دـ مـ عـ طـ وـ نـ وـ نـ قد سطع ريحها ؛ فـ قـ لـ تـ : يـ ارـ سـ وـ لـ اللهـ ، أـ نـ تـ رسـ وـ لـ خـ يـ رـ تـهـ ، وـ هـ دـ اـ كـ سـ رـ وـ قـ يـ صـرـ فـ الدـ بـ يـاجـ وـ الـ حـ رـ يـ رـ ؟ فـ قـ لـ : فـ آسـ تـ وـ جـ اـ لـ سـ اـ وـ قـ لـ : "أـ فـ شـ كـ أـ نـتـ يـ اـ بـنـ الـ خـ طـابـ . أـ وـ لـ يـ كـ قـ وـ مـ عـ جـ لـ تـ لـ هـ مـ طـ يـ اـ تـهـ فـ يـ حـ اـ تـهـ الـ دـ نـ يـ اـ " فـ قـ لـ : استغفرـ لـ ؟ فـ قـ لـ : "الـ لـ لـ هـ مـ آـ غـ فـ رـ لـ هـ " . وـ قـ لـ حـ فـ حـ صـ بـنـ أـ بـيـ الـ عـ اـصـ : كـ نـتـ أـ نـ غـ دـ ئـيـ عـ نـدـ عـمـرـ بـنـ الـ خـ طـابـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ الـ لـبـزـ وـ الـ زـيـتـ ، وـ الـ لـبـزـ وـ الـ خـلـ ، وـ الـ لـبـزـ وـ الـ لـبـنـ ، وـ الـ لـبـزـ وـ الـ قـ دـ يـ دـ ، وـ أـ قـ لـ ذـ لـكـ الـ لـحـمـ الـ غـرـيـضـ . وـ كـ اـنـ يـ قـوـلـ : لـاـ تـخـلـوـ الدـقـيـقـ فـ لـانـهـ طـعـامـ كـلـهـ ؟ بـ فـ يـ بـخـيـزـ مـتـقـلـعـ غـلـيـظـ ؛ بـ فـعـلـ يـاـ كـلـ وـ يـقـوـلـ : كـلـواـ ؛ بـ فـعـلـنـاـ لـاـ نـاـ كـلـ ؛ فـ قـ لـ : مـاـ لـكـ لـاـ تـاـكـلـوـنـ ؟ فـ قـ لـ : وـالـلـهـ يـاـ أـمـيرـ الـ مـؤـمـنـينـ نـرـجـعـ إـلـيـ طـعـامـ أـلـيـنـ مـنـ طـعـامـكـ هـذـاـ ؛ فـ قـ لـ : يـاـ بـنـ أـبـيـ الـ عـاـصـ أـمـاـ تـرـىـ بـأـنـ عـالـمـ أـنـ لـوـ أـمـرـتـ بـعـنـاقـ سـمـيـنـةـ فـيلـقـ عـنـهاـ شـعـرـهـاـ ثـمـ تـخـرـجـ مـصـلـيـةـ كـأـنـهـاـ كـذـاـ وـكـذـاـ ،

(١) الْعَمَرُ (بضم الأول وفتح الثاني) : القدح الصغير .

(٢) الْمَشْرَبَةُ (بفتح الميم والراء) : الموضع الذي يشرب منه الناس . (وبضم الرا، وفتحها) : الغرفة .

(٣) بضم المهمزة والهاء ، وبفتحهما على غير قياس ؛ جمع إهاب ؛ وهو الجلد . (٤) الْفَرِيضُ : الطري .

(٥) في نسخة من الأصل : « متقلع » بالقاف . والمتقلع : المشقى . (٦) العناق : الأنثى من ولد

المعز ؛ والجمع أعنق وعنق . (٧) الصلاه (بالكسر) : الشواء .

أَمَا ترَى بِأَنِّي عَالَمُ أَنْ لَوْ أَمْرَتُ بِصَاعِدٍ أَوْ صَاعِدِينَ مِنْ زَبَابِ فَأَجْعَلَهُ فِي سَقَاءٍ ثُمَّ أَشْنَى عَلَيْهِ
 مِنَ الْمَاءِ فَيَصْبِحُ كَأَنَّهُ دَمُ غَزَالٍ؟ فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَجَلٌ^(١) ! مَا تَنْعَتُ الْعِيشَ ؟
 قَالَ : أَجَلٌ ! وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقصَ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 لِشَارِكَاتِكُمْ فِي الْعِيشِ ! وَلَكُنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَقْوَامَ : « أَذْهَبْتُمْ طَيَّابَاتِكُمْ فِي حَيَاةِكُمْ
 الدُّنْيَا وَاسْتَعْتَمْتُمْ بِهَا ». (فَإِلَيْهِمْ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْمُهُونِ) أَيِ الْمُهَوَّانُ . (إِنَّمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أَيِ تَعْظِمُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعَلَى عَبَادِ اللَّهِ .
 (وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَفْسُدُونَ) تَخْرُجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ . وَقَالَ جَابِرٌ : أَشْتَهِي أَهْلَ حَمَّا فَاشَّتَرَتِيهِ
 لَهُمْ فَرَرَتْ بِعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : مَا هَذَا يَا جَابِرٌ ؟ فَأَخْبَرَهُ ؟ فَقَالَ :
 أَوْ كَلَّا أَشْتَهِي أَحَدَكُمْ شَيْئًا جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ ! أَمَا يَخْسِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ :
 « أَذْهَبْتُمْ طَيَّابَاتِكُمْ » الْآيَةُ . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذَا عِتَابٌ مِنْهُ لِهِ عَلَى التَّوْسُعِ بِاِتِّيَاعِ الْلَّمْ
 وَالْخَرْوَجِ عَنْ جَلْفِ الْحِلْزَنِ وَالْمَاءِ ؛ فَإِنْ تَعَاطَى الطَّيَّابَاتِ مِنَ الْحَلَالِ تَسْتَشِرُهُ مَا الطَّبَاعُ
 وَتَسْتَمِرُهُ الْعَادَةُ فَإِذَا قَدِمَتْهَا اسْتَسْهَلَتْ فِي تَحْصِيلِهَا بِالشَّهَابَاتِ حَتَّى تَقْعُدْ فِي الْحَرَامِ الْمُحْضِ
 بِغَلَبَةِ الْعَادَةِ وَاسْتَشَرَهُ الْهَوَى عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ ؛ فَأَخْذَهُ عَمَرُ الْأَمْرَ مِنْ أَوْلَاهُ
 وَجَاهَهُ مِنْ ابْتِدَائِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ مَثَلُهُ . وَالَّذِي يَضْبِطُ هَذِهِ الْبَابِ وَيَحْفَظُ قَانُونَهُ : عَلَى الْمَرْءِ أَنْ
 يَأْكُلَ مَا وُجِدَ ، طَيِّبًا كَانَ أَوْ قَفَارًا ، وَلَا يَتَكَلَّفَ الطَّيِّبَ وَيَتَخَذِّهُ عَادَةً ؛ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْبَعُ إِذَا وُجِدَ ، وَيَصْبِرُ إِذَا أُدْمِدَ ، وَيَأْكُلُ الْحَلْوَى إِذَا قَدِرَ عَلَيْهَا ، وَيَشْرَبُ
 الْعَسْلَ إِذَا اتَّفَقَ لَهُ ، وَيَأْكُلُ الْحَمَّ إِذَا تَيَسَّرَ ، وَلَا يَعْتَمِدُهُ أَصْلًا ، وَلَا يَجْعَلُهُ دَيَّنًا . وَمَعِيشَةُ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْلُومَةٌ ، وَطَرِيقَةُ الصَّحَابَةِ مَنْقُولَةٌ ؛ فَأَمَّا يَوْمُ اسْتِيَالَةِ الْحَرَامِ
 وَفَسَادِ الْحَطَامِ فَالْخَلَاصُ عَسِيرٌ ، وَاللَّهُ يَهْبِطُ الْإِخْلَاصَ ، وَيُعِينُ عَلَى الْخَلَاصِ بِرَحْمَتِهِ .
 وَقَيْلٌ : إِنَّ التَّوْبِينَ وَاقِعٌ عَلَى تَرْكِ الشَّكْرَلَا عَلَى تَسَاوِلِ الطَّيَّابَاتِ الْمُحَلَّةِ ، وَهُوَ حَسَنٌ ؟ فَإِنَّ

(١) فِي بَعْضِ نُسُخِ الْأَصْلِ : « أَجَادَ » .

(٢) الْقَفَارُ (بِالْفَتْحِ) : الْفَعَامُ بِلَا أَدْمَ .

تناول الطيب الحلال مأذون فيه ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحمل له فقد أذهبه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَآذْكُرْ أَخَا عَادِ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ الْنُّدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢٧)

قوله تعالى : (وَآذْكُرْ أَخَا عَادِ) هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام ، كان أخاهم في النسب لا في الدين . (إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) أى آذكـر لـهؤـلاء المـشـركـين قـصـة عـادـ يـعـتـبرـوا بـهـاـ . وـقـيلـ : أـمـرـهـ بـأـنـ يـتـذـكـرـ فـي نـفـسـهـ قـصـةـ هـوـدـ لـيـقـتـدـيـ بـهـ ، وـيـهـونـ عـلـيـهـ تـكـذـيـبـ قـوـمـهـ لـهـ . وـالـأـحـقـافـ : دـيـارـ عـادـ ، وـهـيـ الرـمـالـ الـعـظـامـ ؛ فـقـولـ الـخـلـيلـ وـغـيـرـهـ . وـكـانـواـ قـهـرـواـ أـهـلـ الـأـرـضـ بـفـضـلـ قـوـتـهـمـ . وـالـأـحـقـافـ جـمـعـ حـقـفـ ، وـهـوـ مـاـ اـسـطـالـ مـنـ الرـمـلـ الـعـظـيمـ وـأـعـوـجـ وـلـمـ يـبـلـغـ أـنـ يـكـوـنـ جـبـلاـ ، وـالـجـمـعـ حـقـافـ وـأـحـقـافـ [وـحـقـوقـ] . وـأـحـقـوقـ الرـمـلـ وـالـهـلـالـ أـىـ آعـوـجـ . وـقـيلـ : الـحـقـفـ جـمـعـ حـقـافـ . وـالـأـحـقـافـ جـمـعـ الـجـمـعـ . وـيـقـالـ : حـقـفـ أـحـقـفـ . قـالـ الـأـعـشـىـ :

* بـاتـ إـلـىـ أـرـطـاطـةـ حـقـفـ أـحـقـافـ *

أـىـ رـمـلـ مـسـطـيـلـ مـشـرـفـ . وـالـفـعـلـ مـنـهـ آـحـقـوقـفـ . قـالـ الـعـاجـاجـ :
طـيـ الـلـيـالـىـ زـلـفـاـ * سـيـاـوـةـ الـهـلـالـ حـتـىـ اـحـقـوقـفـاـ
أـىـ انـخـنـىـ وـاسـتـدـارـ . وـقـالـ اـمـرـقـ الـقـيـسـ :

(١) كـحـفـ الـنـقاـ يـمـشـيـ الـوـلـدـانـ فـوـقـهـ *

بـماـ اـحـتـسـبـاـ مـنـ لـيـنـ مـسـ وـتـسـهـاـلـ

وـفـيـاـ أـرـيدـ بـالـأـحـقـافـ هـاـهـاـ مـخـتـلـفـ فـيـهـ . فـقـالـ اـبـنـ زـيـدـ : هـيـ رـمـالـ مـشـرـفـةـ مـسـتـطـيـلـةـ

كـهـيـةـ الـجـبـالـ ، وـلـمـ تـبـلـغـ أـنـ تـكـوـنـ جـبـلاـ ؛ وـشـاهـدـهـ مـاـ ذـكـرـنـاهـ . وـقـالـ قـنـادـهـ : هـيـ جـبـالـ

(١) هذا الرجز نسبة الطبرى فى تفسيره الى العجاج؛ ولم نعثر عليه فى شعر الأعشى ولا فى اراجيز العجاج .
وـالـأـرـطـاطـةـ : جـمـعـ أـرـطـمـىـ ، وـهـوـ شـجـرـ مـنـ شـجـرـ الرـمـلـ . (٢) النـقاـ : الـكـثـبـ مـنـ الرـمـلـ .

مشهورة بالشَّهْر، والشَّهْر قريب من عدن؛ يقال: شَهْرُ عُمَان وشَهْرُ عَمَان، وهو ساحل البحرين عَمَان وعدن. وعنه أيضاً: ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياء باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشَّهْر. وقال مجاهد: هي أرض من حَسْمٍ تسمى بالأحافر. وحَسْمٍ (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهد ملس الجنادب لا يكاد الفتام يفارقها. قال النابغة:

فَاصْبَحْ عَافِلًا يَبْالِ حَسْمَى * دُفَاقَ التَّرْبَ مُهْتَمَ القَاتَامِ

قاله الجوهري . وقال ابن عباس والضحاك : الأحقاف جبل بالشام . وعن ابن عباس أيضاً : وادٍ بين عُمان ومهرة . وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواحد يقال له مهرة ، وإليه تنسب الإبل المهرية ؟ فيقال : إبل مهرية ومهراري . وكانوا أهل عمُد سيارة في الرابع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ؛ وكانوا من قبيلة إرم . وقال الكلبي : أحقاف الجبل ما نصب عنه الماء زمان الغرق ، كان ينصب الماء من الأرض ويُيقِّنُ أمره . وروى الطفيلي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : خيرُ واديَينِ فِي النَّاسِ وَادِ بَمَكَةَ وَوَادِ نَزَلَ بِهِ آدَمَ بِأرْضِ الْهَنْدِ . وَشَرُّ وَادِيَينِ فِي النَّاسِ وَادِ الْأَحْقَافِ وَوَادِ بَحْسَرَمَوْتِ يَدْعُ بِرَهُوتَ تَلَقِّي فِيهِ أَرْوَاحُ الْكُفَّارِ . وَخَيْرُ بَئْرِيِ النَّاسِ بَئْرُ زَمْنَمْ . وَشَرُّ بَئْرِيِ النَّاسِ بَئْرُ بَرَهُوتَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي بَحْسَرَمَوْتَ . (وَقَدْ خَلَتِ النُّدُرُ) أَيْ مَضَتِ الرَّسُولُ . (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) أَيْ مِنْ قَبْلِ هُودٍ . (وَمِنْ خَلْفِهِ) أَيْ وَمِنْ بَعْدِهِ ؛ قَالَهُ الْفَزَاءُ . وَفِي قِرَاءَةِ آبَنِ مَسْعُودٍ « مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ » . (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ) هَذَا مِنْ قَوْلِ الْمَرِسِيلِ ، فَهُوَ كَلَامٌ مُعْتَرِضٌ . ثُمَّ قَالَ هُودٌ (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَقَيْلٌ « أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ » مِنْ كَلَامِ هُودٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قوله تعالى : قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنِ الْهِبَتِنَا فَأَتَنَا بِمَا تَعْدَنَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنْعَلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَنْتُمْ

(١) قال ابن بترى : «أى حسنى قد أحاط به القتام كالحزم له» . (٢) في مجمع البلدان لياقوت وكتب الله أن الإبل المهرية تنسب إلى مهرة بن حيدان أبو قبيلة . (٣) هاج البقل : إذا أخذن في البيس .

مَا أَرْسَلْتُ يَهٰءِ وَلَكِنَّنِي أَرْسَلْتُ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً
 مُسْتَقِيلَ أَوْ دِيَرَهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرَنٌ بَلْ هُوَ مَا آسَتَنِي جَلَّتْنُ يَهٰءِ
 رَبِيعٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدْرِسُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْمُرُ رِبَّهَا فَاصْبَحُوا
 لَا يُرَى إِلَّا مَسْكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجَزِي الْقَوْمَ الْمُجْرَمِينَ ۝

قوله تعالى : (قَالُوا أَجِئْنَا لِتَأْفِكَّا عَنْ آهِنَّا) فيه وجهان : أحدهما — لتريلنا عن عبادتها بالآفك . الثاني — لتصرفا عن آهنتنا بالمنع ، قاله الصحاكم . قال عُرْوَةُ بْنُ أَذْيَنْ : إِنَّ تَكَ عن أَحْسَنِ الصَّنْعَةِ مَا * فُوكَّا فِي آخَرِينَ قَدْ أَفْكَوَا

يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت في قوم قد صرفا . (فَاتَّنَا يَمَّا تَعْدُنَا) هذا يدل على أن الوعد قد يوضع موضع الوعيد . (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ألم بني - (قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ) بوقت مجيء العذاب . (عِنْدَ اللَّهِ) لا عندي . (وَأَبْلَغُوكُمْ مَا أُرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ) عن ربكم . (وَلَكِنِّي أَرَأَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) في سؤالكم استعجال العذاب . (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا) قال المبرد : الضمير في «رأوه» يعود إلى غير مذكور ، وبيانه قوله : «عارضًا» فالضمير يعود إلى السحاب ؟ أي فلما رأوا السحاب عارضا . و«عارضًا» نصب على التكير ؛ سُئلَ بذلك لأنَّه يبدو في عرض السماء . وقيل : نصب على الحال . وقيل : يرجع الضمير إلى قوله : «فَاتَّنَا يَمَّا تَعْدُنَا» فلما رأوه حسبوه سحابا يعطرهم ، وكان المطر قد أبطأ عنهم ، فلما رأوه «مستقيلاً أوَدِيَّهُمْ» استبشروا . وكان قد جاءهم من وادي جرت العادة أن ما جاء منه يكون غيثا ؛ قاله ابن عباس وغيره . قال الجوهري : والعارض السحاب يعرض في الأفق ؛ ومنه قوله تعالى : (هَذَا عَارِضٌ مُّطَرِّنَا) أي مطر لنا ؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفة لعارض وهو نكرة . والعرب إنما تفعل مثل هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها . قال جرير : يارُبَّ غَايِطَنَا لَوْكَانْ يَطْلَبُكَ * لاقَ مِبَاعِدَةً مِنْكَ وَحْزَمَانَا ولا يجوز أن يقال : هذا رجل غلامنا . وقال أعرابي بعد الفطر : رُبَّ صائمة لن تصومه وفائمة لن تقومه ؛ فعمله نعتا للنكرة وأضافه إلى المعرفة .

قالت : قوله : « لا يجوز أن يكون صفة لعارض » خلاف قول النحوين ، والإضافة في تقدير الانفصال ، فهي إضافة لفظية لا حقيقة ؛ لأنها لم تقدر الأقل تعرضا ، بل الاسم نكرة على حاله ؛ فذلك جرى نعما على النكرة . هذا قول النحوين في الآية والبيت . ونعت النكرة نكرة . و « رب » لا تدخل إلا على النكرة . (بل هو) أى قال هود لهم . والدليل عليه قراءة من قرأ « قال هود بل هو » وقرئ « قل بل ما استعجلتم به هي ريح » أى قال الله قل بل هو ما استعجلتم به ؛ يعني قولهم : « فَأَتَنَا مَا تَعِدُنَا » ثم بين ما هو فقال : « ريح فيها عذاب أليم » والريح التي عذبوا بها نسأت من ذلك السحاب الذي رأوه ، وخرج هود من بين أظهرهم ، بفعلت تحمل الفساطيط وتتحمل الظعينة فترفعها كأنها جرادة ، ثم تضرب بها الصخور . قال ابن عباس : أول ما رأى العارض قاموا فتدوا أيديهم ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من الرجال والمواشى تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعنهم ، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال ، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، ولهم أين ؟ ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال واحتلتهم فرمتهم في البحر ؛ فهي التي قال الله تعالى فيها : « تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ يَأْمُرُ رَبَّهَا » أى كل شيء مرت عليه من رجال عاد وأموالها . قال ابن عباس : أى كل شيء بعثت إليه ، والتدمير : الملاك . وكذلك الدمار . وقرئ « يَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ » من دمر دمارا . يقال : دمره تدميرا ودمارا ودمرا عليه بمعنى . ودمرا يدمرا دمروا دخل بغير إذن . وفي الحديث : « من سبق طرفه استدزنه فقد دمر » مخفف الميم . وتدمر : بلد بالشام . ويربع تدمري إذا كان صغيرا قصيرا . (يَأْمُرُ رَبَّهَا) بإذن ربها . وفي البخارى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا حتى أرى منه لهواه إنما كان يتسم . قالت : وكان إذا رأى غيما أو ريحـا

(١) الظعينة : الجل يطعن عليه . والخدج فيه امرأة أم لا . (٢) الأيام الحسوم : الدائمة في الشر .

(٣) جمع هـاة ، وهي الحمة المشرقة على الخلق في أقصى سقف القم .

عُرف في وجهه . قالت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحاوا رجاءً أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيتك عُرف في وجهك الكراهة ؟ فقال : « يا عائشة ، ما يُؤمِنُني أن يكون فيه عذاب عُدُّبْ قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هـذا عارِضٌ مُعْتَرِضاً » ترجحه مسلم والترمذى ، وقال فيه : حديث حسن . وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نُصِرتَ بِالصَّبَا وَأَهْلَكْتَ عَاداً بِالدَّبُورِ » . وذكر الماوردي أن القائل « هذا عارِضٌ مُعْتَرِضاً » من قوم عاد : بكر بن معاوية ؛ ولما رأى السحاب قال : إنى لأرى سحاباً مرمداً ، لا تدع من عاد أحداً . فذكر عمرو بن ميمون أنها كانت تأتهم بالرجل الغائب حتى تقدفه في ناديهم . قال ابن إسحاق : واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ، ما يصدده ومن معه منها إلا ما يلين أعلى ثيابهم . وتلتف الأنسنة به ، وإنها لم تر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة حتى هلكوا . وحكى الكلبي أن شاعرهم قال في ذلك :

فَدَعَا هُودٌ عَلَيْهِمْ * دُعْوَةً أَخْفَوْا هُمْ وَدًا
عَصَفَتْ رِيحٌ عَلَيْهِمْ * تَرَكَتْ عَادًا نَمْوَدًا
سَخَرَتْ سَبْعَ لَيَالٍ * لَمْ تَدْعِ فِي الْأَرْضِ عُودًا

و عمر هود في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة . (فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ) قرأ عاصم وحزمة « لا يرى إلا مساكنهم » بالياء غير مسمى الفاعل . وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ « ترى » بالباء . وقد روى ذلك عن أبي بكر عن عاصم . الباقيون « تَرَى » بباء مفتوحة . « مساكنهم » بالنصب ؛ أى لا ترى يا محمد إلا مساكنهم . قال المهدوى : ومن قرأ بالباء غير مسمى الفاعل فعل لفظ الظاهر الذى هو المساكن المؤنثة ؛ وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر . وقال أبو حاتم : لا يستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار ؛ كما تقول في الكلام إلا ترى النساء إلا زينب . ولا يجوز لا ترى إلا زينب .

(١) الصبا (بالفتح) : ريح الشمال . والدبور : ريح الجنوب .

(٢) في نهاية ابن الأثير والسان مادة (رمد) وتاريخ الطبرى : « خذها رمداً رمداً ، لا تذر من عاد أحداً » والرمد (بالكسر) : المتأهى في الاحتراق والدقة .

وقال سيبويه : معناه لا ترى أشخاصهم إلا مساكنهم . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة عاصم وحزنة . قال الكسائي : معناه لا يرى شيء إلا مساكنهم ، فهو محظوظ على المعنى ؛ كما يقول : ما قام إلا هند ، والمعنى ما قام أحد إلا هند . وقال الفرزاء : لا يرى الناس لأنهم كانوا تحت الرمل ، وإنما ترى مساكنهم لأنها فائمة . (كذلك نجزي القوم المُجْرِمِينَ) أي مثل هذه العقوبة تعاقب بها المشركين .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ مَكَنَّتُهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَانَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ** (٢٦)

قوله تعالى : (ولقد مكناكم فيما إن مكناكم فيه) قيل : إن « إن » زائدة ؛ تقديره ولقد مكناكم فيما مكناكم فيه . وهذا قول القمي وأنشد الأخفش :

يُرْجِي الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ * وَتَعْرِصُ دُونَ أَدَنَاهُ الْخَطُوبُ
وقال آخر :

فَا إِنْ طَبِّئَا جُبْنَ وَلَكِنْ * مَنْ يَا يَا وَدَوْلَةُ آخَرِينَ (١)

وقيل : إن « ما » يعني الذي . و « إن » يعني ما ؛ والتقدير ولقد مكناكم في الذي ما مكناكم فيه ، قاله المبرد . وقيل : شرطية وجوابها مضمر مخدوف ؛ والتقدير ولقد مكناهم في ما إن مكناكم فيه كان بغيركم أكثر وعندكم أشد ؛ وتم الكلام ، ثم ابتدأ فقال : (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً) يعني قلوبها يفهمون بها . (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ) من عذاب الله . (إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ) يكفرون . (بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ أَحَاطَ بِهِمْ) . (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ) .

(١) البيت لفروة بن مسيك المرادي . والعلب : الشأن والمادة والشهوة والإرادة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلَيْتُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (ولَقَدْ أَهْلَكَنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ) يريد حجر ثمود وقرى لوط ونحوهما مما كان يجاور بلاد المجاز ، وكانت أخبارهم متواترة عندهم . (وَصَرَفْنَا آلَيْتُ) يعني الحجج والدلائل وأنواع البيانات والعلامات ؛ أى بيناها لأهل تلك القرى . (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) فلم يرجعوا . وقيل : أى صرفنا آيات القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعل هؤلاء المشركين يرجعون .

قوله تعالى : فَلَوْلَا نَصَرْهُمُ الَّذِينَ أَنْجَدْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا إِلَهًا
بَلْ ضَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (فلو لا نصّرهم) «لو لا» بمعنى هل لا ؟ أى هل لا نصّرهم آلهتهم التي تقتربوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا : «هؤلاء شفّاعونا عند الله» (١) ومنعهم من الذهاب الواقع بهم . قال الكسائي : القرّبان كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من طاعة ونسكية ، والجمع قرّابين ؛ كالذهبان والرهابين . وأحد مفعولي التحذير الرابع إلى الذين المخدوف ، والثاني «آلهة» . و «قربانا» حال ، ولا يصح أن يكون «قربانا» مفعولا ثانيا . و «آلهة» بدل منه لفساد المعنى ؛ قاله الزمخشري . وقرئ «قربانا» بضم الراء . (بل ضلّوا عنهم) أى هلكوا عليهم . وقيل : «بل ضلّوا عنهم» أى ضلّت عليهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم ؛ إذ هي بحمد . وقيل : ضلّوا عليهم ؛ أى تركوا الأصنام وتبراءوا منها . (وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ) أى والله التي ضلّت عليهم هي إفكهم في قوله : إنها تقربهم إلى الله زلفي . وقراءة العامة «إفْكُهُمْ» بكسر الميم وسكون الفاء ؛ أى كذبهم . والإفك : الكذب ، وكذلك الأفيكة ، والجمع الأفائق . ورجل أفالك أى كذاب . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزير «وذلك أَفْكَهُمْ» بفتح الميم

(١) آية ١٨ سورة يونس . (٢) الصمير الرابع .

والفاء والكاف ، على الفعل ؛ أى ذلك القول صرفهم عن التوحيد . واللَّفْكُ (بالفتح) مصدر قولك : أَفَكَهْ يَا فِكَهْ أَفْكَاهْ ؟ أى قلبه وصرفه عن الشيء . وقرأ عكرمة « أَفَكَهْ » بتشديد الفاء على التأكيد والتکثير . قال أبو حاتم : يعني قلبهم عمما كانوا عليه من النعم . وذكر المهدوى عن ابن عباس أيضا « أَفَكَهْ » بالمد وكسر الفاء ؛ بمعنى صارفهم . وعن عبد الله بن الزبير باختلاف عنه « أَفَكَهْ » بالمد ؛ بفارز أن يكون أفعالهم ، أى أصارهم إلى الإفك . وجاز أن يكون فاعلهم نكادعهم . ودليل قراءة العامة « إِفْكَهْ » قوله (« وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ») أى يكذبون . وقيل « إِفْكَهْ » مثل « أَفَكَهْ » . الإفك والأفك كالحدُور والحدُور ؛ قاله المهدوى .

قوله تعالى : وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ أَلْجَنْ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتاُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (١)

قوله تعالى : (« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ أَلْجَنْ ») هذا توبخ لمشرك قريش ؛ أى إن الجنة سمعوا القرآن فآمنوا به وعلموا أنه من عند الله وأنت معروضون مصرؤون على الكفر . ومعنى « صَرَفْنَا » وجهنا إليك وبعثنا . وذلك أنهم صُرِفوُوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشهب — على ما يأتي — ولم يكونوا بعد عيسى قد صُرِفوُوا عنه إلا عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . قال المفسرون ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاحد وغيرهم : لما مات أبو طالب خرج النبي صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من نَقِيفَ النَّصْرَة فقصد عبد ياليل ومسعودا وحبيبا وهم إخوة — بنو عمرو بن عمير — وعندهم امرأة من قريش من بني جمع ؛ فدعاهم إلى الإيمان وسألهم أن ينصروه على قومه فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : ما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكملك كلمة أبدا ؛ إن كان الله أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تَكْذِبْ فما ينبغي لي أن أكملك . ثم أغرروا به سفهاءهم

(١) يمرط : يزع .

وعيدهم يسبونه ويضحكون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألحوظوا إلى حائط لعنة وشنية ابن ربيعة . فقال للْمُحَمَّدية : « مَاذَا لَقِينَا مِنْ أَهْمَانِكَ » ؟ ثم قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي وَقِلَّةِ حِيلَتِي وَهُوَنِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ؟ مَنْ تَكُنُ ؟ إِلَى عَبْدِ يَتَجَهَّمْنِي ، أَوْ إِلَى عَدُوِّ مَلْكَتِهِ أَمْرِي ! إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَىٰ فَلَا أَبْلَى ، وَلَكَ عَافِيَتِكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ مِنْ أَنْ يَنْزَلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحْلَّ عَلَىٰ سُخْطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّىٰ تَرْضَى ، وَلَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » . فَرَحِمَهُ أَبْنَا رَبِيعَةَ وَقَالَا لِغَلامٍ لَهَا نَصْرَانِيَّ يَقَالُ لَهُ عَدَاسٌ : خذْ قِطْفًا مِنَ الْعَنْبَ وَضَعْهَ فِي هَذَا الطَّبِيقَ ثُمَّ ضَعْهَ بَيْنَ يَدَيِّ هَذَا الرَّجُلِ ؛ فَلَمَّا وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « بِاسْمِ اللَّهِ » ثُمَّ أَكَلَ ؛ فَنَظَرَ عَدَاسٌ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَيَّ الْبَلَادَ أَنْتَ يَا عَدَاسَ وَمَا دِينُكَ » ؟ قَالَ : أَنَا نَصْرَانِيُّ مِنْ أَهْلِ بَيْنَوَى . فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَمِنْ قَرْيَةَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يَوْنَسَ بْنَ مَتَّىٰ » ؟ فَقَالَ : وَمَا يَدْرِيكَ مَا يَوْنَسُ ابْنُ مَتَّىٰ ؟ قَالَ : « ذَاكَ أَنِّي كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ » فَأَنْكَبَ عَدَاسٌ حَتَّىٰ قَبْلَ رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَدِيهِ وَرِجْلِيهِ . فَقَالَ لَهُ أَبْنَا رَبِيعَةَ : لَمْ فَعَلْتَ هَذَكُذَا ؟ فَقَالَ : يَا سَيِّدَيَّ مَا فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا ، أَخْبَرْتَنِي بِأَمْرِ مَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ . ثُمَّ آتَنَصْرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يَئْسَنُ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بَيْطَنَ نَخْلَةَ قَامَ مِنَ اللَّيلِ يَصْلِي فَتَرْبَهُ نَفْرَمَنْ جَنَّ أَهْلَ نَصِيبِيْنَ . وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّ كَانُوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ ، فَلَمَّا حُرْسَتِ السَّمَاءُ وَرُمُوا بِالشَّمْبَ قَالَ إِبْلِيسُ : إِنَّ هَذَا الَّذِي حَدَثَ فِي السَّمَاءِ لِشَيْءٍ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ ؛ فَبَعْثَ سَرَابِيَاهُ لِيَعْرِفَ الْخَبَرَ ، أَوْلَمْ رَكِبْ نَصِيبِيْنَ وَهُمْ أَشْرَافُ الْجَنَّ إِلَىٰ تِهَامَةَ ، فَلَمَّا بَلَغُوا بَطْنَ نَخْلَةَ سَمِعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْلِي صَلَاةَ الْغَدَاءِ بَيْطَنَ نَخْلَةَ وَيَتَلَوُ الْقُرْآنَ ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَقَالُوا : أَنْصَتُوا . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : بَلْ أَمْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْدَرُ

(١) فِي سِيرَةِ أَبْنِ هَشَامٍ : « بَعِيدٌ » . (٢) أَيْ يَلْقَانِي بِالْمُلْكَةِ وَالْوَجْهِ الْكَرِيمِ .

الجَنْ وَ يَدْعُوهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَ يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ ؛ فَصَرَفَ اللَّهُ عَنْ وَجْهِ إِلَيْهِ نَفْرًا مِنَ الْجَنِّ
 مِنْ نِيَّنَوْيِ وَ جَمِيعِهِمْ لَهُ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى
 الْجَنِّ الْبِلْلَةَ فَأَيْكُمْ يَتَبَعَّنِي؟» ؟ فَأَطْرَقُوا ، ثُمَّ قَالَ الثَّانِيَةَ فَأَطْرَقُوا ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ فَأَطْرَقُوا ؛
 فَقَالَ أَبْنُ مُسْعُودَ : أَنَا يَارَسُولُ اللَّهِ ؛ قَالَ أَبْنُ مُسْعُودَ : وَلَمْ يَحْضُرْ مَعَهُ أَحَدٌ غَيْرِي ؛ فَأَنْطَلَقُنَا
 حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَعْلَى مَكَّةَ دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَعْبَانَ يَقَالُ لَهُ «شَعْبُ الْجَنُونِ» وَ خَطَّ
 لِي خَطَا وَأَمْرَنِي أَنْ أَجْلِسَ فِيهِ وَقَالَ : «لَا تَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكَ» ؛ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى قَامَ
 فَأَفْتَحَ الْقُرْآنَ ، بَفْعَلَتْ أُرْيَ أَمْثَالَ النَّسُورِ تَهْوِي وَتَعْشَى فِي رَفْرَفَهَا ، وَسَمِعَتْ لَغَطَّا وَغَمْغَةً حَتَّى
 خَفَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَغَشِّيَتْهُ أَسْوِدَةً كَثِيرَةً حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَتَّى مَا أَسْمَعَ
 صَوْتَهُ ، ثُمَّ طَفَقُوا يَتَقَاطِعُونَ مِثْلَ قَطْعِ السَّحَابِ ذَاهِبِينَ ، فَفَرَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ
 الْفَجْرِ فَقَالَ : «أَنْتَ؟» ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهُ ، وَلَقَدْ هَمِّتْ مَرَارًا أَنْ أَسْتَغْيِثَ بِالنَّاسِ حَتَّى
 سَمِعْتُكَ تَقْرِعُهُمْ بِعَصَالَكَ تَقُولُ أَجْلِسُوا ، فَقَالَ : «لَوْ نَرْجَتْ لَمْ آمِنْ عَلَيْكَ أَنْ يَخْطُفَكَ بِعَضُّمْ»
 ثُمَّ قَالَ : «هَلْ رَأَيْتَ شَيْنَا؟» ؟ قَالَ : نَعَمْ يَارَسُولُ اللَّهِ ، رَأَيْتَ رِجَالًا سُودًا مُسْتَفْرِي شَيَابًا^(١)
 بِيَضًا ؛ فَقَالَ : «أُولَئِكَ جِنٌّ نَصِيبِينَ سَالُونِي الْمَتَاعَ وَالزَّادَ فَتَعْتَمِمُ بِكُلِّ عَظَمٍ حَائِلَ وَرَوْثَةً^(٢)
 وَبَعْرَةً» . فَقَالُوا : يَارَسُولُ اللَّهِ يَقْدِرُهَا النَّاسُ عَلَيْنَا . فَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 أَنْ يُسْتَنْجِي بِالْعَظَمِ وَالرَّوْثَةِ . قَاتَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، وَمَا يَغْنِي ذَلِكَ عَنْهُمْ! قَالَ : «إِنَّهُمْ لَا يَحْدُونَ
 عَظَمًا إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهِ لَحْمَ يَوْمَ أَكِلٍ ، وَلَا رَوْثَةً إِلَّا وَجَدُوا فِيهَا حَبَّةً يَوْمَ أَكِلٍ»^(٣) فَقَالَ :
 يَارَسُولُ اللَّهِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ لَفْطًا شَدِيدًا ؟ فَقَالَ : «إِنَّ الْجَنَّ تَدارَتْ فِي قَتْلِ بَنِيهِمْ فَتَحَاكُوا
 إِلَى فَقْضِيتِ بَنِيهِمْ بِالْحَقِّ» . ثُمَّ تَبَرَّزَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ أَتَانِي فَقَالَ : «هَلْ مَعَكَ مَاءً؟» ،
 فَقَلَّتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مَعِي إِدَاؤَةٌ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ نَبِيَّذِ التَّرْ فَصَبَبَتْ عَلَى يَدِيهِ فَنَوْضًا فَقَالَ : «تَمَرَّةٌ^(٤)
 طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ» . رَوَى مَعْنَاهُ مُعْمَرُ عَنْ قَتَادَةَ وَشُعْبَةَ أَيْضًا عَنْ أَبْنِ مُسْعُودَ . وَلَيْسَ

(١) أَسْوِدَةُ (جَمِيعُ الْسَّوَادِ) وَالْسَّوَادُ وَالْأَسْوَادُ وَالْأَسَادُ : جَمِيعُ النَّاسِ . وَقَبْلَهُمُ الْفَرَوْبُونَ الْمُنْفَرِقُونَ .

(٢) الْاسْتَفَارُ : أَنْ يَدْخُلَ الْأَنْسَانَ إِلَازَارَهُ بَيْنَ نَخْذِيَهُ مَلْوَيَا ثُمَّ يَخْرُجُهُ . (٣) الْعَظَمُ الْحَائِلُ : الْمُنْدَبِرُ ،

قَدْ غَيَرَهُ الْبَلِيلُ . (٤) تَدَارَأً : اخْتَلَفَ . (٥) الإِدَاؤَةُ : إِنَاءٌ صَغِيرٌ مِنْ جَلْدِهِ .

(١) فـ حـدـيـثـ مـعـمـرـ ذـكـرـ نـيـذـ التـرـ . وـرـوـىـ عـنـ أـبـيـ عـمـانـ الـهـيـدـيـ أـنـ اـبـنـ مـسـعـودـ أـبـصـرـ زـطـاـفـ قالـ: ما هـؤـلـاءـ؟ قـالـ: هـؤـلـاءـ الرـطـ . قـالـ: مـاـرـأـيـتـ شـبـهـهـمـ إـلـاـ لـجـنـ لـلـيـلـةـ الـجـنـ فـكـانـواـ مـسـفـزـيـنـ يـتـبعـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاـ . وـذـكـرـ الدـارـقـطـنـيـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ لـهـيـعـةـ حـدـثـيـ قـيـسـ بـنـ الـجـاجـ عـنـ حـنـشـ عـنـ آـبـنـ عـبـاسـ عـنـ اـبـنـ مـسـعـودـ أـنـ وـضـأـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـلـيـلـةـ الـجـنـ بـنـيـذـ فـتـوـضـأـ بـهـ وـقـالـ: "شـرـابـ وـطـهـورـ" . اـبـنـ لـهـيـعـةـ لـاـ يـخـتـجـبـ بـهـ . وـبـهـذـاـ السـنـدـ عـنـ اـبـنـ مـسـعـودـ أـنـ خـرـجـ مـعـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـلـيـلـةـ الـجـنـ ، فـقـالـ لـهـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : "أـمـعـكـ مـاءـ يـاـ بـنـ مـسـعـودـ"؟ فـقـالـ: مـعـيـ نـيـذـ فـيـ إـداـوـةـ؛ فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : "صـُبـتـ عـلـيـهـ" . فـتـوـضـأـ وـقـالـ: "هـوـ شـرـابـ وـطـهـورـ" تـفـرـدـ بـهـ اـبـنـ لـهـيـعـةـ وـهـوـ ضـعـيفـ الـحـدـيـثـ . قـالـ الدـارـقـطـنـيـ: وـقـيلـ إـنـ اـبـنـ مـسـعـودـ لـمـ يـشـهـدـ مـعـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـلـيـلـةـ الـجـنـ . كـذـلـكـ رـوـاهـ عـلـقـمـةـ بـنـ قـيـسـ وـأـبـوـ عـبـيـدـةـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ وـغـيرـهـمـ عـنـهـ أـنـ قـالـ: مـاـ شـهـدـتـ لـلـيـلـةـ الـجـنـ . حـدـثـيـاـ أـبـوـ مـحـمـدـ بـنـ صـاعـدـ حـدـثـيـاـ أـبـوـ الـأـشـعـثـ حـدـثـيـاـ بـشـرـ بـنـ الـمـفـضـلـ حـدـثـيـاـ دـاـوـدـ بـنـ أـبـيـ هـنـدـ عـنـ عـاصـمـ عـنـ عـلـقـمـةـ بـنـ قـيـسـ قـالـ قـلـتـ لـعـبـدـ اللـهـ بـنـ مـسـعـودـ: أـشـهـدـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ أـحـدـ مـنـكـ لـلـيـلـةـ أـتـاهـ دـاعـيـ الـجـنـ؟ قـالـ لـاـ . قـالـ الدـارـقـطـنـيـ: هـذـاـ إـسـنـادـ صـحـيـحـ لـاـ يـخـتـلـفـ فـيـ عـدـالـةـ رـاوـيـهـ، وـعـنـ عـمـرـوـ بـنـ مـرـّـةـ قـالـ قـلـتـ لـأـبـيـ عـبـيـدـةـ: حـضـرـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ مـسـعـودـ لـلـيـلـةـ الـجـنـ؟ فـقـالـ لـاـ . قـالـ اـبـنـ عـبـاسـ: كـانـ الـجـنـ سـبـعـةـ نـفـرـ مـنـ جـنـ نـصـبـيـنـ بـعـلـمـهـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ رسـلـ إـلـىـ قـوـمـهـمـ . وـقـالـ زـرـ بـنـ حـبـيـشـ: كـانـواـ تـسـعـةـ أـحـدـهـمـ زـوـبـعـةـ . وـقـالـ قـنـادـةـ: إـنـهـمـ مـنـ أـهـلـ نـيـنـوـيـ . وـقـالـ مـجـاهـدـ: مـنـ أـهـلـ حـرـانـ . وـقـالـ عـكـرـمـةـ: مـنـ جـزـيـرـةـ الـمـوـصـلـ . وـقـيلـ: إـنـهـمـ كـانـواـ سـبـعـةـ، ثـلـاثـةـ مـنـ أـهـلـ نـجـرـانـ وـأـرـبـعـةـ مـنـ أـهـلـ نـصـبـيـنـ . وـرـوـىـ اـبـنـ أـبـيـ الدـنـيـاـ أـنـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ فـيـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ وـذـكـرـ فـيـهـ نـصـبـيـنـ فـقـالـ: "رـفـعـتـ إـلـىـ حـتـىـ رـأـيـتـهـ فـدـعـوـتـ اللـهـ أـنـ يـكـثـرـ مـطـرـهـاـ وـيـنـضـرـ شـجـرـهـاـ وـأـنـ يـغـزـرـ نـهـرـهـاـ" . وـقـالـ السـهـيلـ: وـيـقـالـ كـانـواـ سـبـعـةـ، وـكـانـواـ يـهـوـدـاـ فـأـسـلـمـوـاـ، وـلـذـلـكـ قـالـوـاـ «أـنـزـلـ مـنـ بـعـدـ مـوـسـىـ» . وـقـيلـ فـيـ أـسـمـائـهـ: شـاصـرـ وـمـاـصـرـ وـمـنـشـيـ

(١) الرـطـ: جـيلـ أـسـودـ مـنـ السـنـدـ . وـقـيلـ: مـاعـرـابـ «جـتـ» بـالـهـنـدـيـةـ، وـهـمـ جـيلـ مـنـ أـهـلـ الـهـنـدـ .

(٢) فـ كـنـبـ الـلـغـةـ: «شـهـارـ» كـتـبـاـ .

وماشي والأحقب ؟ ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد . و منهم عمرو بن جابر ، ذكره ابن سالم من طريق أبي إسحاق السبيبي عن أشياخه عن ابن مسعود أنه كان في نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يمشون فرفع لهم إعصار ثم جاء إعصار أعظم منه فإذا حية قتيل ، فعمد رجل منها إلى رداءه فشققه وكفن الحية ببعضه ودفنهما ، فلما جن الليل إذا اصرأتان تسالان : أيّكم دفن عمرو بن جابر ؟ فقلنا : ما ندرى من عمرو بن جابر ! فقالتا : إن كتم ابتعثيم الأجر فقد وجدتموه ، إن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين فقتل عمرو ، وهو الحية التيرأيت ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد صلى الله عليه وسلم ثم ولوا إلى قومهم منذرين . وذكر ابن سالم رواية أخرى : أن الذى كفنه هو صفوان بن المُعطل .

قلت : وذكر هذا الخبر الثعلبي بخواه فقال : وقال ثابت بن قطبة جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا : إننا كنا في سفر فرأينا حية متشرحة في دمائها ، فأخذها رجل منها فواريناها بباء أناس فقالوا : أيّكم دفن عمرًا ؟ قلنا : وما عمرو ! قالوا الحية التي دفنت في مكان كذا ، أما إنه كان من النفر الذين استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وكان بين حيين من الجن مسلمين وكافرين قتلا ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حضر الدفن ، والله أعلم . وذكر ابن أبي الدنيا عن رجل من التابعين سماه : أن حية دخلت عليه في خبائه تلهث عطشا فسقاها ثم أنها ماتت فدفنتها ، فأتي من الليل فسلم عليه وشكر ، وأخبر أن تلك الحية كانت رجلا من جن تنصيبين اسمه زوبعة . قال السبيبي : وبلغنا في فضائل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه مما حدثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاد ، فإذا حية ميتة فكفنتها بفضلة من رداءه ودفنتها ؛ فإذا قائل يقول : يسرق ، أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "سموت بأرض فلاد فيكفنك رجل صالح " . فقال : ومن أنت يرحمك الله ! فقال : رجل من الجن الذين استمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق منهم إلا أنا وسرق ، وهذا سرق قد مات ، وقد قلت

عائشة رضي الله عنها حية رأتها في حجرتها تستمع وعائشة تقرأ ؛ فأتت في المنام فقيل لها : إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجن الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت : لو كان مؤمناً ما دخل على حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقيل لها : ما دخل عليك إلا وأنت متقطعة ، وما جاء إلا ليسمع الذكر . فأصبحت عائشة فزعة ، وأشارت رقاباً فأعتقهم . قال السهيل : وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجن ما حضرنا ؛ فإن كانوا سبعة فالأخوب منهم وصف لأحدهم ، وليس باسم علم ؛ فإن الأسماء التي ذكرناها آنفاً ثمانيّة بالأحقب . والله أعلم .

قالت : وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه : هامة بن الهميم بن الأفيس بن إبليس ؛^(١) قيل : إنه من مؤمني الجن ومن لق النبي صلى الله عليه وسلم وعلمه سورة «إذا وقعت الواقعة» و«المرسلات» و«عم يتساءلون» و«إذا الشمس كُوثرت» و«الحمد» و«المعوذتين» . وذكر أنه حضر قتل هابيل وشارك في دمه وهو غلام ابن أعوا ، وأنه لق نوحًا وتاب على يديه ، وهو داداً وصالحاً ويعقوب ويوسف وإلياس وموسى بن عمران ويعسى بن مريم عليهم السلام . وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن مجاهد فقال : حسي ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم . وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السماك قال : حدثنا محمد ابن البراء قال حدثنا الزبير بن بكار قال : كان حمزة بن عبدة بن أبي هلب يُسمى جن نصبيين الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : حسي ومسى وشاصر وماصر والأرد والأرد وأنيان .^(٢)

قوله تعالى : «فَلَمَّا حَضَرُوهُ» أي حضروا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو من باب تلوين الخطاب . وقيل : لما حضروا القرآن واستماعه . «قَالُوا أَنْصِتا» أي قال بعضهم لبعض اسكتوا لاستماع القرآن . قال ابن مسعود : هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في بعض الأصول : «الأهم» .

(٢) لم نوفق لتحقق هذه الأسماء . والأصول والمصادر التي بين أيدينا مضطربة فيها .

وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه « قالوا أَنْصَتُوا » قالوا صه . وكانوا سبعة : أحدهم زوجة ، فأنزل الله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا » الآية إلى قوله : « فِي ضَلَالٍ مِنِّي » . وقيل : « أَنْصَتُوا » لسماع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى متقارب . (فَلَمَّا قُضِيَ) وقرأ لاحق بن حميد وخبيب بن عبد الله بن الزبير « فَلَمَّا قُضِيَ » بفتح القاف والصاد ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة . وذلك أنهم خرجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك ؟ بخاءوا وادى نخلة والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الفجر ، وكانوا سبعة ، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذرین ، ولم يعلم بهم النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : بل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفرا من الجن ليستمعوا منه وينذروا قومهم ؛ فلما تلا عليهم القرآن وفرغ انصرفوا بأمره فاصدين من وراءهم من قومهم من الجن ، منذرین لهم مخالفة القرآن ومخذلین إياهم باسن الله إن لم يؤمنوا . وهذا يدل على أنهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أرسلهم . ويدل على هذا قوله : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ » ولو لا ذلك لما انذروا قومهم . وقد تقدم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم جعلهم رسلا إلى قومهم ؛ فعلى هذا ليلة الجن ليتلذن ، وقد تقدم هذا المعنى مستوف . وفي صحيح مسلم ما يدل على ذلك على ما يأتي بيانه في « قُلْ أَوْحَى إِلَيْ » . وفي صحيح مسلم عن معن قال : سمعت أبي قال سألت مسروقا من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثني أبوك - يعني ابن مسعود - أنه آذنته بهم شجرة .

قوله تعالى : **قَالُوا يَأْتُونَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** (١)

(١) آذن : أعلم .

يَأْتُوْمَنَا أَجِبُوْا دَاعِيَ اللَّهَ وَأَمِنُوا بِهِ يَغْفِر لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُحِرِّكُمْ
مِنْ عَذَابِ الْيَمِينِ (١)

قوله تعالى : ((قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كَاتِبًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى)) أى القرآن ، وكانوا
مؤمنين بموسى . قال عطاء : كانوا يهودا فأسلموا ، ولذلك قالوا : « أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » .
وعن ابن عباس أن الحن لم تكن سمعت بأمر عيسى ، فلذلك قالت : « أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى » .
((مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)) يعني ما قبله من التوراة . ((يَهِدِي إِلَى الْحَقِّ)) دين الحق .
((وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ)) دين الله القويم . ((يَا قَوْمَنَا أَجِبُوْا دَاعِيَ اللَّهِ)) يعني محمد صلى الله
عليه وسلم ؛ وهذا يدل على أنه كان مبعوثا إلى الحن والإنس . قال مقاتل : ولم يبعث الله
نبيا إلى الحن والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : يدل على قوله ما في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « أُعْطِيْتُ نَحْسَانًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِيْ كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبَعْثَتُ إِلَى قَوْمَهُ
خَاصَّةً وَبُعْثَتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدَ وَأَحْلَاتٍ لِغَنَائِمٍ وَلَمْ تَحْلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِيْ وَجُعْلَتُ لِيَ الْأَرْضُ
طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتِهِ الصَّلَاةُ صَلَّى حِيثُ كَانَ وَنُصْرَتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ
يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةً » . قال مجاهد : الأحمر والأسود : الحن والإنس .
وفي رواية من حديث أبي هريرة « وَبُعْثَتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَةً وَخُتمَ بِنَبِيِّنَ » . ((وَأَمِنُوا بِهِ))
أى بالداعى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : « به » أى بالله ، لقوله : ((يَغْفِر لَكُمْ
مِنْ ذُنُوبِكُمْ)) . قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلا ، فرجعوا إلى النبي
صلى الله عليه وسلم فوافقوه بالبطحاء ، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهام .

مسألة — هذه الآى تدل على أن الحن كالإنس في الأمر والنهى والثواب والعقاب .
وقال الحسن : ليس المؤمن بالحسن ثواب غير نجاتهم من النار ؛ يدل عليه قوله تعالى :
((يَغْفِر لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُحِرِّكُم مِنْ عَذَابِ الْيَمِينِ)) . وبه قال أبو حنيفة قال : ليس ثواب الحن
إلا أن يختاروا من النار ، ثم يقال لهم : كونوا ترابا مثل البهائم . وقال آخرون : إنهم كما يعاقبون

فِي الْإِسَاءَةِ يَحَازُونَ فِي الْإِحْسَانِ مِثْلَ الْإِنْسَانِ . وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مَالِكُ وَالشَّافِعِيُّ وَابْنُ أَبِي لَبْلَى .
وَقَدْ قَالَ الضَّحَّاكُ : الْجَنُّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرُبُونَ . قَالَ الْقَشِيرِيُّ : وَالصَّحِيفَعِيُّ
أَنَّ هَذَا مَا لَمْ يَقْطُعْ فِيهِ بَشَّيْءٌ ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ .

قَالَتْ : قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » يَدْلِلُ عَلَى أَنَّهُمْ يَشَابُونَ وَيَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَانِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتٍ – إِلَى أَنْ قَالَ – وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » . وَاللَّهُ أَعْلَمُ ; وَسِيَّاقُ هَذَا فِي سُورَةِ
« الرَّحْمَنَ » مِنْ يَدِ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ يُمْعِجزُ فِي الْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١)
قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ لَا يُحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ يُمْعِجزُ فِي الْأَرْضِ) أَيْ لَا يَفُوتُ اللَّهُ
وَلَا يَسْبِقُهُ (وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أُولَيَاءُ) أَيْ أَنْصَارٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ . (أُولَئِكَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَلَمْ يَعِي بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْسِنَ الْمَوْتَىَ بَلَّ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَادِرٌ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) الرُّؤْيَا هُنَا بِمَعْنَى
الْعِلْمِ . وَ « أَنَّ » وَاسْمُهَا وَخَبْرُهَا سُدَّ مَسْدَدٌ مَفْعُولُ الرُّؤْيَا . (وَلَمْ يَعِي بِخَلْقِهِنَّ يَقْدِرُ
عَلَى أَنْ يُحْسِنَ الْمَوْتَىَ) احْتِجاجٌ عَلَى مُنْكَرِ الْبَعْثَ . وَمَعْنَى « لَمْ يَعِي » يَعْيَزُ وَيَضْعُفُ عَنْ
إِبْدَاعِهِنَّ . يَقُولُ : عَيْ بِأَمْرِهِ وَعَيْ إِذَا لَمْ يَهْتَدِ لِوَجْهِهِ ; وَالْإِدْغَامُ أَكْثَرُ . وَتَقُولُ فِي الْجَمْعِ
عَيْوَا ، مَخْفِقَا ، وَعَيْوَا أَيْضًا بِالتَّشْدِيدِ . قَالَ :

(١) آيَةٌ ١٣٢ سُورَةُ الْأَنْعَامَ .

(٢) آيَةٌ ١٣٠ سُورَةُ الْأَنْعَامَ .

(١) **عَيْنَا بِأَمْرِهِمْ كَمَا * عَيْتُ بِيَضْمَنِ الْحَامَةْ**

وعيّنت بأمرى إذا لم تهتد لوجهه . وأعيانى هو . وقرأ الحسن « ولم يَعَنْ » بكسر العين وإسكان الياء ؛ وهو قليل شاذ ، لم يأت إعلال العين وتصحيح اللام إلا في أسماء قليلة ؛ نحو غاية وآية . ولم يأت في الفعل سوى بيت أنشده الفتاء ؛ وهو قول الشاعر :

(٢) **فَكَانَهَا بَيْنَ النِّسَاءِ سَبِيلَكَةُ * تَمَشِّي بِسُدَّةٍ بِيَمِّهَا فَتُرِيعِي**

((بِقَادِرٍ)) قال أبو عبيدة والأخفش : الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله : « وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » ، قوله : « تَنْبَتُ بِالدَّهْنِ » . وقال الكسائي والفتاء والزجاج : الباء فيه خلف الاستفهام والجحد في أول الكلام . قال الزجاج : والعرب تدخلها مع الجهد تقول : ما ظننت أن زيدا بقائم . ولا تقول : ظننت أن زيدا بقائم . وهو لدخول « ما » ودخول « أن »

لتوكيد . والتقدير : أليس الله ب قادر ؟ كقوله تعالى : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ » . وقرأ ابن مسعود والأعرج والخدرى وابن أبي إسحاق ويعقوب « يَقْدِرُ » واختاره أبو حاتم ؛ لأن دخول الباء في خبر « أن » قبيح . واختار أبو عبيد قراءة العامة ؛ لأنها في قراءة عبد الله « خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ » بغير باء . والله أعلم .

قوله تعالى : **وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ إِمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**

قوله تعالى : ((وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ)) أى ذكرهم يوم يعرضون فيقال لهم : ((أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا)) فيقول لهم المفتر : ((فَذُوقُوا الْعَذَابَ إِمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)) أى بـ كفركم .

(١) البيت لعبيد بن الأبرص .

(٢) آية ٢٠ سورة المؤمنون .

(٣) آية ٨١ سورة يس .

قوله تعالى : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرَّسُلِ وَلَا تَسْتَعِجِلْ
 هُمْ كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَغَ
 فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا أَلْقَوْمُ الْفَسِقُونَ (٣٩)

قوله تعالى : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرَّسُلِ) قال ابن عباس : ذرو الحزم
 والصبر ؛ قال مجاهد : هم نحسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة
 والسلام . وهم أصحاب الشرائع . وقال أبو العالية : إن أولى العزم : نوح، وهود، وإبراهيم .
 فأمر الله عن وجل نبيه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعهم . وقال النبي : هم ستة :
 إبراهيم ، وموسى ، وداود ، سليمان ، وعيسى ، ومحمد ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . وقيل :
 نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ؛ وهم المذكورون على النسق في سورة
 «الأعراف والشعراء» . وقال مقاتل : هم ستة : نوح صبر على أذى قومه مدة .
 وإبراهيم صبر على النار . وإسحاق صبر على الذبح . ويعقوب صبر على فقد الولد وذهب
 البصر . ويوف الصبر على البئر والسجين . وأيوب صبر على الضرب . وقال ابن جرير :
 إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب ، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم . وقال الشعبي
 والكلبي : ومجاهد أيضاً : هم الذين أمروا بالقتال فأظهروا المكافحة وجاهدوا الكفرة .
 وقيل : هم نجابة الرسل المذكورون في سورة «الأنعام» وهم ثمانية عشر : إبراهيم ،
 وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، سليمان ، وأيوب ، ويوف ، وموسى ، وهرون ،
 وزكريا ، ويعني ، و إلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط . واختاره
 الحسن بن الفضل لقوله في عقبه : «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمَا هُمْ أَقْدَمُ» . وقال ابن
 عباس أيضاً : كل الرسل كانوا أولى عزم . واختاره على بن مهدي الطبرى ، قال : وإنما
 دخلت «من» للتجنيس لا للتبعيض ؛ كما تقول : اشتريت أردية من البزاوة كسيمة من الخزف .
 أى اصبر كما صبر الرسل . وقيل : كل الأنبياء أولو عزم إلا يونس بن متى ؛ ألا ترى أن

(١) آ ٩٠ سورة الأنعام .

النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يكون مثله ؛ لخلفة وعجلة ظهرت منه حين ولّى مُغاضبًا لقومه ، فابتلاه الله بثلاث : سلط عليه العمالقة حتى أغروا على أهله وما له ، وسلط الذئب على ولده فأكله ، وسلط عليه الحوت فابتاعه ؛ قاله أبو القاسم الحكيم . وقال بعض العلماء : أولوا العزم اثنا عشر نبأ أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصوه ، فأوحى الله إلى الأنبياء أنّي مرسّل عذابي إلى عصاة بني إسرائيل ؛ فشق ذلك على المرسلين فأوحى الله إليهم اختاروا لأنفسكم ، إن شتم أنزلت بكم العذاب وأنجيت ببني إسرائيل ، وإن شتمت نجيتكم وأنزلت العذاب ببني إسرائيل ؛ فتشاوروا بينهم فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى الله بني إسرائيل ؛ فأنجى الله بني إسرائيل وأنزل بأولئك العذاب . وذلك أنه سلط عليهم ملوك الأرض ؛ فنهم من نُشر بالمناشر ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات ، ومنهم من حُرق بالنار . والله أعلم . وقال الحسن : أولوا العزم أربعة : إبراهيم ، وموسى ، وداود ، وعيسى ؛ فاما إبراهيم فقيل له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ثم آتيلـ في ماله (١) وولده ووطنه ونفسه ، فوجد صادقاً وافقاً في جميع ما آتيلـ به . وأما موسى فعزمـه حين قال له قوله : « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنْ مَيَّرَبِّ سَيِّدِنَا (٢) » . وأما داود فأخذـ خطيبـته فُنبـهـ عليها ، فأقام يسـكيـ أربعـين سـنة حتى نـبتـ من دـمـوعـهـ شـجـرةـ ، فـقـعـدـ تـحـتـ ظـلـهاـ . وأما عـيسـىـ فـعـزمـهـ أـنـهـ لـمـ يـضـعـ لـيـنةـ عـلـىـ لـيـنةـ وـقـالـ : « إـنـهـ مـعـبـرـ فـأـعـبـرـهـ وـلـاـ تـعـمـرـهـ » . فـكـانـ اللهـ تـعـالـيـ يـقـولـ لـرـسـوـلـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : اـصـبـرـ ، أـىـ كـنـ صـادـقاـ فـيـاـ اـبـتـلـيـتـ بـهـ مـثـلـ صـدـقـ إـبـراهـيمـ ، وـأـنـقـاـ بـنـصـرـةـ مـوـلـاـكـ مـثـلـ ثـقـةـ مـوـسـىـ ، مـهـتـمـاـ بـمـاـ سـلـفـ مـنـ هـفـوـاتـكـ مـثـلـ دـاـودـ ، زـاهـداـ فـالـدـنـيـاـ مـثـلـ زـهـدـ عـيسـىـ . ثمـ قـيلـ : هـىـ مـنـسـوـخـةـ بـأـيـةـ السـيـفـ . وـقـيلـ : مـحـكـمـةـ ؟ـ والأـظـهـرـ أـنـهـ مـنـسـوـخـةـ ، لـأـنـ السـوـرـةـ مـكـيـةـ . وـذـكـرـ مـقـاتـلـ : أـنـ هـذـهـ الـآـيـةـ نـزـلتـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ يـوـمـ أـحـدـ ؛ فـأـمـرـهـ اللهـ عـنـ وـجـلـ أـنـ يـصـبـرـ عـلـىـ مـاـ أـصـابـهـ كـمـ صـبـرـ أـولـواـ العـزـمـ مـنـ الرـسـلـ ، تـسـهـيـلاـ عـلـيـهـ وـتـبـيـتاـ لـهـ . وـالـلـهـ أـعـلـمـ . (٣) وـلـاـ تـسـتـعـجـلـ لـهـمـ)ـ قـالـ مـقـاتـلـ : بـالـدـعـاءـ

(١) آية ١٣١ سورة البقرة . (٢) آية ٦١ سورة الشعراـ .

عليهم . وقيل : في احلال العذاب بهم ، فإن أبعد غایاتهم يوم القيمة . ومفعول الاستعجال مهدوف ، وهو العذاب . (كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ) قال يحيى : من العذاب ، النقاش : من الآخرة . (لَمْ يَلْبِسُوكُمْ) أي في الدنيا حتى جاءهم العذاب ، وهو مقتضى قول يحيى . وقال النقاش : في قبورهم حتى بعنوا للحساب . (إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) يعني في جنب يوم القيمة . وقيل : نسأهم هؤلء ما عيناهم من العذاب طول لبيتهم في الدنيا . ثم قال : (بَلَاغٌ) أي هذا القرآن بلاغ ، قاله الحسن . فـ «بلاغ» رفع على إضمار مبتدأ ، دليله قوله تعالى : «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلَيُنَذَّرُوْيْهِ»^(١) ، قوله : «إِنَّ فِي هَذَا لِبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ»^(٢) . والبلاغ بمعنى التبلیغ . وقيل : أي إن ذلك اللبث بلاغ ، قاله ابن عيسى ، فيوقف على هذا على «بلاغ» وعلى «نهار» . وذكر أبو حاتم أن بعضهم وقف على «ولا تَسْتَعِجِلْ» ثم ابتدأ «لهم» على معنى لهم بلاغ . قال ابن الأنباري : وهذا خطأ ، لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام ، وهي رافعة — بنى ليس منها . ويجوز في العربية : بلاغاً وبلاغ ، النصب على معنى إلا ساعة بلاغاً ، على المصدر أو على النعت للساعة . والخلف على معنى من نهار بلاغ . وبالنصبقرأ عيسى بن عمر والحسن . وروى عن بعض القراء «بلغ» على الأمر ، فعل هذه القراءة يكون الوقف على «من نهار» ثم ينتهي «بلغ» . (فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أي الخارجون عن أمر الله ، قاله ابن عباس وغيره . وقرأ ابن حميم «فهل يهلك إلا القوم» على إسناد الفعل إلى القوم . وقال ابن عباس : إذا عسر على المرأة ولدها تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيحة ثم تغسل وتسق منها ، وهي : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله العظيم الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم «كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوكُمْ إِلَّا عِيشَةً أَوْ حَخَّاها»^(٣) . (كَانُوكُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوكُمْ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) بلاغ فهل يهلك إلا القوم الظالمون «صدق الله العظيم . وعن قنادة : لا يهلك إلا هالك مشترك»^(٤) . وقيل : هذه أقوى آية في الرجاء . والله أعلم .

(١) آخر سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٦ سورة الأنبياء . (٣) آخر سورة النازعات .

(٤) في تفسير الطبرى : «تعلموا ما يهلك على الله الإهالك وللإسلام ظهره ، أو منافق صدق بلسانه وخالف بعمله» .

سورة القتال، وهي سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنية في قول ابن عباس ؛ ذكره النحاس . وقال الماوردي^(١) : في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزنا عليه ؛ فنزل عليه « وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُ قُوَّةً مِنْ قَرَيْتِكَ » . وقال الشعبي^(٢) : إنها مكية ؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد ابن جُبَير . وهي تسع وثلاثون . وقيل ثمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آلَذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بهم عن الدخول فيه ؛ وقاله السدي . وقال الضحاك : « عن سبِيلِ اللَّهِ » عن بيت الله بمنع قاصديه . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل الدائرة عليهم ؛ قاله الضحاك . وقيل : أبطل ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم ؛ من صلة الأرحام وفك الأسرارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار . وقال ابن عباس : نزلت في المطعمين بيدر ، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث ابن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبي وأمية ابنا خلف ، ومنبهة ونبية ابنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حرام ، والحارث بن عامر بن نوفل .

قَوْلَهُ تَعَالَى : وَالَّذِينَ إِيمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَإِمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَّهُمْ

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » قال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار . وقال مقاتل : إنها نزلت خاصةً في ناس من قريش . وقيل : هما عامتان فيمن كفر وآمن . ومعنى « أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ » أبطلها . وقيل : أضلهم عن المدى بما صرفهم عنه من التوفيق . « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من قال إنهم الأنصار فهـى المواصلة في مساكنهم وأموالهم . ومن قال إنهم من قريش فهـى الهجرة . ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأفعال التي ترضي الله تعالى . « وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » لم يخالفوه في شيء ؛ قاله سفيان الثورـي . وقيل : صدقوا مـهـدا صـلى الله عـلـيه وسلم فـيـما جـاءـ به . « وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » يـرـيدـ أنـ إـيمـانـهـمـ هوـ الحـقـ منـ رـبـهـمـ . وـقـيلـ : أـىـ إـنـ القرآنـ هوـ الحـقـ منـ رـبـهـمـ ، نـسـخـ بهـ ماـ قـبـلـهـ (كـفـرـ عـنـهـمـ سـيـئـاتـهـمـ) أـىـ مـاـ مـضـىـ مـنـ سـيـئـاتـهـمـ قـبـلـ إـيمـانـ . « وَأَصْلَحَ بـالـهـمـ » أـىـ شـأـنـهـمـ ؛ عنـ مجـاهـدـ وـغـيرـهـ . وـقـالـ قـاتـادـةـ : حـالـهـمـ . ابنـ عـبـاسـ : أـمـورـهـمـ . وـالـثـالـثـةـ مـتـقـارـبـةـ وـهـىـ مـتـأـولـةـ عـلـىـ إـصـلاحـ مـاـ تـعـلـقـ بـدـنـيـاهـمـ . وـحـكـيـ النـاقـاشـ أـنـ المعـنىـ أـصـلاحـ نـيـاتـهـمـ ؛ وـمـنـهـ قولـ الشـاعـرـ :

فإن تُقبلـيـ بالـوـدـ أـقـبـلـ بـشـلـهـ * وإنـ نـدـبـرـيـ أـذـهـبـ إـلـىـ حـالـ بـالـيـاـ
وـهـوـ عـلـىـ هـذـاـ التـأـوـيـلـ مـحـمـولـ عـلـىـ صـلـاحـ دـيـنـهـ . « وـالـبـالـ » كـالـمـصـدـرـ ، وـلـاـ يـعـرـفـ مـنـهـ فـعـلـ ،
وـلـاـ تـجـمـعـهـ الـعـرـبـ إـلـاـ فـضـرـورـةـ الشـعـرـ فـيـقـولـونـ فـيـهـ : بـالـاتـ . المـبـرـدـ : قـدـ يـكـونـ الـبـالـ
فـمـوـضـعـ آـخـرـ بـمـعـنـىـ الـقـلـبـ ؛ يـقـالـ : مـاـ يـخـطـرـ فـلـانـ عـلـىـ بـالـيـ ؛ أـىـ عـلـىـ قـابـيـ . الـجـوـهـرـيـ :
وـالـبـالـ رـخـاءـ النـفـسـ ؛ يـقـالـ فـلـانـ رـبـنـيـ الـبـالـ . وـالـبـالـ : الـحـالـ ؛ يـقـالـ مـاـ بـالـكـ . وـقـوـهـمـ : لـيـسـ
هـذـاـ مـنـ بـالـيـ ؛ أـىـ مـاـ أـبـالـيـهـ . وـالـبـالـ : الـحـوـتـ الـعـظـيمـ مـنـ حـيـاتـ الـبـحـرـ ؛ لـيـسـ بـعـربـيـ .
وـالـبـالـلـةـ : وـعـاءـ الطـيـبـ ؛ فـارـسـيـ مـعـزـبـ ؛ وـأـصـلـهـ بـالـفـارـسـيـةـ پـيـلةـ . قـالـ أـبـوـ ذـؤـبـ :
كـأـنـ عـلـيـهـ بـالـلـطـمـيـةـ * لـهـ مـنـ خـلـالـ الدـائـيـتـيـنـ أـرـيـجـ

(١) الـطـمـيـةـ : الـعـنـيـرـةـ الـتـيـ لـطـمـتـ بـالـمـسـكـ فـنـفـقـتـ بـهـ حـتـىـ نـشـبـتـ رـأـختـهـ . وـالـدـائـيـتـيـنـ : فـقـرـ الـكـاهـلـ . وـالـظـهـرـ .

قوله تعالى : **ذَلِكَ يَأْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**

قوله تعالى : **(ذَلِكَ يَأْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ)** «ذلك» في موضع رفع ، أى الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلal والمهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا . فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق . والباطل : الشرك . والحق : التوحيد والإيمان . **(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ)** أى كهذا البيان الذى يُبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير في «أَمْثَالَهُمْ» يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا .

قوله تعالى : **فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرِبُ الْرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَخْبَرْتُمُوهُمْ فَشَدُوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَزْبُ أَوْ زَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِعَضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلَ أَغْمَالَهُمْ**

فيه أربع مسائل :

الأولى – قوله تعالى : **(فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرِبُ الرِّقَابَ)** لما ميز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار . قال ابن عباس : الكفار المشركون عبدة الأوثان . وقيل : كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كافر إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، ذكره المأورى . وأخباره ابن العربي وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ، **«فَضَرِبُ الرِّقَابَ»** مصدر . قال الزجاج أى فاضربوا الرقاب ضربا . وخص الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها . وقيل : نصب على الإغراء . قال أبو عبيدة : هو كقولك يانفس صبرا . وقيل : التقدير

اقصدوا ضرب الرقاب . وقال : « فضرب الرقاب » ولم يقل فاقتلوهم ؛ لأن في العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ؛ لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره ؛ وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه .

الثانية — قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا أَخْتَمُوْهُمْ) أي أكثتم القتل . وقد مضى في « الأنفال »^(١) عند قوله تعالى : « حَتَّى يُتْبَخِنَ فِي الْأَرْضِ » . (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) أي إذا أسرتهم . والوثاق اسم من الإيثاق ، وقد يكون مصدرا ؛ يقال : أوثقته إيثاقاً ووثاقاً . وأما الوثاق (بالكسر) فهو اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط ؛ قاله القشيري . وقال الجوهري : وأوثقه في الوثاق أي شدّه ، وقال تعالى : « فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » . والوثاق (بكسر الواو) لغة فيه . وإنما أمر بشد الوثاق لئلا يفلتوا . (فَإِمَّا مَنْ) عليهم بالإطلاق من غير فدية (وَإِمَّا فِدَاءً) . ولم يذكر القتل هاهنا اكتفاء بما تقدم من القتل في صدر الكلام ، و « مَنْ » و « فِدَاءً » نصب بإضمار فعل . وقرئ « فَدَى » بالقصر مع فتح الفاء ؛ أي إما أن تمنوا عليهم مَنْ ، وإما أن تفادوهم فداءً . روى عن بعضهم أنه قال : كنت واقفا على رأس الحاج حين أتي بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة قاتل منهم نحو من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كندة فقال : يا حاجاج ، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرا ! قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى قال « فإذا لقيتمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرِبُوا الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَخْتَمُوْهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » في حق الذين كفروا ؛ فوالله ! ما مَنَّتْ ولا فَدَيْتْ ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

ولا تقتل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أنقل الأعناق حمل المغارم
فقال الحاج : أَفَ هذه الحيف ! أمَّا كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خلوا
سبيل من بي . خلُّوا يومئذ عن بقية الأسرى ، وهم زُهاء ألفين ، بقول ذلك الرجل .

(١) راجع ج ٨ ص ٤ و ٥ وما بعدها .

الثالثة — واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال :
الأول — أنها منسوبة ، وهي في أهل الأوثان ، لا يجوز أن يُقادوا ولا يُمْكَن عليهم .
والناتج لها عندهم قوله تعالى : « فَاقْتُلُو الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ » ^(١) وقوله : « إِنَّمَا تَشَفَّعُ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَ رِبِّهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ » ^(٢) وقوله : « وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » ^(٣) الآية ؛ قاله قتادة والضحاك والستى وابن جرير والعموسي عن ابن عباس ، وقاله كثير من الكوفيين . وقال عبد الكريم الحوزي : كتب إلى أبي بكر في أسر أسر، فذكروا أنهم المتسوه بفداء كذا وكذا ، فقال : اقتلوه ، لقتلُّ رجلٍ من المشركين أحبَّ إِلَيَّ مِنْ كذا وكذا .

الثاني — أهانف الكفار جميعاً، وهي منسوبة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد قالوا : إذا أسر المشرك لم يجز أن يُمنَّ عليه ، ولا أن يفادي به فيرد إلى المشركين ؛ ولا يجوز أن يفادي عندهم إلا بالمرأة ؛ لأنها لا تقتل . والناسخ لها « فاقتُلُوا المُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ » إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف ؛ فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قاتل الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الحزية . وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة ؛ خيفة أن يعودوا حرباً للسلميين . ذكر عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة « فِإِنَّمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءً » قال نسخها « فَشَرَدْنَاهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ » . وقال مجاهد : نسخها « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدُوكُمْ » . وهو قول الحكيم .

الثالث — أنها ناتجة ، قاله الضحاك وغيره . روى الثورى عن جوينر عن الضحاك
« فاقتلو المُشَرِّكَينَ حَيْثُ وَجَدُوكُمْ » قال نسخها « فَإِنَّمَا بَعْدَ إِلَّا فَدَاءً » . وقال ابن
المبارك عن ابن جريج عن عطاء « فَإِنَّمَا بَعْدَ وَإِلَّا فَدَاءً » فلا يقتل المشرك ولكن يُمنَّ عليه
ويفادى ؟ كما قال الله عن وجل . قال أشعث : كان الحسن يكره أن يقتل الأسير ، ويتلئ
« فَإِنَّمَا بَعْدَ وَإِلَّا فَدَاءً » . وقال الحسن أيضاً : في الآية تقديم وتأخير ، فكانه قال :
فَضَرَبَ التَّقَابَ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا . ثُمَّ قَالَ : « حَتَّى إِذَا أَخْتَنْتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَنَاقَ » .

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) آية ٧٦ سورة الأنفال . (٣) آية ٣٦ سورة التوبة .

وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسر في يديه أن يقتله ، لكنه بال اختيار في ثلاثة منازل :
إما أن يُمْتَنَ ، أو يفادي ، أو يسترق .

الرابع — قول سعيد بن جُبِيرٍ: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإنخان والقتل بالسيف ؛
قوله تعالى: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَذِّنَ فِي الْأَرْضِ » . فإذا أُسرَ بعد
ذلك فالإمام أن يحكم بما رأه من قتل أو غيره .

الخامس — أن الآية مُكَحَّة ، والإمام مُخْتَرٌ في كل حال ؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك والشافعى والتورى والأوزاعى وأبي عبيد وغيرهم . وهو الاختيار ، لأن النبي " صلى الله عليه وسلم " والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ؛ قُتل النبي " صلى الله عليه وسلم " عقبة بن أبي مُعَيْط والنضر بن الحارث يوم بدر صَبَرًا ، وقادى سائر أسرى بدر ، ومن على ثُمَامَةَ بْنَ أَنَّاَلَ الْحَنْفِيَّ وَهُوَ أَسِيرٌ فِي يَدِهِ ، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية فقدى بها أناساً من المسلمين ، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبي " صلى الله عليه وسلم " وَمَنْ عَلَيْهِمْ ، وقد من على سَبِيْيْ هوازن . وهذا كله ثابت في الصحيح ، وقد مضى جميعه في (الأنفال) وغيرها . قال النحاس : وهذا على أن الآيتين مُكَحَّات معمول بهما ، وهو قول حسن ، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، إذا كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم ، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمن ؛ على ما فيه الصلاح للسلميين . وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعى وأبي عبيد ، وحكاه الطحاوى مذهبًا عن أبي حنيفة ، والمشهور عنه ما قدمناه ، وبالله عن وجل التوفيق .

الرابعة — قوله تعالى: (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا) قال مجاهد وابن جبير : هو خروج عيسى عليه السلام . وعن مجاهد أيضًا : أن المعنى حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام ؛ فَيُسْلِمُ كُلَّ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ وَصَاحِبِ مِلَّةٍ ، وَتَأْمِنُ الشَّاةُ مِنَ الذَّبْ . وَنَحْوُهُ

(١) آية ٦٧ سورة الأنفال . (٢) راجع ج ٨ ص ٥ وما بعدها .

عن الحسن والكباي والغباء والكسائي . قال الكسائي : حتى يُسلِّمُ الْخَلْقُ . وقال الغباء : حتى يؤمنوا ويذهب الكفر . وقال الكباي : حتى يظهر الإسلام على الدين كله . وقال الحسن : حتى لا يعبدوا إلا الله . وقيل : معنى الأوزار السلاح ؛ فالمعنى شدوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح . وقيل : معناه حتى تضع الحرب ، أى الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو المواجهة . ويقال للداعي أوزار . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها * رماحا طوالا وخيلا ذكورا

ومن نسج داود بمحدي بها * على أثر الحس عيرا فهرا

وقيل : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أُوزَارَهَا » أى أنقاها . والوزر التغلب ؛ ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأنقاض . وأنقاها السلاح لنقل حملها . قال ابن العربي : « قال الحسن وعطاء : في الآية تقديم وتأخير ، المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا انختموا هم فشدوا الوثاق ؛ وليس الإمام أن يقتل الأسيير . وقد روى عن الحجاج أنه دفع أسيرا إلى عبد الله بن عمر ليقتله فأبى وقال : ليس بهذا أمرنا الله ؛ وقرأ « حتى إذا انختموا هم فشدوا الوثاق » . قلنا : قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله ، وليس في تفسير الله لأن القداء منع من غيره ؛ فقد بين الله في الزنى حكم الحلد ، وبين النبي صلى الله عليه وسلم حكم الرجم ؛ ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال ، وربك أعلم » .

قوله تعالى : (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا تَنْتَصِرَ مِنْهُمْ) « ذلك » في موضع رفع على ما تقصد ؛ أى الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت . وقيل : هو منصوب على معنى ا فعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ ، المعنى ذلك حكم الكفار . وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام ، وهو كما قال تعالى : « هَذَا وَإِنَّ لِلَّطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ » . أى هذا حق وأنا أعرفكم أن للظالمين كذا . ومعنى « لا تَنْتَصِرَ مِنْهُمْ » أى أهلهم بغير قتال . وقال

(١) هذه رواية البيت في الأصول . وروايته في كتاب « الأعشى » :

ومن نسج داود موضوعة * تناق مع الحى عيرا فهرا

وال موضوعة : الدرع المنسوجة . وفي شعراء النصرانية : ... على أثر العيس ... (٢) آية ٥٥ سورة ص .

ابن عباس : لأهلهم يجند من الملائكة . (ولِكُنْ لَيْلُو بَعْضَكُمْ بَعْضٌ) أى أمركم بالحرب ليبلو وينتبر بعضكم البعض فيعلم المجاهدين والصابرين ، كما في السورة نفسها . (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يريد قتلى أحد من المؤمنين (فَلَنْ يُضْلِلَ أَعْمَالَهُمْ) قراءة العامة « قاتلوا » وهي اختيار أبي عبيد . وقرأ أبو عمرو ومحفص « قُتِلُوا » بضم القاف وكسر التاء ، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شتد التاء على التكثير . وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وأبو حبيبة « قاتلوا » بفتح القاف والتاء من غير ألف ؛ يعني الذين قتلوا المشركون . قال قتادة : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : أَعْلُ هُبَلُ . ونادي المسلمون : الله أَعْلَى وأَجْلُ . وقال المشركون : يوْمُ يَوْمٍ بَذَرَ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قولوا لا سُوَاءٌ . قاتلنا أحياء عند ربهـم يرزقون وقتلـكم في النار يعذبون" . فقال المشركون : إنـ لنا العـزـى ولا عـزـى لكمـ . فقالـ المسلمـونـ : اللهـ مـولـاناـ ولاـ مـولـىـ لكمـ . وقد تقدم ذكر ذلك في (آل عمران^(١)) .

قوله تعالى : سَيِّدِهِمْ وَيُصَاحِحُ بَالَّهُمْ ﴿٦﴾

قال القشيري : قراءة أبي عمرو « قاتلوا » بعيدة ؛ لقوله تعالى : سَيِّدِهِمْ وَيُصَاحِحُ بَالَّهُمْ « والمقتول لا يوصف بهذا . قال غيره : يكون المعنى سيدتهم إلى الجنة ، أو سيدى من يرق منـهـمـ ؛ أى يحقق لهم الهدـاـيـةـ . وقال ابن زـيـادـ : سـيـدـيـمـهمـ إلىـ مـحـاجـةـ مـنـكـرـ وـنـكـيرـ فيـ الـقـبـرـ . قال أبو المعـالـىـ : وقد تـرـدـ الـهـدـاـيـةـ وـالـمـرـادـ بهـاـ إـرـشـادـ المـؤـمـنـينـ إـلـىـ مـسـالـكـ الـجـنـانـ وـالـطـرـقـ الـمـقـضـيـةـ إـلـيـهـاـ ؛ـ مـنـ ذـلـكـ قولـهـ تـعـالـىـ فـيـ صـفـةـ الـمـجـاهـدـينـ : « فَلَنْ يُضْلِلَ أَعْمَالَهُمْ . سَيِّدِهِمْ » . ومنـهـ قولـهـ تـعـالـىـ : « فَأَهـدـوـهـمـ إـلـىـ صـرـاطـ الـجـنـحـيـمـ » معـناـهـ فـاسـلـكـراـ بهـمـ إـلـيـهـاـ .

قوله تعالى : وَيُدْخِلُهُمْ أَلْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٧﴾

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٤ . (٢) آية ٢٣ سورة الصافات .

أى إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلهم ؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم . قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين . وفي البخاري ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخذري ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار [فيقص لبعضهم من بعض مظالمه]^(١) كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هدوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزلة في الجنة [منه] بمنزلة في الدنيا ” . وقيل : « عرّفها لهم » أى بينما لها عرفوها من غير استدلال . قال الحسن : وصف الله تعالى لهم الجنة في الدنيا ، فلما دخلوها عرفوها بصفتها . وقيل : فيه حذف ؛ أى عرف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم ؛ فحذف المضاف . وقيل^(٢) : هذا التعريف بدليل ، وهو الملك الموكّل بعمل العبد يمشي بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتي العبد منزله ، ويعرفه الملك جميع ما جعل له في الجنة . وحديث أبي سعيد الخذري يرده . وقال ابن عباس « عرّفها لهم » أى طيبها لهم بأنواع الملاذ ؛ مأخذ من العَرْف ، وهو الرائحة الطيبة . وطعم مُعْرَفْ أى مطِيب ؛ تقول العرب : عَرَفت القدر إذا طبّتها بالملح والأزار . وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه :

* عَرَفَتْ كَاتِبَ عَرْفَتِهِ الْلَّاطِنَ *

يقول : كَا عَرَفَ الْإِلَّاب ، وهو الْبَقِيرُ وَالْبَقِيرَة ، وهو قيس لا يُكِيِّنُ له تلبسه النساء . وقيل : هو من وضع الطعام بعضاً على بعض من كثريته ؛ يقال : حرير معرف ؛ أى بعضه على بعض ، وهو من العَرْف المتبادر كعُرْف الفرس . وقيل : « عرّفها لهم » أى وفهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة . وقيل : عَرَفَ أَهْلَ السَّمَاءِ أَنَّهَا لَهُمْ إِظْهَارًا لِكَرَامَتِهِمْ فِيهَا . وقيل : عَرَفَ الْمَطَيِّعِينَ أَنَّهَا لَهُمْ .

قوله تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُثْبِتُ أَقْدَامَكُمْ

(٢) الْلَّاطِنَ (جمع لطيفة) : قطعة مسک .

(١) زيادة عن صحيح البخاري .

قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ) أى إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . نظيره « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ » وقد تقدّم ، وقال قطّرُب : إن تنصروا بني الله ينصركم الله ; المعنى واحد . (وَيُشَبَّهُ أَقْدَامَكُمْ) أى عند القتال . ويقال على الإسلام . ويقال على الصراط . وقيل : المراد ثبيت القلوب بالأمن ؛ فيكون ثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب . وقد مضى في « الأنفال » (١) هذا المعنى . وقال هناك : « إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُو الدِّينَ آمَنُوا » (٢) فأثبتت هناك واسطة وتفاها هنا ؛ كقوله تعالى : « قُلْ يَتَوَفَّكُمْ مَلَكُ الْمَوْتَ » ثم نفاهما بقوله : « إِنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمُرِزَقُكُمْ فَمُبَيِّنُكُمْ » . (٣) « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » ومثله (٤) كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحده .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٥)

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) يحمل الرفع على الابتداء ، والتصب بما يفسره « فَتَعَسَّا لَهُمْ » كأنه قال : أَتَعَسَّ الذين كفروا . و « تعَسًا لَهُمْ » نصب على المصدر بسبيل الدعاء ؛ قاله الفراء ، مثل سقينا له ورعينا . وهو نقىض لـ (٦) قال الأعشى :

* فَالْعَسُّ أَوْلَىٰ لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ لَهَا *

وفي عشرة أقوال : الأول — بعدها لهم ؛ قاله ابن عباس وابن جريج . الثاني — حزناً لهم ؛ قاله السدي . الثالث — شقاء لهم ؛ قاله ابن زيد . الرابع — شتماً لهم من الله ؛ قاله الحسن . الخامس — هلاكاً لهم ؛ قاله ثعلب . السادس — خيبة لهم ؛ قاله الضحاك وابن زيد . السابع — قبحاً لهم ؛ حكاه النقاش . الثامن — رغموا لهم ؛ قاله الضحاك أيضاً . التاسع —

(١) راجع ج ١٢ ص ٧٢ (٢) راجع ج ٧ ص ٣٧٧ (٣) آية ١١ سورة السجدة .
 (٤) آية ٤٠ سورة الروم . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) لـ ما : كلمة يدعى بها للعار معناها الارتفاع . (٧) في اللسان وكتاب الأعشى : « أَدْنِي » بدل « أَوْلَى » . و مصدره : * بذات لوث عفرناة إذا غرت *

والموت (بالفتح) : القوة . وعفرناة : قوية .

شَرًّا لِهِمْ؛ قاله نعبل أيضاً . العاشر - شِقْوَة لِهِمْ؛ قاله أبو العالية . وقيل : إن التَّعْسَ
الانحطاط والعتار . قال ابن السَّكِيت : التَّعْسَ أن يَخْرُجَ عَلَى وَجْهِهِ . والنَّكْسَ أن يَخْرُجَ عَلَى
رَأْسِهِ . قال : التَّعْسَ أَيْضًا الْمَلَكُ . قال الجوهري : وأصله الْكَبَّ، وَهُوَ ضَدُّ الْإِنْتَعَاشِ .
وقد تَعَسَّ (بفتح العين) يَتَعَسَّ تَعَسَّ، وَأَتَعَسَّهُ اللَّهُ . قال مُعْمَعُ بْنُ هَلَالٍ :
تَقُولُ وَقَدْ أَفْرَدْتُهَا مِنْ خَلِيلِهَا * تَعَسَّتْ كَمَا أَتَعَسَّتِي يَا مُجْمَعُ
يقال : تَعَسَّ لِفَلَانٍ؛ أَيْ أَزْمَمَهُ اللَّهُ هَلَاكًا . قال الْقُشَيْرِي : وجَزَّ قَوْمَ تَعَسَّ (بكسر العين).
قَلَتْ : وَمِنْهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «تَعَسَّ عَبْدُ
الْدِيْنَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيسَةِ إِنْ أُعْطِيَ رِضَى وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرِضْ» خَرْجَهُ الْبَخَارِيُّ .
فِي بَعْضِ طَرَقِ هَذَا الْحَدِيثِ «تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ وَإِذَا شَبَكَ فَلَا أَنْتَشَ» خَرْجَهُ ابْنُ مَاجَهِ .
قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أَيْ أَبْطَلُهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ . وَدَخَلَتْ
الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ «فَتَعَسَّ» لِأَجْلِ الْإِبْهَامِ الَّذِي فِي «الَّذِينَ»، وَجَاءَ «وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» عَلَى الْخَبْرِ
حَمَلاً عَلَى لَفْظِ الَّذِينَ؛ لِأَنَّهُ خَبْرٌ فِي الْلَّفْظِ، فَدُخُولُ الْفَاءِ حَمَلاً عَلَى الْمَعْنَى، وَأَضَلَّ حَمَلاً
عَلَى الْلَّفْظِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ذَلِكَ يَا نَهْمَمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾
أَيْ ذَلِكَ الْإِضْلَالُ وَالْإِنْتَعَاشُ؛ لِأَنَّهُمْ (كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) مِنَ الْكِتَابِ وَالشَّرَائِعِ .
(فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) أَيْ مَا لَهُمْ مِنْ صُورِ الْخَيْرَاتِ، كَعَارَةِ الْمَسْجِدِ وَقِرَى الْضَّيْفِ وَأَصْنَافِ
الْقُرْبَ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ الْعَمَلُ إِلَّا مِنْ مُؤْمِنٍ . وَقَدْرُهُ : أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَيْ عِبَادَةُ الصَّنْمِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابِهُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَفَرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿٧﴾

(١) القطيفة : دنار . والخميسة : كسر، أسود مربع له أعلام وخطوط .

(٢) قوله «شبك» أى أصابته شوكة . و«فلا انتش» أى فلا نخرجت شوكته بالمنقاش .

يُسِرْ هؤلاء في أرض عاد ونَعْد وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ((فَيَنْظُرُوا)) بقولهم ((كَيْفَ كَانَ)) آخر أمر الكافرين قبلهم ((دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)) أى أهلكهم واستأصلهم . يقال : دمره تدميراً، ودمر عليه بمعنى . ثم تواعد مشركي مكة فقال ((وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)) أى أمثال هذه الفعلة ؛ يعني التدمير . وقال الزجاج والطبرى : الهاء تعود على العاقبة ؛ أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا .

فَوْلَهُ تَعَالَى : ذَلِكَ يَأْنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفَّارِينَ
لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝

أى ولهم وناصرهم . وفي حرف ابن مسعود « ذلك بـأن الله وليـ الذين آمنوا » .
فالمولى : الناصرـاهـنا ، قاله ابن عباس وغيره . قال :

فَغَدْتِ كَلَّا الْفَرَجَيْنِ تَحْسُبُ أَنَّهُ * مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَاهُهَا^(١)

قال قتادة : نزلت يوم أُحد والنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب ، إذ صاح المشركون :
يَوْمٌ بِيَوْمٍ ، لَنَا الْعَزِيزُ وَلَا عَزِيزٌ لَكُمْ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قولوا الله مولانا
ولا مولى لكم" وقد تقدم . (وَإِنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ) أى لا ينصرهم أحد من الله .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا أَلَانِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَمَّوْنَ وَيَأْكُونَ كَمَا تَأْكُلُ
الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوَيٌ لَهُمْ ﴿٢٣﴾

(١) البيت من معلقة ليد . ويروى : « فعدت » بالعين المهملة . أخبر أنها (أي البقرة) خاتمة من كلامها من خلفها وأمامها . والفرج : الواسع من الأرض . والفرج : الثغر الخوف ، وهو موسم الخافر .

(٢) راجع ص ٢٣٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُدِخِّلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » تقدم في غير موضع . « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَمُّونَ » في الدنيا كأنهم أنعام ، ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في غدهم . وقيل : المؤمن في الدنيا يتزود ، والمنافق يتربى ، والكافر يبتعد . « وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ » أى مقام ومنزل .

قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ١٦٣

قوله تعالى : « وَكَانَ مِنْ قَرِيَةٍ » تقدم الكلام في « كَانَ » في (آل عمران) . وهي ها هنا بمعنى كم ؛ أى وكم من قرية . وأنشد الأخفش قول ليid :

وَكَانَ رَأَيْنَا مِنْ مُلُوكِ وَسُوقَةَ * وَمَفْتَاحَ قِيدِ الْاسِرِ الْمَكْبُلِ

فيكون معناه : وكم من أهل قرية . (هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرَيْتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ) أى أخرجك أهلها . « فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ » قال قتادة وابن عباس : لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « اللَّهُمَّ أَنْتَ أَحَبُّ الْبَلَادِ إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ أَحَبُّ الْبَلَادِ إِلَيَّ وَلَوْلَا الْمُشْرِكُونَ أَهْلُكُ أَخْرَجُونِي لَمَا خَرَجْتَ مِنْكَ » . فنزلت الآية ، ذكره الشاعري ، وهو حديث صحيح .

قوله تعالى : أَفَنَّ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمْ زُينَ لَهُ سُوَّةٌ عَمَلِهِ وَأَتَبَعَهُ أَهْوَاءُهُمْ ١٦٤

قوله تعالى : « أَفَنَّ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ » الألف ألف تقرير . ومعنى « على بَيْنَةٍ » أى على ثبات ويقين ؛ قاله ابن عباس . أبو العالية : وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وبالبينة : الْوَحْيُ . (كَمْ زُينَ لَهُ سُوَّةٌ عَمَلِهِ) أى عبادة الأصنام ، وهو أبو جهل والكافر .

(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) أى ما اشتهوا . وهذا التردد من جهة الله خلقا . ويحوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوة . ويحوز أن يكون من الكافر؛ أى زين لنفسه سوء عمله وأصر على الكفر . وقال «سوء» على لفظ «من» «واتبعوا» على معناه .

قوله تعالى : **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقْوِنُ فِيهَا أَنْهَرٌ مِّنْ مَاءٍ**
غَيْرِ أَسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِّنْ نَخْرِ لَدَدٍ
لِلشَّرِّيْنَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفَّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الْثَمَرَاتِ وَمَغْفِرَةً
مِنْ رِزْقٍ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي الْأَنَارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ (١)

قوله تعالى : **(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَقْوِنُ)** لما قال عن وجل : «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ» وصف تلك الجنات؛ أى صفة الجنة المعدة للتقين .

وقد مضى الكلام في هذا في «الرعد» . وقرأ على بن أبي طالب «مثال الجنة التي وعد المتقون» .
(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ أَسِنٍ) أى غير متغير الرائحة . والأسن من الماء مثل الآجن . وقد
 أسن الماء يأسن ويأسن [أسناً و] أسونا إذا تغيرت رائحته . وكذلك أجن الماء يأجن ويأجن
 أجناً وأجونا . ويقال بالكسر فيما : أحن وآسن يأسن ويأجنأسنا وأجنا ؛ قاله اليزيدي .
 وأسن الرجل أيضا يأسن (بالكسر لا غير) إذا دخل البئر فأصابته ريح منتبة من ريح البئر
 أو غير ذلك فغشى عليه أو دار رأسه . قال زهير :

قد أترك القرن مُصَفَّرًا أنا ملءُ *

يَمْبَدِي الرُّحْمَ مِدَ المَانِيِّ الأَسِنِ

ويروى «الوشن» . وتأسن الماء تغير . أبو زيد : تأسن على تأسنا أعتل وأبطأ .

أبو عمرو : تأسن الرجل أباه أخذ أخلاقه . وقال الحناني : إذا نزع إليه في الشبه . وقراءة العامة «آسن» بالمد . وقرأ ابن كثير وحميد «أسن» بالقصر ، وهذا الفتنان ، مثل حاذر وحدر . وقال الأخفش : أسن للحال ، وآسن (مثل فاعل) يراد به الاستقبال . **(وَأَنْهَارٌ مِنْ**

(١) راجع ج ٩ ص ٣٤٤ . (٢) أى في الماضي . (٣) وفيه رواية أخرى : «يغادر القرن» .

لَبَنْ لَمْ يَتَغَيِّرْ طَعْمُهُ أَى لَمْ يَخْضُ بِطُولِ الْمَقَامِ كَمَا تَتَغَيِّرُ أَبْلَانِ الدُّنْيَا إِلَى الْحَوْضَةِ . (أَنَّهَا مِنْ
 نَّهَارِ لَدَّهِ لِلشَّارِبِينَ) أَى لَمْ تُدْنِسْهَا الْأَرْجُلُ وَلَمْ تُرْتَقْهَا الْأَيْدِي تَحْمِرِ الدُّنْيَا ؛ فَهُوَ لِذِيَّةِ الطَّعْمِ
 طَيْبَةِ الشَّرْبِ لَا يَتَكَرَّهُهَا الشَّارِبُونَ . يَقُولُ : شَرَابٌ لَدَّهُ لَذِيَّذٌ بَعْنَى . وَاسْتَلَدَهُ عَنْهُ لَذِيَّذًا .
 (أَنَّهَا مِنْ عَسلِ مُصَفَّى) الْعَسْلُ مَا يَسِيلُ مِنْ لَعْبِ النَّحلِ . «مُصَفَّى» أَى مِنَ الشَّعْمِ
 وَالْقَدَى ، خَلَقَهُ اللَّهُ كَذَلِكَ لَمْ يَطْبَعْ عَلَى نَارٍ وَلَا دَنْسَهُ النَّحلِ . وَفِي التَّرمِذِيِّ عَنْ حَكَمِ بْنِ مَعَاوِيَةَ
 عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ وَبَحْرَ الْعَسْلِ وَبَحْرَ الْلَّبَنِ
 وَبَحْرَ الْكَوْثَرِ ثُمَّ تَسْقَقُ الْأَنْهَارُ بَعْدُ» . قَالَ : حَدِيثُ حَسْنٍ مُحْكَمٌ . وَفِي صَحِيفَةِ مُسْلِمٍ عَنْ
 أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «سَيْحَانٌ وَجَيْحَانٌ وَالنَّيلُ
 وَالْفُرَاتُ كُلُّهُ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ» . وَقَالَ كَعْبٌ : نَهْرُ دَجْلَةُ نَهْرُ مَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَنَهْرُ الْفَرَاتِ
 نَهْرُ لَبَنِهِمْ ، وَنَهْرُ مَصْرُ نَهْرِهِمْ ، وَنَهْرُ سَيْحَانٌ نَهْرُ عَسْلِهِمْ . وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ تَخْرُجُ مِنْ
 نَهْرِ الْكَوْثَرِ . وَالْعَسْلُ : يَذْكُرُ وَيُؤْتَى . وَقَالَ أَبْنَ عَبَّاسٍ : «مِنْ عَسلِ مُصَفَّى» أَى لَمْ يَخْرُجْ
 مِنْ بَطْوَنِ النَّحلِ . (وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ) «مِنْ» زَائِدَةُ لِلْأَكِيدَةِ . (وَمَغْفِرَةٌ مِنْ
 رَبِّهِمْ) أَى لَذِنْوِهِمْ . (كَمْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ) قَالَ الْفَزَاءُ : الْمَعْنَى أَنَّهُ يَخْلُدُ فِي هَذَا النَّعِيمِ
 كَمْ يَخْلُدُ فِي النَّارِ . وَقَالَ الرِّجَاجُ : أَى أَنَّهُ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَأَعْطَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَمْ
 زَيْنَ لَهُ سَوْءَهُ عَمَلِهِ وَهُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ . فَقَوْلُهُ «كَمْ» بَدْلٌ مِنْ قَوْلِهِ «أَنَّهُ زَيْنٌ لَهُ سَوْءَهُ
 عَمَلِهِ» . وَقَالَ أَبْنَ كَيْسَانَ : مِثْلُ هَذِهِ الْجَنَّةِ الَّتِي فِيهَا الشَّارِ وَالْأَنْهَارُ كَثِيلُ النَّارِ الَّتِي فِيهَا الْحَمِيمُ
 وَالْرَّقْمُ . وَمِثْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي النَّعِيمِ كَثِيلُ أَهْلِ النَّارِ فِي الْعَذَابِ الْمُقِيمِ . (وَسُقُوا مَاءً
 حَيْمَى) أَى حَارَا شَدِيدَ الْغَلِيَانِ ، إِذَا دَنَا مِنْهُمْ شَوْيٌ وَجْوَهُهُمْ ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَءُوسِهِمْ ؛ فَإِذَا
 شَرَبُوهُ قَطَعَ أَمْعَاهُمْ وَأَنْجَرَهُمْ مِنْ دُبُورِهِمْ . وَالْأَمْعَاءُ : جَمْعٌ مِعْنَى ، وَالتَّثْنِيَّةُ مِعْيَانٌ ، وَهُوَ جَمْعٌ
 مَا فِي الْبَطْنِ مِنَ الْحَوَالِيَا .

(١) رَنْقُ الْمَاءِ : كَدْرَهُ .

قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا نَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ
 قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ إِنَّفَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ
 قُلُوبِهِمْ وَأَتَبَعُوا هُوَ أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ آهَتَدُوا زَادُهُمْ هُدًى
 وَآتَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) أي من هؤلاء الذين ينتظرون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وزين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون : عبد الله بن أبي ابن سلول (١) ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت والحارث بن عمرو ومالك بن دخشم ، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه ، فإذا نرجوا سألا عنده بالله الكبلي ومقاتل . وقيل : كانوا يحضرون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ؟ فيستمعون منه ما يقول ، فيعييه المؤمن ولا يعييه الكافر . (حَتَّىٰ إِذَا نَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ) أي إذا فارقوا مجلسك . (قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) قال عكرمة : هو عبد الله بن العباس . قال ابن عباس : كنت من يسأل ، أي كنت من الذين أوتوا العلم . وفي رواية عن ابن عباس : أنه يريد عبد الله بن مسعود . وكذا قال عبد الله بن بريدة : هو عبد الله بن مسعود . وقال القاسم بن عبد الرحمن : هو أبو الدرداء . وقال ابن زيد : إنهم الصحابة . (مَاذَا قَالَ آنِفُكَ) أي الآن ؛ على جهة الاستهزاء . أي أنا لم ألتقط إلى قوله . و «آنفا» يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات إليك ؟ من قولك : استأنفت الشيء إذا ابتدأت به . ومنه أمر أنف ، وروضة أنف ؛ أي لم يرعها أحد . وكأس أنف : إذا لم يسرب منها شيء ؛ كأنه استئنف شربها مثل روضة أنف . قال الشاعر :

وَيَخْرُمُ سِرُّ جَارِهِمْ عَلَيْهِمْ * وَيَا كُلَّ جَارِهِمْ أَنْفَ الْقِصَاصِ

(١) كما في الأصول . وفي سيرة ابن هشام و ابن الأثير طبع أوربا : «التصيت» باللغة المتنية من فوق . وفي تاريخ الطبرى (طبع أوربا) قسم أول ص ١٦٩٩ : «المصيب» باللغة المونحة . (٢) هو الخطبة .

وقال آخر^(١) :

إـنـ الشـوـاءـ وـالـتـشـيلـ وـالـرـغـفـ * وـالـقـيـنـةـ الـحـسـنـاءـ وـالـكـأـسـ الـأـنـفـ

* لـلـطـاعـنـينـ التـخـيلـ وـالـتـخـيلـ قـطـفـ *

وقال أمـرـؤـ الـقـيـسـ :

* قـدـ غـدـاـ يـحـلـنـيـ فـأـنـهـ *

أـىـ فـأـوـلـهـ . وـأـنـفـ كـلـ شـىـءـ أـوـلـهـ . وـقـالـ قـنـادـةـ فـهـؤـلـاءـ الـمـنـافـقـينـ :ـ النـاسـ رـجـلـانـ :ـ رـجـلـ عـقـلـ عنـ اللهـ فـأـنـتـفـعـ بـماـ سـمـعـ ،ـ وـرـجـلـ لـمـ يـعـقـلـ وـلـمـ يـنـتـفـعـ بـماـ سـمـعـ .ـ وـكـانـ يـقـالـ :ـ النـاسـ ثـلـاثـةـ :ـ فـسـامـعـ عـاـقـلـ ،ـ وـسـامـعـ عـاـقـلـ ،ـ وـسـامـعـ غـافـلـ تـارـكـ .ـ

قولـهـ تـعـالـىـ :ـ (ـأـوـلـيـكـ الـذـيـنـ طـبـعـ اللـهـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ)ـ فـلـمـ يـؤـمـنـواـ .ـ (ـوـاتـبـعـواـ أـهـوـاءـهـمـ)ـ فـيـ الـكـفـرـ .ـ (ـوـالـذـيـنـ آهـنـدـواـ)ـ أـىـ لـلـإـيمـانـ زـادـهـمـ اللـهـ هـدـىـ .ـ وـقـيـلـ :ـ زـادـهـمـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ هـدـىـ .ـ وـقـيـلـ :ـ مـاـ يـسـتـمـعـونـهـ مـنـ الـقـرـآنـ هـدـىـ ؛ـ أـىـ يـتـضـاعـفـ يـقـيـنـهـمـ .ـ وـقـالـ الـفـرـاءـ :ـ زـادـهـمـ إـعـرـاضـ الـمـنـافـقـينـ وـاستـهـأـوـهـمـ هـدـىـ .ـ وـقـيـلـ :ـ زـادـهـمـ نـزـولـ النـاسـخـ هـدـىـ .ـ وـفـيـ الـهـدـىـ الـذـيـ زـادـهـمـ أـرـبـعـةـ أـقـاوـيـلـ :ـ أـحـدـهـاـ —ـ زـادـهـمـ عـلـمـاـ ؛ـ قـالـهـ الرـبـيعـ بـنـ أـنـسـ .ـ الـثـانـيـ —ـ أـنـهـمـ عـلـمـواـ مـاـ سـمـعـواـ وـعـلـمـواـ بـماـ عـلـمـواـ ؛ـ قـالـهـ الضـحـاكـ .ـ الـثـالـثـ —ـ زـادـهـمـ بـصـيرـةـ فـيـ دـيـنـهـ وـتـصـدـيقـاـ لـنـبـيـهـ ؛ـ قـالـهـ الـكـلـبـيـ .ـ الـرـابـعـ —ـ شـرـحـ صـدـورـهـ بـماـ هـمـ عـلـيـهـ مـنـ الـإـيمـانـ .ـ (ـوـأـنـاـهـمـ تـقـوـاهـمـ)ـ أـىـ أـهـمـهـمـ إـيـاـهـاـ .ـ وـقـيـلـ :ـ فـيـهـ خـمـسـةـ أـوـجـهـ :ـ أـحـدـهـاـ —ـ آتـاهـمـ الـخـشـيـةـ ؛ـ قـالـهـ الـرـبـيعـ .ـ الـثـانـيـ —ـ نـوـابـ تـقـوـاهـمـ فـيـ الـآخـرـةـ ؛ـ قـالـهـ السـدـىـ .ـ الـثـالـثـ —ـ وـفـقـهـمـ لـلـعـملـ الـذـيـ فـرـضـ عـلـيـهـمـ ؛ـ قـالـهـ مـقـاتـلـ .ـ الـرـابـعـ —ـ بـيـنـ لـهـمـ مـاـ يـتـقـونـ ؛ـ قـالـهـ آبـنـ زـيـادـ وـالـسـدـىـ أـيـضاـ .ـ الـخـامـسـ —ـ أـنـهـ تـرـكـ الـمـنـسـوخـ وـالـعـمـلـ بـالـنـاسـخـ ؛ـ قـالـهـ عـطـيـةـ .ـ الـمـاـوـرـدـىـ :ـ وـيـحـتـمـلـ .ـ سـادـسـاـ .ـ

(١) هـوـ لـقـيـطـ بـنـ زـرـارةـ .ـ وـالـتـشـيلـ :ـ مـاـ طـبـيـخـ مـنـ الـحـمـ بـغـيرـ تـابـلـ .ـ وـالـرـغـفـ جـمـعـ رـغـيفـ .ـ وـيـقـالـ :ـ أـرـغـفةـ وـرـغـفـانـ .ـ

(٢) فـيـ الـأـصـولـ :ـ «ـ حـنـفـ»ـ وـالـتـصـوـيـبـ عـنـ الـلـسانـ مـادـةـ «ـ قـطـفـ»ـ .ـ وـقـدـ وـرـدـ هـذـاـ الشـطـرـ فـيـ الـلـسانـ مـادـةـ «ـ نـشـلـ»ـ :ـ «ـ لـلـضـارـبـينـ الـخـامـ وـالـخـيلـ قـطـفـ»ـ .ـ وـقـطـفـتـ الـدـاـبـةـ :ـ أـسـاـتـ السـبـرـ وـأـبـطـاـتـ .ـ

(٣) تـسـامـهـ :ـ * لـاحـقـ الـأـيـطـلـ مـحـبـوـكـ هـزـ *

أنه ترك الشخص والأخذ بالعزم . وقرئ « وأعطاهم » بدل « وآتاهم » . وقال عكرمة : هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب .

قوله تعالى : فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَنِهِمْ (١)

قوله تعالى : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً) أي بخاتمة ، وهذا وعيد للكافر . (فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا) أي أشارطها وعلاماتها . وكانوا قد قرءوا في كتبهم أن مهما صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، فبعثه من أشارطها وأدلتها ، قاله الضحاك والحسن . وفي الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضم السباقة والوسطي ؛ لفظ مسلم . ونحوه البخاري والترمذى وابن ماجه . ويروى "بعثت والساعة كفرسي رهان" . وقيل : أشرط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها . ومنه يقال للدون من الناس : الشرط . وقيل : يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان ؛ قاله الحسن أيضا . وعن الكابي : كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام ، وقلة الكلام وكثرة اللئام . وقد أتينا على هذا الباب في كتاب « التذكرة » مستوفياً والحمد لله . واحد الأشرط شرط ؛ وأصله الأعلام . ومنه قيل الشرط ؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم عالمة يعرفون بها . ومنه الشرط في البيع وغيره . قال أبو الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا * فقد جعلت أشرط أوله تبدو
ويقال : أشرط فلان نفسه في عمل كذا أي أعلمها وجعلها له . قال أوس بن حجر
يصف رجلا تدلى بحبل من رأس جبل إلى نبعة يقطعنها ليتخذ منها قوساً :
فأشرط نفسه فيها وهو معصم * وألق بأسابيب له وتوكل

(١) النبعة (واحدة النبع) : شجرة من أشجار الجبال يأخذ منها القيسى .

﴿أَن تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ «أن» بدل اشتمال من «الساعة»، نحو قوله : «أَن تَطْهُوْهُمْ» من قوله : «رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ»^(١) . وقرئ «بَغْتَةً» بوزن جَرْبَةٍ ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها ، وهي مَرْوِيَّة عن أبي عمرو . الزمخشري : وما أخوفي أن تكون غاطة من الرواى عن أبي عمرو ، وأن يكون الصواب «بَغْتَةً» بفتح الغين من غير تشديده ، كقراءة الحسن . وروى أبو جعفر الرؤايم وغيره من أهل مكة «إِن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً» . قال المهدوى : ومن قرأ «إِن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً» كاف الوقف على «الساعة» ثم استأنف الشرط . وما يحتمله الكلام من الشك مردود إلى الخلق ؛ كأنه قال : إن شَكُوا في مجئها «فقد جاء أشراطها» .

قوله تعالى : «فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ» ذِكْرَاهُمْ ابتداء و «أَنَّ لَهُمْ» الخبر . والضمير المرفوع في «جاءتهم» للساعة ، التقدير : فلن أين لهم التذكرة إذا جاءتهم الساعة ؛ قال معناه قتادة وغيره . وقيل : فكيف لهم بالتجاهة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة ؛ قاله ابن زيد . وفي الذكرى وجهان : أحدهما — تذكيرهم بما عملوه من خير أو شر . الثاني — هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيرًا وتحويقًا ؛ روى أبان عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : «أحسنوا أسماءكم فلن تدعون بها يوم القيمة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك» ذكره الماوردي .

قوله تعالى : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَّقَلَّبَكُمْ وَمُمْتَنَّكُمْ^(٢)

قوله تعالى : «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قال الماوردي : وفيه — وإن كان الرسول عالماً بآله — ثلاثة أوجه : يعني أعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . الثاني — ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً . الثالث — يعني فاذكر أن لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم

(١) آية ٢٥ سورة الفتح . (٢) الجربة (بالفتح والتشديد) : القطع من حُرُّ الوحش . وقد يقال

للاِقْرَارِ مِنَ النَّاسِ إِذَا كَانُوا جَاهِةً مُنْسَاقِينَ : جربة .

لخدوئه عنه . وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به «فَاعْلَمْ أَنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتغْفِرْ لِذَنْبِكَ» فأمر بالعمل بعد العلم وقال : «أَعْلَمُوا أَنَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَهُوَ إِلَى قَوْلِهِ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ» وقال : «وَأَعْلَمُوا أَنَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» . ثم قال بعده : «فَاحْذَرُوهُمْ» . وقال تعالى : «وَأَعْلَمُوا أَنَّا غَنِيمَتْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ نَحْسِنُهُ» . ثم أمر بالعمل بعده .

قوله تعالى : («وَاسْتغْفِرْ لِذَنْبِكَ») يحتمل وجهين : أحدهما – يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب . الثاني – استغفر الله ليعصمك من الذنب . وقيل : لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان ، أى اثبتت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر مما تحتاج معه إلى استغفار . وقيل : الخطاب له والمراد به الأمة ، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل : كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمناقفين ، فنزلت الآية . أى فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما يلك إلا الله ، فلا تعلق قلبك بأحد سواه . وقيل : أمر بالاستغفار لتقديري به الأمة . («وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ») أى ولذنبهم . وهذا أمر بالشفاعة . وروى مسلم عن عاصم الأحوص عن عبد الله بن سرجس الخزومي قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأكلت من طعامه فقلت : يا رسول الله ، غفر الله لك ! فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، ولك . ثم تلا هذه الآية «وَاسْتغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» . (٦)

ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، جمعاً [عليه] خيلان كأنه التأليل .

(«وَاللَّهُ يَعْلَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمُشَوَّخَكُمْ») فيه خمسة أقوال : أحدها – يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتك . الثاني – «متقبلكم» في أعمالكم نهاراً «ومشوخكم» في ليلكم نি�اماً . وقيل

(١) آية ٢٠ سورة الحديد . (٢) آية ٢٨ سورة الأنفال . (٣) في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ» آية ١٤ سورة التغابن . (٤) آية ٤ سورة الأنفال . (٥) يريد مثل بُعد الكف ، وهو أن يجمع الأصابع ويضمها . (٦) زيادة عن صحيح مسلم . والخيلان : بُعد خال ، وهو الشامة في الجسد . والتليل : بُعد ثُلول ، وهي حبيبات تعلو الجسد .

«متقلبكم» في الدنيا . «ومثواكم» في الدنيا والآخرة ؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال عكرمة : «متقلبكم» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات . «ومثواكم» مقامكم في الأرض . وقال ابن كيسان : «متقلبكم» من ظهر إلى بطن إلى الدنيا . «ومثواكم» في القبور .

قلت : والعموم يأتي على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسلكاتهم ، وكذا وجميع خلقه . فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلاً أولى وأخيراً . سبحانه ! لا إله إلا هو .

قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحَكَّمٌ وَذِكْرٌ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مُغَشِّيًّا عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ أَلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

قوله تعالى : ((وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا)) أي المؤمنون المخلصون . ((لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ)) اشتياقاً للوحى وحرصاً على الجهاد ونوابه . ومعنى «لولا» هلا . ((فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحَكَّمٌ)) لا نسخ فيها . قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محبكة ، وهي أشد القرآن على المنافقين . وفي قراءة عبد الله «فإذا أُنْزِلت سورة مُحَمَّدةً» أي مدحنة التزول . ((وَذِكْرٌ فِيهَا الْقِتَالُ)) أي فرض فيها الجهاد . وقرئ «فإذا أُنْزِلت سورة وذكر فيها القتال» على البناء للفاعل ونصب القتال . ((رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)) أي شك ونفاق . ((يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا مُغَشِّيًّا عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)) أي نظر مغمومين مغناطيسيين بتحديد وتحقيق ؛ كمن يشخص بصره عند الموت ؛ وذلك لجنيهم عن القتال جزعاً وهلاعاً ، وليلهم في السر إلى الكفار . قوله تعالى : ((فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةً وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ)) «فأولى لهم» قال الجوهري : وقولهم : أولى لك ، تهدى ووعيد . قال الشاعر :

فأولى ثم أولى ثم أولى * وهل للذر يُحلبُ من مرد

قال الأصمعي : معناه قاربَه مَا يُهْلِكُه ؛ أى نزل به . وأنشد :

فَعَادَى بَيْنَ هَادِيَتِينَ مِنْهَا * وَأَوْلَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الْثَالِثِ

أى قارب أن يزيد . قال ثعلب : ولم يقل أحد في « أولى » أحسن مما قال الأصمعي .

وقال المبرد : يقال لمن هَمَ بالعَطَبِ ثُمَّ أَفْلَتَ : أَوْلَى لَكَ ، أى قاربت العطب . كما روى أن أعرابيا كان يواли رَمَى الصيد فِي فِلَتْ منه فيقول : أَوْلَى لَكَ . ثُمَّ رَمَى صَيْدا فقاربه ثم أفلت منه فقال :

فَلَوْ كَانَ أَوْلَى يُطْعِمُ الْقَوْمَ صِدْرُهُمْ * وَلَكِنَّ أَوْلَى يَتْرُكُ الْقَوْمَ جُوعًا

وقيل : هو كقول الرجل لصاحبه : يا محروم ، أى شيء فاتك ! وقال الْجُرْجَانِيُّ :

هُوَ مَا خُوذَ مِنَ الْوَبْلِ ؛ فَهُوَ أَفْلَى ، وَلَكِنَّ فِيهِ قَلْبٌ ، وَهُوَ أَنْ عَيْنُ الْفَعْلِ وَقَعَ مَوْقِعُ الْلَامِ .

وقد تم الكلام على قوله : « فَأَوْلَى لَهُمْ » . قال قتادة : كأنه قال العقاب أَوْلَى لهم . وقيل :

أَى وَلِيهِمْ الْمَكْرُوهُ . ثُمَّ قال : « طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ » أَى طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ أَمْثَلُ

وَأَحْسَنُ ؛ وَهُوَ مَذْهَبُ سَيْبُوِيَّهُ وَالْخَلِيلِ . وَقِيلَ : إِنَّ التَّقْدِيرَ أَمْرُنَا طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ؛

خَذْفُ الْمُبْتَدَأِ فَيُوقَفُ عَلَى « فَأَوْلَى لَهُمْ » . وَكَذَا مِنْ قَدْرِ يَقُولُونَ مِنَا طَاعَةٌ . وَقِيلَ : إِنَّ

الآيَةِ الثَّانِيَةِ مَتَصَلَّةً بِالْأُولَى . وَاللَامُ فِي قَوْلِهِ « لَهُمْ » بِمَعْنَى الْبَاءِ ، أَى الطَّاعَةِ أَوْلَى وَأَلْيَقَ

بِهِمْ ، وَأَحْقَقَ لَهُمْ مِنْ تَرْكِ امْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ . وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي « يَقُولُونَ طَاعَةً » . وَقِيلَ : إِنَّ

« طَاعَةً » نَعَتْ لِـ « سُورَةً » ؛ عَلَى تَقْدِيرِهِ : إِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةً ذَاتَ طَاعَةً ، فَلَا يُوقَفُ عَلَى

هَذَا عَلَى « فَأَوْلَى لَهُمْ » . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ قَوْلَهُمْ « طَاعَةً » إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَنْ وَجْلِ عَنِ

الْمَنَافِقِينَ . وَالْمَعْنَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ قِيلَ وَجْبُ الْفَرَائِضِ عَلَيْهِمْ ، إِنَّا أَنْزَلْنَا الْفَرَائِضِ

شَقَّ عَلَيْهِمْ نِزْوَهَا . فَيُوقَفُ عَلَى هَذَا عَلَى « فَأَوْلَى » .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « إِنَّمَا عَزَمَ الْأَمْرَ » أَى جَدَّ الْقِتَالِ ، أَوْ وَجَبَ فَرْضُ الْقِتَالِ ، كَهُوَ .

فَكَهُوَ جَوابُ « إِذَا » وَهُوَ مَحْذُوفٌ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى إِنَّا عَزَمَ أَصْحَابَ الْأَمْرِ . « فَلَوْ

صَدَقُوا اللَّهَ » أَى فِي الإِيمَانِ وَالْجَهَادِ . « لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » مِنَ الْمُعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ .

قوله تعالى : فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعْنَهُمُ اللَّهُ فَاصْبِرُوهُمْ وَأَعْمَلْنَا بِصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْفَاهُهُمْ ﴿٢٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ) اختلف في معنى «إنْ تَوَلَّتُمْ» فقيل : هو من الولاية . قال أبو العالية : المعنى فهل عسيتم إن توليت الحكم بفعلهم حكاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرثا . وقال الكلبي : أى فهل عسيتم إن توليت أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم . وقال ابن جريج : المعنى فهل عسيتم إن توليت عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام . وقال كعب : المعنى فهل عسيتم إن توليت الأمر أن يقتل بعضكم بعضاً . وقيل : من الإعراض عن الشيء . قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليت عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام ، وقطعوا أرحامكم .

وقيل : «فَهَلْ عَسِيْتُمْ» أى فعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحکامه أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم . وقرئ بفتح السين وكسرها . وقد مضى في «البقرة» (١) القول فيه مستوفى . وقال بكر المزنى : إنما نزلت في الحرورية والخوارج ؛ وفيه بعد . والأظاهر أنه إنما عني بها المنافقون . وقال ابن حيان : قريش . ونحوه قال المسيب بن شريك والفراء ، قالا : نزلت في بني أمية وبني هاشم ؛ ودليل هذا التأويل ما روى عبد الله بن مغفل قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» — ثم قال — هم هذا الحى من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس لا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم » . وقرأ علي بن أبي طالب «إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» بضم الناء والواو وكسر اللام . وهي قراءة ابن أبي إسحاق ، وروها رؤيس عن

يعقوب ، يقول : إن ولتكم ولاة جائزة خرجم معهم في الفتنة وحاربتموه . ((وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ)) بالبني والظلم والقتل . وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم « وَتَقْطَعُوا » بفتح الشاء وتحقيق الفاء ، من القطع ، اعتباراً بقوله تعالى « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصِلَ » . وروى هذه القراءة هارون عن أبي عمرو . وقرأ الحسن « وَتَقْطَعُوا » مفتوحة الحروف مشددة ، اعتباراً بقوله تعالى : « وَتَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بِيَنْهُمْ » . الباقيون « وَتَقْطَعُوا » بضم الشاء مشددة الطاء ، من التقطيع على التكثير ، وهو اختيار أبي عبيد . وتقدم ذكر (١) « عيسىم » في (البقرة) . وقال الزجاج في قراءة نافع : لو جاز هذا لجاز « عيسى » بالكسر . قال الجوهري : ويقال عسيت أن أفعل ذلك ، وعسيت بالكسر . وقرئ « فهل عسيم » بالكسر . (٢) قلت : ويدل قوله هذا على أنهما لغتان . وقد مضى القول فيه في « البقرة » مستوفياً على عادة العرب في ذلك .

الثانية — قوله تعالى : ((أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)) أى يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام . ((أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ)) أى بل على قلوب أقفال أقفالها الله عن وجل عليهم فهم لا يعقلون . وهذا يرد على القدرية والإمامية مذهبهم . وفي حديث مرفوع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”إن عليها أقفالاً كأقفال الحديد حتى يكون الله يفتحها“ . وأصل القفل اليُسُس والصلابة . ويقال لما يبس من الشجر : القفل . والقفييل مثله . والقفييل أيضاً بنت . والقفييل : الصوت . قال الراجز :

لَمَّا أَنْتَكَ يَابْسَا قِرْشَبَا * قَتَ إِلَيْهِ بِالقَفِيلِ ضَرِبَا

* كَيْفَ قَرِيتَ شَيْخَ الْأَزْبَا *

(١) آية ٢٧ سورة البقرة . (٢) آية ٩٣ سورة الأنبياء . (٣) ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٤) الأزب (بالفتح والتشديد) : الكثير الشعر .

القرشَبْ (بكسر القاف) : المِسْن ؛ عن الأَصْمَعِي . وأَقْفَلَهُ الصُّومُ أَى أَيْسَرَهُ ؛ قَالَهُ الْقَشِيرِيَّ .
وَالْجَوَهْرِيَّ . فَالْأَقْفَالُ هَا هِنَا إِشَارَةٌ إِلَى ارْتِتَاجِ الْقَلْبِ وَخَلُوِّهِ عَنِ الْإِيمَانِ . أَى لَا يَدْخُلَ
قُلُوبَهُمُ الْإِيمَانَ وَلَا يَخْرُجَ مِنْهَا الْكُفَرُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَبِيعَةُ قُلُوبِهِمْ وَقَالَ : « عَلَى قُلُوبِ
لَأْنَهُ لَوْ قَالَ عَلَى قُلُوبِهِمْ لَمْ يَدْخُلْ قَلْبَ غَيْرِهِمْ فِي هَذِهِ الْجَمْلَةِ . وَالْمَرَادُ أَمْ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ
وَقُلُوبُ مَنْ كَانُوا بِهَذِهِ الصَّفَةِ أَقْفَالُهُمْ .

الثَّالِثَةُ — فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
”إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَ الرَّحْمَنُ فَقَالَتْ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنِ الْقُطْبِيَّةِ
قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرَضَيْنَ أَنْ أَصْلِ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ قَالَتْ بَلِّي قَالَ فَذَلِكَ لَكِ — ثُمَّ قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — اقْرَءُوا إِنْ شَئْتُمْ « فَهَلْ عَسِيْتُمْ إِنْ تَوَلَّتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ . أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لِعْنَهُمُ اللَّهُ فَأَصْبَهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ
أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ » . وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهَا خَطَابٌ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ . وَقَالَ قَاتَدَةُ وَغَيْرُهُ : مَعْنَى
الْآيَةِ فَلْعُوكُمْ ، أَوْ يَخَافُ عَلَيْكُمْ ، إِنْ أَعْرَضُتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ أَنْ تَعُودُوا إِلَى الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ
لَسْفَكَ الدَّمَاءِ . قَالَ قَاتَدَةُ : كَيْفَ رَأَيْتُمُ الْقَوْمَ حِينَ تَوَلَّوْا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ! أَلَمْ يَسْفَكُوا
الدَّمَاءَ الْحَرَامَ وَيَقْطَعُوا الْأَرْحَامَ وَعَصُوا الرَّحْنَ . فَالرَّحْمُ عَلَى هَذَا رَحِيمُ دِينِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ،
الَّتِي قَدْ سَمَّاها اللَّهُ إِخْوَةً بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »^(١) . وَعَلَى قَوْلِ الْفَزَاءِ أَنَّ الْآيَةَ
نَزَّلَتْ فِي بْنِ هَاشِمَ وَبْنِ أَمِيَّةَ ، وَالْمَرَادُ مِنْ أَضْهَرِهِمْ نِفَاقًا ، فَأَشَارَ بِقَطْعِ الرَّحِيمِ إِلَى مَا كَانَ
بِيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقَرَابَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَذَلِكُ
يُوجِبُ الْقَتَالَ . وَبِالْجَمْلَةِ فَالرَّحْمُ عَلَى وَجْهِيْنِ : عَامَةٌ وَخَاصَّةٌ ؛ فَالْعَامَةُ رَحِيمُ الدِّينِ ، وَيَحْبُّ
مَوَاصِلَتِهِ بِمَلَازِمِ الْإِيمَانِ وَالْحَبَّةِ لِأَهْلِهِ وَنَصْرَتِهِمْ ، وَالنَّصِيْحَةِ وَتَرْكِ مُضَارَتِهِمْ وَالْعَدْلِ بِيْنَهُمْ ،
وَالنَّصْفَةِ فِي مَعَالِمِهِمْ وَالْقِيَامِ بِحَقْوَهُمِ الْوَاجِبَةِ ؛ كَتَمِرِيضِ الْمَرْضِ وَحَقْوَقِ الْمُوَقِّيِّ مِنْ غَسْلِهِمْ
وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ وَدُفْنِهِمْ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ [الْحَقْوَقِ] الْمُتَرْتِبَةِ لَهُمْ . وَأَمَّا الرَّحْمُ الْخَاصَّةُ وَهِيَ رَحِيمُ الْقَرَابَةِ
مِنْ طَرْفِ الرَّجُلِ أَبِيهِ وَأَمِهِ ، فَيُوجِبُ لَهُمُ الْحَقْوَقِ الْخَاصَّةِ وَزِيَادَةً ؛ كَالنَّفَقَةِ وَتَفْقِدِ أَحْوَالِهِمْ ،

(١) آيَةُ ١٠ سُورَةُ الْجَرَاثِ .

وترک التغافل عن تعاہدھم في أوقات ضروراھم ؛ وتنأکد في حقھم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تراھت الحقوق بدئ بالاقرب فالاقرب . وقال بعض أهل العلم : إن الرحم التي تجحب صلتها هي كل رحم محترم ، وعليه فلا تجحب في بني الأعمام وبني الأخوال . وقيل : بل هذا في كل رحم من ينطلق عليه ذلك من ذوى الأرحام في المواريث ، محترماً كان أو غير محترم . فيخرج من هذا أن رحم الأم التي لا يتوارث بها لا تجحب صلتهم ولا يحرم قطعهم . وهذا ليس ب صحيح ، والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجحب صلته على كل حال ، قربةً و دينية ؟ على ما ذكرناه أولاً والله أعلم . وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده قال :

حدثنا شعبة قال أخبرني محمد بن عبد الجبار قال سمعت محمد بن كعب الفرضي يحدث عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن للرحم لسانا يوم القيمة تحت العرش يقول يا رب قطعت يا رب ظلمت يا رب أسيء إلى فيجيئها ربهما ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك " . وفي صحيح مسلم عن جبير بن مطعم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة قاطع " . قال ابن أبي عمر قال سفيان : يعني قاطع رحم . ورواه البخاري .

الرابعة — قوله عليه السلام : " إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم ... " (١) « خلق » بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدم . والخلق هنا بمعنى المخلوق . ومنه قوله تعالى : « هذا خلق الله » أي مخلوقه . ومعنى " فرغ منهم " كل خلقهم . لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم ؛ إذ ليس فعله ب مباشرة ولا مناولة ، ولا خلقه بالله ولا محاولة ؟ تعالى عن ذلك . وقوله : " قامت الرحمة فقالت " يحمل على أحد وجهين : أحدهما — أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك ، وكانه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثواب من وصلها ووزر من قطعها ؛ كما وكل الله بسائر الأعمال كراما كاتبين ، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . وثانيهما —

(١) راجع ج ١ ص ٢٢٦ (٢) آية ١١ سورة لقمان .

أن ذلك على جهة التقدير والتبيّل المفهوم للإعفاء وشدة الاعتناء . فكأنه قال : لو كانت الرحم من يعقل ويتكلّم لقالت هذا الكلام ؛ كما قال تعالى : «*لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاصِّاً مُتَصَدِّقاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ*» — ثم قال — *وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضِيرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ*» . قوله : «*فَقَالَتْ هَذِهِ مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقُطْعَيْةِ*» مقصود هذا الكلام الإخبار بتاًكِد أمر صلة الرحم ، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من آستجار به فأجاره ،^(١) وأدخله في ذمته وخفارته . وإذا كان كذلك بخار الله غير مخذول وعهدُه غير منقوض . ولذلك قال مخاطباً للرحم : «*أَمَا تَرَضَيْنَ أَنْ أَصْلِ مَنْ وَصَلِّكَ وَأَقْطُعَ مِنْ قَطْعِكَ*» . وهذا كما قال عليه السلام : «*وَمَنْ صَلَى الصَّبْعَ فَهُوَ فِي ذَمَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَطْلَبُنِمُ اللَّهُ مِنْ ذَمَّتِهِ*» فإنه من يطلبه بذمته بشيء يدركه ثم يُكبه في النار على وجهه » .

قوله تعالى : *إِنَّ الَّذِينَ آرَتُهُمْ عَلَيْنَ أَدْبَرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَهْدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ* ^(٢)

قال قنادة : هم كفار أهل الكتاب ، كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد ما عرفوا نعمته عندهم ؛ قاله ابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدى : هم المنافقون ، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن . (*الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ*) أي زين لهم خطاياهم ؛ قاله الحسن . (*وَأَمْلَى لَهُمْ*) أي مَدَ لهم الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر ؛ عن الحسن أيضا . وقال : إن الذي أمل لهم في الأمل ومَدَ في آجالهم هو الله عن وجْل ؛ قاله الفراء والمفضل . وقال الكافي ومقاتل : إن معنى «أَمْلَى لَهُمْ» «أَمْلَاهُمْ» ؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أَمْلَى لهم بالإمهال في عذابهم . وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسي بن عمر وأبو جعفر وشيبة «*وَأَمْلَى لَهُمْ*» بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء ؛ على ما لم يسمّ فاعله . وكذلك قرأ ابن هُرْمَنْ وبمَحَادِدِ الْحَمَدِيِّ ويعقوب ، إلا أنهم سَكَنُوا الياء على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم ؛ كأنه قال : *وَأَنَا أَمْلَى لَهُمْ* . واختاره أبو حاتم ، قال : لأن فتح الهمزة يُوهم أن الشيطان

(١) آية ٢١ سورة الحشر . (٢) الخفارة (بالضم والكسر) : الدمام .

يملّ لهم ، وليس كذلك ؟ فلهذا عدل إلى الضم . قال المهدوى : ومن قرأ « وأمْلَهْ لِهْ » فالفاعل اسم الله تعالى . وقيل الشيطان . واختار أبو عبيد قراءة العامة ، قال : لأن المعنى معلوم ؟ لقوله : « تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِيزُوهُ وَتَوَقِيرُوهُ وَتَسْبِحُوهُ » رد التسبيح على اسم الله ، والتوقير والتعزيز على آسم الرسول .

قوله تعالى : ذَلِكَ يَأْنَهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعُكُمْ
فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (١)

قوله تعالى : (ذَلِكَ يَأْنَهُمْ قَالُوا) أي ذلك الإماماء لهم حتى يقادوا في الكفر بأنهم قالوا ؛ يعني المنافقين واليهود . (لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ) وهم المشركون . (سَنَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ) أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السر . وهم إنما قالوا ذلك سرًا فأخبر الله نبيه . وقراءة العامة « إسرارهم » بفتح الهمزة ، جمع سر ؟ وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأشعش وحزة والكسائي ومحفص عن عاصم « إسرارهم » بكسر الهمزة على المصدر؛ نحو قوله تعالى : « وَأَسْرَتْ لَهُمْ إِسْرَارًا » جمع لاختلاف ضروب السر .

قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَرُهُمْ (٢)

قوله تعالى : (فَكَيْفَ) أي فكيف تكون حالهم . (إِذَا تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ)
أي ضارين ؟ فهو في موضع الحال . ومعنى الكلام التخويف والتهديد ؛ أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انتهاء العمر . وقد مضى في « الأنفال والنحل » . وقال ابن عباس : لا يتوف أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه . وقيل : ذلك عند القتال نصرةً لرسول الله

(١) آية ٩ سورة الفتح . (٢) آية ٩ سورة نوح . (٣) راجع ج ٨ ص ٢٨ و ج ١٠ ص ٩٩

صلى الله عليه وسلم ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطاب وأدبارهم عند المرب . وقيل :

ذلك في القيامة عند سوقهم إلى النار .

قوله تعالى : **ذَلِكَ يَانَاهُمْ أَتَبَعُوا مَا أَنْسَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**

قوله تعالى : **(ذلك)** أي ذلك جزاؤهم . **(يأنهم اتبعوا ما أنسط الله)** قال ابن عباس : هو كثائهم ما في التوراة من نعمت محمد صلى الله عليه وسلم . وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضروا عليه من الكفر . **(وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ)** يعني الإيمان . **(فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)** أي ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك ؛ على ما تقدم .

قوله تعالى : **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ** **وَلَوْ نَسِيَّاً لَأَرَيْنَاهُمْ فَلَعْرَفَتُمُ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفُنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ**

قوله تعالى : **(أم حسب الذين في قلوبهم مرض)** نفاق وشك ؛ يعني المنافقين . **(أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)** الأضغان ما يضرم من المكره . واختلف في معناه ؛ فقال السدي : غشمهم . وقال ابن عباس : حسدهم . وقال قطرب : عداوتهم . وأنشد قول الشاعر :

قل لابن هند ما أردت بمنطق * ساء الصديق وشيد الأضغان
وقيل : أحقادهم . واحدها ضعن . قال :

* وذى ضعن كفت النفس عنه *

وقد تقدم . وقال عمرو بن كلثوم :
وإن الضعن بعد الضعن يفسشو * عليك وينخرج الداء الدفينا

قال الجوهري : الضعن والضغينة : الحقد . وقد ضعن عليه (بالكسر) ضغناً .
وتضاغن القوم وأضطغناً أبطنوا على الأحقاد . وأضطغنت الصي إذا أخذته تحت
حضنك . وأنشد الأحمر :

* كأنه مُضطَغْنٌ صَبِيَا *

أى حامله في حجره . وقال ابن مُقبل :

(١) إذا اضطغفت سلاحى عند مَفْرِضها * ومرفق كِناس السيف إذ شَفَافا
وفرس ضاغن لا يعطى ما عنده من الْحَرَى إلا بالضرب . والمعنى : أم حسبوا أن لن يظهر
الله عداوتهم وحقدتهم لأهل الإسلام . (ولَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَا كَهْمَ) أى لعزفنا كهم . قال
ابن عباس : وقد عرفه إياهم في سورة «براءة» . تقول العرب : سأريك ما أصنع ؛ أى
سأعلمك ؛ ومنه قوله تعالى : «بِمَا أَرَكَ اللَّهُ» أى بما أعلمك . (فَلَعْرَقْهُمْ بِسِيَاهِمْ) أى
بعلاماتهم . قال أنس : ما خفى على النبي صل الله عليه وسلم بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؟
كان يعرفهم بسياهم . وقد كافى غزارة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم الناس ، فأصبحوا
ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب «هذا منافق» فذلك سياهم . وقال ابن زيد :
قدر الله بإظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فابووا إلا أن يتسكعوا بلا إله إلا الله ، فخفت
دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها . (ولَتَعْرِفَهُمْ فِي لَهْنِ الْقَوْلِ) أى في خواه ومعناه . ومنه
قول الشاعر :

* وخير الكلام ما كان لـَهـَا *

أى ما عُرِفَ بالمعنى ولم يُصرِحْ به . مأخذ من اللحن في الإعراب ، وهو الذهاب عن
الصواب ، ومنه قول النبي صل الله عليه وسلم : «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَى» ولعل بعضكم أن يكون
اللحن بمحاجته من بعض «أى أذهب بها في الجواب لقوته على تصريف الكلام» . أبو زيد :

(١) المفترض : جانب البطن أسفل الأضلاع . و «رِثَام السيف» : مقبضه . و «الشاف» : اليابس
من الضمر والمزايل . (٢) راجع ج ٨ ص ١٩٦ . (٣) آية ١٠٥ سورة النساء .
(٤) في نسخ الأصل : «يشكونهم» .

لَحْنَتْ لَهُ (بالفتح) أَلْحُنْ لَحْنَتْ إِذَا قُلْتَ لَهُ قَوْلًا يَفْهَمُهُ عَنْكَ وَيَخْفَى عَلَى غَيْرِهِ، وَلَحْنَهُ هُوَ عَنِي
(بالكسر) يَلْحَنُهُ لَحْنَهُ أَى فَهْمَهُ . وَاللَّهُ أَنَا إِبَاهُ، وَلَاحْنَتِ النَّاسُ فَاطِنَتِهِمْ؛ قَالَ الْفَزَارِيُّ :

وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مَا * يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ بُوزَنَ وَزَنَ
مِنْطَقَ رَائِعٍ وَلَاحْنُ أَحِيَا * فَأَوْخِرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَهُنَّا

يُرِيدُ أَنْهَا نَتَكَلَّمُ [بِشَئِ] وَهِيَ تُرِيدُ غَيْرَهُ ، وَتُعْرَضُ فِي حَدِيثِهَا فَتَرِيهِ عنْ جَهَتِهِ مِنْ
فَطْنَتِهَا وَذَكَانَهَا . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « وَلَتَعْرِفُنَّمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » . وَقَالَ الْفَتَّالُ الْكَلَابِيُّ :

وَلَقَدْ وَحَيْتُ لَكُمْ لِكِيمَا تَفْهَمُوا * وَلَحْنَتْ لَهُنَّا لَيْسَ بِالْمَرْتَابِ

وَقَالَ مَرَارُ الْأَسْدِيُّ :

وَلَحْنَتْ لَهُنَّا فِي غَشٍّ وَرَابِغٍ * صَدُودُكُمْ تُرْضِينَ الْوِشَاءَ الْأَعَادِيَا

قَالَ الْكَلَابِيُّ : فَلِمْ يَتَكَلَّمُ بَعْدَ نَزُولِهَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنَافِقُ إِلَّا عَرَفَهُ . وَقَيْلُ :

كَانَ الْمَنَافِقُونَ يَخَاطِبُونَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَلَامٍ تَوَاضَعُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ وَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْمَعُ ذَلِكَ وَيَأْخُذُ بِالظَّاهِرِ الْمُعْتَادِ ، فَنَبَهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَكَانَ بَعْدَ هَذَا يَعْرِفُ
الْمَنَافِقِينَ إِذَا سَمِعُ كَلَامَهُمْ . قَالَ أَنْسٌ : فَلِمْ يَخْفَ مَنَافِقُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْرَفَهُ اللَّهُ ذَلِكَ بُوسِيٌّ أَوْ عَلَامَةٌ عَرَفَهَا بِتَعْرِيفِ اللَّهِ إِبَاهَ . (وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)

أَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَنَبْلُوْنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ
وَنَبْلُوْا أَخْبَارَكُمْ (١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَنَبْلُوْنَكُمْ) أَى نَتَعَبَّدُ كُمْ بِالشَّرائِعِ وَإِنْ عَلِمْنَا عَوَاقِبَ الْأَمْرِ . وَقَيْلُ :
لَنَعْلَمْنَاكُمْ مَعْاْمَلَةَ الْمُخْتَبِرِينَ . (حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ) عَلَيْهِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :

« حَتَّى نَعْلَمَ » حَتَّى نَمِيزَ . وَقَالَ عَلَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . « حَتَّى نَعْلَمَ » حَتَّى نَرَى . وَقَدْ مُضِيَ

(١) فِي الْلَّسَانِ : « لَحْنَتْ » .

(١) في «البقرة». وقراءة العامة بالنون في «نَبْلُونَكُمْ» و«نَعْلَم» «وَنَبْلُو». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهن . وروى رُؤيس عن يعقوب إسكان الواو من «نَبْلُو» على القطع مما قبل . ونصب الباقيون ردًا على قوله : «هَتَّى نَعْلَم» . وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء؛ لأنَّه إنما يحياز بهم بأعمالهم لا بعمره القديم عليهم . فتأويله : حتى نعلم المجاهدين علم شهادة ؛ لأنَّهم إذا أُمرُوا بالعمل يشهدون منهم ما عملوا ، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة . «وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ» تخبرها ونظيرها . قال إبراهيم بن الأشعش : كان الفضيل بن عيَّاض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللَّهُمَّ لَا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكَتْ أستارنا .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا أَرْسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسِيَّحِطُ أَعْمَالَهُمْ (٢٦)

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود . وقال ابن عباس : هم المطعمون يوم بدر . نظيرها «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أموالَهُمْ لِيُصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» الآية . «وَشَاقُوا الرَّسُولَ» أي عادوه وخالفوه . «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى» أي علموا أنه نبي بالحجج والآيات . «لَنْ يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا» بکفرهم . «وَسِيَّحِطُ أَعْمَالَهُمْ» أي ثواب ما عملوه .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّبِعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٢٧)

فيه مسألتان :

الأولى – قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّبِعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بذرöm الطاعة في أوامره والرسول في سنته . «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» أي حسناتكم بالمعاصي ؛ قاله الحسن . وقال الزهري : بالبكائر . ابن جرير : بالرياء والسمعة .

(١) راجع ج ٢ ص ١٥٦ طبعة ثانية . (٢) آية ٣٦ سورة الأنفال .

وقال مقاتل والثائي : بالمن ، وهو خطاب لمن كان يمن على النبي صل الله عليه وسلم بإسلامه . وكله متقارب ، وقول الحسن يجمعه . وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات ، والمعاصي تخرج عن الإيمان .

الثانية - احتج علماً وناؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحمل من التطوع - صلاةً كان أو صوماً - بعد التلبس به لا يجوز ، لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه . وقال من أجاز ذلك - وهو الإمام الشافعى وغيره - : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ؛ فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأما ما كان نفلاً فلا ، لأنه ليس واجباً عليه . فمَن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه . ووجه تخصيصه أن النفل تطوع ، والتطوع يقتضى تخييراً . وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب ، حتى نزلت هذه الآية خافوا الكبائر أن تحبط الأعمال . وقال مقاتل : يقول الله تعالى إذا عصيتكم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٢٤)

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار . وقد مضى في « البقرة » (١) الكلام فيه . وقيل : إن المراد بالآية أصحاب القليب . وحكها عام .

قوله تعالى : فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى آلِسْلَمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكُمْ أَعْمَلَكُمْ (٢٥)

فيه ثلاثة مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَلَا تَهِنُوا) أي تضعفوا عن القتال . والوهن : الضعف . وقد وَهَنَ الإِنْسَانُ وَهَنَّهُ غَيْرُهُ ، يتعذر ولا يتعذر . قال :

* إِنِّي لَسْتُ بِمُوهُونٍ فَقِرْ *

(١) راجع ج ٣ ص ٤٨ (٢) المراد به قليب بدر . (٣) هذا يعزز بيت لطرفة ، وصدره :

* وَإِذَا تَلَسَّنَى السَّنَابِ *

ووهن أيضاً (بالكسر) وهذا أى ضعف، وقرئ «فَا وَهُنَا» بضم الهاء وكسرها . وقد مضى في (آل عمران)^(١) .

الثانية — قوله تعالى: «وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَمِ» أى الصلح . «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» أى وأنت أعلم بالله منهم . وقيل : وأنت الأعلون في الجهة . وقيل : المعنى وأنت الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلوبكم في الظاهر في بعض الأحوال . وقال قتادة : لا تكونوا أقل الطائفتين ضرعت إلى صاحبته .

الثالثة — واختلف العلماء في حكمتها ؛ فقيل : إنها ناسخة لقوله تعالى : «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَمِ فَاجْنِحْ لَهُ»^(٢) ؛ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسالمين حاجة إلى الصلح . وقيل : منسوبة بقوله تعالى : «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَمِ فَاجْنِحْ لَهُ»^(٣) . وقيل : هي محكمة . والآياتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال . وقيل : إن قوله «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَمِ فَاجْنِحْ لَهُ» مخصوص في قوم بأعيانهم ، والأخرى عامة . فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى . «وَاللَّهُ مَعَكُمْ» أى بالنصر والمعونة ؛ مثل «وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» . «وَلَنْ يَتَرَکُمْ أَعْمَالُكُمْ»^(٤) أى إن ينقصكم ؛ عن ابن عباس وغيره . ومنه المotor الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ؛ تقول منه : وَتَرَه يَتَرَه وَتَرَه وَتَرَه . ومنه قوله عليه السلام : «من فاتته صلاة العصر فكانما وَرَأَهُ وَمَا لَه»^(٥) أى ذهب بهما . وكذلك وَتَرَه حقه أى نقصه . وقوله تعالى : «وَلَنْ يَتَرَکُمْ أَعْمَالُكُمْ»^(٦) أى إن ينقصكم في أعمالكم ؛ كما تقول : دخلت البيت ؛ وأنت تريده في البيت ؛ قاله الجوهري . الفتراء : «وَلَنْ يَتَرَکُمْ» هو مشتق من الوتر وهو الفرد ؛ فكان المعنى ولن يفردكم بغير ثواب .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٠

(٢) آية ٦١ سورة الأنفال . راجع ج ٨ ص ٣٩

(٣) آية ٦٩ سورة العنكبوت .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُنُّ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَنْتَقُوا
يُؤْتَكُ أَجُورُكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴿٢٧﴾ إِنْ يَسْأَلُكُمُوهَا فَيُحْفَظُكُمْ
بِبَخْلِهِمْ وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعْبٌ وَهُوَ) تقدم في « الأنعام » . (وَإِنْ تُؤْمِنُوا
وَتَتَقْوَى يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ) شرط وجوابه . (وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ) أى لا يأمركم بإخراج
جميعها في الزكاة ؛ بل أمر بإخراج البعض ؛ قاله ابن عيينة وغيره . وقيل : « لا يسألكم
أموالكم » لنفسه أو حاجة منه إليها ؛ إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم .

وقيل : « لا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ » إنما يسألكم أمواله ، لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائهما .

وَقَدْ قُلَّ مَنْ يَعْلَمُ أَحْسَانَكُمْ إِلَيْهِ وَمَا أَنْتُ بِكُمْ إِلَّا نَذِيرٌ
 وَقَدْ قُلَّ مَنْ يَعْلَمُ أَحْسَانَكُمْ إِلَيْهِ وَمَا أَنْتُ بِكُمْ إِلَّا نَذِيرٌ

ومنه أخفى شاربه أى استقصى في أخذه . (تَبْخَلُوا وَيُخْرِجُ أَضْفَانَكُمْ) أى يخرج البخل

أضياعكم . قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال حرج الأضعاف . وقرأ ابن عباس

ومجاهد وابن حبيصن وحميد « وتخرج » ببناء مفتوحة وراء مضمومة . « أضغانكم » بالرفع

«مُخْرِج» كأثر القتاء، عطف على ماقاتم

قوله تعالى : هَذَا نُنْهِيُّكُمْ هَذُولَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْهَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَنَكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ أَلْغَى وَأَنْتُمْ أَلْفَقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْنَا يَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ

(٢) آية ٧٥ سورة الفرقان .

(١) راجع ج ٦ ص ٤١٤

قوله تعالى : **(هَأْتُمْ هُؤُلَاءِ تُدْعَونَ)** أى هأتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون **(لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)** أى في الجهاد وطريق الخير . **(فَمِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ وَمَنْ يَعْمَلُ فَإِنَّمَا يَعْمَلُ عَنْ نَفْسِهِ)** أى على نفسه ؛ أى يمنعها الأجر والثواب . **(وَاللَّهُ الْغَنِيُّ)** أى إنه ليس بحتاج إلى أموالكم . **(وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ)** إلينا . **(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبِدُّ قَوْمًا غَيْرَ كُمْ)** أى أطوع الله منكم . روى الترمذى عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية **«وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبِدُّ قَوْمًا غَيْرَ كُمْ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»** قالوا : ومن يستبدل بنا ؟ قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ثم قال : "هذا وقومه . هذا وقومه" قال : حديث غريب في إسناده مقال . وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجح والد علي بن المدينى أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : وكان سلمان جنوب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ سلمان ، قال : "هذا وأصحابه . والذى تقسى بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس" . وقال الحسن : هم العجم . وقال عكرمة : هم فارس والروم . قال المحاسى : فلا أحد بعد العرب من جميع أجناس الأعاجم أحسن ديناً ، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس . وقيل : إنهم اليه ، وهم الأنصار ، قاله شريح بن عبيد . وكذا قال ابن عباس : هم الأنصار . وعنده أنهم الملائكة . وعنده هم التابعون . وقال مجاهد : إنهم من شاء من سائر الناس . **(لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)** قال الطبرى : أى في البخل بالإنفاق في سبيل الله . وحكى عن أبي موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "هى أحب إلى من الدنيا" . والله أعلم .

سورة الفتح

مدينة بإجماع، وهي تسع وعشرون آية، وزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحديبية.

روى محمد بن إسحاق عن الزهرى عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أوقها إلى آخرها .

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ؛ فقال عمر بن الخطاب : ^(١) ثُكِّلْتَ أَمْ عَمَرْ ، تَزَرَّتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَاتٍ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَجِدْكَ ؛ فقال عمر :

^(٢) خَزَّكَتْ بَعِيرِي ثُمَّ تَقَدَّمْتَ أَمَامَ النَّاسِ وَخَشِيتَ أَنْ يَنْزَلَ فِي قُرْآنٍ ، فَهَا نَسِبْتَ أَنْ سَمِعْتَ صَارَخًا يَصْرُخُ بِي ؟ فَقُلْتَ : لَقَدْ خَشِيتَ أَنْ يَكُونَ نَزْلَ فِي قُرْآنٍ ، يَخْتَلِفُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلِمْتَ عَلَيْهِ ؛ فَقُلْتَ : « لَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَى الْمَلِيلَةِ سُورَةَ الْحُبَّ إِلَى مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ - ثُمَّ قَرَأَ - « إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » ، لفظ البخاري . وقال الترمذى :

حديث حسن غريب صحيح . وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال :

ما نزلت « إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ». لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمْتَ مِنْ ذَنِبِكَ وَمَا تَأْخَرْ وَيُمْعَنْتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا - إلى قوله - فَوْزا عَيْطَا » مترجمة من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد تحرر المدى بالحديبية ، فقال : « لَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَى آيَةَ هِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدِّنِيَا جَمِيعًا » . وقال عطاء عن ابن عباس : إن اليهود شتموا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما نزل قوله تعالى : « وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » وقالوا :

كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ! فأشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَهَمَّمْتَ مِنْ ذَنِبِكَ وَمَا تَأْخَرَ » . ونحوه قال مقاتل

(١) أى أخذت عليه وبالغت في السؤال .

(٢) أى مالبثت وما تعلقت بشئ .

ابن سليمان : لما زل قوله تعالى : « وما أدرى ما يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » فرح المشركون والمنافقون وقالوا : كيف نتبع رجلا لا يدرى ما يفعل به ولا بأصحابه ؟ فنزلت بعد ما رجع من الحديبية « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » أى قضينا لك قضاء . فنسخت هذه الآية تلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد أنزلت على سورة ما يُسْرِنَى بِهَا حُمُرُ النَّعْمَ » . وقال المسعودى : بلغنى أنه من قرأ سورة الفتح في أول ليلة من رمضان في صلاة التطوع حفظه الله ذلك العام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا

اختلف في هذا الفتح ما هو ؟ ففي البخاري - حديث محمد بن بشار قال حدثنا عبد الله بن حذيفة شعبة قال سمعت قادة عن أنس « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » قال : الحديبية . وقال جابر : ما كان نُعَدُ فتح مكة إلا يوم الحديبية . وقال القراء : تعدون أتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نُعَدُ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كأن نُعَدُ مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحدبية بئر . وقال الضحاك : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » بغير قتال . وكان الصلح من الفتح . وقال مجاهد : هو مُنْحَرِه بالحدبية وحلقه رأسه . وقال : كان فتح الحديبية آية عظيمة ، نزح مأواها ففتح فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال موسى بن عقبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية : ما هذا بفتح ؟ لقد صدتنا عن البيت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كروا » . وقال الشعبي في قوله تعالى « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » قال : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها مالم يُصب في غزوة ؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبه يع بيعة الرضوان ،

(١) آية ٩ سورة الأحقاف .

(٢) في تفسير الطبرى : « البراء » .

(٣) في تفسير الطبرى : « خمس مائة » .

وأطعموا نخل خير، وبلغ الهدى ملأه ، وظهرت الروم على فارس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المحبوس . وقال الزهرى : لقد كان الحديبية أعظم الفتوح ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله ، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ؛ فما مضت تلك السنة إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف . وقال مجاهد أيضاً والعوف : هو فتح خير . والأول أكثر ، وخير إنما كانت وعداً وعدوه ؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى : «^(١) سيدول المُخْلِفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ» ، قوله «^(٢) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَعْنَى كَثِيرًا تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ» . وقال ^(٣) مجعوم بن جارية – وكان أحد القراء الذين قرؤوا القرآن – : شهدنا الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما آنصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر ؛ فقال بعض الناس بعض : ما بال الناس ؟ قالوا : أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قال : نخرجنا ^(٤) نوحيف فوجدنا نبي الله صلى الله عليه وسلم عند ^(٥) كراع الغيم ، فلما اجتمع الناس قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» فقال عمر بن الخطاب : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال : «نعم ، والذى نفسي بيده إنه لفتح» . فقسمت خير على أهل الحديبية ، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية . وقيل : إن قوله تعالى «فتاحاً» يدل على أن مكة فتحت ^(٦) عنوة؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلا على ما فتح عنوة . هذا هو حقيقة الاسم . وقد يقال : فتح البلاد صلحًا ، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح ، فصار الفتح في الصلح مجازاً . والأخبار دالة على أنها فتحت عنوة ؛ وقد مضى القول فيها ، ويأتي .

قوله تعالى : **لِيَغْفِرَ لَكَ آللَّهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ وَيُتَمِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا** ^(١) **وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ^(٢)

(١) آية ١٥ من هذه السورة . (٢) آية ٢٠ من هذه السورة . (٣) الإيجاف : مبردة السير .

(٤) كراع الغيم : موضع بناية الجاز بين مكة والمدينة . (٥) أي فتح بالقتال ، قوله أهلها حتى

غلبوا عليها . (٦) راجع ج ٨ ص ٢

قال ابن الأبارى : «فَتَحَّا مُبِينًا» غير تام ، لأن قوله «لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ» متعلق بالفتح . كأنه قال : إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة ، فيجمع الله لك به ما تقرب به عينك في الدنيا والآخرة . وقال أبو حاتم السجستاني : هي لام القسم . وهذا خطأ ، لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ، ولو جاز هذا لخاز : ليقوم زيد ؟ بتأويل ليقومن زيد . الزمخشري^(١) : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّ من الأمور الأربع ، وهي : المغفرة ، واتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، والنصر العزيز . كأنه قال : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع لك عن الدارين وأعراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سبباً للفرجان والثواب . وفي الترمذ عن أنس قال : أزلت على النبي صلى الله عليه وسلم «لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ» مرجعه من الحديبية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لقد أزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض» . ثم قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ؟ فقالوا : هنئاً مريئاً يا رسول الله ، لقد بين الله لك ماذا يفعل بك ؟ فإذاً يفعل بنا ؟ فنزلت عليه «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» حتى بلغ - فوزًا عظيمًا^(١) . قال حديث حسن صحيح . وفيه عن مجمع ابن جارية . واختلف أهل التأويل في معنى «لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخَرَ» فقيل : «ما تقدم من ذنبك» قبل الرسالة . «وما تأخر» بعدها ؛ قاله مجاهد . ونحوه قال الطبرى وسيفان الثورى ، قال الطبرى : هو راجع إلى قوله تعالى «إذا جاء نصر الله والفتح - إلى قوله - تواباً» . «لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» قبل الرسالة «وَمَا تَأْخَرَ» إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثورى : «لِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» ما عملته في الحالية من قبل أن يوحى إليك . «وَمَا تَأْخَرَ» كل شيء لم تعمله ؛ وقاله الواحدى . وقد مضى الكلام في جريان الصغار على الأنبياء في سورة «البقرة» ؟ فهذا قول . وقيل :

(١) رابع ج ١ ص ٣٠٨ طبعة ثانية أو تالفة .

«ما تقدم» قبل الفتح . «وما تأخر» بعد الفتح . وقيل : «ما تقدم» قبل نزول هذه الآية . «وما تأخر» بعدها . وقال عطاء الخراساني : «ما تقدم من ذنبك» يعني من ذنب أبويك آدم وحواء . «وما تأخر» من ذنوب أمتك . وقيل : من ذنب أبيك إبراهيم . «وما تأخر» من ذنوب النبيين . وقيل : «ما تقدم» من ذنب يوم بدر . «وما تأخر» من ذنب يوم حنين . وذلك أن الذنب المتقدم يوم بدر ، أنه جعل يدعوه يقول : «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض أبداً» وجعل يردد هذا القول دفعات ، فأوحى الله إليه من أين تعلم أني لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبداً ، فكان هذا الذنب المتقدم . وأما الذنب المتأخر في يوم حنين ، لما انهزم الناس قال لعمه العباس ولأبن عمه أبي سفيان : «ناولاني كفأا من حصباء الوادي» فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال : «شاهد الوجه . حم . لا ينصرؤن» فأنهزم القوم عن آخرهم ، فلم يبق أحد إلا مهلاً عيناً رملاً وحصباء . ثم نادى في أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : «لولم أرمه لم ينهزوا» فأنزل الله عن وجْل «وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» فكان هذا هو الذنب المتأخر . وقال أبو علي الروذباري : يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك . قوله تعالى : **(وَيَمْ نِعَمَةُ عَلَيْكَ)** قال ابن عباس : في الجنة . وقيل : بالنبوة والحكمة . وقيل : بفتح مكة والطائف وخير . وقيل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبر . **(وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا)** أي يشتلك على المدى إلى أن يقبضك إليه . **(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)** أي غالباً منيعاً لا يتبعه ذل .

قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمًا**

(١) آية ١٧ سورة الأنفال .

« السكينة » : السكون والطمأنينة . قال ابن عباس : كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في « البقرة » . وتقديم معنى زيادة الإيمان في « آل عمران » . وقال ابن عباس : بعث النبي صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة ، فلما صدقوه زادهم الزكاة ، فلما صدقوه زادهم الصيام ، فلما صدقوه زادهم الحج ، ثم أكل لهم دينهم ؛ فذلك قوله : (لَيَزَدُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ) أي تصدقًا بشرائع الإيمان مع تصدقهم بالإيمان . وقال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . وقال الضحاك : يقينًا مع يقينهم . (وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) قال ابن عباس : يريد الملائكة والجن والشياطين والإنس (وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ) بأحوال حلقه (حَكِيمًا) فيما يريده .

قوله تعالى : لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٣﴾

أى أنزل السكينة ليزدادوا إيمانا . ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة . وقيل : اللام في « ليدخل » يتعلق بما يتعلّق به اللام في قوله : « لِيغفر لك الله » . (وَكَانَ ذَلِكَ) أي ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . (عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا) أي نجاة من كل غم ، وظفرا بكل مطلوب . وقيل : لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه « لِيغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » قالوا : هبئا لك يا رسول الله ، فماذا لنا ؟ فنزل « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتَ جَنَّاتٍ » ولما قرأ « وَيُمْنَعُهُمْ عَذَابُهُمْ عَلَيْكُمْ » قالوا : هبئا لك ، فنزلت « وَأَمْمَتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » فلما قرأ « وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » نزل في حق الأمة « وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » . ولما قال « وَيُنَصِّرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » نزل « وَكَانَ حَفَّا عَلَيْنَا نَصْرًا

(١) راجع ج ٣ ص ٢٤٨

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٨٠

(٣) آية ٣ سورة المائدة .

(٤) آية ٢٠ من هذه السورة .

المُؤْمِنِينَ^(١) . وهو كقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَوَاتُهُ عَلَيْهِ وَسَلَامُوا تَسْلِيمًا^(٢) » . ثم قال : « هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ^(٣) » ذكره القشيري .

قوله تعالى : وَيُعَذَّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَفَّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ الْسُّوءِ عَلَيْهِمْ دَأْءَرَةً الْسُّوءِ وَغَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعْنُهُمْ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(٤) وَلَهُ جُنُودٌ الْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا^(٥)

قوله تعالى : (وَيُعَذَّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) أي بإ يصل المجموع إليهم بسبب علو كلام المسلمين ، وبأن يسلط النبي عليه السلام قتلا وأسرًا واسترقاقا . (الظانين ب الله ظن السوء) يعني ظنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرجع إلى المدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية ، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال : « بلْ ظَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقِلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا^(٦) » . وقال الخليل وسيبوه : « السوء هنا الفساد . (عَلَيْهِمْ دَأْرَةُ السُّوءِ) في الدنيا بالقتل والسب والأسرة ، وفي الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « دائرة السوء » بالضم . وفتح الباكون . قال الجوهري : ساءه يسوءه سوءاً (الفتح) ومساءة ومساية ؛ نقىض سره ، والاسم السوء (بالضم) . وقرى « عليم » دائرة السوء » يعني الهزيمة والشر . ومن فتح فهو من المساءة . (وَغَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعْنُهُمْ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا^(٧) . وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا^(٨)) . تقدّم في غير موضع جعيده ، والحمد لله . وقيل : لما جرى صالح الحديبية قال ابن أبي : أين محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ! فبين الله عن وجل أن جنود السماء والأرض أكثر من فارس والروم . وقيل : يدخل فيه

(١) آية ٤ سورة الروم . (٢) آية ٥٦ سورة الأحزاب .

(٣) آية ٤ سورة الأحزاب .

جميع المخلوقات . وقال ابن عباس : « وَنَهِيَ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ » الملائكة . وجند الأرض المؤمنون . وأعاد لأنَّ الذِّي سبق عقيب ذكر المشركين من قريش ، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين . والمراد في الموضعين التخويف والتهذيد . فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠﴾ لِتُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِيزُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) قال قتادة : على أمتك بالبلاغ . وقيل : شاهدا عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية . وقيل : مُبَشِّرًا لهم ما أرسلناك به إليهم . وقيل : شاهدا عليهم يوم القيمة . فهو شاهد أفعالهم اليوم ، والشهيد عليهم يوم القيمة . وقد مضى في « النساء » عن سعيد بن جبير هذا المعنى مبينا . (وَمُبَشِّرًا) لمن أطاعه باللجنة . (وَنَذِيرًا) من النار لمن عصى ؛ قاله قتادة وغيره . وقد مضى في « البقرة » اشتقاء البشرة والتذارة ومعناها . وانتصب « شاهدا ومبشرا ونذيرا » على الحال المقدرة . حكى سيبويه : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا ؛ فلمعنى : إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيمة . وعلى هذا تقول :رأيت عمرا فائما غدا . (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)قرأ ابن كثير وابن حميم وابو عمرو « ليؤمنوا »^(١) بالياء ، وكذلك « يَعْزِزُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ » كله بالياء على الخبر . واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ؛ فأما قبله فقوله « ليدخل » وأما بعده فقوله « إنَّ الَّذِينَ يَأْمُونُونَكَ » الباقيون بالبقاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم . (وَتَعْزِيزُوهُ) أي تعظمه وتفتخمه ؛ قاله الحسن والكلبي . والتعزيز : التعظيم والتوقير . وقال قتادة : تنصروه وتمعنوا منه . ومنه التعزير في الحديث ؛ لأنَّه مانع . قال القطامي :

(١) يلاحظ أنَّ الذِّي مضى في سورة النساء هو : سعيد بن المسيب . راجع ج ٥ ص ١٩٧ وما بعدها .

(٢) راجع ج ١ ص ١٨٤ ، ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثلاثة .

أَلَا بَكَرْتُ مَّيْ بِغَيْرِ سَفَاهَةٍ « تُعَاتِبُ الْمُؤْدُودُ يَنْفَعُهُ الْعَزْرُ »
وقال ابن عباس وعكرمة : تقاتلون معه بالسيف . وقال بعض أهل اللغة : تطيعوه .
« وَتُوقَرُوهُ » أى تسوذوه ، قاله السدى . وقيل تعظموه . والتوقير : التعظيم والترزين أيضاً .
والهاء فيما للنبي صلى الله عليه وسلم . وهنا وقف تام ، ثم تبتدئ « وَتَسْبِحُوهُ » أى تسبحوا
الله « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى عشيًّا . وقيل : الصائم كلها لله تعالى ؛ فعلى هذا يكون تأويل
« تَعْزِرُوهُ وَتُوقَرُوهُ » أى تثبتوه صحة الروبيه وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك .
وأختار هذا القول القشيري . والأقل قول الضحاك ، وعليه يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله
سبحانه تعالى وهو « وَتَسْبِحُوهُ » من غير خلاف . وبعضه راجعاً إلى رسوله صلى الله عليه
رسوله وهو « وَتَعْزِرُوهُ وَتُوقَرُوهُ » أى تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية . وفي « تَسْبِحُوهُ »
وجهان : أحدهما — تسبيحه بالتزييه له سبحانه من كل قبيح . والثاني — هو فعل الصلاة
التي فيها التسبيح . « بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشياً . وقد مضى القول فيه . وقال الشاعر :
لَعْمَرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَشْكُرُ أَهْلَهُ * وَأَجْلَسْ فِي أَفْيَانِهِ بِالْأَصَائِلِ
^(١)
قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْ فَنَنَ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا^(٢)

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » بالحديثية يا محمد . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » بين أن
بيعتهم لنبيه صلى الله عليه وسلم إنما هي بيعة الله ، كما قال تعالى : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ
أَطَاعَ اللَّهَ » . وهذه المبايعة هي بيعة الرضوان ، على ما يأتى بيانها في هذه السورة إن شاء الله
تعالى . « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » قيل : يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء ، ويده في الملة
عليهم بالهدایة فوق أيديهم في الطاعة . وقال الكلبي : معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا

(١) راجع ج ١٤ ص ١٩٨ . (٢) آية ٨٠ سورة النساء .

من البيعة . وقال ابن كيسان : قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم . ((فَنَّ نَكَثَ)) بعد البيعة . ((فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)) أى يرجع ضرر النكث عليه ، لأنَّ حَمَّ نفسه الشواب وألزمها العقاب . ((وَمَنْ أَوْفَ بِمَا عاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ)) قيل في البيعة . وقيل في إيمانه . ((فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)) يعني في الجنة . وقرأ حفص والزهري « عليه » بضم الهاء . وجرهما الباقيون . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر « فسَيُؤْتِيهِ » بالنون . واختاره الفراء وأبو معاذ . وقرأ الباقيون بالياء . وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم ؛ لقرب اسم الله منه .

قوله تعالى : **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخْلَفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أُمُّ الْنَّا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنَّتِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَنَّ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** (١)

قوله تعالى : ((سَيَقُولُ لَكَ الْمُخْلَفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)) قال مجاهد وابن عباس : يعني أعراب عفار ومنية وجهينة وأسلم وأشجع والديل ؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة ؛ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حذراً من قريش ، وأحرم بعمره وساق معه المدحى ؛ يعلم الناس أنه لا يريد حرباً فتناقلوا عنه واعتلو بالشغل ؛ فنزلت . وإنما قال : « المخلفون » لأنَّ الله خلفهم عن صحبة نبيه . والخلف المتردك . وقد مضى في « براءة » . ((شَغَلتْنَا أُمُّ الْنَّا وَأَهْلُونَا)) أى ليس لنا من يقوم بهما . ((فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)) جاءوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم ؛ ففضحهم الله تعالى بقوله : ((يَقُولُونَ بِالسِّنَّتِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)) وهذا هو النفاق الحمض . ((قُلْ فَنَّ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًا)) قرأ حمزة والكسائي « ضرًا » بضم الضاد هنا فقط ؛ أى أمراً يضركم . وقال ابن عباس : الهزيمة .

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٦

الباقون بالفتح ؛ وهو مصدر ضررته ضراً . وبالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال . والمصدر يؤذى عن المرة وأكثر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأنه قبله بالنفع وهو ضد الضر . وقيل : هما لغتان بمعنى ، كالضر والضر والضعف والضعف . (أو أراد يُكْفِعَا) أي نصراً وغنية . وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع .

قوله تعالى : **بَلْ ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزُيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .** (١٢)

قوله تعالى : (بَلْ ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا) وذلك أنهم قالوا : إن مهدا وأصحابه أكلة رأس لا يرجعون . (وزين ذلك) أي التفاق . (في قلوبكم) وهذا التزيين من الشيطان ، أو يخلق الله ذلك في قلوبهم . (وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوءِ) أن الله لا ينصر رسوله . (وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) أي هلكي ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير . قال الحوهرى : **البور** : الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . قال عبد الله بن الزبير السهمى :

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي * رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذَا نَابَور

وامرأة بور أيضا ؛ حكا أبو عبيد . وقوم بور هلك . قال تعالى : «وكنتم قوما بورا» وهو جمع بائر ؛ مثل حائل وحول . وقد بار فلان أى هلك . وأباره الله أى أهلك . وقيل : «بورا» أشرارا ؛ قاله ابن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لَا يَنْفَعُ الطُّولُ مِنْ نُوكِ الرِّجَالِ وَقَدْ * يَهْدِي إِلَهٌ سَبِيلَ الْمَعْشَرِ الْبُورِ
أَيُّ الْمَالِكِ .

(١) أي هم قليل يشعهم رأس واحد . (٢) ورد هذا البيت في الأصول شرفا .

قوله تعالى : وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِكَافِرِينَ
سَعِيرًا ﴿٣٦﴾

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالتفاق .

قوله تعالى : وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٣٧﴾

أى هو غنى عن عباده ، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى .

قوله تعالى : سَيَقُولُ الْمُخْلَفُونَ إِذَا آنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا
ذَرُونَا نَتَبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَبَعُونَا كَذَلِكُمْ
قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ فَسِيقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : (سَيَقُولُ الْمُخْلَفُونَ إِذَا آنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا) يعني مغامم خبراء ؛ لأن الله عن وجل وعد أهل الحدبية فتح خير ، وأنها لهم خاصة من غاب منهم ومن حضر . ولم يغب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كسمم من حضر . قال ابن إسحاق : وكان المتأول للقسمة بخبير جبار بن صخر الأنصاري من بني سلمة ، وزياد بن ثابت من بني التجار ؛ كانوا حاسبين قاسمين . (ذَرُونَا نَتَبِعُكُمْ)
أى دعونا . تقول : ذرها ، أى دعه . وهو يذرها ؛ أى يدعه . وأصله وذرها يذرها مثال
واسعه يسعه . وقد أimit صدره ، لا يقال : وذرها ولا واذر ، ولكن تركه وهو تارك .
قال مجاهد : تخلعوا عن الخروج إلى مكة ، فلما نخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ قوما

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهري . وعبارة المسان : «والعرب قد أماتت المصدر من « يذر » والفعل المانع ، فلا يقال . . . « اخ .

ووجه بهم قالوا ذرُونا نتبعكم فنقاتل معكم . (بِرِيدُونَ أَنْ يُسَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ) أي يغيروا .
 قال ابن زيد : هو قوله تعالى «فَاسْتَأْذِنُوكَ لِتُخُرُوجَ فَقُلْ لَنْ تَخُرُجُوا مَعِيْ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا
 مَعِيْ عَدُوْا»^(١) الآية . وأنكر هذا القول الطبرى وغيره ؛ بسبب أن غزوة تبوك كانت بعد
 فتح خيبر وبعد فتح مكة . وقيل : المعنى يريدون أن يغيروا وعد الله الذى وعد لأهل
 الحديبية ؛ وذلك أن الله تعالى جعل لهم غاثم خير عوضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من
 الحديبية على صلح ؛ قاله مجاهد وقتادة ، واختاره الطبرى وعليه عاممة أهل التأويل . وقرأ
 حزنة والكسانى «كَلِمَ» بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة ؛ نحو سلمة وسلم . الباقيون
 «كَلَامَ» على المصدر . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، اعتبارا بقوله «إِنِّي أَضْطَفْتُكَ
 عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي»^(٢) . والكلام : ما استقل بنفسه من الجمل . قال الجوهري :
 الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير . والكلام لا يكون أقل من ثلاثة كلمات لأنه
 جمع كلمة ؛ مثل ناقة ونبق . ولهذا قال سيبويه : «هذا باب علم ما الكلام من العربية»
 ولم يقل ما الكلام ؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء : الأسم والفعل والحرف ؛ بفاء بما لا يكون
 إلا جمعا ، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة . وعميم يقول : هي كلمة ، بكسر
 الكاف ، وقد مضى في «براءة» القول فيها . (كَذَلِكَمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ)^(٣) أي من قبل رجوعنا
 من الحديبية إن غنيمة خيبر لم شهد الحديبية خاصة . (فَسَيِّقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا) أن نصيب
 معكم من الغنائم . وقيل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه
 لا سهم لكم» ، فقالوا : هذا حسد . فقال المسلمون : قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه
 وهو قوله تعالى «فَسَيِّقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَا» فقال الله تعالى (بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا)
 يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا . وقيل : لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلا ؛ وهو ترك
 القتال .

(٢) آية ١٤٤ سورة الأعراف .

(١) آية ٨٣ سورة التوبه .

(٣) راجع ج ٨ ص ١٤٩

قوله تعالى : **قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلٍ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**^(١)

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ)** أي قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية **(سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ)** قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي ليلى وعطاء الحراساني : هم فارس . وقال كعب والحسن وعبد الرحمن ابن أبي ليلى : الروم . وعن الحسن أيضاً : فارس والروم . وقال ابن جعفر : هوازن وثيف . وقال عكرمة : هوازن . وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين . وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنيفة أهل إيمانه أصحاب مسلمة . وقال رافع بن خديج : والله لقد كانوا نقرأ هذه الآية فيما مضى **«سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ»** فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم هم . وقال أبو هريرة : لم تأت هذه الآية بعد . وظاهر الآية يرده .

الثانية - في هذه الآية دليل على صحة إماماة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بنى حنيفة ، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم . وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا ؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول عليه السلام ؛ لأنه قال **«لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبْدًا وَلَنْ تَقْاتِلُوا مَعِيَ عَدُوا»** ^(١) فدل على أن المراد بالداعي غير النبي صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أنه لم يدع لهؤلاء القوم بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . **الزَّمَخْشَرِي** : فإن صح ذلك عن قادة فالمعنى لن تخرجوا معى أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين .

(١) آية ٨٣ سورة التوبة .

أو على قول مجاهد كان الموعود أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوعين
لا نصيب لهم في المغنم .

الثالثة — قوله تعالى : (تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) هذَا حُكْمٌ مِّنْ لَّا تُؤْخِذُ مِنْهُمْ إِلَّا حَرَبٌ ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى « تَقَاتِلُونَهُمْ » أَيْ يَكُونُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ ، إِمَّا الْمُقَاتَلَةُ وَإِمَّا إِلَلَامٌ ؛ لَا ثَالِثٌ لَّهُمَا . وَفِي حُكْمِ أُبَيِّ « أَوْ يُسْلِمُوا » بِعْنَى حَتَّى يُسْلِمُوا ؛ كَمَا تَقُولُ : كُلُّ أَوْ تَشْبِعُ ؛ أَيْ حَتَّى تَشْبِعَ . قَالَ :

فقلت له لا تَبِعْ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَخَافُ مُلْكًا أَوْ نَمُوت فَنُعذِّرًا ^(١)

وقال الزجاج : قال «أو يسلِّمون» لأنَّ المعنى أو هم يسلِّمون من غير قتال . وهذا في قتال المشركين لا في أهل الكتاب .

الرابعة - قوله تعالى : «فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا» الغنيمة والنصر
فـ الدـينـا ، وـ الـخـيـرـةـ فـ الـآخـرـةـ . «وَإِنْ تَسْتَوْلُوا كـاـمـاـ تـوـلـيـمـ مـنـ قـبـلـ» عامـ الحـدـيـثـةـ .
«يُعـذـبـكـ عـذـابـ أـلـيـمـ» وهو عـذـابـ النـارـ .

قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْأَمْرِ يُضَرِّ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلُهُ جَنَّةً تَبَرِّى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْثُرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبُهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : لما نزلت « وَإِن تَنْتَلُوا كَا تَوْلِيمٍ مِّنْ قَبْلٍ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »

قال أهل الزَّمَانَةُ : كَيْفَ بَنَا يَارَسُولُ اللَّهِ ؟ فَتَرَلتْ « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرَبِّضِ حَرْجٌ » أَيْ لَا إِثْمٌ عَلَيْهِمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجَهَادِ لِعَاهِمٍ وَزَعَمَتِهِمْ وَضَعَفُهُمْ . وَقَدْ مَضَى فِي « بِرَاءَةٍ » وَغَيْرُهَا الْكَلَامُ فِيهِ مُبَيِّنٌ . وَالْعَرْجُ : آفَةٌ تَعْرُضُ لِرِجْلٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مُؤْتَراً فَلَلَّرِجَلِينِ أُولَى أَنْ يُؤْتَرُ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : هُمْ أَهْلُ الزَّمَانَةِ

(١) الْبَيْتُ لِأَمْرِيِّ الْقَيْسِ •

(٢) راجع ج ٨ ص ٢٢٦ و ج ١٢ ص ٣١٢

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم . أى من شاء أن يسير منهم معكم إلى خير فليفعل .
 (وَمَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فيما أمره . (يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) فـ رـ نـ اـ فـ عـ
 وـ آـ بـ نـ عـ اـ مـ رـ « نـ دـ خـ لـ هـ » بـ النـ سـ وـ نـ عـ لـ لـ التـ عـ تـ زـ يـ . الـ باـ قـ وـ نـ بـ الـ يـ ، وـ اـ خـ تـ اـ رـهـ أـ بـ وـ عـ يـ دـ وـ أـ بـ وـ حـ اـ تـ
 لـ تـ قـ دـ اـمـ اـ سـ اـمـ اللهـ أـ لـ اـ . (وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبُ عَذَابًا أَلِيمًا) .

قوله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
 فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثْبَمْ فَتَحَّا قَرِيبًا ﴿١٨﴾
 وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) هذه بـيعة
 الرضوان ، وكانت بالحديبية ، وهذا خبر الحديبية على اختصار : وذلك أن النبي صلى الله عليه
 وسلم أقام مـنصرـهـ مـنـ غـزوـةـ بـنـيـ المـصـطـلـقـ فيـ شـوالـ ، وـنـرـجـ فـذـىـ الـقـعـدـةـ مـعـتـمـراـ ،
 واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبـطاـ عنهـ أـكـثـرـهـ ، وـنـرـجـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ
 بـنـ مـعـهـ مـنـ الـمـهـاجـرـ وـالـأـنـصـارـ وـمـنـ آـتـيـهـ مـنـ الـعـرـبـ ، وـجـمـيعـهـمـ نـحـوـ أـلـفـ وـأـرـبـعـانـةـ .
 وـقـيلـ : أـلـفـ وـنـحـمـائـةـ . وـقـيلـ غـيرـهـذاـ ، عـلـىـ ماـ يـأـتـيـ . وـسـاقـ مـعـهـ الـهـذـىـ ، فـأـحـرـمـ رـسـولـ
 اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـيـعـلـمـ النـاسـ أـنـهـ لـمـ يـخـرـجـ لـحـرـبـ ، فـلـمـ بـلـغـ نـرـوجـهـ قـرـيـشـاـ نـرـجـ جـمـعـهـمـ
 صـادـقـينـ لـرـسـولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـنـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ وـدـخـولـ مـكـةـ ، وـإـنـهـ إـنـ فـانـهـمـ
 قـاتـلـوـهـ دـوـنـ ذـلـكـ ، وـقـدـمـواـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ فـخـيلـ إـلـىـ « كـجـاعـ الغـيـمـ » فـوـرـدـ الخـبـرـ بـذـلـكـ
 عـلـىـ رـسـولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ وـهـوـ « عـسـفـانـ » وـكـانـ الـخـبـرـ لـهـ بـشـرـ بـنـ سـفـيـانـ الـكـعـبـيـ ،
 فـسـلـكـ طـرـيـقاـ يـخـرـجـ بـهـ فـيـ ظـهـورـهـ ، وـنـرـجـ إـلـىـ الـحـدـيـبـيـةـ مـنـ أـسـفـلـ مـكـةـ ، وـكـانـ دـلـيـلـهـ فـيـهـمـ
 رـجـلـ مـنـ أـسـلـمـ ، فـلـمـ بـلـغـ ذـلـكـ خـيـلـ قـرـيـشـ الـتـىـ مـعـ خـالـدـ ، جـرـتـ إـلـىـ قـرـيـشـ تـعـلـمـهـمـ بـذـلـكـ ،

(١) عـسـفـانـ (بـضمـ أـقـلـهـ وـسـكـونـ ثـانـيـهـ) : مـنـهـلـةـ مـنـ مـنـاهـلـ الـطـرـيـقـ بـيـنـ الـجـفـفـةـ وـمـكـةـ . وـقـيلـ : عـلـىـ مـرـحلـتـيـنـ مـنـ
 مـكـةـ عـلـىـ طـرـيـقـ الـمـدـيـنـةـ . (معجمـ الـبـلـدانـ) .

فَلَمَّا وَصَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحَدِيدَيْةِ بَرَكَ نَاقَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ
 النَّاسُ : خَلَّاتُ ! خَلَّاتُ ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ”مَا خَلَّاتُ وَمَا هُوَ لَهَا
 بِخُلُقٍ وَلَكُنْ حَبْسَهَا حَابِسَ الْفَيْلِ عَنْ مَكَّةَ . لَا تَدْعُونِي قَرِيشَ الْيَوْمَ إِلَى خُطْبَةِ يَسَّالُونِي فِيهَا
 صَلَةَ رَحْمٍ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَاهَا“ . ثُمَّ نَزَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُنَاكَ ؛ فَقَيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
 لَيْسَ بِهَذَا الْوَادِي مَاءٌ ! فَأَخْرَجَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ سَهْمًا مِنْ كَانَتْهُ فَأَعْطَاهُ رَجُلًا مِنْ
 أَصْحَابِهِ ، فَتَرَلَ فِي قَلِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْقُلُوبِ فَغُرِزَ فِي جَوْفِهِ بِخَاشِ بَالْمَاءِ الرَّوَاءِ حَتَّى كَفَى جَمِيعَ
 الْجَيْشِ . وَقَيلَ : إِنَّ الَّذِي نَزَلَ بِالسَّهْمِ فِي الْقَلِيبِ نَاجِيَةً بْنَ جُنْدُبَ بْنَ عَمِيرَ الْأَسْلَمِيِّ وَهُوَ سَائِقُ
 بُعْدَنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ . وَقَيلَ : نَزَلَ بِالسَّهْمِ فِي الْقَلِيبِ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبَ ، ثُمَّ جَرَتْ
 السَّفَرَاءُ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ كَفَارِ قَرِيشٍ ، وَطَالَ التَّرَاجِعُ وَالتَّنَازُعُ إِلَى أَنْ جَاءَهُ
 سَهْلِ بْنِ عُمَرَ الْعَامِرِيَّ ، فَقَاضَاهُ عَلَى أَنْ يَنْصُرِفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَامَهُ ذَلِكَ ، فَإِذَا كَانَ
 مِنْ قَابِلِ أَنْ يُعْتَمِرَ وَدَخَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ بِغَيْرِ سَلاحٍ ، حَاطَّا السَّيْفَ فِي قُرْبَهَا فَيَقِيمُ بِهَا
 ثَلَاثَةٌ وَيَخْرُجُ ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ صَلْحٌ عَشْرَةُ أَعْوَامٍ ، يَتَدَخَّلُ فِيهَا النَّاسُ وَيَأْمُنُ بَعْضَهُمْ
 بَعْضًا ، وَعَلَى أَنْ مَنْ جَاءَ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مُسْلِمًا مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ رُدَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،
 وَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْكُفَّارِ مُرْتَدًا لَمْ يُرْدُوهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ؛ فَعَظِمَ ذَلِكُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى
 كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِيهِ كَلَامٌ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمُ بِمَا عَلِمَ اللَّهُ مِنْ أَنَّهُ سِيَجْعَلُ
 لِلْمُسْلِمِينَ فَرْجًا ؛ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ . ”اصْبِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ هَذَا الصَّلْحَ سَبِيلًا إِلَى ظَهُورِ دِينِهِ“
 فَأَنْسَ النَّاسُ إِلَى قَوْلِهِ هَذَا بَعْدَ نَفَارِهِمْ ، وَأَبَى سَهْلِ بْنِ عُمَرَ أَنْ يَكْتُبَ فِي صَدْرِ صَحِيفَةِ
 الصَّلْحِ : مِنْ مُحَمَّدِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَالُوا لَهُ : لَوْ صِدَقْنَاكَ بِذَلِكَ مَا دَفَعْنَاكَ عَمَّا تَرِيدُ ! فَلَا بدَ أَنْ
 تَكْتُبَ : بِآسْمَكَ اللَّهُمَّ . فَقَالَ لَعَلَى وَكَانَ يَكْتُبُ صَحِيفَةَ الصَّلْحِ : ”أَمْحِ يَا عَلِيٌّ“ ، وَاَكْتَبَ
 بِآسْمَكَ اللَّهُمَّ“ فَأَبَى عَلَى أَنْ يَحْوِي بَيْدَهُ ”مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ“ . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : ”اعْرِضْهُ عَلَيْهِ“ فَأَشَارَ إِلَيْهِ فَمَحَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْدَهُ ، وَأَمْرَهُ أَنْ

(١) خَلَّاتُ النَّاقَةَ : حَرَنَتْ وَبَرَكَتْ مِنْ غَيْرِ عَلَةٍ . (٢) الرَّوَاءُ : الْكَثِيرُ .

يكتب «من محمد بن عبد الله» . وأتى أبو جندل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يرسُف في قيوده، فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبيه ، فعظم ذلك على المسلمين ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر أبا جندل «أن الله سيجعل له فرجاً ومحرجاً» . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولاً، فإنه خبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل مكة قتلواه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ، فرأى أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على **ألا يقتروا** . وهي بيعة الرضوان تحت الشجرة، التي أخبر الله تعالى أنه رضى عن المبايعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحتها . وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يدخلون النار . وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته على شمائله لعثمان ، فهو كمن شهدوا . وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال : أقول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية أبو سفيان الأسدى . وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال : كما يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ، فبایعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة ، وقال : بایعناه على **ألا نفتر** ولم نبایعه على الموت . وعنده أنه سمع جابر يسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كما أربع عشرة مائة ، فبایعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة ؟ فبایعناه ، غير جد بن قيس الأنصاري اختبا تحت بطنه بميره . وعن سالم بن أبي الجعْد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كما مائة ألف لكتفانا ، كما ألفا وخمسمائة . وفي رواية : كما نحمس عشرة مائة . وعن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلاثمائة ، وكانت **أسلم**^{مئون} المهاجرين . وعن يزيد بن أبي عبيد قال قلت لسلامة : على أى شيء بايتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؟ قال : على الموت . وعن البراء بن عازب قال : كتب على رضى الله عنه الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين يوم الحديبية ؛ فكتب : هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله [صلى الله عليه وسلم] فقالوا :

(1) السمرة : شجر الطلح .

لا تكتب رسول الله، فلو علم أنك رسول الله لم تقاتلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي^(١): «أَمْحَهُ». فقال: ما أنا بالذى أُمْحَاهُ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم بيده . وكان فيها اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثة، ولا يدخلها بسلاح الا جُنَاح السلاح . [قلت لأبي إسحاق: وما جُنَاح السلاح؟ قال:] القراب وما فيه . وعن أنس : أن قريشا صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم فيهم سهيل بن عمرو ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي^(٢): «اكتب باسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو : أما باسم الله ، فـا ندرى ما باسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن آكتب ما نعرف : باسمك اللهم . فقال : «اكتب من محمد رسول الله» قالوا: لو علمنا أنك رسوله لا تبعناك ! ولكن آكتب آسمك وأسم أبيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «اكتب من محمد بن عبد الله» فاشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم : أن من جاء منكم لم نرده عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله ، أنكتب هذا ! قال «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا وعرجا». وعن أبي وايل قال : قام سهل بن حُنِيف يوم صفين فقال يأيها الناس ، أتَهُمُوا أنفسكم ، لقد كاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ؛ وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين . بخاء عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال «بلى» قال . أليس قتلانا في الجنة وقتلهم في النار ؟ قال «بلى» قال ففي نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يُصْبِعَنِي الله أبداً» قال : فانطلق عمر، فلم يصبر متغفلاً فأتى أبو بكر فقال: يا أبو بكر، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال بلى ؛ قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلهم في النار ؟ قال بلى . قال : فَلَامَ نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : يا ابن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يُصْبِعَنِي الله أبداً . قال : فنزل القرآن على رسول الله صل

(١) أُمْحَاهُ : لغة في أسموه . (٢) زيادة عن مسلم . (٣) قوله : «أَمَا بِاسْمِ اللَّهِ ... »

أى فنحن ندرى به . وأما البسملة التي تذكرها بسامها فـا ندرى بها .

الله عليه وسلم بالفتح ؛ فأرسل إلى عمر فاقرأه إياه ؛ فقال : يا رسول الله ، أَوْ فَتَحْ هُوَ ؟
قال ”نعم“ . فطابت نفسه ورجع .

قوله تعالى : (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) من الصدق والوفاء ؛ قاله الفراء . وقال ابن جرير
وقتادة : من الرضا بأمر البيعة على ألا يفزوا . وقال مقاتل : من كراهة البيعة على أن يقاتلوا
معه على الموت . (فَأَنْزَلَ السُّكِينَةَ عَلَيْهِمْ) حتى بايعوا . وقيل : « فعلم ما في قلوبهم » من
الكافرة بصلة المشركين لـيـاـهـمـ وـتـحـلـفـ رـؤـيـاـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ عـنـهـمـ ؛ إذا رأى أنه يدخل
الحـكـمـةـ ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إـنـماـ ذـلـكـ رـؤـيـاـ مـنـامـ“ . وقال الصديق :
لم يكن فيها الدخول في هذا العام . والسكنينة : الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد .
وقيل الصبر . (وَأَنَّا بِهِمْ فَتَحَّا قَرِيبًا) قال قتادة وآبي ليلى : فتح خير . وقيل فتح مكة .
وقرئ « وـأـنـاهـمـ » (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا) يعني أموال خير ، وكانت خيبر ذات عقار
وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة . فـ« مـغـانـمـ » على هذا بدل من « فـتـحـاـ قـرـيبـاـ » والـأـوـاـوـ
مـقـحـمـةـ . وـقـيـلـ : (وـمـغـانـمـ) فـارـسـ والـرـومـ .

قوله تعالى : وَعَدَ كُلُّ أَللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُلُّ هَذِهِ
وَكَفَ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلَتَكُونَ أَيْةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِي كُلُّ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٤﴾

قوله تعالى : (وَعَدْ كُلُّ أَللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا) قال ابن عباس ومجاهد . إنها المغانم
التي تكون إلى يوم القيمة . وقال ابن زيد : هي مغانم خيبر . (فَعَجَلَ لَكُلُّ هَذِهِ) أي
خيبر ، قاله مجاهد . وقال ابن عباس : عجل لكم صلح الحديبية . (وَكَفَ أَيْدِيَ النَّاسِ
عَنْكُمْ) يعني أهل مكة ؛ كفهم عنكم بالصلح . وقال قتادة : كف أيدي اليهود عن المدينة
بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر . وهو اختيار الطبرى ؛ لأن كف
أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قوله « وـهـوـ الـذـىـ كـفـ أـيـدـيـهـمـ عـنـكـمـ» . وقال ابن

(٤) آية ٢٤ من هذه السورة .

عباس : في « كَفْ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ » يعني عُيينة بن حصن الفزاري وعوف بن مالك النضرى ومن كان معهما ، إذ جاءوا لينصروا أهل خير والنبي صلى الله عليه وسلم محاصر لهم ؛ فألق الله عن وجل في قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين . (ولِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) أي ولتكون هنّ عبادكم وسلامتكم آية للمؤمنين ، فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدكم ومغبيهم . وقيل : أي ول تكون كف أيديهم عنكم آية للمؤمنين . وقيل : أي ول تكون هذه التي عجلها لكم آية للمؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيرواها . والواو في « ول تكون » مقحمة عند الكوفيين . وقال البصريون : عاطفة على مضمير ، أي وكف أيدي الناس عنكم لتشكروه ول تكون آية للمؤمنين . (وَيَهْدِيکُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) أي يزيدكم هدى ، أو ينتهيكم على المداية .

قوله تعالى : وَأَخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : (وَأَخْرَى) « أخرى » معطوفة على « هذه » ، أي فجعل لكم هذه المفاجئ ومعانٍ أخرى . (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا) قال ابن عباس : هي الفتوح التي فتحت على المسلمين ؛ كأرض فارس والروم ، وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى . وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وابن زيد وابن إسحاق : هي خيبر ، وعدها الله نبيه قبل أن يفتحها ، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها . وعن الحسن أيضاً وقاده : هو فتح مكة . وقال عكرمة : حدين ، لأنه قال « لم تقدروا عليها » . وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوائط درك المطلوب في الحال كما كان في مكة ، قاله القشيري . وقال مجاهد : هي ما يكون إلى يوم القيمة . ومعنى « قد أحاط الله بها » أي أعدد لها لكم ؛ فهي كالشيء الذي قد أحاط به من جوانبه ، فهو محصور لا يفوت ، فاتم وإن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم . وقيل : « أحاط الله بها » علم أنها ستكون لكم ؛ كما قال « وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا»^(١) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) .

(١) آية ١٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَلَوْ قَاتَلُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَوْا أَلَدَبَرُهُمْ لَا يَجِدُونَ
وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٧﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ
اللَّهِ تَبَدِيلًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ قَاتَلُكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَوْا أَلَدَبَرَ) قال قتسادة : يعني كفار
قريش في الحديثة . وقيل : « ولو قاتلكم » غلطان وأسد والذين أرادوا نصرة أهل خير ،
ل كانت الدائرة عليهم . (لَمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ) ^(١)
يعني طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وانتصب « سُنَّةً » على المصدر .
وقيل : « سُنَّةَ اللَّهِ » أي كسنة الله . والسنة الطريقة والسير . قال :
فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها * فأول راض سُنَّةَ من يسيرها ^(٢)
والسنة أيضاً : ضرب من تمر بالمدينة . (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةَ اللَّهِ تَبَدِيلًا) .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ
يُبَطِّنُ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَمَّا تَعْمَلُونَ بِصِيرًا ﴿٢٩﴾
قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ يُبَطِّنُ مَكَّةَ) وهي
الحديثة . (مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) روى يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة
عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم من ^(٣)
جبل التنعيم متسلحين يريدون غارة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذناهم سلماً ^(٤)

(١) البيت للأبد بن عتبة المحتلي . (٢) التنعيم : موضع بمكة في الحلال ، وهو بين مكة وصرف .

(٣) الغرة (بالكسر) : الغلة ، أي يريدون أن يصادفوا منه صلاته عليه وسلم ومن أصحابه غلة من التأهب
لهم . (٤) رواية مسلم : « فأخذهم سلماً فاستحبواهم » . و قوله « سلماً » قال ابن الأثير : « يروى بكسر
السين وفتحها ، وهو لغتان في الصلح ، وهو المراد في الحديث على ما فسره الحميد في غربه . وقال الخطابي : إنه
الصلم ، ففتح السين والماء ، يريد الاستسلام والاذعان وهذا هو الأشبه بالقضية ؛ فأنهم لم يدخلوا عن صلح وإنما
أخذوا قهراً وأسلموا أنفسهم بغير ... » .

فاستحببناهم ، فأنزل الله تعالى « وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ يُعْنِي مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » . وقال عبد الله بن مغفل المزني : كما مع النبي صلى الله عليه وسلم بالحدبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن ، فيينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعوا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم ؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أماناً » . قالوا : اللهم لا ؛ نخلي سبيلهم . فأنزل الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ » الآية . وذكر ابن هشام عن وكيع : وكانت قريش قد جاءتهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بال المسلمين وانتهاز الفرصة في أطراقهم ؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى ، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم في الصلح ، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم الذين يسمون العتقاء ، ومنهم معاوية وأبوه . وقال مجاهد : أقبل النبي صلى الله عليه وسلم معتمراً ، إذ أخذ أصحابه ناساً من الحرم غافلين فأرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فذلك الإظهار يعطى مكة . وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له زين ، أطلع الثانية من الحديبية فرمى المشركين بهم فقتلوه ؛ فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً فأتوا باشني عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « هل لكم على ذمة » ؟ قالوا لا ؛ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبي زيد والنکلی : هم أهل الحديبية ، كف الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقد صدوا المسلمين ، وكف أيدي المسلمين عنهم . وقد تقدم أن خالد بن الوليد كان في خيل المشركين . قال القشيري : وهذه رواية ، وال الصحيح أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت . وقد قال سلمة بن الأكوع : كانوا في أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان ، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح ، قال : بفتحت لستة من المشركين أسوة بهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؛ فأتيت بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عمر قال في الطريق : يا رسول الله ، نأتي قوماً حرباً وليس معنا سلاح ولا كراع ؟ فبعث

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من الطريق فأنوه بكل سلاح وكراع كان فيها ، وأخير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عكرمة بن أبي جهل نخرج إليك في خمسة فارس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد : " هذا ابن عمك أتاك في خمسة " . فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله ؟ فيومئذ سمي بسيف الله ، نخرج ومعه خيل وهزم الكفار ودفعهم إلى حواط مكة . وهذه الرواية أصح ، وكان بينهم قتال بالحجارة ، وقيل بالنبل والظفر^(١) . وقيل : أراد بكف اليد أنه شرط في الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رد عليهم ؟ نخرج أقوام من مكة مسلمون وخارفو أن يردهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل ، ومنهم أبو بصير ، وجعلوا يغرون على الكفار ويأخذون غيرهم ، حتى جاء بكار قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : أضمنهم إليك حتى تأمن ؟ ففعل . وقيل : همت غطافان وأسد من المسلمين من يهود خير ؟ لأنهم كانوا حلفاءهم ، فنزعهم الله عن ذلك ؟ فهو كف اليد . (يَبْطِئُ مَكَّةً) فيه قوله : أخذهما - يريد به مكة . الثاني - الحديبية ، لأن بعضها مضيق إلى الحرم . قال الماوردي : وفي قوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرْنَا عَلَيْهِمْ » بفتح مكة . وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة ، وفيها دليل على أن مكة فتحت صاحبا ، لقوله عن وجع : « كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيْكُمْ عَنْهُمْ » .

قالت : الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة ، حسب ما قدمناه عن أهل التأویل من الصحابة والتابعین . وروى الترمذی قال : حدثنا عبد بن حمید قال حدثني سليمان بن حرب قال حدثنا حاد بن سلمة عن ثابت عن أنس : أن ثمانين هبطوا على رسول الله صلی الله علیه وسلم وأصحابه من جبل التعمیم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ، فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله صلی الله علیه وسلم ، فأنزل الله تعالى : « وهو الذي يقتلوا ، فأخذوا أخذًا فأعتقهم رسول الله صلی الله علیه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى : « كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيْكُمْ عَنْهُمْ » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ؟ وقد تقدم . وأما فتح مكة فالذى تدل عليه الأخبار أنها إنما فتحت عنوة ؛ وقد مضى القول في ذلك في « الج » وغيرها . (وَكَانَ اللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) .

(١) الظفر (بالضم) : طرف القوس .

(٢) راجع ج ١٢ ص ٣٣

قوله تعالى : هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوْكُرْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَالْهَذَى مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحْلَهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ
لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطْعُوْهُمْ فَتُصِيبَكُم مِنْهُمْ مَعْرَةٌ يَغْيِرُ عِلْمَ لِيُدْخِلَ اللَّهَ
فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْتَرِيَلُوا لَعَذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ^(١)

قوله تعالى : (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَذَى مَعْكُوفًا أَن
يَبْلُغَ مَحْلَهُ) . فيه ثلات مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعني قريشا ، منعوكم دخول المسجد
الحرام عام الحديبية حين أحرم النبي ﷺ الله عليه وسلم مع أصحابه بعمرمة ، ومنعوا الهذى
وحبسوك عن أن يبلغ محله . وهذا كانوا لا يعتقدونه ، ولكنه حلتكم الأنفة ودعتم حية
الباھلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينا ، فوبخهم الله على ذلك وتوعدهم عليه ، وأدخل
الأنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيانه ووعده .

الثانية — قوله تعالى : (وَالْهَذَى مَعْكُوفًا) أى محوسا . وقيل موقعا . وقال أبو عمرو
ابن العلاء : بجموعا . الجوهري : عكفة أى حبسه ووقفه ، يَعْكُفه و يَعْكُفه عَكْفًا ، ومنه قوله
تعالى : « والهذى معكوفا » ؟ يقال : ما عكفت عن كذا . ومنه الاعتكاف في المسجد
وهو الاحتباس . (أَن يَبْلُغَ مَحَلَهُ) أى منحره ؟ قاله الفراء . وقال الشافعى رضى الله عنه :
الحرام . وكذا قال أبو حنيفة رضى الله عنه : المحصر محل هذى الحرام . والمحل (بكسر الحاء) :
غاية الشيء . (وبالفتح) : هو الموضع الذى يحله الناس . وكان الهذى سبعين بذنة ، ولكن الله
بنصله جعل ذلك الموضع له مثلا . وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدم بيانه في « البقرة »
عند قوله تعالى « إِن أَحِصْرَتْمَ » والصحيح ما ذكرناه . وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر ^(٢)

(١) في الأصول : « وافقا » . (٢) راجع ج ٢ ص ٣٧١ طبعة ثانية .

ابن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . وعنده قال : اشتراكا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج والعمر كل سبعة في بدنـة . فقال رجل لخابر : أشتراك في البدنة ما يشتراك في الحـجـور ؟ قال : ما هي إلا من البدـنـ . وحضر جابر الحـديـبة قال : ونحرنا يومئذ سبعين بـدـنـة ، اشتراكا كل سبعة في بـدـنـة . وفي البخاري عن ابن عمر قال : نحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مـعـتمـرين ؛ فقال كـفـارـ قـرـيـشـ دونـ الـبـيـتـ ، فـنـحـرـ رسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ بـدـنـةـ وـحـلـقـ رـأـسـهـ . قـيلـ : إـنـ الـذـىـ حـلـقـ رـأـسـهـ يـوـمـئـذـ حـرـاشـ بـنـ أـمـيـةـ بـنـ أـبـىـ الـعـيـصـ الـخـزـاعـىـ ، وـأـمـرـ رسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ مـسـلـمـ أـنـ يـخـرـوـاـ وـيـخـلـوـاـ ؛ فـفـعـلـوـاـ بـعـدـ تـوـقـفـ كـانـ مـنـهـمـ أـغـضـبـ رسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ . فـقـالـتـ لـهـ أـمـ سـلـمـةـ : لـوـ نـحـرـتـ لـنـحـرـوـاـ ؛ فـنـحـرـ رسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ هـذـيـهـ وـنـحـرـوـاـ بـنـحـرـهـ ، وـحـلـقـ رسـوـلـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ رـأـسـهـ وـدـعـاـ لـأـجـلـقـيـنـ ثـلـاثـاـ وـلـقـصـرـيـنـ مـرـةـ . وـرـأـىـ كـعـبـ بـنـ عـمـرـةـ وـالـقـمـلـ يـسـقطـ عـلـىـ وـجـهـهـ ؛ فـقـالـ : "أـيـذـيـكـ هـوـأـمـكـ" ؟ قالـ نـعـمـ ؛ فـأـمـرـهـ أـنـ يـحـلـقـ وـهـوـ بـالـحـدـيـبـةـ . نـحـرـجـهـ بـالـبـخـارـيـ وـالـدـارـقـطـنـيـ . وـقـدـ مـضـىـ

(١) فـ «ـ الـبـقـرـةـ »ـ .

الثالثـةـ - قوله تعالى : (وـأـهـدـيـ) الـهـدـيـ وـالـهـدـيـ لـغـنـانـ . وـقـرـيـ «ـ حـتـىـ يـلـغـ الـهـدـيـ مـحـلـهـ»ـ
 بالـتـحـفـيفـ وـالتـشـدـيدـ ؛ الـواـحـدـةـ هـدـيـةـ . وـقـدـ مـضـىـ فيـ «ـ الـبـقـرـةـ »ـ أـيـضاـ . وـهـوـ مـعـطـوفـ عـلـيـ
 الـكـافـ وـالـمـيمـ مـنـ «ـ صـدـوـكـ»ـ . وـ (ـمـعـكـوـفـاـ)ـ حـالـ ، وـمـوـضـعـ «ـ أـنـ»ـ مـنـ قـوـلـهـ «ـ أـنـ يـلـغـ مـحـلـهـ»ـ
 نـصـبـ عـلـىـ تـقـدـيرـ الـحـلـ عـلـىـ «ـ صـدـوـكـ»ـ أـىـ صـدـوـكـ وـصـدـوـاـ الـهـدـيـ عـنـ أـنـ يـبـاغـ . وـيـحـوزـ أـنـ
 يـكـونـ مـفـعـولـاـ لـهـ ؛ كـأـنـهـ قـالـ : وـصـدـوـاـ الـهـدـيـ كـرـاهـيـةـ أـنـ يـلـغـ مـحـلـهـ . أـبـوـ عـلـىـ : لـاـ يـصـحـ حـلـهـ
 عـلـىـ الـعـكـفـ ؛ لـأـنـاـ لـأـنـعـلـمـ «ـ عـكـفـ»ـ جاءـ مـتـعـدـيـاـ ، وـمـعـنـ «ـ مـعـكـوـفـاـ»ـ فـ الـآـيـةـ يـحـوزـ أـنـ يـكـونـ
 مـحـوـلـاـ عـلـىـ الـمـعـنـىـ ؛ كـأـنـهـ لـمـ كـانـ حـبـسـاـ حـمـلـ الـمـعـنـىـ عـلـىـ ذـلـكـ ، كـمـ حـمـلـ الرـفـثـ عـلـىـ مـعـنـىـ الـإـفـضـاءـ
 فـعـدـيـ بـيـالـيـ ؛ فـإـنـ حـمـلـ عـلـىـ ذـلـكـ كـانـ مـوـضـعـهـ نـصـبـاـ عـلـىـ قـيـاسـ قـوـلـ سـيـبـوـيـهـ ، وـجـراـً عـلـىـ قـيـاسـ

(١) رـاجـعـ جـ ٢ـ صـ ٣٨٣ـ مـطـبـعـةـ نـانـيـةـ .

(٢) جـ ٢ـ صـ ٣٧٨ـ .

قول الخليل . أو يكون مفعولا له ؛ كأنه قال : محبوسا كراهة أن يبلغ محله . ويجوز تقدير الجرف «أن» لأن عن تقدمت ؛ فكأنه قال : وصدوك عن المسجد الحرام ، وصدوا المدى «عن» أن يبلغ محله . ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس : صررت برجل إن زيد وإن عمرو ؛ فأضمر بالحار تقدم ذكره .

قوله تعالى : ((ولَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْئُلُوهُمْ فَصَبَّيْكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ)) فيه ثلاثة مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ((ولَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ)) يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار ؛ كسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وأبي جندل بن سهيل ، وأشباههم . ((لم تعلموهم)) أي تعرفوهم . وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون . ((أن تطئلوهم)) بالقتل والإيقاع بهم ؛ يقال : وطئت القوم ؛ أي أوقعت بهم . و «أن» يجوز أن يكون رفعا على البدل من « رجال ، نساء » كأنه قال ولو لا وطئكم رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات . ويجوز أن يكون نصبا على البدل من الماء والميم في « تعلموهم » ؛ فيكون التقدير : لم تعلموا وظاهم ؛ وهو في الوجهين بدل الاشتغال . « ولم تعلموهم » نعت لـ « رجال » و « نساء » . وجواب « لو لا » مخدوف ؛ والتقدير : ولو أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأن الله لكم في دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ؛ ولكن صناً من كان فيها يكتم إيمانه خوفا . وقال الضحاك : لو لا من في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فهم أبناءهم .

الثانية — قوله تعالى : ((فَصَبَّيْكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ)) المعرة العيب ، وهي مفعمة من العُزُر وهو الحرب ؛ أي يقول المشركون : قد قتلوا أهل دينهم . وقيل : المعنى يصيّبكم من قتلهم ما يلزمكم من أجله كفارة قتل الخطأ ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها ولم يعلم بما يمانه الكفارية دون الدية في قوله : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرر رقبة مؤمنة » قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما . وقد مضى

فـ « النساء » القول فيه . وقال ابن زيد : « مَعْرَةٌ إِثْمٌ . وقال الجوهري وابن إسحاق :
غُرْم الْدِيَةِ . قُطْرُبُ : شَدَّةٌ . وقيل غَمٌ .

الثالثة — قوله تعالى : **(يُغَيِّرُ عِلْمَهُ)** تفضيل للصحابية وإخبار عن صفاتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدي ؛ حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحدا لكان عن غير قصد . وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام في قوله : **« لَا يَحْطِمُنَّكُمْ سَلِيمَانٌ وَجَنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »**^(٢)

قوله تعالى : **(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَلَوْ تَزَيَّلُوا)** فيه أربع مسائل :
الأولى — قوله تعالى : **(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)** اللام في « ليدخل » متعلقة بمحذوف ، أي لو قاتلتموهם لأدخلهم الله في رحمته . ويجوز أن تتعلق بالإيمان . ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين ؛ لأن الجميع يدخلون في الرحمة .
 وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا في رحمته ؛ أي جنته .

الثانية — قوله تعالى : **(لَوْ تَزَيَّلُوا)** أي تيزوا ؛ قاله الفتنى . وقيل : لو تفرقوا ؛
 قاله الكابي . وقيل : لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف ؛ قاله الضحاك . ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار . وقال علي رضى الله عنه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية **« لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا »** فقال : « هم المشركون من أجداد نبى الله ومن كان بعدهم وفي عصرهم كان في أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً » .

الثالثة — هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن ؛ إذ لا يمكن إذاية الكافر إلا بإذابة المؤمن . قال أبو زيد قات لابن القاسم : أرأيت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم ، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسرى في أيديهم ،

(١) راجع ح ٥ ص ٣٢٣ . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعت مالكا وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم أنزى في مراكبهم بالنار ومعهم الأسرى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكة: «لَوْ تَرَيْلُوا لَعَذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا». وكذلك لو تترس كافر ب المسلم لم يجز رمييه . وإن فعل ذلك فاعل فاتلف أحدا من المسلمين فعليه الدية والكافرة . فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفاره؛ وذلك أنهما إذا علموا فليس لهم أن يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عوائلهم . فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا . وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبق عليهم فيها تباعة . قال ابن العربي: «وقد قال جماعة إن معناه لو تريلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال . وهذا ضعيف؛ لأن من في الصلب أو في البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معزة . وهو سبحانه قد صرخ فقال: «ولولا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْوِهِمْ» وذلك لا ينطلق على من في بطن المرأة وصلب الرجال، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربعة، وأبي جندل بن سهيل . وكذلك قال مالك: وقد حاصرنا مدينة الروم خبس عنهم الماء ، فكانوا يتزلون الأسرى يستقون لهم الماء ، فلا يقدر أحد على رميهم بالنبل ، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا . وقد جوز أبو حنيفة وأصحابه والثوري التزم في حصول المشركين وإن كان منهم أسرى من المسلمين وأطفالهم . ولو تترس كافر بولد مسلم رمى المشرك ، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دية فيه ولا كفاره . وقال الثوري: فيه الكفاره ولا ديه . وقال الشافعى بقولنا . وهذا ظاهر؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سياجاً بروح المسلم؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضى الله عنه . والله أعلم » .

قلت: قد يجوز قتل الترس ، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله ، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كالية قطعية . فمعنى كونها ضرورية ، أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس . ومعنى أنها كالية ، أنها قاطعة لكل الأمة ، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين ؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها

قطعية، أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها ، لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً ، فإذا ما بأيدي العدو فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين . وإنما بأيدي المسلمين فيهمك العدو وينجو المسلمون أجمعون . ولا يأتي لعاقل أن يقول : لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجهه ، لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين ، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة ، نفرت منها نفس من لم يعن النظر فيها ؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم . والله أعلم .

الرابعة — قراءة العامة « لَوْ تَرِيَلُوا » إلا أبا حَيْوَةَ فإنه قرأ « تَرِيَلُوا » وهو مثل « تَرِيَلُوا » في المعنى . والترايل : التباین . و « تَرِيَلُوا » تفعلوا ، من زَلْتُ . وقيل : هي تَفْعِلُوا . « لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا » قيل : اللام جواب لكلامين ، أحدهما — « لولا رجال » والثاني — « لو تَرِيَلُوا » . وقيل جواب « لولا » مهدوف ، وقد تقدم . « لَوْ تَرِيَلُوا » ابتداء كلام .

قوله تعالى : إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةَ الْجَنَاحِيلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَزْمَهَمَ كَلِمَةَ الْتَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِيًّا (١)

العامل في « إذ » قوله تعالى : « لَعَذَّبْنَا » أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا . أو فعل مضمر تقديره واذكروا . (الْحَمِيمَةَ) ففيه الألفة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيمَةَ (بالتشديد) وَتَخَمِيمَةَ إذا أَنْفَتْ منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتأنس :

أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَعِزِيزٌ عَرْضُهُمْ * كَذِي الْأَنْفَفِ يَحْمِي أَنْفَهُ أَنْ يُكْشَفَ

أَيْ يَمْنَعْ . قال الزهرى : حَمِيتُمْ أَنفَتُمْ مِنْ الإِقْرَارِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرَّسُالَةِ

(١) الكشم : قطع الأنف باستعمال .

والاستفتح بسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة . وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ونحمد رسول الله : سهيل بن عمرو ؛ على ما تقدم . وقال ابن بحر : حيتهم عصيتم لآهتم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها . وقيل : « حمّة الباھلية » إنهم قالوا : قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا ؛ واللات والعزى لا يدخلها أبدا . (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سِكِينَتَهُ) أى الطمأنينة والوقار (عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) . وقيل : ثبتم على الرضا والتسليم ، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية (وَأَلْزَمْهُمْ كَلِمةَ التَّقْوَى) قيل لا إله إلا الله . روى مرفوعا من حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهو قول علي وابن عمر وابن عباس ، وعمرو بن ميمون ومجاهد وفتادة وعكرمة والضحاك ، وسلامة بن كهيل وعييد بن عمير وطلحة بن مصرف ، والربيع والسدي وابن زيد . وقاله عطاء الخراساني ، وزاد « محمد رسول الله » . وعن علي وابن عمر أيضا هي لا إله إلا الله والله أكبر . وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضا : هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر . وقال الزهرى . بسم الله الرحمن الرحيم . يعني أن المشركين لم يقروا بهذه الكلمة ؛ نخص الله بها المؤمنين . و « كلمة التقوى » هي التي يتقى بها من الشرك . وعن مجاهد أيضا أن « كلمة التقوى » الإخلاص . (وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا) أى أحق بها من كفار مكة ؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه . (وَكَانَ اللَّهُ يُكْلِلُ شَيْءَ عَلَيْهَا) .

قوله تعالى : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الْرَّئِيْسَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجَدَ
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِمَّا مُحْلِقِينَ رُمُوسَكُرْ وَمَقْصِرِينَ لَا تَخَافُونَ
فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا بَعْدَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَمَّلُ قَرِيبًا (٣٧)

قال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة ؛ فلما صالح قريشا بالحدبية أرتاب المنافقون حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

إنه يدخل مكة ؛ فأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » فاعلموا أنهم سيدخلون في غير ذلك العام ، وأن رؤياه صلى الله عليه وسلم حق . وقيل : إن أبا بكر هو الذي قال إن المنام لم يكن مؤقتا بوقت ، وأنه سيدخل . وروى أن الرؤيا كانت بالحدبية ، وأن رؤيا الأنبياء حق . والرؤيا أحد وجوه الوحي إلى الأنبياء . (لتدخلن) أي في العام القابل (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ) قال ابن كيسان : إنه حكاية ما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم في منامه ؛ خوطب في منامه بما جرت به العادة ، فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك وهذا استثنى ؛ تأدب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى : « وَلَا تَقُولُنَّ لِشَيْءٍ إِنَّ فَاعْلُمُ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . وقيل : خاطب الله العباد بما يحب أن يقولوه ؛ كما قال « وَلَا تَقُولُنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعْلُمُ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . وقيل : استثنى فيما يعلم ليسثلنى الخلق فيما لا يعلموه ؛ قاله ثعلب . وقيل : كان الله عالم أنه يحيط بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحدبية فوق الاستثناء لهذا المعنى ؛ قاله الحسين بن الفضل . وقيل : الاستثناء من « آمنين » ؛ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة . وقيل : معنى « إن شاء الله » إن أمركم الله بالدخول . وقيل : أى إن سهل الله . وقيل : « إن شاء الله » أي كما شاء الله . وقال أبو عبيدة : « إِنْ » بمعنى « إِذْ » ؛ أى إذ شاء الله ؛ كقوله تعالى « اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إذ كتم . وفيه بعده لأن « إِذْ » في الماضي من الفعل ، و « إِذَا » في المستقبل ؛ وهذا الدخول في المستقبل ، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلقه بشرط المشيئة ، وذلك عام الحديبية ؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا ؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتد عليهم وصالحهم ورجع ؛ ثم أذن الله في العام المقبل فأنزل الله « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ » . وإنما قيل له في المنام « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فكى في التنزيل ما قيل له في المنام ؛ فليس هنا شك كا زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك ، والله تعالى لا يشك ، و « لتدخلن » تحقيق فكيف يكون شك . فـ « إِنْ » بمعنى « إِذْ » . (آمنين) أي من العدو . (مُحْلِقِينَ رُؤُوسَكُمْ

(١) آية ٢٣ سورة الكهف .

(٢) آية ٢٧٨ سورة البقرة .

وَمُقْصِرِينَ) والتحليق والتقصير جيما للرجال؛ ولذلك غالب المذكر على المؤئن . والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير . وقد مضى القول في هذا في «البقرة» . وفي الصحيح أن معاوية أخذ من شعر النبي صلى الله عليه وسلم على المرأة بعشقها . وهذا كان في العُمرَة لاف الحج، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلق في حجته . ((لَا تَخَافُونَ)) حال من المخلفين والمقصرين ؟ والتقدير: غير خائفين . ((فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا)) أى علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنت . وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خير فافتتحها ، ورجع بأموال خير وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام ، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوة وعدة بأضعف ذلك . وقال الكلبي : أى علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنت . وقيل : علم أن بمكة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم . ((بَخَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَّا قَرِيبًا)) أى من دون رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فتح خير ؟ قاله ابن زيد والضحاك . وقيل فتح مكة . وقال مجاهد : هو صلح الحديبية ؛ وقاله أكثر المفسرين . قال الزهرى : ما فتح الله في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنما كان القتال حين تلاقى الناس ، فلما كانت المهدنة وضعـت الحرب أوـزارها وأمن الناس بغضـهم بعضا ؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة . فلم يُكَلِّمْ أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ؛ فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر . بذلك على ذلك أنهم كانوا سنة ست يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُلَّهُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٣٨)

قوله تعالى : ((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ)) يعني عدداً صلـى الله عليه وسلم ((بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كُلَّهُمْ)) أى يعلـيه على كل الأديان . فالـدين اسم بمعنى المصدر ،

(١) راجع ٢٤ ص ٣٨١ طبعة ثانية .

ويستوى لفظ الواحد والجمع فيه . وقيل : أى ليظهر رسوله على الدين كلها ؛ أى على الدين الذى هو شرعا بالجنة ثم باليد والسيف ؛ ونسخ ما عداه . (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) «شهيدا» نصب على التفسير ، والباء زائدة ؛ أى كفى الله شهيدا لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ وشهادته له تبين صحة نبوته بالمعجزات . وقيل : «شهيدا» على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أبوا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

قوله تعالى : **مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدَّ أَهْلَ الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَغَوَّنَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثْلُهُمْ فِي الْتَّوْرَةِ وَمَثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَعَهُ فَعَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَأَسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الْزَرَاعَ لِيَغِيظَ يَهُمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ٢٦

فيه نفس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (محمد رسول الله) «محمد» مبتدأ و «رسول» خبره . وقيل : «محمد» ابتداء و «رسول الله» نعته . (والذين معه) عطف على المبتدأ ، والخبر فيما بعده ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على «رسول الله» . وعلى الأول يوقف على «رسول الله» ؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه ؛ فيكون «محمد» ابتداء و «رسول الله» الخبر «والذين معه» ابتداء ثان . و «أشداء» «خبره» و «رحماء» خبر ثان . وكون الصفات في جملة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هو الأشبه . قال ابن عباس : أهل الحديث أشداء على الكفار ؛ أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل : المراد بـ «الذين معه» جميع المؤمنين . (رحماء بينهم) أى يرحم بعضهم ببعض . وقيل :

متعاطفون متواذون . وقرأ الحسن «أشداء على الكفار رحاء بينهم» بالنصب على الحال ؛ كأنه قال : والذين معه في حال شتتهم على الكفار وتراحهم بينهم . (تَرَاهُمْ رُكِعًا سُجُدًا) أخبار عن كثرة صلاتهم . (يَنْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) أي يطلبون الحسنة ورضا الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : (سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ) السيا العلامة؛ وفيها لفтан : المد والقصر ؛ أي لاحت علامات التمجد بالليل وأمارات السهر . وفي سنن ابن ماجه قال : حديثنا إسماعيل بن محمد الطاخى قال حديثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار“ . وقال ابن العربي : ودَسَّ قوم في حديث النبي صلى الله عليه وسلم على وجه الغلط ، وليس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه ذكر بحرف . وقد روى ابن وهب عن مالك «سياهم في وجوههم من أثر السجود» ذلك مما يتعلق بمجاهم من الأرض عند السجود ؛ وبه قال سعيد بن جبير . وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : صلى صحيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وُكِفَ المسجد وكان على عريش ؛ فآنصرف النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته وعلى جبهته وأربنته أثر الماء والطين . وقال الحسن : هو بياض يكون في الوجه يوم القيمة . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، ورواه العوقي عن ابن عباس ؛ قاله الزهرى . وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة ، وفيه : ”حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً من أراد الله أن يرحمه من يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود“ . وقال شهير بن حوشب : يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهم : السيء في الدنيا وهو السُّمْتُ الحسن . وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال

(١) أي قطر سقطه .

منصور : سألت مجاهدا عن قوله تعالى « *سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ* » أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال لا ؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكبة العنز وهو أقسى قلبا من الجحارة ! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع . وقال ابن حُرْيَج : هو الوقار والبهاء . وقال شِير بن عطية : هو صفرة الوجه من قيام الليل . قال الحسن : إذا رأيتم حسبتم مرضى وما هم بمرضى . وقال الضحاك : أما انه ليس بالذنب في وجوههم ولكنها الصفرة . وقال سفيان الثوري : يصلون بالليل فإذا أصبحوا رؤى ذلك في وجوههم ؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » . وقد مضى القول فيه آنفا . وقال عطاء الخراساني : دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس .

الثالثة – قوله تعالى : « *ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التُّورَاةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ* » قال الفزاء : فيه وجهان ، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلكم في التوراة وفي الإنجيل أيضا ، كمثلهم في القرآن ؛ فيكون الوقف على « الإنجيل » وإن شئت قلت : تمام الكلام ذلك مثلكم في التوراة ، ثم ابتدأ فقال ومثلهم في الإنجيل . وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل ؛ فيوقف على هذا على « التوراة » . وقال مجاهد : هو مثل واحد ؛ يعني أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل ؛ فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، ويوقف على « الإنجيل » ، ويتدنى (*كَوْرَعٌ أَخْرَجَ شَطَاطَهُ*) على معنى وهم كزرع . و « *شَطَاطَهُ* » يعني فراخه وأولاده ؛ قاله ابن زيد وغيره . وقال مقاتل : هو بنت واحد ؛ فإذا خرج ما بعده فقد شطاطه . قال الحوهرى : شطاط الزرع والنبات فراخه ، والجمع أشطاء . وقد أشطا الزرع خرج شطاطه . قال الأخفش في قوله « *أَخْرَجَ شَطَاطَهُ* » أى طرفه . وحكاه الشعبي عن الكسائي . وقال الفراء : أشطا الزرع فهو مشطط إذا خرج . قال الشاعر :

أخرج الشطاط على وجه الثرى * ومن الأشجار أفنان المثر

الزجاج : أخرج شطاطه أى نباته . وقيل : إن الشطاط شوك السنبل ، والعرب أيضا تسميه : السفأ ؛ وهو شوك البهمى ^(١) ؛ قاله قطرب . وقيل : إنه السنبل ؛ فيخرج من الحبة

(١) اليمى : بنت تجعد به الغنم وجدا شديدا ما دام أخضر .

عشر سنبلات وتسع وثمانين ؛ قاله القراء ، حكاه المساوردي . وقرأ ابن كثير وابن ذكوان « شَطَّاه » بفتح الطاء ؛ وأسكن الباقون . وقرأ أنس ونصر بن عاصم وآبن وثأب « شَطَّاه » مثل عصاهم . وقرأ الحجَّارِي وآبن أبي إسحاق « شَطَّاه » بغير همز ؛ وكلها لغات فيها .

وهذا مثُل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكترون ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره ؛ كالزرع ^{يَدُو} بعد البدُر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغاظ نباته وأفراخه . فكان هذا من أصم مثل وأقوى بيان . وقال قتادة : مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . (فَازَرَهُ) أي قواه وأعانه وشده ؛ أي قوى الشطءُ الزرع . وقيل بالعكس ؛ أي قوى الزرع الشطء . وقراءة العامة « آزره » بالمد . وقرأ ابن ذكوان وأبو حمزة وحميد بن قيس « فازره » مقصورة ؛ مثل فعله . والمعروف المد . قال امرؤ القيس :

^(١) بمحنة قد آزر الضال نبتها * مجر جوش غانمين وخيب

(فَآسْتَوْى عَلَى سُوقِه) على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساق له . والسوق : جمع الساق . (يُعِجِّبُ الزَّرَاعَ) أي يعجب هذا الزرع زراعه . وهو مثُل كَا بَيْتَنَا ؛ فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم ، والشطءُ أصحابه ؛ كانوا قليلاً فكثروا ، وضيقوا فقووا ؛ قاله الصحاح وكغيره . (لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ) اللام متعلقة بمحذوف ؛ أي فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغيط بهم الكفار .

الرابعة — قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ؛ وهم المؤمنون الذين أعملهم صالحة . (مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) أي نواباً لا ينقطع وهو الجنة . وليست « من » في قوله « منهم » بمعضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة

(١) الخيبة (بالنخفيف) : واحدة المخاني ، وهي معاطف الأودية . والضال (نخفيف اللام) : شجرة السدر .

مجنسة ؟ مثل قوله تعالى : « فَاجتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأُوْثَانِ » لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس ؛ أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أنجاس شتى ، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب ؛ فادخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « مِنْهُمْ » ؟ أى من هذا الجنس ، يعني جنس الصحابة . ويقال : أتفق نفقتك من الدرام ؟ أى اجعل نفقتك هذا الجنس . وقد يختص أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بوعد المغفرة تفضيلاً لهم ، وإن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة . وفي الآية جواب آخر : وهو أن « مِن » مؤكدة للكلام ؛ والمعنى وعدهم الله كلهم مغفرة وأجرًا عظيمًا . بفرى مجرى [قول] العربي : قطعت من الشوب قيضاً ، يريد قطعت الشوب كله قيضاً . و « مِن » لم يبعض شيئاً . وشاهد هذا من القرآن « وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ » معناه ننزل القرآن شفاء ، لأن كل حرف منه يشفى ، وليس الشفاء مختصاً به بعده دون بعض . على أن من اللغويين من يقول « مِن » مجنسة ؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن ، ومن جهة القرآن ، ومن ناحية القرآن . قال زهير :

(١٣)

* أَمِنْ أَمْ أُوفَ دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ *

أراد من ناحية أَمْ أُوفَ دِمْنَةً ، أَمْ من مازطاً دِمْنَةً . وقال الآخر :

(١٤)

أَخُو رَغَابَ يَعْطِيهَا وَيَسِّهَا * يَأْبَى الظَّلَامَةَ مِنْهُ التَّوْفُلُ الزَّفَرُ

ف « مِن » لم يبعض شيئاً ، إذ كان المقصود يأبى الظلمة لأنه توفل زفر . والتوفل : الكثير العطاء . والزفر : حامل الأنفال والمؤن عن الناس .

الخامسة — روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير : كما عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية « مَدْ

(١) آية ٣٠ سورة الحج . (٢) آية ٨٢ سورة الإسراء . (٣) الدِّمْنَةُ : آثار الناموس وما سودوا

بالرماد . لَمْ تَكَلِّمْ : لم تُبيِّنْ ؛ والعرب تقول لكل ما بين أمر وغیره : تَكَلِّمْ ؛ أَيْ مِيزْ ، فصار بمنزلة المتكلم .

(٤) البيت لأعشى باهلة .

رسُولُ اللَّهِ وَالذِّينَ مَعَهُ » حَتَّى يَلْعَجَ الزَّرَاعَ لِيغْيِظَ إِيمَانَ الْكُفَّارَ » . فَقَالَ مَالِكٌ : مَنْ أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ فِي قَلْبِهِ غَيْظًا عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَصَابَهُ هَذِهِ الْآيَةُ ؟ ذَكَرَهُ الْخَطَّيْبُ أَبُو بَكْرٍ

قَلْتُ : لَقَدْ أَحْسَنَ مَالِكٌ فِي مَقَالَتِهِ وَأَصَابَ فِي تَأْوِيلِهِ . فَنَقَصَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَوْ طَعَنَ عَلَيْهِ فِي رِوَايَتِهِ فَقَدْ رَدَ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَأَبْطَلَ شَرَائِعَ الْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالذِّينَ مَعَهُ أَشَدُؤُ عَلَى الْكُفَّارِ » الْآيَةُ . وَقَالَ : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ تَضَمَّنَتِ التَّشَاءُ عَلَيْهِمْ ، وَالشَّهادَةُ لَهُمْ بِالصَّدَقِ وَالْفَلَاحِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا آهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . وَقَالَ : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُتْرَجَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَعَوَّنُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَعْمَانًا — إِلَى قَوْلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » ، ثُمَّ قَالَ عَنْ مَنْ قَاتَلَ : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ — إِلَى قَوْلِهِ — فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . وَهَذَا كَلِمَةُ عَلِيهِ تَبَارِكَ وَتَعَالَى بِحَالِهِمْ وَمَآلِ أَمْرِهِمْ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرِنَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَمُونَهُمْ » وَقَالَ : « لَا تَسْبُوا أَصْحَابَيِ الْفَلَاحِ فَلَوْ أَنْ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أَحَدِ ذَهَبًا لَمْ يَدْرِكْ مُدَّ أَحَدَهُمْ وَلَا نِصْيَفَهُ » نَرَجَهُمَا الْبَخَارِيُّ . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : « فَلَوْ أَنْ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ لَمْ يَدْرِكْ مُدَّ أَحَدَهُمْ وَلَا نِصْيَفَهُ » . قَالَ أَبُو عَبِيدَ : مَعْنَاهُ لَمْ يَدْرِكْ مُدَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ وَلَا نَصَفَ الْمَدَ ؛ فَالنِّصَافَةُ هُوَ النِّصَافَةُ هُنَّا . وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِلْعُشْرِ عَشَيْرَ ، وَلِلْخُمْسِ خَمِيسَ ، وَلِلْتَّسْعِ تَسْعَ ، وَلِلثَّمَنِ ثَمَنَ ، وَلِلْسَّبْعِ سَبْعَ ، وَلِلسَّدِسِ سَدِيسَ ، وَلِلرَّبِيعِ رَبِيعَ . وَلَمْ تَقْلِ الْعَرَبُ لِلثَّلَاثَ ثَلَاثَ . وَفِي الْبَزَارِ عَنْ جَابِرِ مَرْفُوعًا صَحِيحًا : « إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابَيِ الْفَلَاحِ مِنْ الْعَالَمِينَ سَوْى النَّبِيِّنَ وَالْمَرْسَلِينَ وَاخْتَارَ لِمِنْ أَصْحَابَيِ الْفَلَاحِ أَرْبَعَةً — يَعْنِي أَبَا بَكْرًا وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا — بِخَلْعِهِمْ أَصْحَابَيِ الْفَلَاحِ » . وَقَالَ « فِي أَصْحَابِ الْفَلَاحِ كُلُّهُمْ خَيْرٌ » . وَرَوَى عَوَّامٌ بْنُ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ عَنْ وَجْهِ اخْتَارَنِي وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابَيِ الْفَلَاحِ بِخَلْعِهِمْ وَزَرَاءَ وَأَخْتَانًا وَأَصْهَارًا فَنَسَبَهُمْ فَعَلِيهِ لَعْنَةٌ

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب . (٢) آية ٨ سورة الحشر . (٣) آية ٩ سورة الحشر .

الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيمة صرفاً ولا عدلاً^(١) . والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ؛ فذار من الواقع في أحد منهم ، كما فعل من طعن في الدين فقال : إن المُعوذَين ليستا من القرآن ، وما صحَّ حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تشبيههما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها ، فروايته مطروحة . وهذا رد لما ذكرناه من الكتاب والسنة ، وإبطال لما نقلته لنا الصحابة من الملة . فإن عقبة بن عامر بن عيسى الْجُهْنِيُّ من روى لنا الشريعة في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما ، فهو من مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرا عظيمًا . فمن نسبة أو واحداً من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة ، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الحق واحد منهم تكذيباً فقد سُبَّ ، لأنَّه لا يعار ولا يعيب بعد الكفر بالله أعظم من الكذب ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبَّ أصحابه ؛ فالمكذب للأصغرهم — ولا صغير فيهم — داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألزمها كلَّ من سبَّ واحداً من أصحابه أو طعن عليه . وعن عمر بن حبيب قال : حضرت مجلس هارون الرشيد بفرت مسألة تنازعها الحضور وعلَّت أصواتهم ؛ فاحتاج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة واللحسام حتى قال قائلون منهم : لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنَّ أبا هريرة مُتهمٌ فيها يرويه ، وصرحوا بتكذيبه ، ورأيت الرشيد قد نجا نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيها يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره ؛ فنظر إلى الرشيد نظر مُغضب ، وقت من المجلس فانصرفت إلى منزله ، فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب ؛ فدخل فقال لي : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنيط وتکفن ! فقلت : اللهم إِنَّكَ تعلم أَنِّي دفعت عن صاحب نبيك ، وأجللت نبيك أَنْ يطعن على أصحابه ،

(١) الصرف : التوبة . وقيل التافلة . والعدل : الفدية . وقيل الفريضة .

فَسَلَّمَنِي مِنْهُ . فَأَدْخَلَتْ عَلَى الرَّشِيدِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ الْمُكَ�بِلِ (١) مِنْ ذَهَبٍ ، حَاسِرٌ عَنْ ذِرَاعِيهِ ،
بِيَدِهِ السِيفُ وَبَيْنِ يَدِيهِ النَّطْعُ (٢) ؛ فَلَمَّا بَصَرَ رَسُولَهُ قَالَ لِي : يَا عُمَرَ بْنَ حَبِيبٍ مَا تَلَقَّانِي [أَحَدٌ]
مِنَ الرَّدِّ وَالدَّفْعِ [لَقُولِي بِمَثْلِ] مَا تَلَقَّيْتِي بِهِ ؛ فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الَّذِي قَلَّتْهُ وَجَادَلَتْ
عَنْهُ فِيهِ ازْدَرَاءٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [وَعَلَى مَا جَاءَ بِهِ] ؛ إِذَا كَانَ أَحْبَابَهُ كَذَابِينَ
فَالشَّرِيعَةُ باطِلَةٌ ، وَالْفَرَائِضُ وَالْأَحْكَامُ فِي الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالطَّلاقِ وَالنِّكَاحِ وَالْحَدُودِ كُلُّهُ
مَرْدُودٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ ؛ فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ : أَحِبِّتِنِي يَا عُمَرَ بْنَ حَبِيبٍ أَحِبِّكَ اللَّهُ ! وَأَمْرَ
لِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَهمٍ .

قَالَتْ : فَالصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ عَدُولٌ ، أُولَئِكُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَصْفَيَاوْهُ ، وَخَيْرُهُمْ مِنْ خَلْقِهِ بَعْدَ أَنْبِيَاهُ
وَرَسُولِهِ . هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنْنَةِ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الجَمَاعَةُ مِنْ أُمَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَبَتْ
شِرْذِمَةٌ لَا مُبَالَاهُ لَهُمْ إِلَى أَنْ حَالَ الصَّحَابَةَ كَحَالِ غَيْرِهِمْ ؛ فَيُلِزمُ الْبَحْثُ عَنْ عَدَالِهِمْ . وَمِنْهُمْ
مِنْ فَرْقِ بَيْنِ حَالِهِمْ فِي بُدُّاَةِ الْأَمْرِ قَالَ : إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَدَالِلِ إِذَا ذَاكَ ؛ ثُمَّ تَغَيَّرَتْ
الْأَحْوَالُ فَظَهَرَتْ فِيهِمُ الْحَرْبُ وَسُقُوتُ الدَّمَاءِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الْبَحْثِ . وَهَذَا مَرْدُودٌ ؛ فَإِنَّ
خِيَارَ الصَّحَابَةِ وَفَضْلَاهُمْ كَعَلَى وَطَاحَةِ وَالْزَّيْرِ وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَزَكَاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ وَوَعَدُهُمُ الْجَنَّةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى « مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » . وَخَاصَّةً
الْعَشْرَةِ الْمُقْطُوعِ لَهُمْ بِالْحَنْذَةِ بِإِخْبَارِ الرَّسُولِ هُمُ الْقُدُّوْسُ مَعَ عَالَمِهِمْ بِكَثِيرٍ مِنَ الْفَتْنَ وَالْأُمُورِ
الْبَحَارِيَّةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ نَبَيِّنَمْ بِإِخْبَارِهِ لَهُمْ بِذَلِكَ . وَذَلِكَ غَيْرُ مُسْقَطٍ مِنْ مَرْتَبِهِمْ وَفَضْلِهِمْ ؛ إِذَا كَانَتْ
تَلْكُ الْأُمُورُ مُبَنِّيَّةً عَلَى الْاجْتِهَادِ ، وَكُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصْبِبٍ . وَسِيَاطِي الْكَلَامِ فِي تَلْكُ الْأُمُورِ فِي سُورَةِ
« الْجَرَاثِاتِ » مُبَيِّنَةً إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) النَّطْعُ (بِالْكَسْرِ) : بِسَاطٌ مِنَ الْأَدِيمِ .

(٢) زِيَادَةُ عَنْ كِتَابِ تَارِيخِ بَغْدَادِ فِي تَرْجِمَةِ عَرْبِ بْنِ حَبِيبٍ .

تفسير سورة الحجرات

مدنية بإجماع . وهي مئانى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَآتَقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ

فيه ثلاثة مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقْدِمُوا بَيْنَ يَدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) قال العلماء : كان في العرب جفاءً وسوءً أدب في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وتلقيب الناس . فالسورة في الأمر بـكارم الأخلاق ورمادة الآداب . وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرمي : « لا تقدموا » بفتح التاء والدال من التقدم . الباقيون « تقدموا » بضم التاء وكسر الدال من التقدم ، ومعناهما ظاهر . أى لا تقدموا قولا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سببه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا . ومن قدم قوله أو فعله على الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قدمه على الله تعالى ؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عن وجل .

الثانية — واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة :

الأول — ما ذكره الواحدى من حديث ابن جرير قال : حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر : أمر الأقرع بن حabis . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافك . وقال عمر : ما أردت خلافك . فتمادي حتى ارتفعت أصواتهما ؟

فنزل في ذلك : « يأيها الذين آمنوا لا تقدموها بين يدي الله ورسوله — إلى قوله — ولو
أنتم صبروا حتى تخرجوا إليهم ». رواه البخاري عن الحسن بن محمد بن الصباح ؛ ذكره
المهدوى أيضًا .

الثاني — ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذ
مضى إلى خير ؟ فأشار عليه عمر برجل آخر ؛ فنزل « يأيها الذين آمنوا لا تقدموها بين يدي
الله ورسوله ». ذكره المهدوى أيضًا .

الثالث — ما ذكره الماوردي عن الصحاح عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي
صلى الله عليه وسلم أنفذ أربعة وعشرين رجالاً من أصحابه إلى بني عامر فقتلواهم ؛ إلا ثلاثة
تأنروا عنهم فساموا وانكفتوا إلى المدينة ؛ فلقوها رجلين من بني سليم فسألوهما عن نسبهما
فقالاً : من بني عامر ، لأنهم أعن من بني سليم فقتلواهما ؛ بخاء نفر من بني سليم إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن بيننا وبينك عهداً ، وقد قتل هنا رجلان ، فوداهم النبي صلى
الله عليه وسلم بعائنة بغير ، وزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين . وقال قتادة : إن ناساً
 كانوا يقولون لو أُنزل في كذا ، أو أُنزل في كذا ؟ فنزلت هذه الآية . ابن عباس : هُنُّوا أن
يتكلموا بين يدي كلامه . مجاهد : لا تقتاتوا على الله ورسوله حتى يقضى الله على
لسان رسوله ؛ ذكره البخاري أيضًا . الحسن : نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمرهم أن يعيدوا الذبح . ابن جرير : لا تقدموها أعمال الطاعات
قبل وقها الذي أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قلت : هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضى أبو بكر بن العربي ، وسردها قبله
الماوردى . قال القاضى : وهى كلها صحيحة تدخل تحت العموم ؛ فالله أعلم ما كان
السبب المثير للآية منها ، ولعلها نزلت دون سبب ؛ والله أعلم . قال القاضى : إذا قلنا إنها
نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح ؛ لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها

(١) انكفاء القوم انكفاء : رجعوا وبددوا .

(٢) اففات الكلام : ابتدعه . وافتات عليه في الأمر : حكم عليه . وافتات برأيه : استبد به .

عليه كالصلوة والصوم والجُنُوْب، وذلك بين ^(١) . إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنى مفهوم، وهو سدّ خلة الفقير، ولأن النبي صلَّى الله عليه وسلم استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقها يوم الوجوب وهو يوم الفطر؛ فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام والاثنين.

فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها، وإن جاء رأس العام وقد تغير النصاب تبين أنها صدقة تطوع. وقال أئمَّةُ شافعٍ: لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلوة؛ وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب. ورأى سائر علمائنا أن التقديم يسير فيها جائز، لأنَّه معفو عنه في الشرع بخلاف الكثيرون. وما قاله أئمَّةُ شافعٍ، فإن مقارنة اليسير الكثير في أصول الشرعية صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثيرون. فاما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة. فاما تقديم كلِّ ما قاله أبو حنيفة والشافعي، وإنما جحفظ العبادة على ميقاتها كما قال أئمَّةُ شافعٍ.

الثالثة — قوله تعالى: ((لَا تُقدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ)) أصل في ترك التعرض لأقوال النبي صلَّى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبي صلَّى الله عليه وسلم في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس» ^(٢). فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنها: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ مِنَ الْبَكَاءِ؛ فَمَرَّ عَمَرٌ فليصل بالناس. فقال صلَّى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ لَأَنْتَ صَوَاحِبُ يُوسُفَ». مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس ^(٣). فمعنى قوله «صَوَاحِبُ يُوسُفَ» الفتنة بالرَّدِّ عن الجائز إلى غير الجائز.

(١) في الأصول: «وذلك أن العلماء...» والتصويب عن ابن العربي.

(٢) سريع البكاء والحزن. وقيل: هو الرقيق.

(٣) قال القسطلاني: «أى مثنى في إظهار خلاف ما في الباطن؛ فإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن الصديق لكونه لا يسمع المأمورين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو ألا يت sham الناس به. وهذا مثل زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة وغير ضمها أى سبب ينفرن إلى حسن يوسف ويعذرها في محنته؛ فغير بالجمع في قوله «إنك» والمراد عائشة فقط. وفي قوله «صَوَاحِبُ» والمراد زليخا كذلك.

وربما احتاج بعثات القياس بهذه الآية . وهو باطل منهم ؛ فإن ما قامت دلالته فليس في فعله تقديم بين يديه . وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع ؛ فليس إذا تقدم بين يديه . (وَاتَّقُوا اللَّهَ) يعني في التقدم المنهى عنه . ((إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) لقولكم ((عَلِيمٌ)) بفعلكم .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ
النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالنَّوْقَلِ بَخْرَ بَعْضَكُمْ لِيَعْضُّ إِنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)
روى البخاري والترمذى عن ابن أبي مليكة قال : حدثني عبد الله بن الزبير أن الأقرع بن حابس
قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمله على قومه ، فقال عمر :
لا تستعمله يا رسول الله ، فتكلما عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى ارتفعت أصواتهما ،
قال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلاف ، فقال عمر : ما أردت خلافك ، قال : فنزلت هذه الآية :
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ» قال : فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم
عند النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع كلامه حتى يستفهمه . قال : وما ذكر ابن الزبير جده
يعنى أبا بكر . قال : هذا حديث غريب حسن . وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلا ،
لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير .

قلت : هو البخاري ، قال : عن ابن أبي مليكة كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر ،
رفعوا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بنى تميم ، فأشار أحد هما
بالأقرع بن حابس أنى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، فقال نافع : لا أحفظ اسمه ،
قال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلاف ، فقال : ما أردت خلافك . فارتفعت أصواتهما

في ذلك ؛ فأنزل الله عنّي وجل «يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي» الآية .
 فقال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه .
 ولم يذكر ذلك عن أبيه^(١) ؛ يعني أبا بكر الصديق . وذكر المهدوى عن علي رضى الله عنه :
 نزل قوله «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي» فينا لما ارتفعت أصواتنا أنا وعمر
 وزيد بن حارثة ، نتنازع آبنة حزة لما جاء بها زيد من مكة ؛ فقضى بها رسول صلى الله
 عليه وسلم بعمر ، لأن خاتمها عنده . وقد تقدم هذا الحديث في «آل عمران» . وفي الصحيحين
 عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله ،
 أنا أعلم لك عِلْمَه^(٢) ؛ فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنْكَسًا رأسه ؛ فقال له: ما شأنك؟ فقال:
 شَرٌّ! كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم فقد حَبِطَ عمله وهو من أهل النار.
 فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا . فقال موسى: فرجع إلينه المرة
 الآخرة بشارة عظيمة ؛ فقال: «آذهب إلينه فقل له إنك لست من أهل النار ولكلك من
 أهل الجنة» . لفظ البخاري . ثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شناس الخزرجي يُعْنَى أبا محمد
 بأبيه محمد . وقيل: أبا عبد الرحمن . قُتِلَ له يوم الحزرة ثلاثة من الولد: محمد ، ويحيى ،
 وبعد الله . وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك ، كان يقال له خطيب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، كما يقال لحسان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما قدم وفديتم على رسول الله
 صلى الله عليه وسلم وطلبو المفارحة قام خطيبهم فافتخر ، ثم قام ثابت بن قيس خطيب خطبة
 بلغة جَزْلة فغلبهم ، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد :

(١) قوله «عن أبيه» يريد جده لأمه أسماء .

(٢) راجع ج ٤ ص ٨٨ .

(٣) هذا النفلات من الحاضر إلى الغائب ؛ والأصل: كنت أرفع صوتي .

(٤) هو ابن أنس ؛ أحد رجال سند الحديث .

(٥) الحزرة: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة ، تعرف بحرة واقم ، وبها كانت الواقعة في سنة ثلاث وستين من الهجرة أيام زيد بن معاوية حين أتى المدينة عسكراً من أهل الشام الذين ندبهم لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين ، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المرى .

أَتَيْنَاكُمْ كَيْمًا يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنَا * إِذَا خَالَفُوكُمْ عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
وَإِنَّا رَهُوسَ النَّاسِ مِنْ كُلِّ مَعْتَشِيرٍ * وَإِنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْجَازِ كَدَارِمٍ
وَإِنَّ لَنَا الْمِرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ * تَكُونُ بِحَدِّ أَوْ بِأَرْضِ التَّهَامِ

فقام حسان فقال :

بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ نَفَرْتُكُمْ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَبِّلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخِرُونَ وَأَتُمْ * لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظِلْرٍ وَخَادِمٍ

فِي أَبِيَاتٍ هُمْ .

فقالوا : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ، فارتفع أصواتهم فأنزل الله تعالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - ولا تجهروا له بالقول » . وقال عطاء الخراساني : حدثني آبنة ثابت بن قيس قالت : لما نزلت « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا ترْفَعُوا أَصواتكُمْ فوْقَ صوتِ النَّبِيِّ » الآية ، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه ، ففقد النبي - صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يسأله ما خبره ؛ فقال : أنا رجل شديد الصوت ؛ أخاف أن يكون حيط عمل . فقال عليه السلام : « لَسْتَ مِنْهُمْ بِلِ تَعِيشُ بِخَيْرٍ وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ » . قال : ثم أنزل الله « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ نَفُورٍ » فأغلق بابه وطريق يمكى ؛ فقد النبي - صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فأخبره ؛ فقال : يا رسول الله ، إنّي أحب الجمال وأحب أن أسود قومي . فقال : « لَسْتَ مِنْهُمْ بِلِ تَعِيشُ حَمِيدًا وَتُقْتَلُ شَمِيدًا وَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ » . قالت : فلما كان يوم اليمامة نخرج مع خالد بن الوليد إلى مسيمة فلما التقوا انكشفوا ، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبتنا وقاتلا حتى قُتلا ؛ وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ؛ فتربه رجل من

(١) في سيرة ابن هشام : « ... أو بارض الأعاجم » والمرباع : ما يأخذه الرئيس وهو ربع النسبة .

(٢) هبّلتم : فقدتم . والخول : حشم الرجل وأتباعه .

(٣) آية ١٨ سورة لقمان .

ال المسلمين فأخذها؛ فبينا رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له : أوصيك بوصية ، فإذاك أن تقول هذا حلم فضيبيه ، إنما قُتلت أمس مرّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعى ومتنزه في أقصى الناس ، وعند خياله فرس يَسْتَأْنَ (١) في طوله ، وقد كفأ على الدرع بُرْمَةً ، وفوق البرمة رَحْلٌ ؛ فَاتَ خالدا فِرْهُ أن يبعث إلى درعى فأخذها ، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم – يعني أبا بكر – فقل له : إن على من الدين كما وكذا ، وفلان من رقيق عتيق وفلان ، فأتى الرجل خالدا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فاتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته . قال : ولا نعلم أحداً أجيزة وصيته بعد موته غير ثابت ، رحمة الله ذكره أبو عمر في الاستيعاب .

الثانية – قوله تعالى : **(لَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْفَوْلِ)** أى لا تخاطبواه : يا مهد ، يا مهد . ولكن : يا نبى الله ، يا رسول الله ، توقيراً له . وقيل : كان المناقون يعرفون أصواتهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ليقتدى بهم ضعفة المسلمين فهى المسلمين عن ذلك . وقيل : « لا تجهروا له » أى لا تجهروا عليه ، كما يقال : سقط لِفِيهِ ، أى على فيه . **(بَكَهُرُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ)** الكاف التشبيه في محل النصب ، أى لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم البعض . وفي هذا دليل [على] أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لايسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والخفافنة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، أعني الجهر المنعوت بمحاثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها واحتياط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها . **(أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْ تَلْمَعُ لَا تَشْعُرُونَ)** أى من أجل أن تحبط ، أى تبطل ، هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : أى لئلا تحبط أعمالكم .

الثالثة – معنى الآية **الأُمُرُ بِتَعْظِيمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَوْقِيرِهِ ، وَخَفْضِ الصَّوْتِ بِحُضْرَتِهِ وَعِنْدِ مُخَاطَبَتِهِ** ؛ أى إذا نطق ونظم فعليكم لا تبلغوا بأصواتكم وراء الخد

(١) استن الفرس : قص وعدها إقبالاً وإداراً . والطبل والطبل (بالكسر) : الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس ، ليدور فيه ويرعن ولا يذهب لوجهه .

الذى يلـغـه بصوـتهـ ، وـأـنـ تـفـضـلـهـ مـنـهـ بـجـيـثـ يـكـونـ كـلـامـهـ غالـبـاـ لـكـلـامـكـ ، وجـهـرـهـ باـهـرـاـ لـجـهـرـكـ ؛
حتـىـ تـكـونـ مـنـيـتـهـ عـلـيـكـ لـأـنـجـةـ ، وـسـابـقـتـهـ وـاضـخـةـ ، وـأـمـيـازـهـ عنـ جـمـهـورـكـ كـشـيـةـ الـأـبـاقـ . لاـ أـنـ
تـفـمـرـواـ صـوـتـهـ بـلـغـطـكـ ، وـنـبـهـرـوـاـ مـنـطـقـهـ بـصـخـبـكـ . وـفـيـ قـرـاءـةـ اـبـنـ مـسـعـودـ «ـلـأـتـرـفـعـوـ بـأـصـوـاتـكـ»ـ .
وـقـدـ كـرـهـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ رـفـعـ الصـوـتـ عـنـ قـبـرـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ . وـكـرـهـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ رـفـعـ الصـوـتـ
فـيـ مـجـالـسـ الـعـلـمـاءـ تـشـرـيـفـاـ لـهـ ؛ إـذـ هـمـ وـرـثـةـ الـأـنـبـيـاءـ .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربي : حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتاً كرمته حياً ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثلُ وكلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه ، وجب على كل حاضر لا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ؛ كما كان يلزم ذلك في مجلسه عند تلقظه به . وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى : «إِذَا قِرَئَ الْقُرْآنُ فَاسْتِمْعُوا لَهُ وَانْصِتُوا»^(١) . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحي ، قوله من الحكمة مثل ما للقرآن ؛ إلا معانى مستثنية ، بيانها في كتب الفقه .

الخامسة — وليس الغرض بـرـفعـ الصـوـتـ ولاـ الجـهـرـ ماـ يـقـصـدـ بـهـ الـاسـتـخـفـافـ
والـاسـتـهـانـةـ ؛ لأنـ ذـلـكـ كـفـرـ وـالـمـخـاطـبـونـ مـؤـمـنـونـ . وإنـماـ الغـرـضـ صـوـتـ هوـ فـيـ نـفـسـهـ
وـالـمـسـمـوـعـ مـنـ حـرـسـهـ غـيرـ مـنـاسـبـ لـمـاـ يـهـابـ بـهـ الـعـظـاءـ وـيـوـقـرـ الـكـبـراءـ ، فـيـتـكـلـفـ الغـضـ منـهـ
وـرـدـهـ إـلـىـ حدـ يـمـيلـ بـهـ إـلـىـ مـاـ يـسـتـيـنـ فـيـهـ الـمـأـمـورـ بـهـ مـنـ التـعـزـيرـ وـالتـوـقـيرـ . وـلـمـ يـتـنـاـوـلـ النـبـىـ
أـيـضاـ رـفـعـ الصـوـتـ الذـىـ يـتـأـذـىـ بـهـ رـسـولـ اللهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ؛ وـهـوـ مـاـ كـانـ مـنـهـ فـيـ حـربـ
أـوـ مـجـادـلـةـ مـعـاـنـدـ أوـ إـرـهـابـ عـدـوـ أـوـ مـاـ أـشـبـهـ ذـلـكـ ؛ فـيـ الـحـدـيـثـ أـنـهـ قـالـ عـلـيـهـ السـلـامـ لـلـعـبـاسـ
آبـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ لـمـاـ اـنـهـزـمـ النـاسـ يـوـمـ حـنـينـ : «ـاصـرـخـ بـالـنـاسـ»ـ وـكـانـ العـبـاسـ أـجـهـرـ النـاسـ
صـوـتـاـ ؛ يـرـوـىـ أـنـ غـارـةـ أـتـهـمـ يـوـمـاـ فـصـاحـ العـبـاسـ : ياـ صـبـاحـاـ ! فـأـسـقطـتـ الـحـوـاـمـلـ لـشـدةـ
صـوـتـهـ ، وـفـيـ يـقـولـ نـابـةـ بـنـيـ جـعـدةـ :

(١) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .

(٢) الـجـرـمـ (ـبـفـنـحـ الـجـمـ وـكـرـهـاـ) : الصـوـتـ .

زَجْرُ أَبِي عُرْوَةِ السَّبَاعِ إِذَا * أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَ بِالْغَنْمِ
رَعَمَتِ الرَّوَاةُ أَنَّهُ كَانَ يَزْجُرُ السَّبَاعَ عَنِ الْغَنْمِ فَيَقْتَلُ مَرَادَةَ السَّبَاعِ فِي جَوْفِهِ .

السادسة — قال الزجاج : (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) التقدير لأن تحبط ، أى فتحبطة
أعمالكم ، فاللام المقدرة لام الصيورة ، وليس قوله : «أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْمَ لا تَشْعُرُونَ»
بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان
على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بجماع ،
كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصْوَاتِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ آمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (١)

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصْوَاتِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ) أى يغضبون أصواتهم
عنه إذا تكلموا إجلالا له ، أو كلاموا غيره بين يديه إجلالا له . قال أبو هريرة : لما نزلت
«لا ترفعوا أصواتكم» قال أبو بكر رضي الله عنه : والله لا أرفع صوتي إلا كأني السرار .
وذكر سنيد قال : حدثنا عبد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال : لما نزلت
«لا تقدموا بين يدي الله ورسوله» قال أبو بكر : والذى بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا
إلا كأني السرار . وقال عبد الله بن الزبير : لما نزلت «لا ترفعوا أصواتكم» ما حدث عمر
عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يغضبه ؛ فنزلت
«إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُبُونَ أَصْوَاتِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَىٰ» .
قال الفراء : أى أخاصها للتقوى . وقال الأخفش : أى اختصها للتقوى . وقال ابن عباس :
«آمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلتَّقْوَىٰ» طهورهم من كل قبيح ، وجعل في قلوبهم الخوف من الله

(١) أبو عرفة : كنية العباس .

(٢) السرار (بالكسر) : المسارة ؛ أى كصاحب المسار ، أو كمثل المساردة لخوض صوته ؛ والكاف صفة
ل مصدر مخدوف .

والنقوى . وقال عمر رضى الله عنه : أذهب عن قلوبهم الشهوات . والامتحان افتعال من سُخنتُ الأديمَ مَحْنَا حتى أوسعته . فمعنى امتحن الله قلوبهم للنقوى وسُعها وشرحها للنقوى . وعلى الأقوال المتقدمة : امتحن قلوبهم فأخلصها ؟ كقولك : امتحنت الفضة أى اختبرتها حتى خلصت . ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام ، وهو الإخلاص . وقال أبو همرو : كل شيء جَهَدْتَه فقد سُخنتَه . وأنشد :

(١) أَتَتْ رِزَابَا بَادِيَا كَلَالَهَا * قَدْ سُخنَتْ وَاضْطَرَبَتْ آطَالَهَا
 (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَاجْرٌ عَظِيمٌ) .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُنَادِونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجَّرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

قال مجاهد وغيره : نزلت في أمراب بنى تميم ؛ قدم الوفد منهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا المسجد ونادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجرته أن اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين وذمنا شين . وكانوا سبعين رجلا قدموها الفداء ذراري لهم ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم نام للقاتل . وروى أن الذي نادى الأقرع بن حابس ، وأنه القائل : إن مدح زين وإن ذم شين ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ذاك الله » . ذكره الترمذى عن البراء بن عازب أيضا . وروى زيد بن أرقم فقال : أتى أناس النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبياً فتحن أسعد الناس بآتباعه ، وإن يكن مِلِكًا نَعِيشُ في جنابه . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم بفعلوا ينادونه وهو في حجرته : يا محمد ، يا محمد ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . قيل : إنهم كانوا من بنى تميم . قال مقاتل : كانوا تسعة عشر : قيس بن عاصم ، والزبير قان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وسويد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس ، والعقّاع بن معبد ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة بن حصن

(١) الرِّزَابَا : جمع رذبة ، وهي الناقة المهزولة من السير . والكَلَالَهَا : الإباء . والآطَالَ : جمع إطل ؛

وهو الخاصرة . (٢) في الطبرى : « في جنابه » .

وهو الأحق المطاع ، وكان من الجنarين يحر عشراً آلف قناة ، أى يتبعه . وكان اسمه حذيفة وسمى عينته لـ^(١) شتر كان في عينيه . ذكر عبد الرزاق في عينته هذا أنه الذى نزل فيه « ولَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا » . وقد مضى في آخر « الأعراف » من قوله لعمر رضي الله عنه ما فيه كفاية ؛ ذكره البخاري . وروى أنهم وفدوا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم راقد ؛ بفعلوا ينادونه : يا مهد يا مهد ، آتخرج إلينا ؛ فاستيقظ وخرج ، ونزلت . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « هم جفاة بني تميم لو لا أنهم من أشد الناس قاتلا للاعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم » . والجُحُّرات جمع جُحْرة ؛ كالجُحُّرات جمع غُرفة ، والظُّلُمات جمع ظُلمة . وقيل : الجُحُّرات جمع الجُحُّر ، والجُحُّر جمع جُحْرة ؛ فهو جمع الجُحُّرات . وفيه لقنان : ضم الجيم وفتحها . قال :

وَلَا رَأَوْنَا بَادِيًّا رُكَّبَاتِنَا * عَلَى مُوْطَنٍ لَا نَخَاطِ الْجِدَّ بِالْمَنَزِلِ

والجُحُّرة : الرقة من الأرض المحجورة بجأط يحيط عليها . وحظيرة الإبل تسمى الجُحُّرة ، وهي فعلة بمعنى مفعولة . وقرأ أبو جعفر بن القعّاع « الجُحُّرات » بفتح الجيم استئنالا للضمتين . وقرئ « الجُحُّرات » بسكون الجيم تحفيقا . وأصل الكلمة المنع . وكل ما منعت أن يصل إليه فقد حُجِّرت عليه . ثم يحتمل أن يكون المندى بعضا من الجملة فلهذا قال : « أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالب عليهم الجهل .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنْهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾

أى لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم . وكان صلى الله عليه وسلم لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يستغل فيها بهمات نفسه ؛ فكان إزعاجه في تلك الحالة

(١) الشتر (فتحتين) : انقلاب في جفن العين . (٢) آية ٢٨ سورة الكهف .

(٣) راجع ج ٧ ص ٣٤٧ . (٤) وفيه لغة ثالثة : سكون الجيم .

من سوء الأدب . وقيل : كانوا جاءوا شفعاء في أسرى بني عنبر فأعشق رسول الله صلى الله عليه وسلم نصفهم ، وفادي على النصف . ولو صبروا لأعشق جميعهم بغير فداء . (والله غفور رحيم) .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ يُنَبِّئُ فَتَبَيَّنُوا أَنَّ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَنَّمِ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرِينَ (٦٧)

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ يُنَبِّئُ) قيل : إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي مُعْيَط . وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة مُصدقاً إلى بني المصطلق ؛ فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم — في رواية : لِإِحْنَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ — ؛ فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام . فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالداً بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يتعجل ؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً ؛ فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالداً أنهم متذمرون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ؛ فلما أصبحوا أناهم خالد ورأى صحة ما ذكروه ؛ فعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت هذه الآية ؛ فكان يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " التائب من الله والعجلة من الشيطان " . في رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بني المصطلق بعد إسلامهم ؛ فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ؛ فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن القوم قد همروا بقتله ، ومنعوا صدقائهم . ففهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم ؛ فبينا هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، سمعنا برسولك تخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة ، فاستمر راجعاً ، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا نخرجنا لقتاله ، والله ما نخرجنا لذلك ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وسمى الوليد فاسقاً أى كاذباً . قال

ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله : الفاسق الكذاب . وقال أبو الحسن الوراق : هو المعلن بالذنب . وقال ابن طاهر : الذى لا يسمى من الله . وقرأ حمزة والكسائى «فتبتوا» من التثبت . الباقيون «فتبتوا» من التبيين ((أَنْ تُصِيبُوا)) أى لشأ تصيبوا ؟ فـ «أن» في محل نصب بإسقاط المضاف . ((قَوْمًا يَجْهَلُهُ)) أى بخطا . ((فَتَصِيبُهُوا عَلَى مَا فَعَلُمُوا نَادِيْمِ)) على العجلة وترك الثاني .

الثانية — في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ، لأن إما أمر فيها بالثبت عند نقل خبر الفاسق . ومن ثبت فسه بطل قوله في الأخبار إجماعاً ، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها . وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والبخود ، وإثبات حق مقصود على الغير ؛ مثل أن يقول : هذا عبدى ؛ فإنه يقبل قوله . وإذا قال : قد أنفذ فلان هـذا لك هدية ؛ فإنه يقبل ذلك . وكذلك يقبل في مثله خبر الكافر . وكذلك إذا أقرَّ غيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعاً . وأما في الإنماء على غيره فقال الشافعى وغيره : لا يكون ولـيًّا في النكاح . وقال أبو حنيفة وما لك : يكون ولـيًّا ؛ لأنه يـلي ما لها فيـلي بـضعـها . كالعدل ، وهو وإن كان فاسقاً في دينه إلا أنـ غيرـته موـفرـة وبـها يـمحـىـ الحـرـيمـ ، وقد يـدلـ المـالـ وـيـصـونـ الـحرـمـ ؛ وإذا ولـيـ المـالـ فالـنكـاحـ أولـيـ .

الثالثة — قال ابن العربي : ومن العجب أن يجوز الشافعى ونظراوه إمامـةـ الفاسـقـ . ومن لا يؤتمن على حبة مـالـ [كيف] يـصحـ أنـ يؤـتـمـنـ علىـ قـنـطـارـ دـيـنـ . وهذا إما كان أصلـهـ أنـ الـوـلـاـةـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـصـلـوـنـ بـالـنـاسـ لـمـاـ فـسـدـتـ أـدـيـانـهـمـ وـلـمـ يـمـكـنـ تـرـكـ الصـلـاـةـ وـرـاءـهـمـ ،ـ ولاـ اـسـتـطـيـعـتـ إـذـ الـتـهـمـ صـلـىـ مـعـهـمـ وـرـاءـهـمـ ؛ـ كـاـقـالـ عـمـانـ:ـ الصـلـاـةـ أـحـسـنـ مـاـ يـفـعـلـ النـاسـ ؛ـ فإذاـ أـحـسـنـواـ فـأـحـسـنـ ،ـ وـإـذـ أـسـاءـواـ فـأـجـتـذـبـ إـسـاءـهـمـ .ـ ثـمـ كـانـ مـنـ النـاسـ مـنـ إـذـ صـلـىـ مـعـهـمـ تـقـيـةـ أـعـادـواـ الصـلـاـةـ لـهـ ،ـ وـمـنـهـمـ مـنـ كـانـ يـجـعـلـهـاـ صـلـاـتـهـ .ـ وـبـوجـوبـ إـلـيـاعـادـةـ أـقـولـ ؛ـ

(١) في بعض النسخ : «أبو الحسين» .

(٢) زيادة عن ابن العربي .

فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرّاً في نفسه ،
ولا يؤثر ذلك عند غيره .

الرابعة — وأما أحكامه إن كان **واليا** فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه ، ولا
ينقض حكمه الذي أمضاه بحال ؛ ولا تنتفوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر]^(١) أو قول
يحيى ؛ فإن الكلام كثير والحق ظاهر .

الخامسة — لا خلاف في أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره في قول يبلغه أو شيء
يوصله ، أو إذن يعلمه ؛ إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلغ ؛ فإن تعاقب به حق لغيرهما لم
يقبل قوله . وهذا جائز للضرورة الداعية إليه ؛ فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعانى
إلا العدول لم يحصل منها شيء لعدمهم في ذلك . والله أعلم .

السادسة — وفي الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى
تثبت الجرحة ؛ لأن الله تعالى أمر بالثبت قبل القبول ، ولا معنى للثبت بعد إنفاذ الحكم ؛
فإن حكم الحكمُ قبل الثبات فقد أصاب الحكم على بجهالة .

السابعة — فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملا بجهالة ؛ كالقضاء
بالشاهدين العدلين ، وقبول قول العالم المجهود . وإنما العمل بالجهالة قبول قول من
لايحصل غلبة الظن بقوله . ذكر هذه المسألة **الغشيري** ، والذى قبلها **المهدوى** .

قوله تعالى : وَآعْلَمُوا أَنَّ فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُوكُمْ فِي كَثِيرٍ
مِنَ الْأَمْرِ لَعِنْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّ إِلَيْكُمْ أَلْيَمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ أَوْلَئِكَ هُمُ الْأَرْشَدُونَ
فَضَلَّا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

(٢) في ابن العربي : « منهم » .

(١) زيادة عن ابن العربي .

قوله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيهِمْ رَسُولَ اللَّهِ » فلا تكذبوا ، فإن الله يعلم أبناءكم فتفتضرون . « لَوْ يُطِيعُوكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَلِمْتُمْ » أى لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقة وإثم ، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ ، ولعنت من أراد إيقاع الملائكة بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم . ومعنى طاعة الرسول لهم : الاتّهار بما يأمر به فيما يبلغونه عن الناس والسماع منهم . والعنت الإمام ، يقال : عنت الرجل . والعنت أيضاً الفجور والزنى ، كما في سورة « النساء » . والعنت أيضاً الواقع في أمر شاق ، وقد مضى في آخر « براءة » القول في « عَنْتُمْ » بأكثر من هذا . « وَلَيْكَنَ اللَّهُ حَبَّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ » هذا خطاب للؤميين المخلصين الذين لا يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم ولا يخربون بالباطل ، أى جعل الإيمان أحباب الأديان إليكم . « وَزَيَّنَهُ » بتوفيقه . « فِي قُلُوبِكُمْ » أى حسه إليكم حتى اخترقته . وفي هذا رد على القدرية والإمامية وغيرهم ، حسب ما تقدم في غير موضع . فهو سبحانه المنفرد بخلق ذات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف أسلفهم وألوانهم ، لاشريك له . « وَكَهَ إِلَيْكُمُ الْكُفَّارُ وَالْفُسُوقُ وَالْعَصَيَانُ » قال ابن عباس : يريده به الكذب خاصة . وقاله ابن زيد . وقيل : كل ما خرج عن الطاعة ، مشتق من فَسَقَتِ الْطَّبَّةِ خرجت من قشرها . والفالرة من جُحُورها . وقد مضى في « البقرة » القول فيه مستوفٍ . والعصيان جمع المعاصي . ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال (أولئك) يعني هم الذين وفقهم الله خبب إليهم الإيمان وكه إليهم الكفر أى قبحه عندهم (هم الرَاشِدُونَ) كقوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاءٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُضِعُفُونَ » . قال

التابعـة :

يَا دَارَ مَيْسَةَ بِالْعَلَيَاءِ فَالسَّنَدَ أَفْوَتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمْدَ
وَالرَّشَدُ الْاسْتِقَامَةَ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ مَعَ تَصْلِبٍ فِيهِ ؛ مِنَ الرَّشَادَةِ وَهِيَ الصِّدْرَةُ .

(١) راجع ج ٥ ص ١٣٧ (٢) راجع ج ٨ ص ٣٠٢

(٣) آية ٣٩ سورة الروم (٤) راجع ج ١ ص ٢٤٥

قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة . وأنشد :

وَغَيْرُ مُقَلَّدٍ وَمُوْشَمَاتٍ صَلَبِينَ الضَّوْءَ مِنْ صُمَّ الرِّشَادِ^(١)

(فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) أى فعل الله ذلك بكم فضلاً، أى الفضل والنعمة، فهو مفعول له . ((وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِكْمٌ)) «علم» بما يصلحكم «حكيم» في تدبيركم .

قوله تعالى : وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْبَاحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأَخْرَى فَقَتَلُوا الَّتِي تَبَغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَيْهِ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَآتَتْ فَأَصْبَلُوهُ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

آلْمُقْسِطِينَ

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ((وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلُوا فَأَصْبَلُوهُ بَيْنَهُمَا)) روى المعتمر بن سليمان عن أنس بن مالك قال قالت : يا نبى الله، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فركب حمارا وأنطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض سبخة ؛ فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم قال : إليك عنى ! فوالله لقد أذانى تن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحرار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحًا منك . فغضب عبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منها أصحابه ؛ فكان بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال ؛ فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية . وقال مجاهد : نزلت في الأوس والخزرج . قال مجاهد : تقاتل حيّان من الأنصار بالعصى والنعال فنزلت الآية . ومثله عن سعيد ابن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال

(١) في شرح شواهد الكشاف للرحمون الأستاذ أبي عبيان : «الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يرق فيها غير وتد الماء، المقلا بالحبل وغير الأنفاق المغير لونها بالنهار . والوشم والتوشم تغير اللون، أى التي احترقت بضوئها أى حرها . و «من صم الرشاد» بيان لها . والضم : جمع صماء ، أى صلبة . وقيل : يصف مطابا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام ، وأنها غيرها أثر السير ، قوية بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب » .

بالسعف والنعال ونحوه ؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم . وقال قادة : نزلت في رجلين من
 الأنصار كانت بينهما مدارأة في حق بينهما ، فقال أحدهما : لآخذن حق عنوة ؛ لكثرته
 عشيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فابى أن يتبعه ؛ فلم
 يزل الأمر بينهما حتى تواقعوا وتناول بعضهم بعضًا بالأيدي والنعال والسيوف ؛ فنزلت هذه
 الآية . وقال الكلبي : نزلت في حرب سمير وحاطب ، وكان سمير قتل حاطبا ، فاقتتل الأوس
 والخزرج حتى أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فنزلت . وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم
 والمؤمنين أن يصلحوا بينهما . وقال السعدي : كانت امرأة من الأنصار يقال لها «أم زيد»
 تحت رجل من غير الأنصار ؛ فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها خبسبها زوجها
 وجعلها في علية لا يدخل عليها أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، بفاء قومها
 فأذلوها لينطلقوا بها ، نخرج الرجل فاستغاث أهله نخرج بنو عميه ليحولوا بين المرأة وأهلهما ؛
 فتدافعوا وتجالدوا بالنعال ؛ فنزلت الآية . والطائفة تتناول الرجل الواحد والجنس والاثنين ؛
 فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . وفي قراءة عبد الله
 «حتى يفيشو إلى أمر الله فإن فاءوا نفذوا بينهم بالقسط» . وقرأ ابن أبي عبلة «افتلتا»
 على لفظ الطائفتين . وقد مضى في آخر «براءة» القول فيه . وقال ابن عباس في قوله
 عن وجل «وليس لهم عذابهما طائفتان من المؤمنين» قال : الواحد فوقه ؛ والطائفة من
 الشيء القطعة منه . (فاصلحوها بينهما) بالدعاء إلى كتاب الله لها أو عليهم . (فإن بعثت
 إحداهم على الآخر) تعدت ولم تنجي إلى حكم الله وكابه . والمعنى : التطاول والفساد .
 (فقاتلوا التي تبغى حتى تفique إلى أمر الله) أي ترجع إلى كتابه . (فإن فاءت) رجعت
 (فاصلحوها بينهما بالعدل) أي أحملوهما على الإنفاق . (وأقسطوا) إليها الناس فلا تقتلوا .
 بقى : أقسطوا أي أعدوا . (إن الله يحب المُقْسِطِينَ) أي العادلين المحقين .

(١) تدارأ القوم : تدافعوا في المخصوصة ونحوها واختلفوا . (٢) راجع خبر جريهما في كتاب الكامل

لابن الأثير ج ١ ص ٤٩٤ طبع أوربا . (٣) تجالدوا : تضاربوا .

(٤) راجع ج ٨ ص ٢٩٤ (٥) آية ٢ سورة النور .

الثانية — قال العلماء : لاتخلو الفتتان من المسلمين في اقتتالها ، إما أن يقتلا على سبيل البغي منهما جيئاً أولاً . فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يعيش بينهما بما يصلح ذات البين وينشر المكافأة والمواعدة . فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحوا وأقامنا على البغي صير إلى مقاتلتهما . وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى ؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب ؛ فإن فعلت أصلح بينها وبين البغي عليها بالقسط والعدل . فإن التحريم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهم وكلاهما عند أنفسهما محققة ؛ فالواجب إزالة الشبهة بالجنة البتة والبراهين القاطعة على مرشد الحق . فإن ركبنا متن الحاج وللم عملا على شاكلة ما هدانا إليه ونصحنا به من أتباع الحق بعد وضوحيه لها فقد لحقنا بالفتنتين الباغيتين . والله أعلم .

الثالثة — في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيرها على الإمام أو على أحد من المسلمين . وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين ؛ واحتج بقوله عليه السلام : «قتال المؤمن كفر» . ولو كان قتال المؤمن الباقي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر ؛ تعالى الله عن ذلك ! وقد قاتل الصديق رضى الله عنه من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر لا يُتبع مولًّا ، ولا يجهز على جريمة ، ولم تحمل أموالهم ، بخلاف الواجب في الكفار . وقال الطبرى : لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين المرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا يُبطل باطل ، ولوَجَدَ أهل النفاق والفحوج سبيلاً إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبى نسائهم وسفك دمائهم ؛ لأن يتحزبوا عليهم ، ويكشف المسلمون أيديهم عنهم ؛ وذلك مخالف لقوله عليه السلام : «خذدوا على أيدي سفهائكم» .

الرابعة — قال القاضى أبو بكر بن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عقول الصحابة ، وإليها بـأ الأعيان من أهل الملة ، وإليها عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : «^(١) تقتل عماراً فئة الباغية» . وقوله عليه السلام في شأن

(١) هو عمار بن ياسر ، (راجع خبره في كتب الصحابة) .

الخوارج : "يخرجون على خير فرقه أو على حين فرقه" . والرواية الأولى أصح ، لقوله عليه السلام : "قتلهم أولى الطائفتين إلى الحق" . وكان الذى قتلهم على بن أبي طالب ومن كان معه . فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن علياً رضى الله عنه كان إماماً ، وأن كل من نخرج عليه بايع وأن قتاله واجب حتى ينفع إلى الحق وينقاد إلى الصلح . لأن عثمان رضى الله عنه قُتل والصحابة براء من دمه ، لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال : لا أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمنه بالقتل ، فصبر على البلاء ، واستسلم لمحنة وفدي بنفسه الأمة . ثم لم يمكن ترك الناس سدى ؟ فعرضت على باقى الصحابة الذين ذكرهم [عمر] في الشورى ، وتدافعواها ؛ وكان على كترم الله وجهه أحق بها وأهلها ؛ فقبلها حرفة على الأمة أن تسفك دمائها بالتهاج وبالباطل ، أو يتحقق أمرها إلى ما لا يحصل . فربما تغير الدين وانقض عمود الإسلام . فلما بُويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التكهن من قتلة عثمان وأخذ القواد منهم ؛ فقال لهم على رضى الله عنه : ادخلوا في البيعة وأطلبو الحق تصلوا إليه . فقالوا : لاتستحق بيعة وقتل عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً . فكان على في ذلك أسد رأيا وأصوب قيلاً ، لأن على لو تعاطى القواد منهم لعصبت لهم قبائل وصارت حرباً ثالثة ، فانتظر بهم أن يستونق الأمر وتنعقد البيعة ، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم ، فيجري القضاء بالحق .

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة . وكذلك جرى لطحة والزير ، فإنهما ما خلعا علينا من ولایة ولا اعتراض عليه في ديانة ، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى .

قلت : فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم . وقال جلة من أهل العلم : إن الواقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل بخاتمة ، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به ، لأن الأمر كان قد انظم بينهم

(١) زيادة عن ابن العربي . (٢) حرفة والخطبة : الاحتياط . (٣) في ابن العربي : «الأمن» .

وتم الصلح والتفرق على الرضا . خاف قَتْلَةُ عَمَانَ رضي الله عنه من التكفين منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ؛ ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدئوا بالحرب سحرة في العسكنرين ، وتحتفل السهام بينهم ، ويصبح الفريق الذي في عسكر على^(١) غدر طلاحة والزبير ؛ والفريق الذي في عسكر طلاحة والزبير : غدر على . فتم لهم ذلك على ما دبروه ، ونشبت الحرب ؛ فكان كل فريق دافعاً لذاته عنده نفسه ، ومانعاً من الإشارة بدمه . وهذا صواب من الفريقين وطاعة الله تعالى ؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل . وهذا هو الصحيح المشهور . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» أمر بالقتال . وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقيين ؛ ولذلك تختلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات ؛ كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم . وصوب ذلك على ابن أبي طالب لهم ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه . ويروى أن معاوية رضي الله عنه لما أفضى إليه الأمر ، عاتب سعداً على ما فعل ، وقال له : لم تكن من أصلح بين المثنين حين اقتتلا ، ولا من قاتل الفئة الباغية . فقال له سعد : ندمت على ترك قتال الفئة الباغية . فتبين أنه ليس على الكل درك فيها فعل ، وإنما كان تصرف بحكم الاجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : «فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوهَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» ومن العدل في صلحهم ألا يطالعوا بما جرى بينهم من دِم ولا مال ؛ فإنه تلف على تأويل . وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي . وهذا أصل في المصالحة . وقد قال لسان الآمة : إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعرُّفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل ؛ إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله .

(١) الإشارة : الأهلak . يقال : أشاط فالآن دم فالآن إذا عرضه للهلاك .

(٢) الدرك (فتح الرأء وسكنها) : التوبة . (٣) استشرى الرجل في الأمر : يخ . والأمور : ثناقت وعظمت .

السابعة — إذا نرجت على الإمام العدل خارجة باغية ولا حجة لها ، فما لهم الإمام بالمسلمين كافة أو بن فيه كفاية ، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة ، فإن آباؤا من الرجوع والصلح قوتلوا . ولا يقتل أسييرهم ولا يتبع مذيرهم ولا يدفع على جريمهم ، ولا تُسبّ ذراريهم ولا أموالهم . وإذا قتل العادل الباغي أو الباغي العادل وهو وليه لم يتورثا . ولا يرث قاتل عمدا على حال . وقيل : إن العادل يرث الباغي ؛ قياساً على القصاص .

الثامنة — وما استملكه البُغَاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخذوا به . وقال أبو حنيفة : يضمون . وللشافعى قولان . وجده قول أبي حنيفة أنه إن للاف بعْدوان فيلزم الضمان . والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة رضى الله عنهم في حربهم لم يتبعوا مذيرا ولا ذفروا على جريح ولا قتلوا أسيرا ولا ضئلا نفسا ولا مالا ؛ وهم القدوة . وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيما يبغى من هذه الأمة"؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : "لا يجهز على جريحها ولا يقتل أسييرها ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيها" . فاما ما كان قائماً بعینه . هذا كله فيما يخرج بتآويل يسّوغ له . وذكر الزمخشري في تفسيره : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا متنعة لها ضمنت بعد الفيضة ماجنت ، وإن كانت كثيرة ذات متنعة وشوكه لم تضمن ؛ إلا عند محمد بن الحسن رحمة الله فإنه كان يُفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأما قبل التجمع والتجمد أو حين تتفرق عند وضع الحرب أو زارها ، فما جنته ضمنته عند الجميع . فحمل الإصلاح بالعدل في قوله «فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل . وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد . والذى ذكروا أن الفرض إمامته الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنایات ، ليس بمحسن الطلاق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط . قال الزمخشري : فإن قلت : لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول ؟ قلت : لأن المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبي شبهة ، وأيتها كانت

(١) تذفيف الجريح : الإبهاز عليه وتحري قله .

فالذى يحب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدھماء بإرادة الحق والمواعظ الشافية ونفي الشبهة ؛ إلا إذا أصرّتا فيئذ تحب المقاتلة ؛ وأما الضمان فلا يتجه . وليس كذلك إذا بنت إحداهم ، فإن الضمان متوجه على الوجهين المذكورين .

الثانية — ولو تغلبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكوا فيهم بالأحكام ، لم تُعنَ عليهم الصدقات ولا الحدود ، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنة أو الإجماع ، كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة ؛ قاله مُطرف وابن الماجشون . وقال ابن القاسم : لا تجوز بحال . وروى عن أصيبيح أنه جائز . وروى عنه أيضاً أنه لا يجوز كقول ابن القاسم . وبه قال أبو حنيفة ؛ لأنَّه عمل بغير حقٍّ من لا تجوز توليته . فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة . والعمدة لنا ما قدمناه من أن الصحابة رضي الله عنهم ، لما انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح ، لم يعرضوا لأحد منهم في حكم . قال ابن العربي : الذي عندى أن ذلك لا يصلح ، لأن الفتنة لما انجلت كان الإمام هو الباغي ، ولم يكن هناك من يعترضه . والله أعلم .

العاشرة — لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عن وجىء ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكتف مما شجّر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ؛ حرمة الصحابة ولهم النبي "صلى الله عليه وسلم عن سبّهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي "صلى الله عليه وسلم أنْ طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض ؛ فلو كان ما نخرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً . وكذلك لو كان ما نخرج إليه خطأ في التأويل وتقسيماً في الواجب عليه ؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة ، فوجب حمل أمرهم على ما بناه . وما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار على "بأن قاتل الزبير في النار . وقوله : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : "بَشَّرَ قاتلَ أَبْنَ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ" . وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير

غير عاصيٍن ولا آئمٍ بالقتال ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي - صلى الله عليه وسلم في طلحة : " شهيد " . ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار . وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل . بل صواب أراهم الله الاجتِهاد . وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطال فضائلهم وجهادهم ، وعظيم غناهم في الدين ، رضى الله عنهم . وقد سُئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيها بينهم فقال « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْتَأْنُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وسئل بعضهم عنها أيضاً فقال : تلك دماء قد ظهر الله منها يدي ؟ فـلا أخِضُبُ بها لسانِي . يعني في التحرز من الواقع في خطأ ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه . قال ابن فورك : ومن أصحابنا من قال إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف ؟ ثم إنه لم يخرجوا بذلك عن حد الولاية والنبوة ؛ فـكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة . وقال الحاسبي : فاما الدماء فقد أشكل علينا القول فيها باختلافهم . وقد سُئل الحسن البصري عن قتالهم فقال : قتال شمره أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغينا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فـاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا . قال الحاسبي : فـنحن نقول كما قال الحسن ؟ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عن وجٍل ؛ إذ كانوا غير متهمين في الدين ، ونسأل الله التوفيق .

قوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَجُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخْوَيْهِمْ وَآتَقُوا

الله لعلكم ترحمون

فيه ثلاثة مسائل :

الأولى – قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَجُوا) أي في الدين والحرمة لا في النسب ؛ ولهذا قيل : أخوة الدين أثبتت من أخوة النسب ؛ فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ،

وأخوة الدين لا تقطع بمخالفة النسب . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”لا تحسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تخسسو^(١) ولا تناجشو وكونوا عباد الله إخواناً“ . وفي رواية : ”لا تحسدوا ولا تناجشو ولا تبغضوا ولا تداروا ولا يَبْغِي بعضكم على بعض وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يُحقره . التقوى ها هنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب آمرئ من الشر أن يُحقر أخاه المسلم . كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه“ لفظ مسلم . وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : ”ال المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في البيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغفر له غرفة ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها“ . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ”احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل“ .

الثانية – قوله تعالى : (فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ) أي بين كل مسلمين تخاصما . وقيل : بين الأوس والخزرج ؛ على ما تقدم . وقال أبو علي : أراد بالأخرين الطائفتين ؛ لأن لفظ الثنية يرد والمراد به الكثرة ؛ كقوله تعالى : « بَلْ يَدَاهُ مُبْسُوطَتَانِ » . وقال أبو عبيدة : أي أصلحوا بين كل أخرين ؛ فهو آت على الجميع . وقرأ ابن سيرين ونصر بن عاصم وأبو العالية والحدري ويعقوب « بين إخوتك » بالباء على الجمع . وقرأ الحسن « إخوانكم » . الباقيون « أخويكم » بالياء على الثنية .

الثالثة – في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان . لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باعثين . قال الحارث الأعور : سئل على بن أبي طالب رضى الله عنه وهو القادة عن قتال أهل البغي من أهل الجبل وصفين : أمشركون هم ؟

(١) التحسس (بالحاء) : الاستماع لحديث القوم . والتناجش : أن تزيد في ثمن سلعة ولا رغبة لك في شرائها .

وقيل : هو تحريض الغير على الشراء . (٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

قال : لا ، من الشرك فروا . فقيل : أمنافقون؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالمهم؟ قال : إخواننا بفوا علينا .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخِرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَنْهِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَازِبُوا بِالْأَلْقَابِ بِنَسَاءِ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ أَلْإِيمَنِ وَمَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخِرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُنَّ) فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخِرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) قيل عند الله . وقيل « خيرا منهم » أي معتقدا وأسلم باطنا . والسخرية الاستهزاء . سخرت منه أستخر سخرا (بالتحريك) ومسخرًا وسخرا (بالضم) . وحكى أبو زيد سخرت به ، وهو أردا اللغتين . وقال الأخفش : سخرت منه وسخرت به ، وضحك منه وضحك به ، وهزئت منه وهزئت به ؛ كل يقال . والاسم السخرية والسخرى ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » وقد تقدم . وفلان سخرة ؛ يتسرى في العمل . يقال : خادم سخرة . ورجل سخرة أيضا يسخر منه . وسخرة (بفتح الخاء) يسخر من الناس .

الثانية — واختلف في سبب نزولها ، فقال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شمام كان في أذنه وقر ، فإذا سبقوه إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول ؛ فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أصحابه مجالسهم منه ؛

(١) آية ٣٢ سورة الزمر . رابع ص ٨٣ من هذا الجزء . وج ١٢ ص ١٥٤ وج ١٥ ص ٢٢٥

فَرَبَضَ كُلُّ رَجُلٍ مِّنْهُمْ بِمَحْلِسِهِ، وَعَصَمُوا فِيهِ فَلَا يَكُادُ يُوْسِعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ حَتَّى يَظْلِمَ الرَّجُلَ^(١)
لَا يَجِدُ بِمَحْلِسِهِ فِيظْلِمَ قَائِمًا؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ ثَابَتْ مِنَ الصَّلَاةِ تَخْطِي رِقَابَ النَّاسِ وَيَقُولُ :
تَمْسَحُوا تَمْسَحُوا، فَفَسَحُوا لَهُ حَتَّى اتَّهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُ رَجُلٌ
فَقَالَ لَهُ : تَفَسَّحْ . فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : قَدْ وَجَدْتَ بِمَحْلِسِهِ فَاجْلِسْ ! بِخَلْسِ ثَابَتْ مِنْ خَلْقِهِ مُغْضَبًا ،
ثُمَّ قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا فَلَانٌ ؛ فَقَالَ ثَابَتْ : ابْنُ فَلَانَةَ ! يَعْبُرُهُ بَهَا ؛ يَعْنِي أَمَّا لَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،
فَاسْتَحْيِي الرَّجُلَ ، فَزَلَّتْ . وَقَالَ الْفَسَحَاكُ : نَزَّلَتْ فِي وَفْدِ بْنِ تَمِيمَ الَّذِي تَقْدَمَ ذِكْرَهُمْ فِي أَقْلَى
السُّورَةِ « أَسْتَهْزِءُوا بِفُقَرَاءِ الصَّحَابَةِ » ، مِثْلُ عَمَّارٍ وَخَبَابٍ وَابْنِ فُهْيَرَةَ وَبِلَالَ وَصُبَيْبَ وَسَلَمانَ
وَسَلَمَ مُؤْلِي أَبِي حَذِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ رِثَائَةَ حَاهِمَ ؛ فَزَلَّتْ فِي الدِّينِ آمَنُوا مِنْهُمْ .
وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ سَخْرِيَّةُ الْغَنِيِّ مِنَ الْفَقِيرِ . وَقَالَ ابْنُ زِيدٍ : لَا يَسْخُرُ مِنْ سَرَّ اللَّهِ عَلَيْهِ
ذُنُوبِهِ مِنْ كَشْفِهِ اللَّهِ ؛ فَلَعْلَ إِظْهَارُ ذُنُوبِهِ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ لَهُ فِي الْآخِرَةِ . وَقَيْلٌ : نَزَّلَتْ
فِي عَكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مُسْلِمًا ؛ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا رَأَوْهُ قَالُوا إِنَّ فَرْعَوْنَ
هَذِهِ الْأُمَّةِ . فَشَكَّا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزَلَّتْ . وَبِالْجَمْلَةِ فَيَنْبَغِي أَلَا يَحْتَرِئُ^(٢)
أَحَدٌ عَلَى الْإِسْتَهْزَاءِ بِمَنْ يَقْتَحِمُهُ إِذَا رَأَاهُ رَثَّ الْحَالَ أَوْ ذَا عَاهَةً فِي بَدْنِهِ أَوْ غَيْرَ لَبِيقَ
فِي مُحَادِثَتِهِ ؛ فَلَعْلَهُ أَخْلَصَ ضَمِيرًا وَأَنْقَ قَلْبًا مِنْ هُوَ عَلَى ضَدِّ صَفْتِهِ ؛ فَيَظْلِمُ نَفْسَهُ بِتَحْقِيرِ مِنْ
وَقْرَهِ اللَّهِ ، وَالْإِسْتَهْزَاءُ بِمَنْ عَظَمَهُ اللَّهُ . وَلَقَدْ يَلْعَبُ بِالسَّلْفِ إِفْرَاطًا تَوْقِيَّهُمْ وَتَصْقِنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ
أَنْ قَالَ عُمَرُ بْنُ شَرَحْبِيلٍ : لَوْ رَأَيْتَ رِجَالًا يَرْضِعُ عَتْرًا فَضَحِّكَتْ مِنْهُ لَخْشِيتُ أَصْنَعَ مِثْلَ الَّذِي
صَنَعَ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسَعُودٍ : الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْقَوْلِ ؛ لَوْ سَخَرْتُ مِنْ كَلْبٍ لَخْشِيتُ أَنْ
أُحْقَلَ كَلْبًا . وَ« قَوْمٌ » فِي الْلِّغَةِ لِلذِّكْرِيْنِ خَاصَّةً . قَالَ زَهْرَيٌّ :

وَمَا أَدْرِي وَسُوفَ إِخْالُ أَدْرِي * أَقْوَمَ آلَ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءَ

وَسُئُوا قَوْمًا لِأَنَّهُمْ يَقْوِمُونَ مَعَ دَاعِيِّهِمْ فِي الشَّدَائِدِ . وَقَيْلٌ : إِنَّهُ جَمْعٌ قَائِمٌ ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ^(٣)
جَمَاعَةٍ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَائِمِينَ . وَقَدْ يَدْخُلُ فِي الْقَوْمِ النِّسَاءُ مَجَازًا ، وَقَدْ مَضَى فِي « الْبَقَرَةَ » بِيَانِهِ .

(١) عَضْ فَلَانَ الثَّنِيِّ : لَزِيمَهُ وَاسْتَسِكَ بِهِ . (٢) رَجُلٌ لَبِيقٌ وَلَبِيقٌ : حَادِقٌ رَفِيقٌ بِكُلِّ عَمَلٍ .

(٣) راجع بـ ١ ص ٤٠٠ طبعة ثانية أو تالفة .

الثالثة — قوله تعالى : «**وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يُكَنَّ خَيْرًا مِنْهُنْ**» أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر . وقد قال الله تعالى : «**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ**» فشمل الجميع . قال المفسرون : نزلت في أمرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت خضرها بسبيبة — وهو ثوب أبيض ، ومثلها السب — وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجبرها ، فقالت عائشة لفصة رضي الله عنها : انظري ! ما تجبر خلفها كأنه لسان كلب . فهذه كانت سخريتهما . وقال أنس وابن زيد : نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، عَيْنَ أُمِّ سَلَمَةَ بِالْقِصْرِ . وقيل : نزلت في عائشة ، وأشارت بيدها إلى أم سلمة ، يابني الله إنها لقصيرة . وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حبي بن أخطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إِنَّ النِّسَاءَ يُعَذِّبُونِي ، ويقلن لي يا يهودية بنت يهوديين ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**هَلَا قَلْتَ إِنْ أَبِي هَارُونَ وَإِنْ عَمِّي مُوسَى وَإِنْ زَوْجِي مُحَمَّدٌ**» . فأنزل الله هذه الآية .

الرابعة — في صحيح الترمذى عن عائشة قالت : حَكَيَتِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا ، فقال : «**مَا يُسْرِنِي أَنِّي حَكَيْتَ رِجْلًا وَأَنِّي لَى كَذَّا وَكَذَا**» . قالت فقلت : يا رسول الله ، إن صفية امرأة — وقالت بيدها — هكذا ؛ يعني أنها قصيرة . فقال : «**لَقَدْ مَرَجَتْ بِكُلِّيَّةِ لُوْمَزْجَ بَعْدَ الْبَحْرِ لِمَزْجٍ**» . وفي البخارى عن عبد الله بن زمعة قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس . وقال : «**لَمْ يَضْرِبْ أَحَدُكُمْ أَمْرًا تَهْضِبُ الْفَحْلَ ثُمَّ لَعْلَهِ يَعْنِقُهَا**» . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْ صُورَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَلَكُمْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**» . وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعييب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفه ؛ فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفاً مذموماً لا تصح

(١) أول سورة نوح . (٢) حكى فلانا وحاكيه : فعلت مثل فعله . (٣) العرب تجعل

القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ على الحجاز والاتساع .

معه تلك الأفعال . ولعل من رأينا عليه تفريطاً أو معصيةً يعلم الله من قلبه وصفاً محموداً يغفر له بسببه . فالاعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية . ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالاً صالحة ، وعدم الاحتقار لسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة . بل تحقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيطرة . فتدبر هذا ، فإنه نظر دقيق ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : «**وَلَا تَنْمِزُوا أَنفُسَكُمْ**» فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «**وَلَا تَنْمِزُوا أَنفُسَكُمْ**» اللَّمْزُ: العَيْبُ ، وقد مضى في «براءة»^(١) عند قوله تعالى : «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ**» . وقال الطبرى : اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة . واللَّمْزُ لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية مثل قوله تعالى : «**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**» أى لا يقتل بعضكم بعضاً لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه يقتل أخيه قاتل نفسه . وكقوله تعالى : «**فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ**» يعني يسلم بعضكم على بعض . والمعنى : لا يعيّب بعضكم بعضاً . وقال ابن عباس ومجاهد وفتادة وسعيد بن جُبَير : لا يطعن بعضكم على بعض . وقال الضحاك : لا يلعن بعضكم بعضاً . وقرئ : «**وَلَا تَلْمِزُوا**» بالضم . وفي قوله «**أَنفُسَكُمْ**» تنبية على أن العاقل لا يعيّب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيّب غيره لأنّه كنفسه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : «المؤمنون بخساد واحد إن آشتكي عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسُّبُرِ واللُّحُمِ» . وقال بكر بن عبد الله المزنى : إذا أردت أن تنظر العيوب جمّة فتأمل عياباً ، فإنه إنما يعيّب الناس بفضل ما فيه من العيب . وقال صلى الله عليه وسلم : «يضر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع المذع في عينه» . وقيل : من سعادة المرأة أن يشتعل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

المرء إنْ كان عاقلاً وَرِعاً * أشغاله عن عيوبه وَرُوعه

كالسقيم المريض يشغله * عن وجع الناس كلهم وجده

(١) راجع بـ ٨ ص ١٦٦ (٢) آية ٢٩ سورة النساء . (٣) آية ٦١ سورة النور .

(٤) القذاة : هو ما يقع في العين والماه ، والتراب من تراب أو نبن أو وتحج أو غير ذلك .

وقال آخر:

لَا تكشِفُنَ مساوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا * فِيهِكَ اللَّهُ سَرَّا عَنْ مَساوِيْكَ
وَأَذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا * وَلَا تَعْبُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيهِ

الثانية — قوله تعالى : «**وَلَا تَنَازِعُوا بِالْأَلْقَابِ**» النَّبْزُ (بالتحريك) اللقب ؛ والجمع
الأنبار . والنَّبْزُ (بالتسكين) المصدر ؛ تقول : نَبْزَهُ يَنْبَزِزُ نَبْزًا ؛ أَيْ لَقْبَهُ . وفلان يَنْبَزِزُ
بالصَّبِيَانِ أَيْ يَلْقِبُهُمْ ؛ شُدَّدَ لِلْكَثْرَةِ . وِيَقَالُ النَّبْزُ وَالنَّبْزُ لَقْبُ السُّوءِ . وَتَنَازَعُوا بِالْأَلْقَابِ :
أَيْ لَقْبٍ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَفِي التَّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي جُبَيْرَةَ بْنِ الضَّحَّاكِ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ مَنْ
يَكُونُ لَهُ الْأَسْمَاءِ وَالشَّلَانَةُ فَيُدْعَى بِبَعْضِهَا فَعُسِيَ أَنْ يَكُونَ ؛ فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «**وَلَا تَنَازِعُوا**
بِالْأَلْقَابِ» . قَالَ : هَذَا حَدِيثُ حَسْنٍ . وَأَبُو جُبَيْرَةَ هَذَا هُوَ أَخُو ثَابِتَ بْنِ الضَّحَّاكِ بْنِ خَلِيفَةِ
الْأَنْصَارِيِّ . وَأَبُو زَيْدَ سَعِيدُ بْنِ الرَّبِيعِ صَاحِبِ الْمَرْقَوِيِّ نَفْقَةً . وَفِي مُصَنَّفِ أَبِي دَاؤِدَ عَنْهُ
قَالَ : فَيْنَا نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، فِي بَنِي سَلَمَةَ «**وَلَا تَنَازِعُوا بِالْأَلْقَابِ** يَلْئَسُ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ
الْإِيمَانِ» . قَالَ : قَدِيمٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ ؛
بِخَلْقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَا فَلَانَ فَيَقُولُونَ مَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّهُ يَنْصَبُ مِنْ
هَذَا الْاسْمِ ؛ فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «**وَلَا تَنَازِعُوا بِالْأَلْقَابِ**» . فَهَذَا قَوْلٌ . وَقَوْلُ ثَانٍ —
قَالَ الْحَسْنُ وَمَجَاهِدٌ : كَانَ الرَّجُلُ يُعَيِّرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ بِكُفْرِهِ يَا يَاهِي—وَدِيَ يَا نَصْرَانِي ؛ فَتَرَلتْ .
وَرَوَى عَنْ قَاتِدَةِ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَعِكْرَمَةَ . وَقَالَ قَاتِدَةُ : هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ يَا فَاسِقٍ يَا مَنَافِقٍ .
وَقَالَهُ مَجَاهِدٌ وَالْحَسْنُ أَيْضًا . «**يَلْئَسُ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ**» أَيْ يَلْئَسُ أَنْ يُسَمَّى الرَّجُلُ
كَافِرًا أَوْ زَانِيَا بَعْدَ إِسْلَامِهِ وَتَوبَتْهُ ؛ قَالَهُ أَبُنْ زَيْدٍ . وَقَيْلٌ : الْمَعْنَى أَنَّ لَقْبَ أَخَاهُ أَوْ سَيْفِ
مِنْهُ فَهُوَ فَاسِقٌ . وَفِي الصَّحِيفَةِ «مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرًا فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ
وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ» . فَمَنْ فَعَلَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ السُّخْرِيَّةِ وَالْهَمْزُ وَالنَّبْزُ فَذَلِكَ فَسُوقٌ ،
وَذَلِكَ لَا يَحُوزُ . وَقَدْ رَوَى أَبَا ذَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ السُّخْرِيَّةِ وَالْهَمْزُ وَالنَّبْزُ فَذَلِكَ فَسُوقٌ

(١) في أدب الدنيا والدين : « لا تلمس من مساوي ». (٢) أبو زيد من رجال سند هذا الحديث .

رجل فقال له أبو ذر : يا بن اليهودية ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما ترى هنا أحمر وأسود ماأنت بأفضل منه " يعني بالتفوي ، ونزلت « ولا تَنْبَزُوا بِالْأَلْقَابِ » . وقال ابن عباس : التنبذ بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب ، فنهى الله أن يُعِيرَ بها سلف ، يدل عليه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من عَيَّرَ مَنَا بِذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ كَانَ حَقًا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَلْتَلِيهِ بِهِ وَيَفْضِلَهُ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ " .

الثالثة — وقع من ذلك مستثنٍ من غالب عليه الاستعمال كالأعنجر والأحدب ولم يكن له فيه كسب يجده في نفسه منه عليه ، بخوزته الأمة واتفق على قوله أهل المسألة . قال ابن العربي^(١) : وقد ورد لَعْمَرُ الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جَرَزة ؛ لأنَّه حَفَّ « خرزة » فلقب بها . وكذلك قوله في محمد بن سليمان الحضرمي : مُطَيَّن ؛ لأنَّه وقع في طين . ونحو ذلك مما غالب على المتأخرین ، ولا أراه سائغاً في الدين . وقد كان موسى بن عُلَيْ بن رَبَاح المصري يقول : لا أجعل أحداً صغر آسم أبي [في حل] ، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين . والذى يضبط هـذا كـله ؛ أن كل ما يكرهه الإنسان إذا نوى به فلا يجوز لأجل الإذية . والله أعلم .

قلت — وعلى هذا المعنى ترجم البخاري رحمة الله في (كتاب الأدب) من الجامع الصحيح . في « باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شيئاً » . قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما يقول ذو الـيدـين " قال أبو عبد الله بن الرجل « قال : وقال النبي صلـى الله عليه وسلم : ما يقول ذو الـيدـين " قال أبو عبد الله بن خـوـيـزـ مـنـدـادـ : تضمنت الآية المـعـنـعـ من تـلـقـيـبـ الإـنـسـانـ بما يـكـرهـ ، ويـجـوزـ تـلـقـيـبـهـ بما يـحـبـ ؟ إلا تـرىـ أنـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ لـقـبـ عمرـ بالـفـارـوقـ ، وـأـبـاـ بـكـرـ بـالـصـدـيقـ ، وـعـثـمـانـ بـذـيـ الـنـورـينـ ، وـنـزـيـمةـ بـذـيـ الشـمـادـتـينـ ، وـأـبـاـ هـرـيـةـ بـذـيـ الشـمـالـينـ وـبـذـيـ الـيـدـينـ ؟ فـيـ أـشـيـاءـ ذـلـكـ .

(١) هو صالح بن محمد بن عمرو بن حبيب أبو علي البغدادي الحافظ . روى الخطيب البغدادي بسنده ... سمعت صالحًا — يعني جرزة — يقول : قدم علينا بعض الشيوخ من الشام ؛ فقرأت أنا عليه : حدتك جريراً بن عثمان قال : كان لأبي أمامة خرزة يرقى بها المريض ؛ فصحفت « الخرزة » . قلت : كان لأبي أمامة « جرزة » وإنما هي « خرزة » . راجع تاريخ بغداد في المجلد التاسع ص ٣٢٢ في ترجمة صالح هذا .

الرَّمَشِيرِيُّ : « روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ”من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه ” . ولهذا كانت التكينة من السنة والأدب الحسن ؛ قال عمر رضي الله عنه : أشيعوا الكني فانها منبهة ، ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق ، وعمر بالفاروق ، وحزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب . ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأئم كلها – من العرب والجم – تجروي في مخاطباتهم ومكتباتهم من غير تذكر » . قال الماوردي : فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم عددا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

• قلت – فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول : حميد الطويل ، وسلمان الأعمش ، وحميد الأعرج ، ومروان الأصغر ، فقال : إذا أردت صفتة ولم ترد عيوبه فلا بأس به . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سريح قال : رأيت الأصلع – يعني عمر – يقبل المحر . في رواية الأصيلع .

قوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَتَبِّعْ) أي عن هذه الألقاب الذي يتاذى بها السامعون .
(فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ
 بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجْسِسُوا وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِنْجِبْ أَهْدِكُمْ
 أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهُمُوهُ وَآتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى – قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ) قيل : إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبي صل

الله عليه وسلم كان إذا سافر ضم الرجل الحاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما ، فضم سلمان إلى رجلين ، فتقدما سلمان إلى المترى فغلبته عيناه فنام ولم يهُي لها شيئاً ، ففأراها فلم يجدها طعاماً وإداماً ، فقال لها : انطلق فاطلب لنا من النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طعاماً وإداماً ؛ فذهب فقال لها النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "اذهب إلى أسمة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطيك" ، وكان أسمة خازن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فذهب إليه ، فقال أسمة : ما عندى شيء ؛ فرجع إليهما فأخبرهما ، فقالا : قد كان عنده ولكن بخل . ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً ، فقالا : لو بعثنا سلمان إلى بئر شميحة لغار مأواها . ثم انطلقا يتبعسان هل عند أسمة شيء ؛ فرأاهما النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : "مالى أرى خضرة اللحم في أفواهكم؟" ، فقالا : يا نبى الله ، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحم ولا غيره . فقال : "ولكنكم ظلتما تأكلان لحم سلمان وأسمة" ، فنزلت «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبْنُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» ذكره الثعلبي . أى لا تظنوا بأهل الخير سوءاً إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير .

الثانية — ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : "إِنَّمَا وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحْسِسُوا وَلَا تَجْسِسُوا وَلَا تَنْجِشُوا وَلَا تَحَاسِدُوا وَلَا تَبَاغِضُوا وَلَا تَدَابِرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا" لفظ البخاري . قال علماً علينا : فالظن هنا وفي الآية هو التّهمة . ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبه ، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك . ودليل كون الظن هنا بمعنى التّهمة قوله تعالى : «وَلَا تَجْسِسُوا» وذلك أنه قد يقع له خاطر التّهمة ابتداءً ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصر ويسمع لتحقيق ما وقع له من تلك التّهمة . فنهى النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك . وإن شئت قلت : والذى يميز الظالمون الذى يجب اجتنابها عماسوها ، أن كل ما لم تعرف له أماره صحيحة وبسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب .

(١) بز قديمة بالمدينة غزيرة الماء .

وذلك إذا كان المظنون به من شوهد منه الستر والصلاح ، وأؤنسه منه الأمانة في الظاهر ، ففَلَئِنْ الفساد به والخيانة حرام ؛ بخلاف من آشتهـ الناس بتعاطـي الريب والجهاـرة بالخـبـاثـ . وعن النبيـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ «إـنـ اللـهـ حـرـمـ مـنـ الـمـسـلـمـ دـمـهـ وـعـرـضـهـ وـأـنـ يـطـنـ بـهـ ظـنـ السـوءـ» . وعن الحسن : كـماـ فـيـ زـمـنـ الـظـنـ بـالـنـاسـ فـيـ حـرـامـ ، وـأـنـ الـيـوـمـ فـيـ زـمـنـ اـعـمـلـ وـأـسـكـنـ وـطـنـ فـيـ النـاسـ مـاـ شـائـتـ .

الثالثة — للظن حالتان : حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ، كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المخالفات وأروش الجنایات . والحالة الثانية — أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهى عنه على ما قررناه آنفاً . وقد أنكرت جماعة من المبتدعة تبعد الله بالظن وجوائز العمل به ؛ تحكمـ في الدين ودعوى في المعقول . وليس في ذلك أصل يعول عليه ؛ فإن الباريـ تعالى لم يذم جميعـهـ ، وإنـماـ أورـدـ الذـمـ فـيـ بـعـضـهـ . وـرـبـماـ تـعـلـقـواـ بـحـدـيـثـ أـبـيـ هـرـيـةـ «إـيـاـكـ وـالـظـنـ» فإنـ هـذـاـ لـاـ حـجـةـ فـيـهـ ؛ لـأـنـ الـظـنـ فـيـ الشـرـيـعـةـ قـسـمـانـ : مـحـمـودـ وـمـذـمـومـ ؛ فـالـمـحـمـودـ مـنـهـ مـاـ سـلـمـ معـهـ دـيـنـ الـظـانـ وـالـمـظـنـونـ بـهـ عـنـ بـلوـغـهـ . وـالـمـذـمـومـ ضـدـهـ ؛ بـدـلـالـةـ قولـهـ تـعـالـىـ : «إـنـ بـعـضـ الـظـنـ إـثـمـ» ، وـقولـهـ : «لـوـلـاـ إـذـ سـمـعـتـمـوـهـ ظـنـ الـمـؤـمـنـوـنـ وـالـمـؤـمـنـاتـ يـأـنـفـسـهـمـ خـيـراـ» ، وـقولـهـ : «وـظـنـنـتـمـ ظـنـ السـوـءـ وـكـنـتـ قـوـمـاـ بـورـاـ» وـقالـ النبيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : «إـذـ كـانـ أحـدـكـمـ مـاـدـحـاـ أـخـاهـ فـلـيـقـلـ أـحـسـبـ كـذـاـ وـلـاـ أـزـكـيـ عـلـىـ اللـهـ أـحـدـاـ» . وـقـالـ : «إـذـ ظـنـنـتـ فـلـاـ تـحـقـقـ وـإـذـ حـسـدـتـ فـلـاـ تـبـغـ وـإـذـ تـطـيرـتـ فـأـمـضـ» نـحـرـجـهـ أـبـوـ دـاـوـدـ . وـأـكـثـرـ الـعـلـمـاءـ عـلـىـ أـنـ الـظـنـ الـقـبـيـعـ بـعـنـ ظـاهـرـهـ الـخـيـرـ لـاـ يـجـوزـ ، وـأـنـهـ لـاـ حـرـجـ فـيـ الـظـنـ الـقـبـيـعـ بـعـنـ ظـاهـرـهـ الـقـبـعـ ؛ قالـهـ المـهـدوـيـ» .

الرابعة — قولهـ تعالىـ : «(وـلـاـ تـحـسـسـوـاـ) وـقـرـأـ أـبـوـ رـجـاءـ وـالـحـسـنـ بـآخـتـلـافـ وـغـيرـهـمـاـ «وـلـاـ تـحـسـسـوـاـ» بـالـحـاءـ . وـاـخـتـلـفـ هـمـاـ بـعـنـيـ وـاحـدـ أوـ بـعـنـيـنـ ؛ فـقـالـ الـأـخـفـشـ : لـيـسـ

(١) آية ١٢ سورة النور .

(٢) آية ١٢ سورة الفتح .

تبعد إحداهم من الأخرى ؛ لأن التجسس البحث عما يُكْنِي عنك . والتجسس (بالحاء) طلب الأخبار والبحث عنها . وقيل : إن التجسس (بالحيم) هو البحث ؛ ومنه قيل : رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور . وبالحاء : هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه . وقول ثانٍ في الفرق : أنه بالحاء تطلب ل نفسه ، وبالحيم أن يكون رسولاً لغيره ؛ قاله ثعلب . والأول أعرف . جَسَستِ الأخبار وتجسستِها أى تفحصت عنها ؛ ومنه الجاسوس . ومعنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين ؛ أى لا يبحث أحدكم عن عيوب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله . وفي كتاب أبي داود عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك إن أتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدتهم " فقال أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم تفعه الله تعالى بها . وعن المقدام بن معيدي كَرِبَ عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأمير إذا أبتغى الريبة في الناس أفسدتهم " . وعن زيد بن وهب قال : أَتَى ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته نحرا . فقال عبد الله : إنما قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . وعن أبي بَرَزَةَ الأَسْلَمِيِّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معاشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تقتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم . فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته " . وقال عبد الرحمن ابن عوف : حَرَستَ ليلاً مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة إذ تبَيَّنَ لنا سراج في بيت بأبهِ مُجَافٍ على قوم لهم أصوات مرتقة ولَفَظٍ ؛ فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شُرُبٌ مَا ترى ! ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى : « ولا تجسسوا » وقد تجسستنا ؛ فانصرف عمر وتركهم . وقال أبو قلابة : حدثَ عمر ابن الخطاب أن أبا مُحْجَنَ التَّقِيَّ يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ؛ فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ؛ فقال أبو مُحْجَنَ : إن هذا لا يحل لك ! قد نهاك الله عن التجسس ؛ خرج عمر وتركه . وقال زيد بن أسلم : خرج عمر وعبد الرحمن يَعْسَان ،

إذ تبَيَّنَتْ لِهَا نَارٌ فَاسْتَأْذَنَاهَا فَفَتَحَ الْبَابُ ، فَإِذَا رَجُلٌ وَامْرَأَةٌ تَغْنَىٰ وَعَلَى يَدِ الرَّجُلِ قَدْحٌ ، فَقَالَ عُمَرٌ : وَأَنْتَ بِهَذَا يَا فَلَانُ ؟ فَقَالَ : وَأَنْتَ بِهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ عُمَرٌ : فَنَّ هَذِهِ مِنْكَ ؟ قَالَ امْرَأُقِيٰ ؛ قَالَ فَمَا فِي هَذَا الْقَدْحِ ؟ قَالَ مَا زُلَالٌ ، فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ : وَمَا الَّذِي تُغْنَيْنَ ؟ فَقَالَتْ :

تَطَاوِلُ هَذَا الْلَّيلَ وَأَسْوَدُ جَانِبِهِ وَأَرْقَى أَنْ لَا خَلِيلَ الْأَعِبَةِ

فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أَنِي أَرَاقِبُهُ لَزُعْمِرَعْ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبِهِ

وَلَكُنْ عَقْلِي وَالْحِيَاءَ يَكْفُفِنِي وَأَثْكَرُمْ بَعْلِي أَنْ تُنَالَ مَرَأِكِبُهُ

ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ : مَا بِهَذَا أَمِرْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا تَجْسِسُوا » .
قَالَ صَدِقَتْ .

قَلْتُ : لَا يَفْهَمُونَ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ غَيْرَ زَوْجِهِ الرَّجُلِ ، لَا إِنْ عُمَرَ لَا يَقْرَأُ عَلَى الرِّزْقِ ،
وَإِنَّمَا أَغْنَتَتْ بِهِنَّ الْأَبْيَاتِ تَذَكَّرًا لِزَوْجِهَا ، وَأَنَّهَا قَالَتْهَا فِي مَغِيَّبِهِ عَنْهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَالَ
عُمَرُ بْنُ دِينَارٍ : كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَهُ أُخْتٌ فَاشْتَكَتْ ، فَكَانَ يَعُودُهَا فَاتَّهَا فَدَفَنَهَا .
فَكَانَ هُوَ الَّذِي نَزَلَ فِي قَبْرِهَا ، فَسَقَطَ مِنْ كَيْسِهِ دِينَارٍ ، فَاسْتَعَانَ بِعَصْبَعِ أَهْلِهِ فَنَبَشُوا
قَبْرَهَا فَأَخْذَ الْكَيْسَ ثُمَّ قَالَ : لَا كَشْفَنَ حَتَّى أَنْظِرَ مَا آلَ حَالَ أَخْتِي إِلَيْهِ ، فَكَشَفَ عَنْهَا فَإِذَا
الْقَبْرُ مُشْتَعِلٌ نَارًا ، بَخَاءً إِلَى أُمِّهِ فَقَالَ : أَخْبِرِنِي مَا كَانَ عَمِلَ أَخْتِي ؟ فَقَالَتْ : قَدْ مَاتَتْ
أُخْتُكَ فَمَا سُؤَالُكَ عَنْ عَمِلِهَا ! فَلَمْ يَزُلْ بِهَا حَتَّى قَالَتْ لَهُ : كَانَ مِنْ عَمِلِهَا أَنَّهَا كَانَتْ تُؤْخِرُ
الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيْتِهَا ، وَكَانَ إِذَا نَامَ الْجَيْرَانُ قَامَتْ إِلَى بَيْوَتِهِمْ فَالْقَمَتْ أَذْنَاهَا أَبْوَاهَهُمْ ،
فَتَجَسَّسَ عَلَيْهِمْ وَتُخْرِجَ أَسْرَارَهُمْ ، فَقَالَ : بِهَذَا هَلَكَتْ !

الْخَامِسَةُ — قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » نَهَى عَنْ وَجْلِ عَنِ الْغِيَّبَةِ ،
وَهِيَ أَنْ تَذَكَّرَ الرَّجُلُ بِمَا فِيهِ ، فَإِنْ ذَكَرْتَهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ الْبَهَانَ . ثَبَّتْ مَعْنَاهُ فِي صَحِيفَةِ مُسْلِمٍ
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الْغِيَّبَةُ » ؟ قَالُوا :
اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « ذَكْرُكَ أَخْلَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » قَيْلَ : أَفْرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَنْتَ مَا أَقُولُ ؟

(١) راجع هذه الفضة في ج ٣ ص ١٠٨ من هذا الكتاب .

قال : «إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته وإن لم يكن فيه فقد بَهْتَه» . يقال : أغتابه آغتباباً إذا وقع فيه ، والاسم الغيبة ، وهي ذكر الغائب بظاهر الغائب . قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى : الغيبة والإلفك والبهتان . فاما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه ، وأما الإلفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه . وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه . وعن شعبة قال قال لى معاوية — يعني ابن قُرْة — : لو مر بك رجل أقطع ؛ فقلت هذا أقطع كان غيبة ، قال شعبة : فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق . وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزرا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشهد على نفسه بالزنى فرجحه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من أصحابه يقول أحدهما للآخر : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجم الكلب ؛ فسكت عنهم . ثم سار ساعة حتى مر بيضة حمار شائل برجله فقال : «أين فلان وفلان» ؟ فقلالاً : نحن ذا يا رسول الله ؟ قال «ازلا فكلا من بيضة هذا الحمار» . فقالاً : يا نبِيَّ آلة ومن ياكل من هذا ! قال : «فانا نلتا من عرض أخيكا أشد من الأكل منه والذي نفسى بيده إنه الآن لنفي أنهار الجنة ينغمس فيها» .

السادسة — قوله تعالى : (إِيَّاهُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَا كُلَّ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) مثل الله الغيبة باكل الميت ، لأن الميت لا يعلم باكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من أغتابه . وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقدر ، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس . وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية . قال الشاعر :

فإن أكلوا لحمي وفوت لحومهم * وإن هدموا مجدى بنىت لهم مجدًا^(٢)

(١) الظهر : ما غاب عنك .

(٢) البيت للقنع الكندي ، واسميه محمد بن عميرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما صام من ظل يا كل لحوم الناس " . فشبّه الوجعة في الناس بأكل لحومهم . فلن تنقص مسلماً أو ثم عرضه فهو كالآن كل لحمه حيًّا ، ومن أغتابه فهو كالآن كل لحمه ميتاً . وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما عُرْجَ بِ مِرْتَ بِ قَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحْاسٍ يَعْجِشُونَ وَجْهُهُمْ وَصَدْرُهُمْ فَقَلَتْ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبَرِيلٌ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَا كَلُونَ لَحْوَ النَّاسِ وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ " . وعن المستورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كسى ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيمة " . وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : " يا معاشر من آمن بـلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين " . وقوله للرجلين : " مالى أرى خُضرة اللحم في أفواهكما " . وقال أبو قلابة الرقاشي : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغبت أحداً مذ عرفت ما في الغيبة . وكان ميمون بن سبياه لا يعتاب أحداً ، ولا يدع أحداً يعتاب أحداً عنده ؛ ينهى فإن اتهى وإلا قام . وذكر الشعبي من حديث أبي هريرة قال : قام رجل من عند النبي صلى الله عليه وسلم فرأوا في قيامه عجزاً فقالوا : يا رسول الله ما أعجز فلاناً ! فقال : " أكلتم لحم أخيكم وأغتبتموه " . وعن سفيان الثوري قال : أدنى الغيبة أن تقول إن فلاناً جعد قطط^(١) ؛ إلا أنه يكره ذلك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إياكم وذكر الناس فإنه داء ، وعليكم بذلك إن الله فإنه شفاء ، وسمع على بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يعتاب آخر ، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رجناك ؛ قال : إيه فارجعوا . وقال رجل للحسن : بلغنى أذك تغتابني ! فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسنتي .

(١) المعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً ؛ فالمدح أن يكون معناه شديد الأسى (القرفة) والخلق . أو يكون بجعد الشعر ، وهو حنة السبط .
وأما الذم فهو القصير المرتّد الخلق . وقد يطلق على البخيل أيضاً ؛ يقال : رجل جعد البدين . والقطط : القصير الجعد من الشعر .

السابعة — ذهب قوم إلى أرب الغيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الخلق والحسب . وقالوا : ذلك فعل الله به . وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا : لا تكون الغيبة إلا في الخلق والخلق والحسب . والغيبة في الخلق أشد ؛ لأن من عيب صنعة فإنما عيب صانعها . وهذا كلام مرسود . أما الأول فيرده حديث عائشة حين قالت في صفيه : إنها امرأة فصيرة ؛ فقال لها النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : "لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته" . نحرجه أبو داود . وقال فيه الترمذى : حديث حسن صحيح ، وما كان في معناه حسب ما تقدم . وإن جماع العلماء قد يعا على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب . وأما الثاني فردود أيضا عند جميع العلماء ؛ لأن العلماء من أول المهر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتبعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين ؛ لأن عيب الدين أعظم العيب ؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنـه . وكفى رداً من قال هذا القول قوله عليه السلام : "إذا قلت في أخيك ما يكره فقد أغتبته ..." الحديث . فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد رد ما قال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم نصاً . وكفى بعموم قول النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : "دِمَاؤُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ حَرَامٌ" وذلك عام للدين والدنيـا . وقول النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَانَ عِنْدَهِ لَأْخِيهِ مَظْلَمَةٌ فِي عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ فَلِيَتَحَلَّهُ مِنْهُ" . فمع كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة — لا خلاف أن الغيبة من البكائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عن وجـلـ . وهـل يستحلـ المـغـتابـ ؟ اختلفـ فـيـهـ ؛ فـقاـلتـ فـرقـةـ : لـيسـ عـلـيـهـ استـحلـالـهـ ، وإنـماـ هيـ خطـيـئـةـ بيـنـهـ وـبـيـنـ رـبـهـ . وـاحـتـجـتـ بـأـنـهـ لمـ يـاخـذـ مـاـ مـالـهـ وـلـاـ أـصـابـ مـنـ بـدـنـهـ ماـ يـنـقـصـهـ ، فـلـيـسـ ذـلـكـ بـمـظـلـمـةـ يـسـتـحـلـهاـ مـنـهـ ، وإنـماـ المـظـلـمـةـ مـاـ يـكـونـ مـنـهـ الـبـدـلـ وـالـعـوـضـ فـيـ الـمـالـ وـالـبـدـنـ . وـقـاـلتـ فـرقـةـ : هـيـ مـظـلـمـةـ ، وـكـفـارـتـهاـ الـاسـتـغـفارـ لـصـاحـبـهاـ الـذـىـ اـغـتـابـهـ . وـاحـتـجـتـ بـحـدـيـثـ يـرـوـيـ عـنـ الـحـسـنـ قـالـ : كـفـارـةـ الـغـيـبـةـ أـنـ تـسـتـغـفـرـ لـمـنـ اـغـتـابـهـ . وـقـاـلتـ فـرقـةـ : هـيـ مـظـلـمـةـ وـعـلـيـهـ الـاسـتـحـلـالـ مـنـهـ . وـاحـتـجـتـ بـقـوـلـ النـبـيـ ﷺ صلى الله عليه وسلم : "مـنـ كـانـ

لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلل منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيادة على سيئاته“ .
 نرجحه البخاري من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه“ . وقد تقدم هذا المعنى في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى : «وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءً»^(١) . وقد روى من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت أمرأة : ما أطول ذيلها ! فقالت لها عائشة : لقد اغتبتها فامتحنها ، فدللت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظلمة يجب على المغتاب استحلالها . وأما قول من قال : إنما الغيبة في المال والبدن ، فقد أجمعوا العلماء على أن على القاذف للقذف مظلمة يأخذ بالحد حتى يقيمه عليه ، وذلك ليس في البدن ولا في المال . ففي ذلك دليل على أن الظلم في العرض والبدن والمال ، وقد قال الله تعالى في القاذف : «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ»^(٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من بهت مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله في طينة الخبال“^(٣) . وذلك كله في غير المال والبدن . وأما من قال : إنها مظلمة ، وكفارتها مظلمة أن يستغفر لصاحبها ، فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال كفارتها أن يستغفر لصاحبها ، لأن قوله مظلمة ثبت ظلمة المظلوم ، فإذا ثبتت الظلمة لم يز لها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له . وأما قول الحسن فليس بمحاجة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ”من كانت له عند أخيه مظلمة في عرض أو مال فليتحللها منه“ . وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله ، ورأى أنه لا يحل له ما حرم الله عليه ، منهم سعيد بن المسيب قال : لا أحلل من ظلمني . وقيل لأبن سيرين : يا أبا بكر ، هذا رجل

(١) راجع ج ٤ ص ٢٦٨ . (٢) آية ١٣ سورة النور .

(٣) الخبال : الفساد ، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول . و«طينة الخبال» : عصارة أهل النار .

سألَكَ أَن تُحَلِّهَ مِنْ مُظْلَمَةٍ هِيَ لَكَ عِنْدَهُ ؛ فَقَالَ : إِنِّي لَمْ أَحْرِمَهَا عَلَيْهِ فَأَحْلَلَهَا ، إِنَّ اللَّهَ حَرَمَ
الغَيْبَةَ عَلَيْهِ ، وَمَا كُنْتَ لِأَحْلِلَ مَا حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَبَدًا . وَخَبَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدُلُّ
عَلَى التَّعْلِيلِ ، وَهُوَ الْجَهَةُ وَالْمَبِينُ ، وَالتَّعْلِيلُ يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ وَهُوَ مِنْ وَجْهِ الْعَفْوِ ؛ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى :
« قَنَ عَفَّاً وَأَصْلَحَ فَاجْرَهُ عَلَى اللَّهِ » ^(١) .

التاسعة — ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، فإن في الخبر "من ألق جلباب الحياة فلا غيبة له". وقال صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ كَيْدُهِ النَّاسُ" . فالغيبة إذاً في المرء الذي يستر نفسه . وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليست لهم حرمة : صاحب الهوى، والفاشق المعلن، والإمام الجائز . وقال الحسن لما مات الحاج : اللَّهُمَّ أَنْتَ أَمْتَهَ فاقْطُعْ عَنِّي سَنَتِهِ — وفي رواية شَيْبَهُ — فَإِنَّهُ أَنَا أَخْيَفُشُ أَعْيَمِشُ، يَمْدُ بِيَدِ قَصِيرَةِ الْبَنَانِ، وَاللَّهُ مَا عَرَقَ فِيهَا غَبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَرْجِلُ جُنْحَتِهِ وَيَخْتَطِرُ فِي مِشِّيَّتِهِ، وَيَصْعَدُ الْمَبِيرَ فِيهِدِرَ حَتَّى تَفُوتَهُ الصَّلَاةُ . لَا مِنَ اللَّهِ يَتَّقِيُّ، وَلَا مِنَ النَّاسِ يَسْتَحْيِي ؛ فَوْقَهُ اللَّهُ وَتَحْتَهُ مائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُهُنَّ، لَا يَقُولُ لَهُ قَائِلٌ : الصَّلَاةُ أَيْمَانُ الرَّجُلِ . ثُمَّ يَقُولُ الحَسَنُ :
هَيَّاهَا ! حَالَ دُونَ ذَلِكِ السِّيفِ وَالسُّوْطِ . وَرَوَى الرَّبِيعُ بْنُ صَبِيعٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : لَيْسَ
لِأَهْلِ الْبَدْعِ غَيْبَةً . وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ لِلْقاضِي تَسْتَعِنُ بِهِ عَلَى أَخْذِ حَقِّكَ مِنْ ظُلْمِكَ فَتَقُولُ :
فَلَانَ ظَلْمِنِي أَوْ غَصْبِنِي أَوْ خَانِنِي أَوْ ضَرَبَنِي أَوْ قَذَفَنِي أَوْ أَسَاءَ إِلَيَّ ؟ لَيْسَ بِغَيْبَةٍ . وَعَلَمَاءُ
الْأَمَّةِ عَلَى ذَلِكَ مَجْمَعَةٍ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ : "لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقْالٌ" ^(٢) .
وَقَالَ : "مَطْلُلُ الْغَيْبِ ظَلْمٌ" . وَقَالَ : "لَمَّا وَاجَدَ يُحَلِّ عِرْضَهُ وَعَقُوبَتِهِ" . وَمِنْ ذَلِكَ
الْاسْتِفْنَاءُ ؛ كَقُولُ هَنْدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ أَبَا سَفِيَّانَ رَجُلٌ شَحِيقٌ لَا يَعْطِينِي
مَا يَكْفِيَنِي أَنَا وَوَلَدِي، فَأَخْذُ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "نَعَمْ نَخْذِي" .
فَذَكَرَهُ بِالشُّحْ وَالظُّلْمِ هَا وَلَوْلَهَا، وَلَمْ يَرَهَا مُغْتَابَةً؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَغْيِرْ عَلَيْهَا، بَلْ أَجَابَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ بِالْفُتْيَا لَهَا . وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي ذَكْرِهِ بِالسَّوْءِ فَائِدَةٌ؛ كَقُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(١) آية ٤٠ سورة الشورى . (٢) الْوَاجِدُ : الْقَادِرُ عَلَى قِضَاءِ دِينِهِ .

”أَمَا معاوِيَة فَصَعْلُوكَ لَا مَالَ لَهُ وَأَمَا أَبُو جَهْنَمَ فَلَا يَضُعُ عَصَاهُ عَنْ عَانِقَهِ“^(١) . فَهَذَا جَائزٌ ،
وَكَانَ مَقْصُودُهُ أَلَا تَغْرِي فَاطِمَةُ بْنَتُ قَيْسٍ بِهِمَا . قَالَ جَمِيعُهُ الْمَحَاسِبِيَّ رَحْمَهُ اللَّهُ .

العاشرة — قوله تعالى : **«مَيْتًا»** وَقَرْئٌ **«مَيْتَانًا»** وَهُوَ نَصْبٌ عَلَى الْحَالِ مِنَ الْحَلْمِ .
وَيَحْسُونَ أَنْ يَنْصُبُ عَلَى الْأَخْرَى ، وَلَا قَرَرُوهُمْ عَنْ وَجْلٍ بَأْنَ أَحَدُهُمْ لَا يَحْبُبُ أَكْلَ جِيفَةَ
أُخْيِهِ عَقْبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : **«فَكَرِهْتُمُوهُ»** . وَفِيهِ وَجْهَانٌ : أَحَدُهُمَا — فَكَرْهُتُمُ أَكْلَ
الْمَيْتَةَ فَكَذَلِكَ فَاكْرُهُوْا الْغِيَّبَةَ ؛ رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنْ مُجَاهِدٍ . الثَّانِي — فَكَرْهُتُمُ أَنْ يَنْتَبِكُ النَّاسُ
فَاكْرُهُوْا غَيَّبَةَ النَّاسِ . وَقَالَ الْفَرَاءُ : أَى فَقْدٍ كَرِهْتُمُوهُ فَلَا تَفْعَلُوهُ . وَقَيْلٌ : لِفَظِهِ خَبْرٌ وَمَعْنَاهُ
أَمْرٌ ؛ أَى اكْرُهُوهُ . **«وَأَنْتُوْا إِلَهُمْ عَطْفٌ عَلَيْهِ»** . وَقَيْلٌ : عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ : «اجْتَنِبُوا .
وَلَا تَجْسِسُوا» . **«إِنَّ اللَّهَ تَوَابٌ رَّحِيمٌ»** .

قوله تعالى : **يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أُتْقَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ**
خَمِيرٌ^(٢)

فِيهِ سِبْعَ مَسَائِلٍ :

الأولى — قوله تعالى : **«يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى»** يعني آدم وحواء .
وَنَزَّلَتِ الْآيَةُ فِي أَبِي هُنَدَ ؛ ذِكْرُهُ أَبُو دَاوُدُ فِي (الْمَرَاسِيلِ) ؛ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَمَّانَ وَكَثِيرُ بْنُ
عَيْدٍ قَالَا حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ حَدَّثَنِي الزَّهْرَى قَالَ : أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِنِي بَيْاضَةَ أَنْ يَزْوِجُوا أَبَا هُنَدَ أَمْرَأَ مِنْهُمْ ؛ فَقَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَزَّقْ

(١) هو ابن حذيفة بن عامر القرشي . وَقَوْلُهُ : «لَا يَضُعُ عَصَاهُ» أَى أَنَّهُ ضَرَابٌ لِلنَّاسِ . وَقَيْلٌ : هُوَ كَثِيرٌ
عَنْ كَثِيرٍ أَسْفَارَهُ ؛ لِأَنَّ الْمَسَافِرَ يَمْلِئُ عَصَاهُ فِي سَفَرِهِ . (٢) هُوَ أَحْتَ الصَّحَافِكَ بْنُ قَيْسٍ ، كَانَ مِنَ الْمَهَاجِرَاتِ
الْأُولَى ، وَكَانَ ذَاتُ بَحَالٍ وَعَقْلٍ وَكِيلٍ ، وَكَانَ عِنْدَ أَبِيهِ عُمَرَ بْنَ حَفْصٍ بْنَ الْمُغَfirَةِ فَطَلَقَهَا نَفْطَلَهَا مَعَاوِيَةُ وَأَبُو جَهْنَمَ ،
فَاسْتَشَارَتِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِمَا فَأَشَارَ عَلَيْهَا بِأَسَمَّةَ بْنَ زَيْدَ فَزَوْجَهُ .

بناتنا موالينا ؟ ! فأنزل الله عن وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا » الآية . قال الزهرى : نزلت في أبي هند خاصة . وقيل : إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شحاس . قوله في الرجل الذى لم يتفسح له : أَبْنَ فَلَانَة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ الْذَا كَرِ فَلَانَة ؟ » قال ثابت : أَنَا يَارَسُولُ اللَّهِ ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انْظُرْ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ » فنظر ؛ فقال : « مَا رَأَيْتَ ؟ » قال : رأَيْتُ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ وَأَحْمَرَ ؛ فقال : « فَإِنَّكَ لَا تَفْضِلُهُمْ إِلَّا بِالْتَّقْوَى » فنزلت في ثابت هذه الآية . ونزلت في الرجل الذى لم يتفسح له : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ » الآية . قال ابن عباس : لما كان يوم فتح مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلا حى علا على ظهر الكعبة فاذن ؛ فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص : الحمد لله الذى قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا . وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره . وقال أبو سفيان : إنما أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء ؛ فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فداءهم وسائلهم قالوا فاقروا ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . زجرهم عن التفاحر بالأنساب ، والتکاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء ؛ فإن المدار على التقوى . أى الجميع من آدم وحواء ، إنما الفضل بالتقوى . وفي الترمذى عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب بمكة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَبَاعِظُهُمْ بِآبَائِهِمْ . فَالنَّاسُ مِنْ رِجَالٍ : رَجُلٌ بِرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيقٌ هَيْنَ عَلَى اللَّهِ . وَالنَّاسُ بْنُو آدَمْ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ قال اللَّهُ تَعَالَى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرَفُوا إِنَّ أَنْكَرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ » . » .

خرجه من حديث عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف ، ضعفه يحيى بن معين وغيره . وقد خرج الطبرى في كتاب (آداب النقوص) وحدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا إسماعيل قال حدثنا سعيد البجيرى عن أبي نصرة قال : حدثنى أو حدثنا من

(١) آية ١١ سورة الجادلة .

شهد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : ”يأيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي“ ولا يعمى على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتفوي ألا هل بلغت؟ قالوا نعم ، قال – **لينبلغ الشاهد الغائب** . وفيه عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم“ . ولعله رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره :

أبوهُمْ آدُمُ والآمِ حَوَاءُ
النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّشِيلِ أَكْفَاءُ
نَفْسٌ كَنْفُسٌ وَأَرْوَاحٌ مَشَاكِلُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلَهُمْ حَسْبٌ
وَأَعْظَمُ خُلُقَتْ فِيهِمْ وَأَعْضَاءُ
مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ
يَفَانِرُونَ بِهِ فَالظَّلَّمُونَ وَالْمَاءُ
وَقَدْرُ كُلِّ امْرَئٍ مَا كَانَ يَحْسَنُهُ
وَضَدُّ كُلِّ امْرَئٍ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ
وَابْلَاهُلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

الثانية – بين الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأئم ، وكذلك ^(١) في أول سورة « النساء » . ولو شاء خلقه دونهما تكلفة لآدم ، أو دون ذكر تكلفة ليعيسى عليه السلام ، أو دون أنثى تكلفة حواء من إحدى الجهتين . وهذا البهتان في القدرة لم يرد به الوجود . وقد جاء أن آدم خلق الله منه حواء من ضلع انتزعها من أصلاعه ؛ فلعله هذا القسم ؛ قاله ابن العربي .

الثالثة – خلق الله الخلق بين الذكر والأئم أنسابا وأصحابا وقبائل وشعوب ، وخلق لهم منها التعارف ، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدرها وهو أعلم بها ؛ فصار كل أحد يحوز نسبة ؛ فإذا نفاه رجل عنه آستوجب الحد بقذفه ؛ مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه ،

(١) راجع ج ٥ ص ١ وما بعدها .

بقوله للعربي : يا عجمي ، وللجمجمي : يا عربي ؟ ونحو ذلك مما يقع به التفهيم .

الرابعة — ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربي في رحم الأم ، ويستمد من الدم الذي يكون فيه . واحتجوا بقوله تعالى :

(١) « أَلَمْ نَخْلُقُكُمْ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ ۖ بَقَعْدَاهُ فِي قَرَارِ مَكَبِّينَ » . وقوله تعالى : « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ » . وقوله : « أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّنْ مَنِي يَعْنِي » . فدل على أن الخلق من ماء واحد . والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة هذه الآية ؛ فإنها نص لا يتحمل التأويل . وقوله تعالى : « خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالثَّرَائِبِ » والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ؛ على ما يأتي بيانه . وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسلالة والنطفة ولم يضفيها إلى أحد الآباء دون الآخر . فدل على أن الماء والسلالة لها والنطفة منها بدلالة ما ذكرنا .

وبأن المرأة تمنى كاما يمنى الرجل ، وعن ذلك يكون الشبه ؛ حسب ما تقدم بيانه في آخر (٢) « الشورى » . وقد قال في قصة نوح « فَالْتَّقَ الْمَاءُ عَلَى أَمْرِي قَدْ قَدِيرٌ » وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض ؛ لأن الارتفاع لا يكون إلا من اثنين ، فلا ينكر أن يكون « ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ » . وقوله تعالى : « أَلَمْ نَخْلُقُكُمْ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ » ويريد ماءين .

والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : « (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَّقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) الشعوب رءوس القبائل ؛ مثل ربعة ومضر والأوس والخزرج ؛ واحدتها « شعب » بفتح الشين ؛ سموا به

(١) آية ٢٠ ، ٢١ سورة المرسلات .

(٢) آية ٨ سورة السجدة .

(٣) آية ٣٧ سورة القيامة .

(٤) آية ٦ ، ٧ سورة الطارق .

(٥) رابع ص ٥٥ من هذا الجزء .

(٦) آية ١٢ سورة القمر .

لتشعّبِهِمْ واجتماعِهِمْ كشعبِ أغصانِ الشجرةِ . والشَّعبُ من الأَضْدَادِ ؛ يقال شعبيه إذا
يجمعته؛ ومنه المشَّعبُ (بكسر الميم)، وهو الإشْفَى؛ لأنَّه يجمع به ويُشعَّب . قال :
^(١)
فَكَابٌ عَلَى حُرَّ الْجَبَينِ وَمُتِيقٌ * بِمَذْدِرِيَّةٍ كَأَنَّهُ ذَلِقٌ مِّشَعِبٌ
وَشَعَبَتِهِ إِذَا فَزَقَتْهُ ؛ وَمِنْهُ سَمِيتَ الْمَنِيَّةَ شُعُوبًا لِأَنَّهَا مُفَرَّقةٌ . فَامَّا الشَّعبُ (بالكسر)
فَهُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ ؛ وَالْجَمْعُ الشَّعَابُ . قال الجوهري : الشَّعبُ : مَا تَشَعَّبَ مِنْ
قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ؛ وَالْجَمْعُ الشَّعُوبُ . والشَّعُوْبِيَّةُ : فَرْقَةٌ لَا تَفْضُلُ الْعَرَبَ عَلَى الْعَجَمِ .
وَأَمَّا الَّذِي فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَجُلًا مِّنَ الشَّعُوبِ أَسْلَمَ ؛ فَإِنَّهُ يَعْنِي مِنَ الْعَجَمِ . والشَّعبُ : الْقَبِيلَةُ
الْعَظِيمَةُ ، وَهُوَ أَبُو الْقَبَائِلِ الَّذِي يَنْسَبُ إِلَيْهِ ؛ أَيْ يَجْمِعُهُمْ وَيَضْمِنُهُمْ . قال ابن عباس :
^(٢)
الشَّعُوبُ الْجَهُورُ ؛ مُثْلُ مَضْرُ . وَالْقَبَائِلُ الْأَنْخَادُ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ : الشَّعُوبُ الْبَعِيدُ مِنَ النَّسْبِ ؛
وَالْقَبَائِلُ دُونُ ذَلِقٍ . وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّ الشَّعُوبَ النَّسْبَ الْأَقْرَبَ . وَقَالَهُ قَاتِدٌ . ذَكَرَ
^(٣)
الْأُولَى عَنْهُ الْمَهْدَوِيَّ ، وَالثَّانِي الْمَأْوَرِدِيَّ . قال الشاعر :
رأيت سعوداً من شعوب كثيرة * فلم أر سعداً مثل سعيد بن مالك

وقال آخر :

قبائل من شعوب ليس فيهم * كريم قد يعذَّ ولا نجِيب
وقيل : إن الشعوب عَرَبُ الْيَمَنِ مِنْ خَطَّانٍ ، وَالْقَبَائِلُ مِنْ رَبِيعَةِ وَمَضْرُ وَسَائِرِ عَدَنَ .
وقيل : إن الشعوب بطون العجم ، وَالْقَبَائِلُ بَطُونُ الْعَرَبِ . وَقَالَ ابْنَ عَبَّاسَ فِي رَوْيَةٍ : إِنَّ
الشَّعُوبَ الْمَوَالِيَّ ، وَالْقَبَائِلُ الْعَرَبِ . قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : وَعَلَى هَذَا فَالشَّعُوبُ مِنْ لَا يَعْرِفُ لَهُ
^(٤)
أَصْلَ نَسْبٍ كَالْمَهْنَدِ وَالْجَبَلِ وَالْمَارَى ؛ وَالْقَبَائِلُ مِنْ الْعَرَبِ . الْمَأْوَرِدِيُّ : وَيَحْتَمِلُ أَنَّ

(١) قوله : « فَكَابٌ عَلَى حُرَّ الْجَبَينِ » أَيْ خَارٌ عَلَى وَجْهِهِ . وَ« الْمَذْدِرِيَّةُ » : الْقَرْنُ ؛ وَهِيَ الْمَدْرَى وَالْمَدْرَةُ ،
وَالْجَمْعُ مَدَارٌ وَمَدَارَى . وَ« ذَلِقٌ » ذَلِقٌ كُلُّ شَيْءٍ : حَدَّهُ . وَ« مِشَعِبٌ » مِثْقَبٌ .

(٢) ثَمَّا الْحَدِيثُ كَافٌ لِلْمَسَانِ : « فَكَانَتْ تَؤْخُذُ مِنْهُ الْبَزِيرَةُ ؛ فَأَمْرَ عَرَأً لَا تَؤْخُذُ مِنْهُ » .

(٣) هَذَا الْفَوْلُ مِنْسُوبٌ إِلَى ابْنِ جَبَرٍ . وَالْمَأْنُورُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ « الشَّعُوبَ الْجَمَاعَ » وَالْجَمَاعُ (بِضمِ الْجِمِيعِ
وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ) : مُجْمِعٌ أَصْلٌ كُلُّ شَيْءٍ . أَرَادَ : مِنْشَا النَّسْبِ وَأَصْلَ الْمَوْلَدِ . وَقَالَ : أَرَادَ بِهِ الْفَرْقُ الْمُخْلَفُ مِنَ النَّاسِ .

(٤) هُوَ طَرْقَةُ بْنِ الْعَيْدِ . (٥) الْجَبَلُ : الْأَمَّةُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ ؛ وَفِيهِ لِغَاتٌ كَثِيرَةٌ . رَاجِعٌ

ج ١٥ ص ٤٧ من هذا التفسير .

الشعوب هم المضانون إلى النواحي والشعوب ، والقبائل هم المشتكون في الأنساب . قال الشاعر :

وتفرقوا شعباً فكل جزيرة * فيما أمير المؤمنين ومنبر
وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه : الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ . وقيل : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة ؛ وقد نظمها بعض الأدباء فقال :

أقصد الشعب فهو أكثرَه * عدداً في الحواء ثم القبيلة
ثم تتلوها العمارة ثم الـ * بطن والفخذ بعدها والفصيلة
ثم من بعدها العشيرة لكن * هي في جنب ما ذكرناه قليلاً
وقال آخر :

قبيلة قبلها شعب وبعدهما * عمارة ثم بطنٌ تلوه نفذاً
وليس يُؤوي الفتى إلا فصيلته * ولا سداد لسمهم ماله قدّذ

السادسة — قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ » وقد تقدم في سورة « الزخرف » عند قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ » . وفي هذه الآية ما يدلّك على أن التقوى هي المراعي عند الله تعالى وعنده رسوله دون الحسب والنسب . وقرئ « أَنَّ » بالفتح . كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب ؟ قيل : لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وفي الترمذى عن سَمِّرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « الْحَسْبُ الْمَالُ وَالْكُمُ التَّقْوَى » . قال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وذلك يرجع إلى قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ » . وقد جاء منصوصاً عنه عليه السلام : « مَنْ أَحَبَ أَنْ يَكُونَ أَكْمَنَ النَّاسَ فَلِيَقُولْ إِنَّمَا أَنْتَ أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ » . والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً ، والانتصاف بما أمرك أن تصيف به ، والتزهّد بما هناك عنه . وقد مضى هذا في غير موضع . وفي الخبر من روایة أبي هريرة عن النبي صلی الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنِّي جَعَلْتُ نَسَباً وَجَعَلْتُ

(١) القندذ (جمع قذة) : رئيس اليمم . (٢) راجع ص ٩٣ من هذا الجزء .

نَسَبًا بِعْلَتُ أَكْرَمَكُمْ أَنْقَامُكُمْ وَأَبْيَمْ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا فَلَانَ بْنَ فَلَانَ وَأَنَا الْيَوْمُ أَرْفَعُ نَسَبِيْ وَأَضْعَفُ
أَنْسَابِكُمْ أَيْنَ الْمُتَقْوِنُ ” . وَرَوَى الطَّبَرِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ” إِنَّ أَوْلَائِيَ الْمُتَقْوِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ كَانَ نَسَبُكُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَسَبِ
يَأْنَى النَّاسِ بِالْأَعْمَالِ وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ يَا مَهْدَ فَأَقُولُ هَكُذا وَهَكُذا ” .
وَأَعْرَضَ فِي كُلِّ عِطْفَةٍ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرُو قَالَ : سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَهَارًا غَيْرَ سِرِّيْ قَوْلًا : ” إِنَّ آلَ أَبِي لِيَسْوَالِي بِأَوْلَائِيَ إِنَّمَا وَلَيْهِ
اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ” . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ : مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟
فَقَالَ : ” يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ” قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَالُكُ ؟ قَالَ :
فَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاهُمْ ” فَقَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَالُكُ ؟ فَقَالَ : ” عَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ ؟
خِيَارُهُمْ فِي الْبَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ إِذَا فَقَهُوا ” وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ :

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بِعَزَّ الْغَنِيِّ * وَالْعِزَّ كُلُّ الْعِزَّ لِلْتَّقِيِّ
مِنْ عَرَفَ اللَّهُ فَلَمْ تَغْنِهِ * مَعْرِفَةُ اللَّهِ فَذَاكُ الشَّقِيقُ

^(١) السابعة — ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ حَدَّثَنِي عَمْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الدَّمَّانِيْ
حَدَّثَنَا مُنْدَلُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ ثُورِ بْنِ يَزِيدٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ : تَزَوَّجُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ
آمِرَةً فَطُعِنَ عَلَيْهَا فِي حَسْبِهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنِّي لَمْ أَتَرْزُقْهَا لِحَسْبِهِ إِنَّمَا تَرْزُقْهَا لِدِينِهِ وَخُلُقِّهِ ،
فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَا يَضُرُّكُ أَلَا تَكُونُ مِنَ آلِ حَاجِبٍ بْنِ زُرَارَةَ ” . ثُمَّ قَالَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَاءَ بِالْإِسْلَامِ فَرْعَنَ بِالْخَسِيسَةِ وَأَتَمَّ بِهِ
النَّاقِصَةَ وَأَذْهَبَ بِهِ الْلَّوْمَ فَلَا لَوْمَ عَلَى مُسْلِمٍ إِنَّمَا اللَّوْمَ لَوْمُ الْبَاهِلِيَّةِ ” . وَقَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لَهُ وَأَعْلَمُكُمْ بِمَا أُنْتُ ” وَلِذَلِكَ كَانَ أَكْرَمَ
الْبَشَرَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ أَبْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذَا الَّذِي لَحِظَ مَالِكُ فِي الْكَفَاءَةِ فِي النِّكَاحِ . رَوَى
عَبْدُ اللَّهِ عَنْ مَالِكَ يَتَرَجَّجُ الْمَوْلَى الْعَرَبِيَّ ؛ وَاحْتَجَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وَقَالَ أَبْوَ حَنِيفَةَ وَالْشَّافِعِيُّ :

(١) فِي بَعْضِ النَّسْخِ : « عَمْرُو » .

يراعي الحسب والمال . وفي الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة — وكان
من شهد بدرًا مع النبي صلى الله عليه وسلم — تبني سالما وأنكحه هندا بنت أخيه الوليد بن عتبة
ابن ربيعة؛ وهو مولى لأمرأة من الأنصار . وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود .
قلت : وأخت عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت
تحت زيد بن حارثة . فدل على جواز نكاح المولى العربية ، وإنما تراعي الكفاءة في الدين .
والدليل عليه أيضاً ما روى سهل بن سعد في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم
مر عليه رجل فقال : "ما تقولون في هذا"؟ فقالوا : حري إن خطب أن ينكح ، وإن
شفع أن يُشفع وإن قال أن يُسمع . قال : ثم سكت ؛ فلرجل من فقراء المسلمين فقال :
"ما تقولون في هذا"؟ قالوا : حري إن خطب لا ينكح ، وإن شفع لا يُشفع ، وإن قال
لا يُسمع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا" .
وقال صلى الله عليه وسلم : "تنكح المرأة لما لها وبها ودينها — وفي رواية — ولحسها
فعليك بذات الدين تربت يداك" . وقد خطب سلمان إلى أبي بكر آبائه فأجابه ، وخطب
إلى عمر آبنته فالتوى عليه ، ثم سأله أن ينكحها فلم يفعل سلمان . وخطب بلال بنت البكير
فأبى إخوتها ، فقال بلال : يا رسول الله ، ماذا لقيت من بني البكير ! خطبت إليهم أختهم فمنعوني
وآذوني ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل بلال ؛ فبلغهم الخبر فأتوا أختهم
قالوا : ماذا لقينا من سببك ؟ فقالت أختهم : أمرى بسند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛
فزوجوها . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في أبي هند حين حجمه : "أنكحوه أبا هند
 وأنكحوه إليه" . وهو مولى بني بياضة . وروى الدارقطني من حديث الزهرى عن عروة
عن عائشة أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجاماً فحجم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال النبي
صلى الله عليه وسلم : "من سره أن ينظر إلى من صور الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند" .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنكحوه وأنكحوه إليه" . قال القشيري أبو نصر :

(1) وتسمى فاطمة .

وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبأ أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح، والتقوّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب؛ فإن كانا تقيين فحينئذ يقتدم النسيب منهما؛ كما يقتدم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويَا في التقوى.

قوله تعالى : **قَالَتِ الْأَعْرَابُ إِمَانًا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا
أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
لَا يَلْتَمُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**

نزلت في أعراب من بني أسد بن حزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جدبها وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر. وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتيتك بالانتقال والعيال ولم تقاتلك كما قاتلك بني فلان فأعطتنا من الصدقة، وجعلوا عيّنون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وقال ابن عباس : نزلت في أعراب أرادوا أن يتسموا باسم المجرة قبل أن يهاجروا ، فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين . وقال السدي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزينة وجهمية وأسلم وغفار والدبل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ؛ فلما استنفروا إلى المدينة تحالفوا ، فنزلت . وبالجملة فالآية خاصة لبعض الأعراب ؛ لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى . ومعنى «**وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**» أي استسلمنا خوف القتل والسيء ، وهذه صفة المنافقين ؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم ؛ وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب . وأما الإسلام فقبول ما أتي به النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر ، وذلك يتحقق الدم . («**وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**») يعني إن تخلصوا الإيان ((لا يلتمكم)) أي لا ينقصكم . ((**مِنْ أَعْمَالِكُمْ**
شَيْئًا)) لاته يلته ويلوته : تقصمه . وقرأ أبو عمرو «**لَا يَلْتَمُكُمْ**» بالهمزة ، من ألت يألت

الثنا ، وهو اختيار أبي حاتم ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » ^(١)

قال الشاعر :

أبلغْ بِنِ تَعْلِي عَنِ الْمُغْلَفَةِ * جَهْدُ الرِّسَالَةِ لَا أَنَا وَلَا كَذِبَا

وَاخْتَارُ الْأُولَى أَبُو عَيْدٍ . قَالَ رُؤْبَةُ :

وَلِسْلَةُ ذَاتِ نَدَى سَرِيْتُ * وَلَمْ يَلْتَنِي عَنْ سُرَاهَا لَيْتُ

أَى لَمْ يَعْنِي عَنْ سُرَاهَا مَانِعٌ وَكَذَلِكَ أَلَاهُ عَنْ وَجْهِهِ فَعَلَ وَأَفْعَلَ بَعْنَى . وَيَقَالُ

أَيْضًا : مَا أَلَاهُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْئًا ، أَى مَا نَفَصَهُ ؛ مُثْلُ أَلَاهِهِ ؛ قَالَهُ الْفَرَاءُ . وَأَنْشَدَ :

وَيَا كَلَنْ مَا أَعْنَى الْوَلِيُّ فَلَمْ يَلْتُ * كَانَ بِحَافَاتِ النَّهَاءِ الْمَزَارِعَا

قَوْلُهُ : فَلَمْ « يَلْتُ » أَى لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا . وَ« أَعْنَى » بَعْنَى أَبْنَتُ ؛ يَقَالُ :

مَا أَعْنَتِ الْأَرْضُ شَيْئًا ؛ أَى مَا أَبْنَتْ . وَ« الْوَلِيُّ » الْمَطْرُ بَعْدَ الْوَسِيْعِ ؛ سُمِّيَ وَلِيًّا لِأَنَّهُ يَلِي

الْوَسِيْعَ . وَلَمْ يَقُلْ : لَا يَأْتَاكُمْ ، لَأَنْ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى طَاعَةُ الرَّسُولِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ^(٢) قُلْ أَتُعْلَمُونَ اللَّهُ يَعْلَمُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَسْمَاءِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَالِمٌ ^(٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) أَى صَدَقُوا وَلَمْ يَشْكُوا وَحَقَّقُوا ذَلِكَ بِالْجَهَادِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحةِ . (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) فِي إِيمَانِهِمْ ؛ لَا مِنْ أَسْلَمَ خَوفَ الْفَتْلِ وَرَجَاءَ الْكَسْبِ . فَلَمَّا نَزَّلَتْ حَلْفُ الْأَعْرَابِ أَنْهُمْ مُؤْمِنُونَ فِي السَّرِّ

(١) آية ٢١ سورة الطور .

(٢) الْبَيْتُ لِعَدَى بْنِ زَيْدٍ .

(٣) الْوَسِيْعُ : مَطْرُ الرَّبِيعِ الْأَوَّلِ ؛ سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ يَسِّمُ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ .

والعلانية وكذبوا ، فنزلت . ((قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهَ يَدِينُكُمْ)) الذي أتم عليه . ((وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) .

قوله تعالى : يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ
بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمْ لِلَّا يَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٧) إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِصِيرَتِمَا تَعْمَلُونَ (٢٨)

قوله تعالى : ((يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا)) إشارة إلى قوله : جئناك بالأنفال والعبيال .
و « أَنْ » في موضع نصب على تقدير لأن اسلموا . ((قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ)) أى
بإسلامكم . ((بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمْ لِلَّا يَمْنِ)) « أَنْ » موضع نصب ، تقديره بأن .
وقيل : لأن . وفي مصحف عبد الله « إذ هداكم » . ((إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)) أنكم مؤمنين .
وقرأ عاصم « إن هداكم » بالكسر ؛ وفيه بعد ؛ لقوله « إن كنتم صادقين » . ولا يقال :
يم ين عليكم أن يهديكم إن صدقتم . والقراءة الظاهرة « أَنْ هداكم » . وهذا لا يدل على أنهم
كانوا مؤمنين ؛ لأن تقدير الكلام : إن آمنت بذلك منة الله عليكم . ((إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِصِيرَتِمَا تَعْمَلُونَ)) فرأى ابن كثير وابن حميم و أبو عمرو بالباء على
الخبر ؛ ردًا على قوله : « قالت الأعراب » . الباقيون بالفاء على الخطاب .

* * *

تم بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر ، وأقوله :
” سورة (ق) ”

+

+

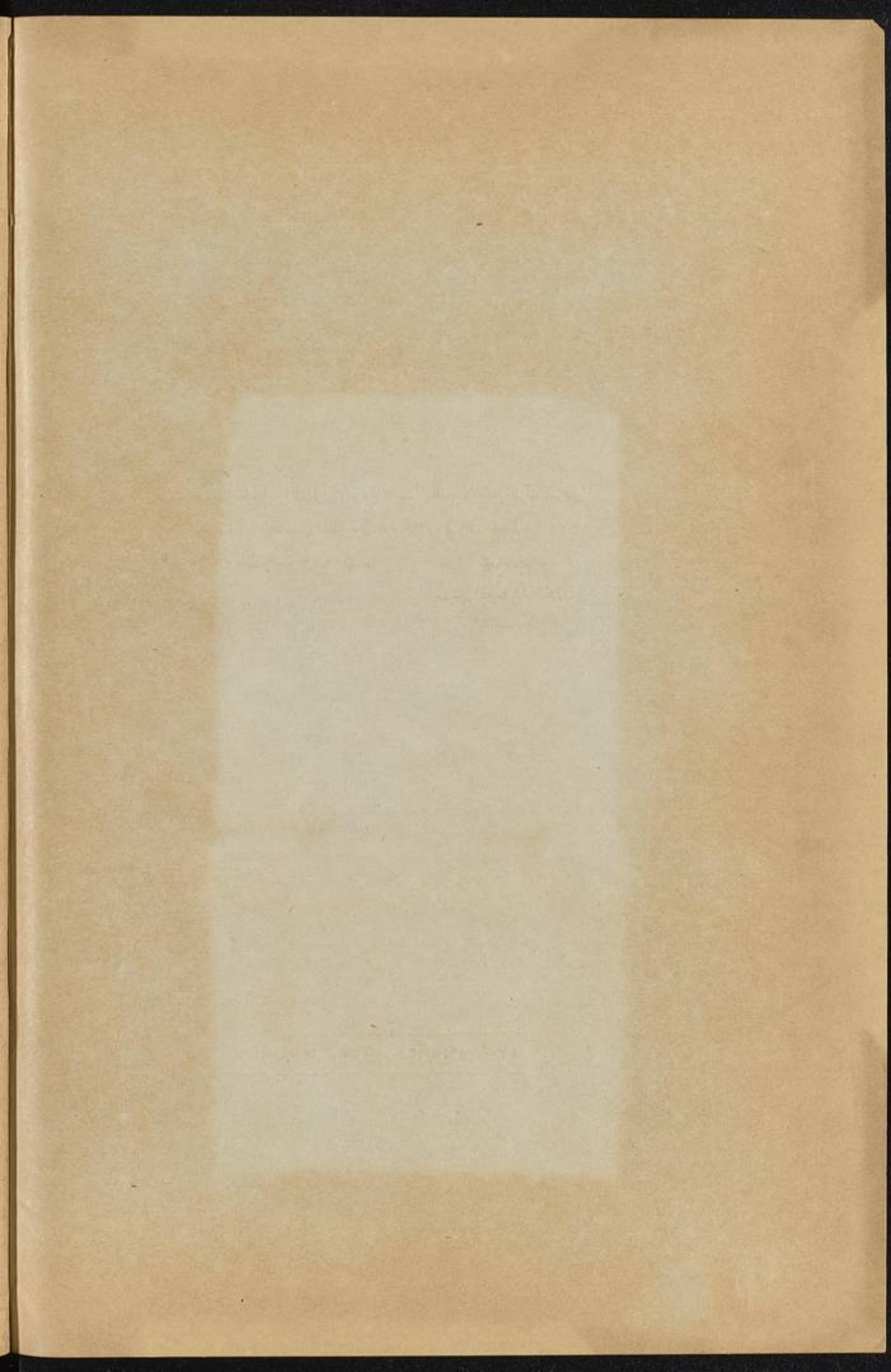
كَمْلَ طبع الجزء السادس عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"

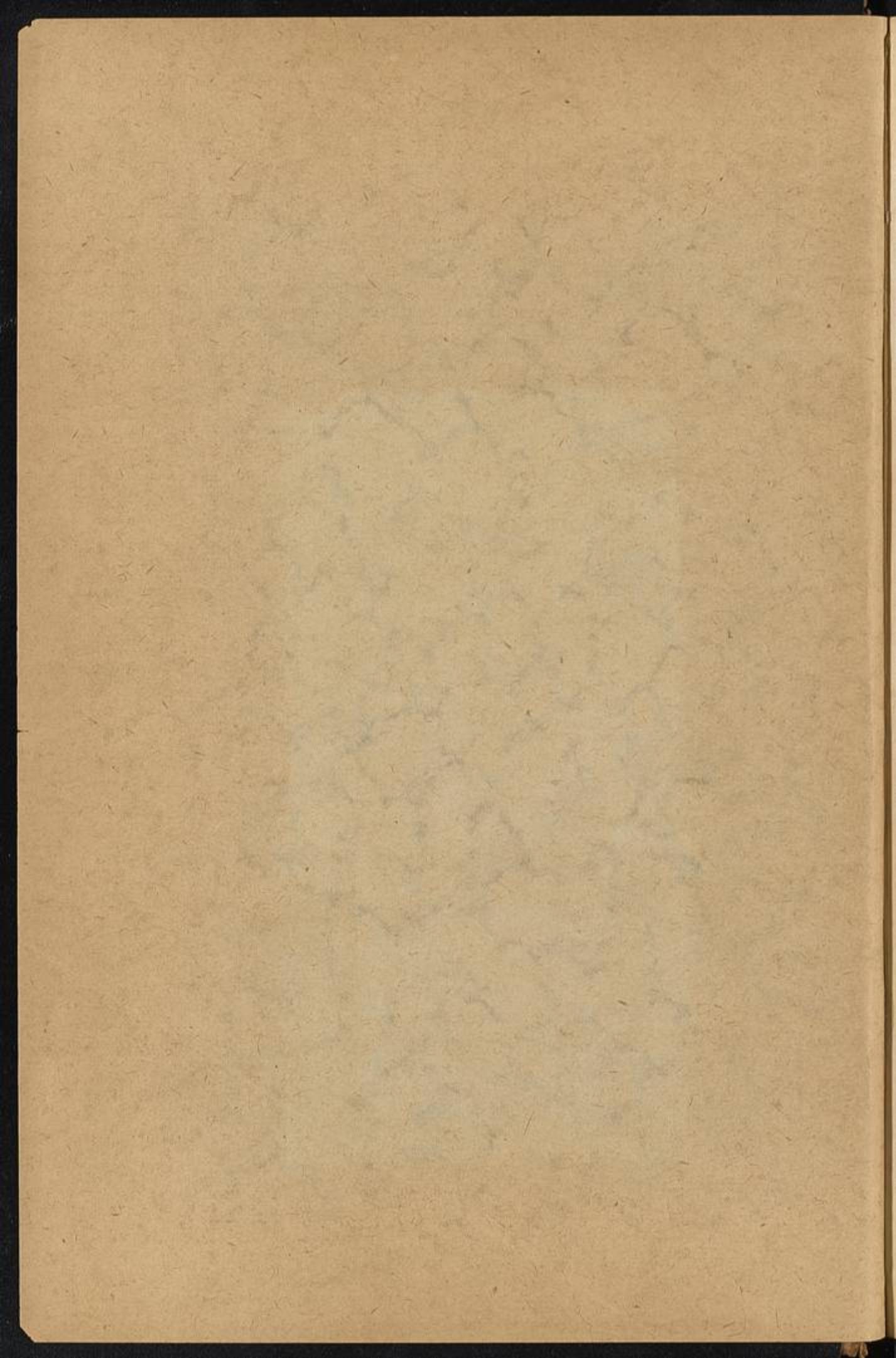
بطبعية دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء ١٥ ذوق القعدة سنة ١٣٦٦

(٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ م)

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤٣/١٩٤٥/٣٠٠)







COLUMBIA UNIVERSITY



0026814935

DATE DUE

DATE DUE

GL JUN 12 1980

GL JUL 11 1980

NOV 25 1980

09761080

MAIN ENTRY

INSERT

BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE.
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD

PRINTED IN U.S.A.

89761080

JUN 1 8 1963



K34
5